شعر العبيد فى الجاهلية
وصدر الإسلام

دكتور
محمد أبو المجد
كلية الدراسات العربية والإسلامية
جامعة القاهرة - فرع الفيوم

الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

ملتزم الطبع دار الشروق بالفيوم

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٥ / ٣٢٤٥

شعر العبيد فى الجاهلية
وصـــدر الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا
لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ
بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

إهــــداء

إلى العينين اللتين لم تعرفا طعم النوم ولم تتذوقا لذة الكرى:

أبى وأمى.

إلى القلب الكبير الذى شملنى بعطاء لا حدود له:

أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور/ سعيد منصور.

إلى صاحبى الشعراء الصعاليك والشعراء السود:

الأستاذين الجليلين: يوسف خليف وعبده بدوى.

إلى الشعراء العبيد الذين عشت معهم وعاشوا معى طيلة أعوام ثلاثة.

إلى كل من مد لى يد عون أو كلمة حب أو دعوة خالصة صادقة.

أهدى هذا البحث.

شكر وتقدير

إلى الأستاذ الجليل والعالم الإنسان:
الأستاذ الدكتور سعيد حسين منصور
الذى تفضل بالإشراف على هذه الرسالة
وأحاطنى بالتوجيه والإرشاد والرعاية والعناية منذ أن كانت فكرة
وأفسح لى من وقته وصدره وعلمه حتى اكتملت فى هذه الصفحات
فدينى له أكبر من أن تفيه كلمة شكر. وأعظم وأجل من كل ثناء.
جزاه الله عنى وعن كل من انتفع به كفاء ما أعطى
وأمد فى عمره، وبارك فى علمه ونفع به أمته إلى يوم الدين.
كما أتوجه بالشكر إلى الأستاذين الجليلين:
الأستاذ الدكتور أحمد محمد النجار
والأستاذ الدكتور فوزى سعد عيسى
اللذين تفضلا بالمناقشة.
وجشما أنفسهما عناء المتابعة والتقويم
على كثرة ما وراءهما من المهام العظيمة والأمور الجسام. -

مقدمة الطبعة الثانية

(ربِّ أنعمت فزد)

هذه هي الطبعة الثانية من كتابنا « شعر العبيد في الجاهلية وصدر الإسلام » . نقدمها بعد عام واحد من صدور الطبعة الأولى ، داعين الله عز وجل أن ينفع بها ، وأن يعفو عما قد يكون فيها - وفي سابقتها - من زلل أو نقص .

وقد صححت - قدر المستطاع - ما عَنَّ لي من خطأ لم يسعف الوقت لتلافيه في الطبعة السابقة ، وأكثره ناشيء عن سهو ؛ من الناسخ مرة ، ومنا - عند المراجعة - مرة أخرى . وقومت عبارات وجملاً كانت في حاجة إلى تقويم . وأضفت جداول ومراجع سقطت - عن غير قصد - ونحن في عجلة من أمرنا . وأشرت في مواضع - لم أشر إليها من قبل نسياناً وغفلة - إلى المصادر التي انتفعت بها ، وإلى مظان وجودها . فهي طبعة منقحة ، زيد فيها غير قليل ، خاصة فيما يتعلق «بالهوامش» ؛ توثيقاً وإحالة ، وإيضاحاً لبعض ما هو في حاجة إلى إيضاح أو تفسير ، والله من وراء القصد ، وهو الموفق والمستعان .

د. محمد أبو المجد

مقدمة

١ - الشعراء العبيد:

من هو الشاعر العبد؟

تأتى أهمية الإجابة عن هذا السؤال فى هذا المكان من البحث لحصر الشعراء العبيد وإبعاد من يمكن إبعاده ممن قد يظن للوهلة الأولى أنه عبد وهو فى الحقيقة ليس من العبيد.

ولاتعنى إجابتنا عن هذا السؤال أننا نحاول وضع تعريف جامع كما يقول المناطقة وإنما نستعرض فهمنا نحن للشاعر العبد لنوضح الأساس الذى انطلقنا منه فى هذه الدراسة. فالشاعر العبد هو فى تصورنا الذي قضى شطراً كبيراً من حياته فى الرق بحيث عملت هذه الفترة على التأثير فيه وفى شعره. وعلى هذا الأساس يدخل فى إطار البحث:

- الشاعر العبد القن: الذى ولد فى الرق وعاش فيه حتى مات كسحيم عبد بنى الحسحاس. أو نال حريته فى فترة ما بحيث تركت الفترة الأولى بصمات واضحة فيه كمحرز مولى أبى هريرة.
- الشاعر العبد المملوك: الذى ولد حراً ثم استرق ومات على الرق، أو عاد مرة أخرى إلى الحرية بعد فترة طويلة فى الرق كالشنفرى.
- الشاعر الذى ولد من أب وأم مستعبدة، إذا لم يعترف به أبوه، سواء أكان من الأغربة كالسليك بن السلكة وعنترة بن شداد - لم يعترف به أبوه، إلا بعد فترة طويلة فى الرق - أو من المولدين كعامر بن فهيرة.

ويخرج عن دائرة البحث:

* الشاعر الأسير الذى لم يستعبد، أو الذى وقع فى الأسر فترة ثم تخلص منه.
* بعض الأغربة الذين ثبت اعتراف آبائهم بهم منذ ولادتهم ولم تستعبدهم قبائلهم.
* المولدون أبناء السبايا من الأحرار إذا لم يوجد ما يثبت استعباد أهلهم لهم بنفيهم عنهم أو بطريق أخرى غير التوليد، فقد كان العرب فى الجاهلية يفخرون بأبنائهم من السبايا[١]. وكان المسلمون فى صدر الإسلام ينظرون إلى التوليد على أنه باب من أبواب التحرير وليس من أبواب الرق.
* بعض الموالى ممن لم يكن ولاؤهم على العتق كمولى الجوار ومولى الحلف، أو ممن كان ولاؤهم على العتق شريطة ألا يكونوا هم أنفسهم المعتقين - أبناء العتقاء وذرياتهم.

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى د. أحمد محمد الحوفى (ط٣ - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ) ص ٤٨٤ ومابعدها.

وبناء على ماتقدم نستبعد أمثال هؤلاء الشعراء ممن وقعوا فى الأسر:[١]

١- ربيعة بن مقروم: أسر واستيق ماله. فتخلصه مسعود بن سالم بن أبى سلمى فمدحه بقصيدة ذكرها صاحب المفضليات.[٢]

٢- الأعشى: أسره رجل من كلب: «فكتمه نفسه وحبسه، واجتمع عند الكلبى شرب فيهم شريح بن عمرو الكلبى فعرف الأعشى فقال: من هذا؟ فقال: خشخاش التقطته. قال ما ترجو به ولا فداء له؟ خل عنه. فخلى عنه، فاطعمه شريح وسقاه».[٣]

٣- بشر بن أبى خازم: أسرته عبد القيس ثم منت عليه بعد دهر[٤]، أغلب الظن أنه كان دهراً قصيراً وأنه لم يستعبد فيه.

٤- عمرو بن كلثوم: أسره يزيد بن عمرو الحنفى ثم من عليه. وربما مات فى أسره.[٥]

٥- مهلهل: أسر مرتين، تخلص فى المرة الأولى بحيلة، ومات فى الثانية بعد فترة وجيزة.[٦]

٦- ابن قسوة: وكان هجاء خبيثاً، أسره رجل من بنى تميم قومه فأتاه عتبه فاشتراه منه.[٧]

٧- قيس بن العيزارة الهذلى: أسرته فهم وأخذ تأبط شراً سلاحه. ثم أفلت منه.[٨]

٨- خبيب بن عدى رضى الله عنه: من الأوس، صحابى جليل، وممن شعره أسر يوم الرجيع هو وزيد بن الدثنة: «فانطلق المشركون بهما إلى مكة فباعوهما». وقتل خباب فى أسره قتله أسروه وكانوا قد اشتروه لثأر لهم عنده وقال خباب فى أسره شيئته المشهورة ومنها:

«ولست أبالى حين أقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى».[٩]

---

(١) ذكرنا هؤلاء الأسرى ونحن نعلم أنهم بعيدون تماما عن العبودية لأننا وجدنا من المحدثين من يعتبر الأسرى عبيدا ويعتبر نفسه قد توصل إلى نظرية مؤداها أن يد الأسر هى فى الوقت نفسه يد عبودية واسترقاق. وبناء على هذا الفهم فهؤلاء الأسرى - وإن لم يذكرهم - عبيد عنده، ونعنى به الأستاذ مصطفى الحداوى فى كتابه:

الرق فى التاريخ وفى الإسلام - جـ١ (الشركة المصرية السورية المتحدة - الإسكندرية - سنة ١٩٦٣) ص ٣١، ص٦٨.

(٢) المفضليات - ت : أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون (ط٧ - دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٨٣) ص ٣١٣ وخبره متصل فى: الشعر والشعراء لابن قتيبة - ت - أحمد محمد شاكر (ط٣ - دار التراث العربى - القاهرة سنة ١٩٧٧) جـ١ ص ٣٢٦ والأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٢ ص٩٨.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة - ت . أحمد محمد شاكر (ط٣ - دار التراث العربى - القاهرة سنة ١٩٧٧) جـ١ ص ٢٦٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٧، والإصابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد) جـ٣ ص٥٣٠.

(٥) الشعر والشعراء جـ١ ص ٣٨٧، ذكر ابن قتيبة أنه مات فى أسره. وخالفه المحقق فى ذلك (هـ ٤ ص ٣٨٧).

(٦) أيام العرب فى الجاهلية ص ١٦٣، ص ١٦٤.

(٧) الشعر والشعراء - جـ١ ص ٣٧٦.

(٨) معجم الشعراء للمرزبانى - ت. عبدالستار أحمد فراج (دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) ص ٢٠٢، ص٢٠٣.

(٩) الاستيعاب - لابن عبدالبر - جـ١، ص٤٣١.

٩- حسينة: أسرت يوم العذاب فى الجاهلية، أسرها عمرو بن الحرث بن أقيش العكلى ففاداها أخوها أبجر بمائة من الإبل وخمسة أفراس.[١]

ونستبعد أيضاً أمثال هؤلاء الشعراء من أبناء السبايا:

١- أبوسفيان بن الحرث بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف،أمه سمية وأم أبيه سمراء وكانتا سبيتين[٢] وفى هجائه يقول حسان بن ثابت:

«وإن سنام المجد فى آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد».

وهو ممن كان يهجو النبى صلى الله عليه وسلم بمكة من قريش.[٣]

٢- الجحاف بن حكيم: من بنى سليم، أمه جارية وكان سيداً فى قومه[٤]

٣- عنترة بن عروس الثقفى: وكان مولداً، ولد فى بلاد أزد شنوءة، وله شعر فى هجاء يزيد بن ضبة الثقفى[٥]

٤- عمرو بن شجيرة العجلى: وشجيرة أمه، وكانت سبية، وهو عمرو بن عبدالله بن حذافة ابن عمرو بن مالك بن ربيعة بن عجل. جاهلى.[٦]

٥- ابن الغزيرة النهشلى، والغزيرة أمه، ويقال جدته، وهى سبية من بنى تغلب أما هو فمخضرم بقى إلى أيام الحجاج واسمه كثير بن عبدالله بن مالك بن هبيرة بن صخر بن نهشل ابن دارم التميمى[٧]

ومن الأغربة:

خفاف بن ندبة. قال أبوعبيدة: « أغار الحرث بن الشريد » يعنى جد خفاف هذا «على بنى الحرث بن كعب فسبى ندبة فوهبها لابنه عمير فولدت له خفافاً فانتسب إليها». وكان خفاف سيداً فى قومه، شهد الفتح ومعه لواء بنى سليم وكان يكنى بأبى خراشة وله يقول العباس بن مرداس السلمى فى أبيات:

«أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومى لم تأكلهم الضبع».[٨]

ومن الموالى:

١- عبدالرحمن بن حسل الجمحى مولاهم، قال ابن الكلبى: كان أبوه من أهل اليمن فسقط إلـى

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١.
(٣) الاستيعاب جـ١ ص ٣٣٥.
(٤) الإصابة جـ١ ص ٢٦٦.
(٥) معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٥٢.
(٦) المصدر نفسه ص ٤٠.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٤٠، ٢٤١.
(٨) الإصابة جـ١ ص ٤٤١.

مكة فولد له بها كلدة وعبدالرحمن وكانا ملازمين لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي. وذكر ابن سعد عن الواقدي أن عبدالرحمن كان أسود، وكان شاعراً هجاء.(١)

٢- البهى بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعتق أبوه، فهو مولى عتاقة.(٢)

ونستبعد أيضاً هؤلاء الشعراء ممن لم نستطع معرفة الزمن الذي عاشوا فيه، فذكرهم على الاحتمال، ودفعهم أولى خاصة أن شعرهم قليل، وفي غيرهم غناء أي غناء في استنباط خصائص شعر العبيد والوقوف على تأثير العبودية فيه:

١- علي بن يقطين: مولى بني أسد، له بيتان في معجم الشعراء ظاهر عليهما التوليد.(٣)

٢- مورق العبد: ذكر له الجاحظ ستة أبيات في البيان والتبيين.(٤)

٣- وزر العبد: وله بيتان يعبران عن شدة إحساسه بالزراية والنقص يقول فيهما:

«لعمرو أبي المملوك ما عاش إنه ... وإن أعجبته نفسه لذليل

يرى الناس أنصاراً عليه وماله ... من الناس إلا ناصرون قليل».(٥)

٤- جندل بن صخر: وكان عبداً مملوكاً، ومما قاله:

«وما فك رقي ذات دل خبرنج ... ولا شاق مالي صدقة وعقول

ولكن نماني كل أبيض خضرم ... فأصبحت أدري اليوم كيف أقول».(٦)

ونستبعد أيضاً الشعر الذي وجدناه منسوباً إلى بعض العبيد دون تحديد(٧)، لأننا لم نقف على زمانه، فهو يفيد في دراسة الظاهرة (أثر العبودية في شعر العبيد) ولكنه قد يضلل في بحث حددناه بحد زمني كهذا البحث.

ونستطيع الآن بعد هذه الجولة التي عرفنا فيها الشاعر العبد إيجاباً وسلباً، واستبعدنا فيها كثيراً من الشعراء ممن لم ينطبق عليهم فهمنا للشاعر العبد، نستطيع أن نحصر الشعراء العبيد ممن وصلنا بعض أخبارهم وأشعارهم. ونسجل أولاً: بعض الملحوظات:

١- ليس كل الشعراء السود عبيداً، فمن العرب بطون سوداء، وكان خفاف بن ندبة من الأغربة ولم يكن عبداً.

---

(١) الإصابة جـ٢ ص ٣٨٧، ص٣٨٨، ولم يذكره الدكتور عبده بدوي في كتابه: "الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي".

(٢) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري - ت. محمد أبوالفضل إبراهيم (ط٤ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٩) جـ٣ ص١٧٠.

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ص ١٤٤.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ت. عبدالسلام محمد هارون (ط٤ - مكتبة الخانجي بمصر - بدون تاريخ) جـ٢ص١٥٢.

(٥) المصدر نفسه جـ٣ ص ١٤١.

(٦) المصدر نفسه ص ٢١٣، ٢١٤.

(٧) المصدر نفسه جـ١ ص ٢٨٨، جـ٢ ص ٢٨٥، جـ٣ ص ٢٥٣ و ص ٣٤٤. الأمالي لأبي علي القالي (دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) جـ٣ ص ٤٧.

٢- من العبيد شعراء بيض كالشنفرى.

٣- ليس كل الشعراء الصعاليك عبيداً، فالعبيد طائفة من طوائف الصعاليك، والصعلكة اتجاه من الاتجاهات المميزة لبعض الشعراء العبيد، ولم نجد من الشعراء العبيد من مارس الصعلكة إلا السليك بن السلكة والشنفرى وربما كان هناك غيرهما ولكن لم يصلنا شيء عنهم.

٤- الشعراء العبيد فى الجاهلية وصدر الإسلام قليلون، وشعرهم الذى وصلنا قليل أيضاً لكنه على كل حال يكفى لقيام هذه الدراسة، بل يتسع لغيرها من الدراسات.

وهؤلاء الشعراء هم:

- عنترة بن شداد.
- سحيم عبد بنى الحسحاس.
- الشنفرى.
- السليك بن السلكة.

وقد وصلنا شعر قليل جداً لاثنين آخرين من العبيد هما:

- عامر بن فهيرة ومحرر بن جعفر مولى أبى هريرة.

ولم يصلنا من شعر الإماء سوى قصيدة فى الرثاء للسلكة أم السليك وقيل لأم تأبط شراً.

وبعض العبيد وصلنا خبرهم دون شعرهم-كحاطب بن أبى بلتعة وكان مكاتباً - وهذا يؤكد بالإضافة إلى الشعر الذى ورد منسوباً إلى العبيد دون تحديد أن هؤلاء الشعراء ليسوا هم كل العبيد. ولكنهم هم الذين استطعنا الوصول إليهم، وتناهى إلينا شيء من أخبارهم وأشعارهم. على أمل أن تكشف الأبحاث التالية عن شعراء آخرين لم نستطع الوصول إليهم أو معرفة شيء عنهم فتتواصل دائرة البحث.

٢- حول الموضوع: دراسات أخرى:

تناولت دراسات كثيرة ظاهرة الرق والعبودية فى البيئة العربية، وخاصة فى الإسلام من الناحية التاريخية والاجتماعية والدينية. وتأتى على رأس هذه الدراسات كتب العقاد «المرأة فى القرآن الكريم» و «بلال داعى السماء» و «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»، وكتب الدكتور على عبدالواحد وافى: «قصة الملكية فى العالم» و «الحرية فى الإسلام» و «حقوق الإنسان فى الإسلام» و «المساواة فى الإسلام». ومجموعة أخرى من الكتب لمؤلفين آخرين مثل: «لا رق فى القرآن» لإبراهيم هاشم الفلالى و «شبهات حول الإسلام» لمحمد قطب، و «الرق فى الإسلام» لأحمد شفيق، و «الرق» لعبدالسلام الترمانينى، و «الجوارى»

لعبدالله الجبورى، و «مجتمع المدينة» لعبدالله بن عبدالعزيز، و «المجتمع الإسلامى كما تصوره سورة النساء» لمحمد محمد المدنى، فضلا عن كتابى الدكتور أحمد محمد الحوفى «الحياة العربية من الشعر الجاهلى» و «المرأة فى الشعر الجاهلى».

ولاحظ بعض الباحثين العلاقة بين الإماء والغناء فأفردوا لها كتباً خاصة كـ «القيان والغناء فى العصر الجاهلى» لناصر الدين الأسد، و «الجوارى المغنيات» لفايد العمروسى.

وتفيد هذه الدراسات فى فهم ظاهرة الرق ومعرفة المكانة الاجتماعية للرقيق فى العصرين الجاهلى وصدر الإسلام وتساعد على رسم الصورة العامة أو الإطار الذى كان يتحرك فيه شعراؤنا العبيد. لكنها لا تتقدم بنا أبعد من ذلك؛ لأنها لم تكن تعنى بشعر العبيد، ولا بالعلاقة التى تربط بين هذا الشعر والوضع الاجتماعى المتمثل فى العبودية. إنها تدرس العبودية فى حد ذاتها، وحسبها وحسبنا منها أن نقف من خلالها على المؤثر الفعال، أو العامل الأكبر فى شعر العبيد.

وهناك مجموعة أخرى من الدراسات حاول أصحابها دارسة شعر بعض العبيد وتلمس أثر العبودية فيه. وقد حظى عنترة بالنصيب الأكبر؛ حيث أفرد له أكثر من بحث.

ولعل أبرز هذه الأبحاث التى دارت حوله «فارس بنى عبس» لحسن عبدالله القرشى و «عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنترة» للدكتورة ناهد أحمد السيد الشعراوى، وهى رسالة جامعية[(١)]، وقدم الأستاذ إبراهيم الإبيارى لديوانه بمقدمة طويلة تناول فيها حياته ونشأته وشخصيته والعوامل المؤثرة فيها. أما سحيم فقد أفرد له الأستاذ محمد خير الحلوانى بحثاً عنوانه «سحيم عبد بنى الحسحاس شاعر الغزل والصبوة» نشر فى لبنان وهو رسالة كان قد أعدها لينال بها درجة الماجستير ثم انصرف عنها وعن الأدب لدراسة اللغة والنحو. وأفرد له الدكتور أحمد عبدالواحد بحثاً صغيراً تناول فيه حياته وأخباره وشيئاً من شعره[(٢)]، كما أفرد له الدكتور أحمد موسى الجاسم فصلا فى رسالته الجامعية «شعر بنى أسد فى الجاهلية - دراسة فنية»[(٣)].

أما الشنفرى فقد أفرد له الدكتور عبدالحليم حفنى كتاباً صغيراً عنوانه «شاعر الصعاليك الشنفرى ولامية العرب» ركز فيه على جانب الصعلكة عنده وما دار حول اللامية من الخلاف. وأما باقى العبيد فلم تفرد لهم دراسات مستقلة، وبعضهم لم يحظ بالدراسة.

---

(١) نالت بها الباحثة درجة الماجستير من قسم اللغة العربية بكلية الآداب. جامعة الإسكندرية. وهى موجودة بمكتبة الكلية تحت رقم ٧٧٤م.

(٢) نشرته جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى: "بحوث كلية اللغة العربية" العدد الثالث سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٤٠٦هـ من ص ١٥١ إلى ص ٢١٧.

(٣) نال بها الباحث درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية بكلية الآداب. جامعة الإسكندرية. وهى موجودة بمكتبة الكلية تحت رقم ٥١٥٢:٥١٤٩ س.

على أن هذه الدراسات وإن كانت تفيد فى فهم الظاهرة فهماً جزئياً إلا أنها لا تعطى لنا تصوراً عاماً شاملا لكل العبيد. ولاتقدم لنا السمات المشتركة بينهم، ولا الصفات العامة فى شعرهم حين يكون الرق هو العامل الحاسم فيها. بل إن بعضها لا يلتفت إلى تأثير الرق فى شعر صاحبه إلا التفاتاً يسيراً، وبعضها يدرس هذا الأثر مع غيره من المؤثرات لأنه لا يعنى به فى حد ذاته وإنما يعنى بالشاعر أو بشعره فحسب،مع أنهما يخضعان لمجموعة من المؤثرات يكون الوضع الاجتماعى ممثلا فى الرق واحداً منها.

ويتناول الدكتور عبده بدوى فى كتابه «الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى» أكثر من واحد من العبيد، ويفرد أجزاء لدراسة عنترة وسحيم والسليك بن السلكة. وكذلك يفعل الدكتور يوسف خليف فى كتابه «الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى» ويفرد جزءاً فيه للشنفرى. غير أن هذين الكتابين ليسا مقصورين على العبيد. وليست العبودية هى المحور الذى يدوران حوله؛ فالدكتور عبده بدوى معنى فى المقا م الأول بتتبع أثر اللون وما نتج عنه من العزلة فى كل عصور الأدب العربى بدءاً من العصر الجاهلى حتى عصور الضعف بل كان يتطرق فى بعض الأحيان إلى العصر الحديث. وقد سبق أن ذكرت أن الشعراء السود لم يكونوا جميعاً من العبيد وأن بعض العبيد لم يكونوا من ذوى البشرة السوداء. وهذا بعض ما يفصل بين دراستنا ودراسة الدكتور عبده بدوى للشعراء السود فى كتابه المذكور وفى كتاب له آخر تحت عنوان «السود والحضارة العربية» وهو كتاب أقرب إلى التاريخ والحضارة منه إلى الأدب. أما الدكتور يوسف خليف فمهتم بالصعلكة وأثرها فى نفوس الشعراء الصعاليك وفى شعرهم.

والصعاليك طوائف كثيرة منها طائفة العبيد. ولم أجد من الشعراء العبيد من مارس الصعلكة فى الجاهلية وصدر الإسلام - كما ذكرت - إلا السليك والشنفرى وهما يمثلان اتجاهاً واحداً من اتجاهات شعر العبيد.

وعلى الرغم من هذا فقد أفدت من دراسات هذين الباحثين فائدة كبيرة فى فهم شعر العبيد؛ لاقتراب دائرتيهما منه وتداخلهما فى بعض الأحيان فيه.

بقى أن أشير إلى مقال صغير كان على صغر حجمه مفتاحاً لى فى هذا البحث وخاصة فى الفصل الثانى منه وهو مقال الأستاذ العقاد «من أحاديث رمضان: شعر العبيد» وقد نشره بكتابه «بين الكتب والناس» وتناول فيه مسألة الصدق الفنى وعلاقتها بوضوح الشخصية، وأشار إلى أن هاتين الصفتين، صفة الصدق والوضوح، هما أكثر ما يميز شعر العبيد. ووضوح

الشخصية لا يتمثل فقط فى حضورها الدائم وإنما يتمثل أيضاً فى تميزها عن غيرها من الشخصيات؛ فهؤلاء الشعراء على الرغم من وقوعهم جميعاً تحت مؤثر اجتماعى واحد إلا أن كلا منهم قد تميز فى الاتجاه العام؛ فعنترة يتجه فى شعره ناحية الاستعلاء، وسحيم يتجه نحو المجون، والسليك يتجه نحو الصعلكة.

وقد تحققت من صحة هذه الافتراضات التى قدمها الاستاذ العقاد، وثبت لى صحة كثير منها فى دراسة مبدئية أعددتها فى السنة التمهيدية عن سحيم، ثم تقدمت لأدرس شعر سائر العبيد وتحت قدمى رصيد من الثقة والاستقرار، خاصة أن أحداً لم يقدم على دراسة هذا الموضوع قبلى - فيما أعلم - دراسة منهجية متكاملة.

٣- المنهج والخطوات:

اتبعت فى هذا البحث منهجاً متكاملا، وعنيت فى بعض المواضع بالمنهج النفسى، وفى مواضع أخرى بالمنهج الجمالى، ولم أهمل المنهج التاريخى فى استقصاء حياة الشعراء وتتبع أخبارهم.

وكانت البداية بالبحث عنهم فى بطون الكتب القديمة وجمع ما تناثر من شعرهم فيها، فوقفت شطراً كبيراً من البحث فى قراءة كتب التاريخ والأدب والتراجم والسير والمعاجم والبلدان. وبعد أن جمعت المادة رأيتنى أمام أكثر من ظاهرة تحتاج إلى تفسير، فاستعنت بالمنهج النفسى، ووقفت شطراً آخر فى قراءة كتب علم النفس وخاصة علم النفس الفردى وعلم نفس الشواذ، وشغلت حينا بآراء التحليليين ونظريات روادهم فرويد وإدلروبونج، ولكننى وجدت أن من الحيف البالغ تطبيق مفاهيم هؤلاء على الأدب تطبيقاً حرفياً، فنأيت عن المصطلحات الخاصة بهم ما أمكننى ذلك، والنظريات التى أثبت العلم الحديث بطلانها، وجعلت همى الإفادة من معطيات هذا العلم فى توسيع النظرة إلى شعر العبيد وفهم سلوك أصحابه فهماً صحيحاً. وفى ضوء ما تجمع لدى من مادة تاريخية وأدبية وفهم نفسى واجتماعى رأيت أن أقسم البحث إلى خمسة فصول وخاتمة: **الفصل الأول** لدراسة الرق والرقيق فى المجتمعين الجاهلى ومجتمع صدر الإسلام وكان هذا الفصل بمثابة المنظار التاريخى، تعرفت من خلاله على مصادر الرق، ومنابعه، وسبل تصفيته فى الإسلام، والمكانة الاجتماعية للرقيق فى كلا العصرين. وقد أفدت فى هذا الصدد بكتب التفسير والحديث والصحابة والسير والفقه وكتب التاريخ، ولم أعتمد إلا على الروايات الصحيحة خاصة بالنسبة للحديث لما اعتراه من الوضع والاختلاق، وكان رائدى فيها كتب الصحيح للبخارى ومسلم وسلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألبانى وما صححه علماء الحديث لما ورد منه فى الكتب

الأخرى. ووقفت من كتب الفروع على القدر المطلوب ولم أسترسل فيها ولم أسر معها شوطاً بعيداً.

أما **الفصل الثانى** فكان بمثابة المنظار النفسى؛ حيث أعلنت العبودية عن نفسها من خلال أبرز شعراء العبيد فى اتجاهات مختلفة ولم تأخذ اتجاهاً واحداً كما ألمح العقاد؛ فهى عند عنترة ضرب من التسامى والاستعلاء، وعند سحيم نوع من العبث والمجون، وعند السليك والشنفرى تعبر عن نفسها بالتمرد والصعلكة. وقد حاولت فى هذا الفصل أن أتلمس العوامل الفردية التى أدت إلى تميز هؤلاء الشعراء على الرغم من وقوعهم جميعاً تحت مؤثر واحد كبير فعال فاستعنت بالنشأة وبالظروف الاجتماعية المحيطة بهم والاستعداد النفسى والميل الفطرى الخاص.

وتناولت فى **الفصل الثالث** موضوعات شعر العبيد فى دائرتيها الخاصة والعامة وحاولت فى كلتا الدائرتين إبراز ما يميز شعر العبيد عن سائر الشعر المعاصر له دون أن أغفل بقية السمات التى يشترك فيها مع غيره.

وتتبعت فى **الفصل الرابع** الظواهر الأدبية التى تكاد تكون عامة فى شعر سائر العبيد من التأرجح بين القصائد والمقطوعات ووضوح الشخصية والجنوح نحو الواقع. وخصصت جزءاً فى هذا الفصل للتعرف على أثر الإسلام والثقافة الحبشية فى شعر هؤلاء العبيد.

وجعلت **الفصل الخامس** - وهو الفصل الأخير - لدراسة الخصائص الفنية فى التصوير والخيال واللغة والأوزان والسرد القصصى.

وقد زودت الفصلين الرابع والخامس بالجداول والإحصائيات، رغبة فى الدقة ومحاولة للوصول إلى نتائج صحيحة.

وذيلت البحث بخاتمة لخصت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها وبثبت عام للمصادر والمراجع التى أعانتنى فى دراسة هذا الشعر. راجياً من الله عز وجل القبول الحسن شاكراً له ما أنعم من التوفيق والهداية والسداد.

تمهيد

مصادر شعر العبيد

١ـ ديوان عنترة

٢ـ ديوان سحيم

٣ـ شعر الشنفرى

٤ـ شعر باقي العبيد

١- ديوان عنترة

لعنترة ديوان مجموع يوثق شعره ويفرق بين الصحيح منه والمنحول. ولهذا الديوان روايتان صحيحتان؛ إحداهما عن أبى الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوى الشنتمرى المعروف بالأعلم[١]، والثانية عن أبى بكر بن أيوب البطليوسى[٢].

والرواية الأولى متصلة السند إلى الأصمعى، فهى تنسب إليه كما تنسب إلى الأعلم. وقد ذكر ابن خير الأموى إسنادها فقال فى حديثه عن كتاب الأشعار الستة الجاهلية وهو يضم شعر عنترة برواية الأعلم: «كتاب الأشعار الستة الجاهلية، شرح الأستاذ أبى الحجاج يوسف ابن سليمان النحوى الأعلم رحمه الله. حدثنى بها أيضاً قراءة منى عليه لها ولشرحها الوزير أبوبكر محمد بن عبدالغنى بن عمر بن فندلة رحمه الله - عن الأستاذ أبى الحجاج الأعلم مؤلفه رحمه الله، يرويها الأستاذ أبو الحجاج الأعلم المذكور عن الوزير أبى سهل بن يونس ابن أحمد الحرانى عن شيوخه أبى مروان عبيدالله بن فرج الطوطالقى وأبى الحجاج يوسف بن فضالة وأبى عمر بن أبى الحباب كلهم يرويها عن أبى على القالى عن أبى بكر بن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعى رحمه الله»[٣].

أما الرواية الثانية فلا نعرف ممن استقاها البطليوسى، وهى تلتقى مع رواية الأعلم وتزيد عنها. وهاتان الروايتان هما المصدر الأساسى الذى يمكن أن يعول عليه فى دراسة شعر عنترة، وهما مصدرنا فى هذا البحث. وهذه هى نسخ الروايتين:

(أ) رواية الأعلم: مخطوطة فى ثلاث نسخ: الأولى بدار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة تحت رقم (٩٣ ش أدب) وتضم أشعار الشعراء الستة الجاهليين امرىء القيس بن حجر والنابغة الذبيانى وعلقمة الفحل وزهير بن أبى سلمى وطرفة بن العبد وعنترة. وهى من كتب العلامة محمد محمود بن التلاميذ التركزى.

والثانية بدار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة تحت رقم (١١٦٢٦ ز أدب) وتضم أشعار الشعراء الستة، كتبها محمد بن عبدالرحمن الصنهاجى وفرغ من تقييدها فى ذى الحجة سنة ست وثمانين بعد الألف.

---

(١) توفى بأشبيلية سنة ست وسبعين وأربعمائة. الصلة - لابن بشكوال (الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٦٦م) جـ٦ ص ٦٨١.

(٢) توفى سنة أربع وستين وأربعمائة - بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس - للضبى (ط. مجريط سنة ١٨٨٩م) ص ٢٧٤.

(٣) الفهرست لابن خير الأموى - ت. فرنسشكة قداره وتلميذه خليان رباره (سرقسطة سنة ١٨٩٣م) ص ٣٨٨.

والثالثة بدار الكتب أيضاً تحت رقم (٦٦ ش أدب) وتضم أشعار الشعراء الستة،وهى مطابقة للنسخة الثانية، وهى أيضاً من كتب العلامة التركزى. وهذه النسخ مزودة بالشروح والحواشى، وتمتاز بالوضوح وتمام الصفحات. وقد قام الدكتور مصطفى السقا بتحقيقها ونشرها تحت عنوان «مختار الشعر الجاهلى» مشيراً إلى أوجه الاختلاف بينها وبين الروايات الأخرى للديوان.

(ب) **رواية البطليوسى:** مخطوطة فى نسختين متطابقتين؛ الأولى بدار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة تحت رقم (١٨٣٧ أدب) وهى عبارة عن مجلد يحوى «ديوان عنترة بن معاوية بن شداد ومعه ديوان طرفة بن العبد البكرى» ومكتوبة بخط مغربى واضح.

والثانية بمكتبة جامعة الإسكندرية تحت رقم (٧٦٥خ) وهى أيضاً فى مجلد يحوى «ديوان عنترة ومعه ديوان ذى الرمة وديوان عبيدالله بن قيس الرقيات» نجامع مجهول.

وهاتان النسختان بدون تاريخ. ويبدو أن إحداهما منقولة عن الأخرى. ولم نجد مفراً من الاعتماد على الروايتين فى هذه النسخ المخطوطة مع الإحالة إلى طبعة نظنها أقرب الطبعات إلى الصحة وأكملها فى الوقت نفسه؛ وهى طبعة الأستاذ عبدالمنعم عبدالرءوف شلبى.

وقد طبع الديوان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من هذا القرن عدة طبعات فى بيروت والقاهرة.

وهذه الطبعات تكاد تكون متماثلة فى عدد القصائد وترتيبها وترتيب الأبيات داخل كل قصيدة. وهى مقسمة على حسب أحرف الهجاء. وليس فيها ما يشير إلى التحقيق أو حتى شبهة التحقيق . وجميعها حافلة بالشعر المنحول مختلطاً بغيره مما صح عن الأعلم والبطليوسى دونما تفريق بين هذا وذاك. وقد تتميز طبعة عن أخرى ببعض الشروح التى تضيفها كطبعة الأستاذ محمد عنانى. لكنها على كل لا تصلح مادة للبحث.

وفى النصف الثانى من هذا القرن طبع الديوان طبعات أخرى عديدة منها ما ظل يسير على النمط الذى سارت عليه الطبعات السابقة؛كطبعة دار كرم بدمشق تحت عنوان «ديوان عنترة بن شداد» وهى طبعة حديثة جداً وإن لم تؤرخ، أضيف إليها شرح بسيط. ومنها ما حاول أصحابها الاقتراب بها خطوة من التحقيق الصحيح،كطبعة دار صادر،وطبعة عبدالمنعم عبدالرءوف شلبى. أما طبعة دار صادر فقد صدرت فى بيروت عام ١٩٥٨م وقدم لها كرم البستانى، وقسم الديوان إلى قسمين؛ قسم للشعر الثابت «وهو مارواه الرواة الذين تقدموا وضع قصته» يعنى قصة عنترة الموضوعة فى القرن الرابع الهجرى «كالأصمعى وأبى عبيدة وأبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى وأبى سعيد السكرى والبطليوسى ومن أخذ عنهم». وقسم للشعر المشكوك فى صحته وهو ما ورد فى قصته وفى ديوانه الذى جمع بعد وضعها. غير أن المحقق لم يشر إلى مصادره التى استقى منها هذه الروايات ولا إلى طريقة تعامله معها عند الاختلاف وكأنه كان معنياً بالجمع أكثر من اعتنائه بالتثبت والتحقيق.

وأما طبعة عبدالمنعم عبدالرءوف شلبى فقد صدرت فى القاهرة بدون تاريخ عن المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد. وقدم لها الأستاذ إبراهيم الإبيارى بمقدمة تناول فيها حياة عنترة وشيئاً عن عصره وشعره. ويذكر للمحقق فى هذه الطبعة أنه:

- ذيلها بشرح مستفيض تناول فيه ما غمض من الكلمات.

٢- فرق فيها بين الصحيح والمنحول تفريقاً دقيقاً يعتمد على ما رواه كل من الأصمعى (وهى رواية الأعلم) والبطليوسى؛ فهو يبدأ القصيدة بالإشارة إليهما إن كانت القصيدة من روايتهما، وإن لم تكن من روايتهما أشار إلى ذلك. حتى فى القصيدة الواحدة إن اختلط فيها المنحول بالصحيح كان يشير إلى ذلك.

٣- أشار إلى اختلاف الروايتين فى كل موضع من مواضع الاختلاف خاصة فيما يتصل بالمفردات.

٤- ذيل الديوان بـ «زيادات البطليوسى على ترتيبه»؛ وهى الأبيات التى زادها البطليوسى ولم ترد فى رواية الأصمعى. وهذا مما لم يصنعه أحد ممن نشر الديوان قبله؛ فقد كانوا يخلطون بين الروايات المختلفة، ولم يذكر أحد ما انفرد به البطليوسى وزاد به على الأصمعى. لذلك عولنا على هذه الطبعة فى الإشارة إلى شعر عنترة لأنها إن لم تكن أدق طبعة ظهرت لديوانه منفرداً، فهى أكمل هذه الطبعات. وهى تحوى كل شعر عنترة الصحيح. وإن أخذنا على المحقق أنه:

١) يصر على بقاء الشعر المنحول إلى جانب الصحيح بالديوان وما كان أغناه وأغنانا وأغنى عنترة عن ذكره فضلا عن شرحه.

٢) لم يذكر مصادره التى استقى منها هذه الروايات، ولم يشر إلى مقابلته بين النسخ المخطوطة للديوان، وإن كنا على يقين أنه قابل بينها وإلا ما وقف عند مواضع اختلاف الروايات وزيادات بعضها على بعض.

وقد قامت دار الكتب العلمية ببيروت بسرقة هذه الطبعة؛ حيث نشرتها كما هى سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م بالترتيب نفسه والشرح نفسه والزيادات نفسها دون إشارة إلى المحقق. وإمعاناً فى التضليل كتبت الدار على ظهر الصفحة الأولى «الطبعة الأولى». ولعدم الأمانة فى النقل حذفت أهم شىء كان يميز الطبعة القديمة وهو الإشارة إلى صحة القصيدة بنسبتها إلى الروايتين المذكورتين أو عدم نسبتها إليهما، ليقبل القارىء على الشعر كله؛ الصحيح منه والمشكوك فيه بالقوة نفسها والحماس.

وقد طبع الديوان فى مجموعات شعرية طبعات أدق من كثير من طبعاته المستقلة. من هذه المجموعات:

١- مختار الشعر الجاهلى للدكتور مصطفى السقا - وقد أشرنا إليه - وهو تحقيق لرواية

واحدة من الروايتين.

٢- العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين ت. وليم آلورد - طبع فى غريغزولد سنة ١٨٦٩م واعتمد فيه المحقق على ثلاث نسخ خطية لمجموعة الأعلم الشنتمرى المذكورة سابقاً، ومنها نسختان بمكتبة باريس. أى أن هذا الديوان يلتقى مع ديوان السقا فى اعتمادهما على رواية واحدة؛ هى رواية الأعلم. وعلى الرغم من هذا فقد اختلفا فى رواية بعض الأبيات والكلمات المفردة وفى ترتيب بعض الأبيات فى القصيدة الواحدة مع الزيادة والنقصان. ومرجع هذا الاختلاف المصادر الخطية التى اعتمد عليها كل منهما. ويؤخذ على آلورد فى هذا المجموع عدم إشارته إلى الروايات الأخرى عند الاختلاف وإسقاطه كل ما زاده البطليوسى، ونسبته بعض هذه النصوص الزائدة إلى الشعر المنحول. والبطليوسى عندنا ثقة، وزياداته صحيحة وهى أكثر من عشرة نصوص.

٣- شعراء النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعى، وهو «مجموع شعرى يضم أشعار الشعراء الجاهليين» طبع فى بيروت بدون تاريخ وصدر عن مطبعة الآباء اليسوعيين،وقد أثبت لعنترة النصوص التى نسبها إليه الأعلم وأضاف إليها مقطوعته التى قالها فى قاتله وأولها:

«إن ابن سلمى فاعلموا عنده دمى وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمى».

وبيتين قالهما فى إخوته لأمه وهما:

«أبنى زبيبة مالمهركم	متحدراً وبطونكم عجر
ألكم بإيغال الوليد على	إثر الشياه بشدة خبـر».

والنصان من زيادات البطليوسى. ثم دون بعد هذه النصوص التى صحح نسبتها إلى عنترة نصوصاً أخرى كثيرة لم يستطع أن يفرق فيها بين الصحيح والمصنوع، وهى ما وجده لعنترة فى الصحاح وشرح المغنى والأغانى وشرح المفضليات للمرزوقى وجمهرة أشعار العرب ونضرة الإغريض وفى غيرها من الشروح والدواوين مما لم يدخل فيما رواه الأصمعى

وأبوعمرو بن العلاء والمفضل وأبوسعيد السكرى من شعره. وقد دون هذه النصوص دون إثبات مصدر كل منها على حدة.[١]

ويلاحظ على هذه المجموعات أنها تفيد فى توثيق رواية الأعلم، لكنها تنأى عما رواه البطليوسى. ولاغنى لنا عما رواه. لذلك لم تغننا إحدى هذه المجموعات عن شرح ديوان عنترة بن شداد لعبدالمنعم عبدالرءوف شلبى فى الإحالة على نص مطبوع، ولم يغننا هذا الديوان عن الرجوع إلى الروايتين فى مصادرهما المخطوطة لما فيه من القصور.

---

(١) راجع فى روايات الديوان ونسخه المختلفة:

- تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ت.د. عبدالحليم النجار (ط٥ - دار المعارف - القاهرة - شنة ١٩٨٣م) جـ١ ص ٩١، ٩٢.
- تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ت.د. محمود فهمى حجازى (إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) المجلد الثانى جـ٢ ص ١٢، ١٣.
- عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنترة - د. ناهد أحمد السيد (مخطوط) ص ٩٤:١٠٣ وقد نشر الديوان محققاً بدمشق سنة ١٩٦٤م. حققه محمد سعيد مولوى عن ست مخطوطات.

٢- ديوان سحيم

لديوان سحيم أربع روايات ترتب زمنياً كالآتى:

١- رواية أبى عبيدة. وهى أقدم الروايات فيما نعلم «ولعله أول من صنع شعر العبد»[١] وعلى هذه الرواية يعول كل من ابن جنى والأحول فى أغلب الظن.

٢- رواية ابن جنى عالم اللغة والنحو.

٣- رواية الأحول أبى العباس محمد بن حسن بن دينار.

٤- رواية نفطويه وهى أكمل رواياته.

أما الرواية الأولى فليس لها نسخة مخطوطة، لذلك فهى فى حكم المفقود وإن تناثر بعضها فى كتب الأدب القديمة مع الأخبار التى تدور حول سحيم. وأما الرواية الثانية فلا نعلم مظان وجودها وإن كان الأستاذ الميمنى قد وصفها وصفاً دقيقاً بما يوحى أنها كانت بين يديه عند تحقيقه للديوان. وقال فى شأنها إنها «رواية مقتضبة... إلا أنها على علاتها أقدم وأجل وعلى مثلها المعول»[٢] ورواية الأحول منسوخة بلبسيك بخط عفيف بن أسد، وهو من وراقى القرن الرابع فى ثلاث وعشرين صفحة. وأما رواية نفطويه فتوجد منها «نسخة جميلة الخط معتنى بها.. فى ٤٥ ورقة والمسطرة ١٥ سطراً فى الغالب بقطع وسط يتخلل فيما بين سطورها روايات وتعليقات بخط الأصل تدل على عناية الأوائل بالضبط وحرصهم فى جمع الروايات النادرة بالكتبخانة العمومية، أمام جامع بايزيد بإستنبول، انتقلت إليها من كتب أسعد المولوى»[٣] هذا عن روايات الديوان ونسخه المختلفه. وقد أشار بروكلمان إلى نسختين أخريين إحداهما بليبزج تحت رقم (٥٠٥). وتضم بالإضافة إلى ديوان سحيم ديوان كل من أبى الأسود الدؤلى وأبى طالب عم النبى - صلى الله عليه وسلم - والأخرى «ينى ١١٨٧» ولم يشر إلى مكان وجودها.[٤]

وفى المكتبة التيمورية نسخة ثالثة وهى توجد تحت رقم «٤٠٣» شعر فى ثلاث وأربعين صفحة استنسخها المرحوم أحمد باشا تيمور من نسخة الكتبخانة العمومية باستنبول. وثمة نسخة رابعة توجد تحت رقم (٢٧٧٧) بكتبخانة عاطف أفندى باستنبول. وهى نسخة ناقصة جمعت شعر سحيم فى ثمانية أوراق[٥].

---

(١) ديوان سحيم - ت. عبدالعزيز الميمنى (ط٢ - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م) ص ٧ - مقدمة المحقق.

(٢) المصدر نفسه والصحيفة.

(٣) المصدر نفسه والصحيفة.

(٤) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان - ت.د. عبدالحليم النجار (ط٥ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٣م)جـ١ ص١٧١.

(٥) ديوان سحيم ص٧ - مقدمة المحقق.

وقد توافر على تحقيق ديوان سحيم أستاذ جليل له فضله فى مجال التحقيق، هو الأستاذ عبدالعزيز الميمنى، وكان رئيساً لقسم اللغة العربية بجامعة عليكرة بالهند. ونشر الديوان مرتين، الأولى صدرت عن دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م والثانية عن الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م مع ملاحظة أن الطبعة الثانية نسخة مصورة عن الطبعة الأولى وليست بها أية زيادات أو تعديلات اللهم إلا فى تفسير بعض ما غمض من الكلمات.

ونسجل للمحقق ما بذله من جهد فى نشر الديوان وتحقيقه. ونسجل عليه بعض المآخذ والهنات التى قلما يخلو منها عمل جليل؛ منها أنه:

١- لم يعتمد إلا على عدد ضئيل من المخطوطات؛ فالأصل الذى اعتمد عليه هو النسخة الموجودة بالكتبخانة العمومية باستنبول، قابلها أولا بنسخة تيمور لأنهما من رواية واحدة. ثم قابل هذه الرواية فى نسختها الواحدة برواية الأحول فى نسخة واحدة أيضاً هى نسخة (ليبسيك). وقد يكون قابل الروايتين برواية ابن جنى المقتضبة فى نسخة ثالثة وإن لم يصرح بذلك. وتصديره للديوان بهذا العنوان «ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس صنعة نفطويه ابن عبدالملك بن عرفة الأزدي النحوى مقابلا بصنعة الأحول» يوحى بأنه لم يقابل بين أكثر من روايتين والروايتان كما قلّنا فى نسختين.

وقد أشار إلى النسخة (٢٧٧٧) الموجودة بمكتبة عاطف أفندى باستنبول إلا أنه قال فى عقبها: «ولم أفرغ لمعارضة نسختى بها»[١]

ولم يشر إلى النسختين اللتين أشار إليهما بروكلمان؛ وهما نسختا ليبزج (٥٠٥) وينى (١١٨٧). وقد تكون نسخة (ليبزج) هى نفسها نسخة (ليبسيك) التى أشار إليها واعتمد عليها، لكنه على كل حال لم يرجع إلى النسخة الثانية بالإضافة إلى النسخة التى لم يفرغ لمعارضة نسخته بها.

٢- احتفظ لنفطويه بالأصل وأشار إلى اختلاف روايته مع الأحول فى الهامش. وهذا فى حد ذاته عمل دقيق. لكن هذه الدقة تتضاءل حين يعمد إلى تلفيق قصيدة من الروايات المختلفة. وقد حدث هذا بصورة واضحة فى اليائية المشهورة؛ فهى عند نفطويه فى تسعة وستين بيتاً ووصلت فى الديوان إلى ثلاثة وتسعين بيتاً، لا لأنه أضاف ما زاده الأحول فحسب - وإضافة الأحول جائزة لأنه يقابل بين الصنعتين - وإنما لأنه أضاف أيضاً ما وجده فى حماسة

---

(١) ديوان سحيم ص٧ - مقدمة المحقق.

الخالديين وابن الشجرى ومعجم البكرى وأمالى المرزوقى وغيرها. وكأن القصيدة على هذا الأساس ليست مقابلة بين رواية نفطويه والأحول، وإنما هى مقابلة رواية نفطويه بكل ما وجده من الروايات. وهذا إخلال بالأساس الذى انطلق منه والذى جعله عنواناً للديوان.

وهذا التلفيق فضلا عما فيه من الاضطراب يمزق خيط القصيدة. ونسوق للدلالة على هذا البيتين اللذين يعبر فيهما سحيم عن مدى إحساسه بالهوان. يقول سحيم فى وصف مجموعة من النساء:

«يرجلن أقواماً ويتركن لمتى وذاك هوان ظاهر قد بداليا
فلو كنت ورداً لونه لعشقنى ولكن ربى شاننى بسواديا»[1]

فهو يعبر عن وضعه المهين فى البيت الأول ويعلل له فى البيت الثانى بالسواد وميل النساء إلى عشق الجمال، والبيتان متماسكان على هذا النحو كما أوردهما نفطويه. لكنهما فى ترتيب الديوان (٥٢) و (٥٨). معنى هذا أنه فصل بينهما بخمسة أبيات كاملة لا علاقة لها بهذا الخيط النفسى[2].

٣- لم يضع مفتاحاً بين يدى الديوان يفسر الرموز التى يستخدمها فيه، وما أكثرها: «مر - ش - حك....»إلخ. وهى رموز غامضة لا نعرف على وجه التحديد دلالتها وإن كانت تشير إلى مصادر محددة مخطوطة ومطبوعة، لكنها للأسف غير معلومة إلا لصاحبها الذى ضن علينا بمجرد التفسير ولو بكلمات قليلة فى صدر الديوان. وعلى الرغم من هذه الهنات إلا أننا لا ننكر المجهود الذى بذله المحقق فى تتبع المخطوطات والمقابلة بين الروايات. ونسجل له قبل هذا وذاك الروح العلمية التى انتهجها فى تحقيق الديوان. وحسبه أن أحداً لم يجرؤ على تحقيق الديوان بعده حتى الآن. ورجوعنا إليه - هو فى تصورى - أفضل من الرجوع إلى المخطوطات. خاصة لأننا لا نملك منها فى مصر إلا مخطوطة تيمور، وهى رواية واحدة فقط من الروايات الأربع التى أشرنا إليها سابقاً، وهى كذلك ليست إلا نسخة من نسخ ثلاث قابل بينهـا المحقق عند تحقيقه للديوان.

---

(١) ديوان سحيم ص ٢٥، ٢٦.
(٢) ومثل هذا نراه فى تكرار كلمة واحدة فى قافية بيتين لايفصل بينهما سبعة أبيات وهو الخطأ الذى يسميه العروضيون بالإيطاء، وقد أوقع سحيماً فيه، ونعتقد أن سحيماً منه برىء؛ لأنه لم يحدث إلا فى هذه القصيدة ذات الترتيب العجيب.

٣- شعر الشنفرى

للشنفرى ديوان صغير مطبوع ضمن «الطرائف الأدبية»(١) جمعه وحققه الأستاذ عبدالعزيز الميمنى ووضع له هذا العنوان «شعر الشنفرى الأزدى». وأشار إلى أنه من صنعته لأنه تصرف فيه بالزيادة والنقصان؛ فقد حذف منه التائية المفضلية ولامية العرب ورثاء تأبط شراً، وأضاف إليه ما وجده فى بطون الكتب القديمة كحماسة الخالديين والحماسة البصرية منسوباً إلى الشنفرى. ولعلنا نتساءل عن سر هذا الحذف وتلك الزيادة من جهة المحقق. وقد أجاب عن ذلك بقوله: «رأيت أن أسقط التائية المفضلية ولامية العرب ورثاء تأبط؛ لأن الأوليين وإن كانتا توجدان فى النسختين إلا أن ما عند غيرهما أوفى وأتم. والثالثة خلتا عنها مرة فمالى ولإثباتها وهى فى عامة الكتب؟ على أنها لا يوثق بعزوها إليه وإن كان الخالديان ذكرا أنها وجدت فى شعره»(٢).

وهو فى تصورى محق فى حذف القطعة الخاصة برثاء تأبط شراً - وإن أشار الخالديان إلى أنها وجدت فى شعره - فقد اضطرب الرواة فى نسبتها أشد الاضطراب ونسبها بعضهم إلى تأبط نفسه ونسبها آخرون إلى ابن أخيه، والثابت أن الشنفرى مات قبل تأبط شراً، وثابت أيضاً أن تأبط شراً هو الذى رثاه بقصيدة طويلة مطلعها:

«على الشنفرى سارى الغمام فرائح غزير الكلى وصيب الماء باكر».

وقد ذكرها المحقق فى بداية الديوان(٣). ومن الغريب أن نجد معظم هذه القصيدة فى حماسة الخالديين برغم ما ذكراه. فكيف يرثى الشنفرى تأبط وقد مات قبله؟ على أنها بالإضافة إلى ذلك لم توجد فى الأصلين المخطوطين كما بين المحقق. أما حذف التائية واللامية بدعوى كونهما فى غير النسختين المخطوطتين أوفى وأتم فهذا مأخذ لاشك؛ فديوان الشاعر هو المصدر الأول لشعره إن كان محققاً وهو أولى بالإحالة عليه. وكان على المحقق تسجيل ما وجده فى المخطوطتين ومقابلته بما وجده فى الكتب الأخرى،فذلك أفضل من الإحالة على تلك الكتب.

ولعله قد وفق فيما زاده لعدة أسباب. منها: أن النسختين المخطوطتين مبتورتان - كما ذكر فى مقدمته - بتراً شديداً. وأنهما من صنع راو أو راويين مجهولين فيما يبدو لأنه لم يعزهما إلى أحد. وهاتان النسختان موجودتان باستنبول والقاهرة؛ نسخة استنبول بكتبخانة

---

(١) الطرائف الأدبية - عبدالعزيز الميمنى (لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة سنة ١٩٣٧م) ص ٣٠:٤١.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨، ٢٩.

خسرو باشا تحت رقم (١٤٩) مع شرح ابن النحاس على المعلقات. وهى «نسخة عتيقة مبتلة مغسولة» ضاع منها الصفحة الأولى. « وفيها أبيات من لامية العرب مشروحة شرحاً مستفيضاً. وهى فى ٦٨ بيتاً كهذه المطبوعات إلى ص١٨، ثم من ١٨-٢٠ تائيته المفضلية فى ٢٨ بيتاً (وهى فى غ ٣٠ وفى المفضليات ٣٤ بيتاً) ثم من ٢٠-٢٢ الفائية و (متعوج، تحذرينى) وفى ص٢٣ صورة الخاتمة» (١).

أما نسخة القاهرة ففى مجموعة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٨٦٤ أدب) وقد حصل من خلالها على معظم الرائية «ويتقدمها فيها اللامية ثم التائية مشروحتين. وأظنها نسخة أخرى من الديوان مبتورة» (٢).

وقد أشار الدكتور يوسف خليف إلى نسخة ثالثة «مأخوذة بالتصوير الشمسى عن نسخة خطية بخط محاسن بن إسماعيل بن على من شعراء حلب، فرغ من كتابتها بدمشق فى منتصف شهر جمادى الآخرة سنة ٨٣٥هـ وهذه النسخة المصورة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت اسم «شعر الشنفرى» (تحت رقم ٦٦٧٦ أدب) (٣).

وهى نسخة من الراجح - كما يقول الدكتور يوسف خليف - أن الميمنى لم يطلع عليها (٤). وأشار بروكلمان إلى أن ديوان الشنفرى كان «لايزال باقياً عند العينى كما ذكر فى شرح الشواهد الكبرى» (٥). ثم لم يعرف مصير هذا الديوان، ولم يبق من شعر الشنفرى إلا القليل.

هذا عن الديوان وطبعته ونسخه المخطوطة. ويبقى ما ثار من الجدل فى عصرنا الحديث حول اللامية بين إثباتها للشنفرى ونفيها عنه - وهى المعروفة بلامية العرب - وبين أيدينا رأيان أحدهما للدكتور يوسف خليف. والثانى للدكتور عبدالحليم حفنى وهو بمثابة الرد على رأى الدكتور خليف. وقبل أن نعرض للرأيين نذكر أن هذا الجدل لم يعرف فى القديم وأن أول من أثاره فى العصر الحديث هم المستشرقون، وأول هؤلاء فيما نعلم كرنكوفى الجزء الرابع من دائرة المعارف الإسلامية (الألمانية) حيث نفى أن تكون اللامية من شعر الشنفرى. واعتمد فى ذلك على ما ذكره ابن دريد ونقله عنه أبو على القالى فى أماليه من أن

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٠.

(٢) المصدر نفسه والصحيفة.

(٣) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى - د. يوسف خليف - ط٣ (دار المعارف - القاهرة سنة١٩٦٨م)ص١٦٢.

(٤) المرجع نفسه والصحيفة.

(٥) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان جـ١ ص ١٠٥. وقد أشار العينى إلى وجود هذا الديوان عنده فى شرح الشواهد الكبرى - على هامش الخزانة جـ٤ ص ٥٩٦.

اللامية من صنع خلف الأحمر (١). واعتمد أيضاً على بعض النواحى الفنية كقلة أسماء المواقع والأشخاص وهى ظاهرة ليست طبيعية فى القصائد العربية القديمة. وأضاف بروكلمان أن كثيراً من قدامى الأدباء العرب لم يعرفوا هذه اللامية ومن بينهم صاحب الأغانى (٢). لكنه رجح رأى ياكوب فى كون القصيدة تحمل مذهباً شعرياً مستقلا يختلف فى طابعه عن النمط الذى وضع عليه خلف قصائده.

يقول بروكلمان: «ولكن القصائد التى وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائماً بعمود الشعر القديم وطابعه. أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل كما أكد بحق جورج ياكوب فى تقديمه للامية. وعلى حين يجعل الشعر الجاهلى وصف الطبيعة من الجبال والفيافى وغيرها غرضاً مقصوداً لذاته يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير الإنسان نفسه وأعماله. وإذاً فليس هناك ما يحملنا على موافقة قدامى اللغويين الذين اقتفى أثرهم كرنكو فى دائرة المعارف الإسلامية. والذين افترضوا لهذه القصيدة اللامعة بين قصائد الشعر الجاهلى شاعراً آخر غير الشنفرى الذى رويت له القصيدة» (٣).

وقد وقف الدكتور يوسف خليف بطبيعة الحال على هذه الآراء، ولكنه رجح رأى كرنكو واقتنى أثره فنفى اللامية عن الشنفرى وأضاف إلى ماذكره كرنكو من الناحية التاريخية إغفال أبى الفرج وصاحب اللسان لها. ومن الناحية الفنية بعض الأسباب الأخرى كعنصر الطول وهو غير مألوف فى شعر الصعاليك «فهذه اللامية تبلغ ثمانية وستين بيتاً فى حين لاتزيد أطول قصيدة فى ديوان الصعاليك وهى تائية الشنفرى المفضلية على خمسة وثلاثين بيتاً فى بعض المصادر أى أن هذه اللامية تبلغ ضعف أطول قصيدة فى ديوان الصعاليك تقريباً وإلى جانب هذا نلاحظ قلة الاضطراب فى رواية ألفاظها وفى ترتيب أبياتها وهى ظاهرة ليست مألوفة فى شعر الصعاليك» (٤).

وقد لاحظ أن اللامية تصور حياة الصعاليك «تصويراً رائعاً ممتازاً حتى ليصح أن تكون مصدراً من مصادر دراسة حياتهم الاجتماعية» وحتى «ليصح أن نطلق عليها لا لامية العرب وإنما لامية الصعاليك أو دنيا الصعاليك» (٥).

---

(١) الأمالى - لأبى على القالى (مطبعة السعادة - القاهرة - بدون تاريخ) جـ١ ص١٥٥.
(٢) تاريخ الأدب العربى - كارل بروكلمان جـ١ ص ١٠٦.
(٣) المرجع نفسه ص ١٠٦، ١٠٧.
(٤) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى. د. يوسف خليف ص ١٨٠.
(٥) المرجع نفسه ص ١٨١.

وقد دفعته تلك الملاحظة - على غير المتوقع - إلى تأكيد نفيها عن الشنفرى وهو الصعلوك ونسبتها إلى خلف وهو مجرد صانع.

كما اعترف فى البداية أن «الرواة الذين تعرضوا لها ينسبونها إلى الشنفرى، ما عدا صاحب تاج العروس الذى ينسبها إلى تأبط شراً. وليس بين أيدينا من النصوص الصريحة على أنها ليست للشنفرى سوى نص يرويه القالى عن ابن دريد يذكر فيه أن هذه القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى لخلف الأحمر»(١).

فإذا انتقلنا إلى كتاب «شعر الصعاليك منهجه وخصائصه» واجهنا رأى آخر لمؤلف الكتاب وهو الدكتور عبدالحليم حفنى؛ حيث يوثق نسبة اللامية للشنفرى وينفى ما قاله المستشرقون، ويرد على الدكتور يوسف خليف. وقد امتدت الصفحات التى ناقش فيها آراء من قالوا بالنفى حتى بلغت ثلاث عشرة صفحة. وكانت البداية بالجانب التاريخى، ثم انتقل إلى النواحى الفنية. والجانب التاريخى مؤسس كما قلنا على ماصرح به ابن دريد ونقله عنه أبو على القالى. «ومن نص رواية القالى نستنتج أكثر من ناحية، منها أن نسبة اللامية للشنفرى كانت معروفة للقالى حيث يقول: القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى. ومنها أن رأى ابن دريد كان أول شك أثير حول نسبة اللامية إلى الشنفرى حيث لم يتحدث القالى عن شك آخر ولا عن رأى آخر يظاهر رأى ابن دريد فى شكه، ومعنى ذلك أنه حتى حياة القالى وابن دريد كان العرب مجتمعاً ورواة وعلماء متفقين على أن اللامية للشنفرى دون أى شك فى ذلك، ومنها أن الرواية نفسها تحمل طابع الضعف وتوحى بعدم الصحة لأن الرواية بدون سند. فلم يحدثنا القالى أن ابن دريد روى هذه الرواية عن أحد، مع أن القالى من أدق العلماء فى التزام سلسلة الرواة»(٢).

ولم يذهب الباحث إلى التشكيك فى القالى فهو «من العلماء الثقات» ولا ابن دريد كذلك، مع أنه غمز فيه من خلال ما نقله عن البغدادى من أنه «كان مواظباً على شرب الخمر، وكان يلقى الناس وهو سكران» (٣).

وإنما أسس نفيه بالنسبة للقالى على سياق الرواية؛ فقد أوردها فى سياق حديثه عن أبى محرز خلف الأحمر ومقدرته الشعرية،فكان من الطبيعى أن يذكر كل ما يعلمه عنه وكل ماينسب إليه حقاً أوغير حق، وعلى غير المحق أن يتحمل تبعة جوره، وكان مما يعلمه ما سمعه من ابن دريد فلا بأس عليه أن يذكره وعلى ابن دريد أن يتحمل تبعته»(٤).

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى. د. يوسف خليف ص ١٧٩.

(٢) شعر الصعاليك - منهجه وخصائصه - د. عبدالحليم حفنى (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٧) ص ١٦٤.

(٣) المرجع نفسه والصحيفة.

(٤) المرجع نفسه والصحيفة.

والأهم من ذلك بالنسبة للقالى أنه «بينما ذكر هذه الرواية فى الجزء الأول من أماليه عاد فى الجزء الثالث فنسبها للشنفرى دون أى اعتبار لهذه الرواية أو إشارة إليها. ثم ساق القصيدة كاملة. ومعنى هذا أنه مقتنع بأن اللامية للشنفرى دون شك.. ولست أدرى لماذا لم يذكر أحد من الباحثين أن القالى ساق اللامية فى الجزء الثالث منسوبة للشنفرى دون أن يشير إلى أى شك فى هذه النسبة»؟(١)

هذا عن القالى. أما ابن دريد فلم يفترض اختلاقه للرواية، ولم يفترض كذبه. وإنما أشار إلى ماساد عصره من التيارات الأدبية والعنصرية «فابن دريد عاش فى صدر العصر العباسى. وعاصر الخليفة المقتدر وحينذاك كانت العصبية الطائفية بين العرب والفرس قد بلغت أوجها.. وكان يهم الفرس أن يحشدوا أكبر عدد من شعرائهم ينافسون بهم الشعراء العرب وإن لم يستطيعوا ذلك فلا أقل من أن يحاولوا نسبة أكبر قدر من الشعر الموروث وخاصة جيده إلى أحد شعرائهم، وإذا لاحظنا أن خلفا الأحمر كان من الموالى أى من غير العرب فلا نستبعد أن أحد المتعصبين من الفرس فى زمن ابن دريد نفس على العرب أن يكون فى شعرهم قصيدة لامعة فذة كاللامية فزعم لابن دريد أنها لخلف الأحمر لينفيها عن العرب ويثبتها لشاعر فارسى الأصل هو خلف، وأخذ ابن دريد الكلمة بحسن نية ولم يسأل صاحبها عنه وروى عنه ذلك لشهرة خلف حينذاك بالوضع، أو لعل ابن دريد من باب أمانة النقل - كما فعل القالى - قال لتلاميذه فى أثناء الدرس - ومنهم القالى - ما سمعه عن خلف ومقدرته فى الوضع ومن ذلك هذا الخبر عن اللامية(٢).

والأهم من ذلك أننا لانجد أثراً لهذه الرواية فيما وصلنا من مؤلفات ابن دريد كالاكتشاف والجمهرة، ولو كان لها اعتبار فى نفسه لذكرها فى إحدى هذه المؤلفات ولنقل تلميذه القالى عنها ذلك بحكم كونه أولى الناس بمعرفة مؤلفات أستاذه والاطلاع عليها(٣).

المسألة إذن بالنسبة للقالى وابن دريد أمانة نقل، والخبر موضوع، وليس له من السند مايقوم به. ولم يعتد به القالى لأنه أورد اللامية منسوبة إلى الشنفرى فى جزء تال، ولم يتابع ابن دريد أحد عليه. وقد صحح جمع كثير من القدماء نسبة القصيدة إلى الشنفرى دونما اعتبار لهذا الخبر وعلى رأسهم الزمخشرى(٤) والنويرى(٥) والخالديان(٦). فضلا

(١) شعر الصعاليك - منهجه وخصائصه ص ١٦٤.
(٢) المرجع نفسه ص ١٦٦.
(٣) المرجع نفسه والصحيفة.
(٤) أعجب العجب فى شرح لامية العرب (دار المعارف - القاهرة - بدون تاريخ). وقد شرح القصيدة على أنها للشنفرى دون تشكيك.
(٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب (دار الكتب المصرية - القاهرة - بدون تاريخ) جـ٦ ص ٢٢٧.
(٦) الأشباه والنظائر - ت.د. السيد محمد يوسف (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - سنة ١٩٥٨هـ. ١٩٦٥م جـ١ ص ١٩٢، جـ٢ ص ١٥.

عن أصحاب الشروح الكثيرة لها(١). وقد وجدت القصيدة في النسختين المخطوطتين لديوان الشنفرى، وهي أشبه بشعره من شعر خلف كما ذكر جورج ياكوب وأكده بروكلمان.

فلماذا إذن أغفلها كتاب الأغاني واللسان؟ لم ير الباحث في إغفال هذين الكتابين لها مايقدح في صحة نسبتها إلى الشنفرى؛ لأن الأصفهاني في أغانيه لم يلتزم قط حين يتحدث عن شاعر أن يورد كل شعره، أو حتى أن يعدد قصائده، ولم يكن عليه بأس حين يتحدث عن الشنفرى أن يذكر بعض شعره دون البعض الآخر فليس في ذلك دليل ولا ترجيح»(٢). وعلى فرض أن اللسان خلا من الاستشهاد باللامية فليس في ذلك أيضاً دليل ولا ترجيح لأن صاحب اللسان لم يقل إنه قصر استشهاده على شعر الصعاليك حتى نحاسبه على خلو شواهده من أبيات اللامية» (٣).

وكتب اللغة كاللسان حجة عنده في شرح الألفاظ، وليست بالنسبة للروايات «حيث لايلتزم كثير منهم الدقة، فمثلا حينما يتعرض أحدهم لشرح لفظ نجد ذهنه منصباً على هذا الشرح، فإذا خطر في ذاكرته بيت شعر استعمل هذا اللفظ ساقه شارحاً استعمال هذا اللفظ غير مهتم كثيراً بقائل هذا البيت لأن ذهنه منصب على شرح اللفظ»(٤).

من هنا لم يجد صعوبة في الرد على ماقيل من نسبة صاحب التاج اللامية لتأبط شراً. ولننظر الآن فيما ذكره في الرد على المشككين من الناحية الفنية «وهي أن طول اللامية غير مألوف في شعر الصعاليك وأن أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً وهي تائية الشنفرى، وما عداها من شعر الصعاليك يعتبر في مجموعه شعر مقطوعات. للرد على ذلك نقول: إن الدليل نفسه يتضمن الرد عليه، ففيه اعتراف بأن الشنفرى صاحب أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك، معنى ذلك أنه أطولهم نفساً في الشعر وأقدرهم على إنتاج المطولات... ونضيف إلى ذلك أن الثمانية والستين بيتاً لاتعتبر في عرف رواة العرب ونقادهم طويلة، ولا يصفون مثلها بأنها من المطولات أما التي يصفونها بأنها طويلة فمثل قصيدة النابغة الجعدي التي تبلغ مائتي بيت وقصيدة ابن دريد التي تسمى المقصورة وتبلغ مائتين وتسعة وثلاثين أو ما كان قريباً من ذلك أو على الأقل أطول من اللامية بكثير كالقصائد السبع الجاهليات... وإن لم يكن هناك مايمنع من وصفها بالطول»(٥). ويضيف:

---

(١) فهارس الشروح بدار الكتب المصرية وبها أكثر من خمسة عشر شرحاً. وفي تاريخ الأدب العربي (جـ١ ص ١٠٧:١٠٩) ذكر بروكلمان اثني عشر شرحاً وأشار إلى مظان وجودها إن كانت مخطوطة وطبعاتها إن كانت مطبوعة.

(٢) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه - د. عبدالحليم حفني ص ١٦٧.

(٣) المرجع نفسه والصحيفة.

(٤) المرجع نفسه ص ١٦٨.

(٥) شعر الصعاليك - منهجه وخصائصه - د. عبدالحليم حفني ص ١٦٨.

«على أننا لانسلم بإطلاق حكم المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين .. فقد وردت لهم قصائد كثيرة يمكن أن نسميها بعرفنا طويلة، فمن ذلك عينية مالك بن حريم وتبلغ أربعين بيتاً، ورائية عروة بن الورد وتبلغ نحو أربعين بيتاً، وعينية قيس بن منقذ وهى أربعة وأربعين بيتاً وكلهم صعلوك جاهلى وقصيدة عبدة بن الطبيب تبلغ واحداً وثمانين بيتاً مع أنه مخضرم قضى معظم حياته فى الجاهلية يتلصص فى الرباب» (١).

أما عن قلة الاضطراب فى ألفاظها وترتيب أبياتها فيقول: «إن الواقع غير ذلك، وحين نرجع إلى المقارنة بين روايات شراحها وناقليها نجد بينهم اختلافاً كثيراً، إن لم يزد عن مستوى الاختلاف فى الشعر الآخر للصعاليك فلن يقل عنه، ويكفى للمثال أن نختار عالمين من أدق العلماء فى الرواية هما أبو على القالى والزمخشرى، ومع دقتهما المشهورة نجد اختلافاً بين روايتيهما للامية فى الأمالى وأعجب العجب فى شرح لامية العرب سواء من حيث الألفاظ أو من حيث الأبيات، ففى الألفاظ نجد بينهما اختلافاً فى أكثر من ثمانية وعشرين موضعاً مع التجاوز عما يظن أنه من أخطاء المطابع.. أما عن الأبيات فإن القالى رواها سبعة وستين بيتاً بينما رواها الزمخشرى ثمانية وستين. وهذا الاختلاف يدل على أن الزمخشرى نقل عن رواية أخرى غير الأمالى لأن الزمخشرى جاء بعد نحو قرنين من القالى» (٢).

ويرى أن قلة أسماء المواقع والأشخاص فيها على غير المعهود فى القصائد الجاهلية لايصلح نقداً «فليست أسماء الأماكن والأشخاص ملحاً لابد أن يضاف إلى كل طعام وأن تحشى به كل قصيدة، وإنما ينبغى أن نسأل هل كانت اللامية تقتضى ذكر الأماكن والأشخاص فخلت منها؟... الواقع يجيب بلا، فسياق اللامية، وموضوعها ينحصر فى تصوير نفسية إنسان ساخط هجر حياة المجتمعات ليحيا حياة يرسمها هو لنفسه كما يريد، وقد رسمها فى صورتين، أو صورة وإطار حول هذه الصورة، فأما الصورة فهى الصعلكة بما تتطلبه حياتها من أسلحة ومن صفات معينة فى مزاولتها، وأما الإطار فهو المعقل أو الصحراء التى يزاول منها صعلكته بما تحويه الصحراء حوله من مناظر طبيعية وحيوان.. وبعد ذلك نسأل: ما الحاجة إلى أسماء الأشخاص والأماكن لدى شخص سخط على الناس فهجرهم متعمداً أن يعيش بين الوحوش كما فعل الشنفرى؟ فهو إن كان فى حاجة فإلى أسماء الوحوش التى يعيش بينها لا إلى أسماء الناس الذين هجرهم إلى غير رجعة. وقد ذكر فعلا من أسمائها كل مايمكن أن يراه إنسان فى الصحراء» (٣).

---

(١) شعر الصعاليك - منهجه وخصائصه ص ١٦٩.
(٢) المرجع نفسه ص ١٧٠.
(٣) المرجع نفسه ص ١٧١.

على أنه قد ذكر من أسماء الأماكن موضعين: أحاظة والغميصاء، فى قوله:

«فعبت غشاشا ثم مرت كأنها مع الصبح ركب من أحاظة مجفل» (١).

وقوله:

«فأصبح عنى بالغميصاء جالسأ فريقان مسئول وآخر يسأل» (٢).

وأحاظه موضع باليمن، وقد استدل به بعض المحدثين على أصل الشنفرى اليمنى بالإضافة إلى ماوجدوه فى شعره من تشبيه للسيوف بأذناب البقر (٣).

هذا عن الرأيين اللذين أثيرا فى عصرنا الحديث حول اللامية ومدى صحة نسبتها إلى الشنفرى، وأعتقد أن فيما ذكره الدكتور عبد الحليم حفنى غنى أى غنى عن إعادة القول أو مناقشة المشككين من أوجه أخرى، فلم يترك نقطة إلا أجاب عنها بنقد موضوعى وأسلوب هادىء رزين. وحسبه وحسبنا أن يكون متعصبو الفرس - كما يظن - أول من حاول سلبها عن المنزع العربى فى القديم، وأن يكون متعصبو المستشرقين هم أول من يحاول إحياء هذا التشكيك فى الحديث.

(١) الأمالى لأبى على القالى جـ٣ ص ٢٠٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٨.
(٣) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان جـ١ ص ١٠٥، ١٠٦.

٤- شعر باقى العبيد

لم يجد باقى العبيد من العناية مثلما وجد السابقون، فلم نعلم أحداً من القدماء توافر على رواية شعرهم فى دواوين مستقلة، ولا أحداً من المحدثين قام بجمع هذا الشعر فضلا عن تحقيقه[1]، وإنما هى نصوص مبعثرة فى بطون الكتب.

وأول ما يلاحظ على هذه النصوص أنها مجرد مقطوعات صغيرة. وقلما نجد لهؤلاء قصائد كاملة، لأنهم كانوا يجتزئون من شعرهم ما يتلاءم مع طبيعة كتبهم والمناسبات والمواقف التى يسوقون فيها هذا الشعر أو التى يسوقونه من أجلها. ويلاحظ على هذه النصوص أنها ليست لراو واحد وإنما لمجموعة كبيرة من الرواة؛ فبعضها منسوب إلى أبى عبيدة، وبعضها ينسب إلى أبى عمرو بن العلاء وهكذا. وعلى حين تحظى بعض النصوص بالنسبة إلى راو معروف تفتقد نصوص أخرى نسبتها إلى أى من الرواة ولا يبقى لنا منها دالا على صحتها إلا ثقتنا بالمصدر نفسه ووجودها فى مصادر أخرى موثوق بها منسوبة إلى الشاعر نفسه حتى لو اعتراها بعض التغيير. ويلاحظ أيضاً على هذه النصوص قلتها، ربما لأن أصحابها من المغمورين، وربما لأنهم كانوا شعراء مقلين. وأكثر من وجدنا له شعراً منهم السليك بن السلكة. وقد حوى كتاب الأغانى وحده ستة نصوص له منها نص بلغ طوله أربعة عشر بيتاً. والحقيقة أن كتاب الأغانى كان من مصادرنا الأساسية فى جمع شعر هؤلاء العبيد، لالكثرة ما يحوى منه فحسب وإنما لأنه فى كثير من الأحيان ينسب الشعر إلى رواته الذين ينقل عنهم، ويذكر الروايات المختلفة مما يتيح لنا فرصة المقابلة بين هذه الروايات والوصول بالنص إلى أفضل صورة يمكن قبولها والاعتماد عليها. يقول أبو الفرج فى صدر ترجمته للسليك: «.. فأما السليك فأخبرنى بخبره الأخفش عن السكرى عن ابن حبيب عن ابن الأعرابى، قال: قرىء لى خبره وشعره على محمد بن الحسن الأحول عن الأثرم عن أبى عبيدة، أخبرنى ببعضه اليزيدى عن عمه عن ابن حبيب عن ابن الأعرابى عن المفضل وقد جمعت رواياتهم فإذا اختلفت نسبت كل مروى إلى راويه»[2].

ويأتى كتاب معجم الشعراء للمرزبانى مصدراً ثانياً لنا من كتب التراجم فى استقاء شعر باقى العبيد. وعلى الرغم من أن هذه الكتب كانت تعنى بحياة هؤلاء الشعراء وأخبارهم أكثر من عنايتها بشعرهم إلا أنها كانت تسوق فىَ أحايين كثيرة شعراً غير قليل لهم.

---

(١) قام الأستاذان حميد آدم ثوينى وكامل سعيد عواد بجمع شعراء السليك وتحقيقه، ونشراه بالعراق تحت عنوان "السليك بن السلكة- أخباره وشعره" سنة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

(٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٠ ص ٣٧٥.

أما الشعر والشعراء فقد أراحنا ابن قتيبة فى المقدمة حين قال: «وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما من خفى اسمه وقل ذكره وكسد شعره وكان لايعرفه إلا بعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة» (١).

وعلى الرغم من هذا أفدنا بترجمته للسليك وفيها بعض شعره. ولم نعرج على كتاب الطبقات لابن سلام إلا إلماماً؛ لأنه يعنى بالفحول. وكذلك كتاب «فحولة الشعراء» للأصمعى وقد سئل الأصمعى عن السليك - أشهر هذه المجموعة - فقال: «ليس من الفحول». فهل نتوقع أن نجد شعراً فيه لمن هو دونه؟. وإلى جانب كتب التراجم توجد مجموعات أخرى من مصادر الأدب العربى القديم تفيد فى استقاء شعر هؤلاء المغمورين من العبيد وإن كانت هذه المصادر لاتعنى بشعرهم من حيث هو نتاج عصر متعدد الجوانب أو ظاهرة فنية خضعت لمؤثرات اجتماعية ونفسية. فمعاجم اللغة تسوق بعض شعرهم فى شرح الكلمات الغامضة وضبط بنيتها. ومن هذه المعاجم لسان العرب وتاج العروس والقاموس المحيط. وقد تنفرد بعض هذه المعاجم بأبيات لا توجد فى مصادر أخرى كلسان العرب فى مادتى «رمل» و«سرى» بالنسبة لسليك. والمعاجم الجغرافية كمعجم البلدان ومعجم ما استعجم للبكرى تستشهد ببعضه فى ذكر أسماء البلدان وتحديد مواضعها. وقد حفل شعر هؤلاء العبيد وخاصة الصعاليك منهم بكثير من أسماء البلدان. حتى إن البكرى يقول: «...لم أر (نيال) إلا فى بيت السليك» (٢). وهو يقصد قوله:

«ألم خيال من تشيبة بالركب وهن عجال عن نيال وعن نقب».

وللبكرى لفتة طريفة بالنسبة للسليك؛ فهو يقول فى الموضع نفسه بعد ذكر البيت: «هكذا صحت الرواية فيه عن القالى فى شعر السليك». فهل نفهم من هذا القول أن القالى روى شعر السليك؟ ربما؛ لأن البكرى يعتمد على روايته فى تصحيح شعره. وربما كانت هذه الرواية رواية شفوية ظلت كذلك دون أن تجد من يتوافر على تدوينها فضاعت. وربما كانت رواية لبعض شعره دون بعض كرواية أبى عبيدة والمفضل وابن الاعرابى. وقد ذكر هذه الروايات أبو الفرج الأصفهانى فى ترجمته لسليك كما أشرنا من قبل. ومن المصادر الأخرى

(١) الشعر والشعراء - لابن قتيبة - ت. أحمد محمد شاكر (ط٣ - دار التراث العربى - القاهرة سنة ١٩٧٧م) جـ١ ص ٣.

(٢) معجم ما استعجم للبكرى - ت. مصطفى السقا (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٣٧٨هـ سنة ١٩٥١م) جـ٤ ص ١٣٤.

كتب المختارات الأدبية، وعلى رأس هذه الكتب كتاب المفضليات وكتب الحماسة لأبى تمام والبحترى وابن الشجرى وعلى بن أبى الفرج البصرى والخالديين. وكتب الشواهد النحوية. كالخزانة وشرح الشواهد الكبرى للعينى. وكتب الأمالى والمحاضرات وهى الكتب التى تعنى بشعر هؤلاء من حيث هو مادة للدراسة الأدبية كالكامل للمبرد، وقد انفرد بقطعة للسليك لم تذكر فى مصادر أخرى(١)، والأمالى والنوادر لأبى على القالى والتنبيه لأبى عبيد البكرى والبيان والتبيين للجاحظ، وقد نسب شعراً إلى عبيد مجهولين استبعدناه لأننا لم نستدل على أصحابه ولاعلى الزمن الذى عاشوا فيه.(٢) وكتب السيرة والصحابة كالروض الأنف وسيرة ابن هشام والإصابة وأسد الغابة والاستيعاب لمن أسلم من المخضرمين ومن عاشوا فى صدر الإسلام كعامر بن فهيرة رضى الله عنه ومحرز مولى أبى هريرة.

وكتب الأمثال كمجمع الأمثال للميدانى؛ فهو يسوق المثل ويتبعه بقصته وغالباً ما ترتبط القصة إن كانت متصلة بشاعر من هؤلاء ببعض شعره كما فى «العاشية تهيج الرابية» و «أعدى من السليك».

وهناك كتب أخرى أقل أهمية بالنسبة لما نحن فيه آثرنا عدم ذكرها تجنباً للتطويل. وقبل أن نترك شعر هؤلاء المغمورين ومصادر استقائنا له نسجل أن هذا الشعر:

١- قليل بالقياس إلى ما وصل إلينا مجموعاً فى ديوان عنترة وسحيم وشعر الشنفرى.
٢- النصيب الأكبر منه خاص بالسليك.
٣- مقطوعات قصيرة قلما ترقى إلى حد القصائد.
٤- بعضه مسند وسائره مجهول الرواة.
٥- منه ما تكرر فى مصادر مختلفة ومنه ما انفرد به مصدر أو مصدران.
٦- ماتكرر منه فى المصادر سلم بعضه من التغيير وأصاب بعضه - وهو الأكثر - تغيير فى الألفاظ والتراكيب أو الترتيب أو الزيادة والنقصان.

---

(١) الكامل للمبرد ت. محمد أبو الفضل إبراهيم (دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة بدون تاريخ) جـ٣ ص ٦٩.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ - ت. عبدالسلام هارون (ط٤ - مكتبة الخانجى بمصر بدون تاريخ) جـ١ ص ٣٨٨. جـ٢ ص ٢٨٥. جـ٣ ص ٢٥٣. ٣٤٤.

لهذه الاعتبارات جميعها وخاصة الاعتبار الأول المتمثل فى قلة هذا الشعر بالقياس إلى الشعر المجموع المحقق رأينا:

١- الاعتماد على الشعر المجموع (لعنترة وسحيم والشنفرى) واعتباره المصدر الأول لدراسة شعر العبيد.

٢- تقسيم شعر المغمورين إلى مجموعتين: مجموعة موثقة وأخرى دون ذلك.

٣- اتخاذ المجموعة الموثقة مصدراً ثانياً لهذه الدراسة وإرجاء المجموعة الأخرى.

٤- اعتبار ما أرجىء شعراً مكملا، فما توافق منه مع المصدرين الأولين عضدا به وإلا استبعدناه.

وهذا يعنى أننا لن نستخلص سمة فنية أو أسلوبية أو شيئاً من هذا القبيل من الشعر المؤجل مالم تكن هذه السمة موجودة بالفعل فى المصدرين الأولين. وهذا هو المقياس الفنى الذى سوف نحتكم إليه فى قبول بعض هذا الشعر واستبعاد بعضه أملا فى الوصول إلى نتائج صحيحة نطمئن إليها وتجنباً لكل ما من شأنه أن يضللنا أو ينأى بنا عن الجادة فى هذا البحث.

الفصل الأول

الرق والرقيق فى الجاهلية وصدر الإسلام

١ ـ فى العصر الجاهلى :

- الحرب مصدراً للرق
- رق البيع والشراء
- المكانة الاجتماعية للرقيق

٢ ـ فى صدر الإسلام :

- مصادر الرق فى الإسلام
- المكانة الاجتماعية للرقيق

١- فى العصر الجاهلى

الحرب مصدراً للرق:

الحرب ظاهرة عامة، لم تخل منها أمة، ولم يكد يخلو منها جيل. تتعدد أسبابها وتتفاوت فى أهدافها ووسائلها، لكنها تلتقى أو تكاد فى النتائج والغايات. وقد كانت البيئة العربية فى العصر الجاهلى مسرحاً هائلا لكثير من الحروب والغارات. كانت أشبه بأتون مشتعل، لاتهدأ نيرانه إلا لتعود فتشتعل من جديد!!

ونظرة سريعة فى كتب الأدب والأخبار تكفى للوقوف على مدى ضراوة هذه الحروب وكثرة أيامها. فالعربى - بطبيعة تكوينه، وبتأثير الصحراء فيه - عصبى المزاج، حاد التفكير، يثور لأتفه الأسباب، أنف لا يرضى لكرامته أن تخدش، ولا لعرضه أن يهان. وولاؤه للقبيلة كان يدفعه إلى نصرة كل فرد فيها ظالماً كان أو مظلوماً، وقد عبر عن هذا قريط بن أنيف حين قال:

«لايسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ماقال برهانا»(١).

وكثيراً ما يحدث احتكاك بين القبائل، وخاصة القبائل التى اعتادت الترحال وراء الكلأ والماء، ولا يلبث هذا الاحتكاك أن يتصاعد فيتناوشون، وتشتد المناوشة فيندلع القتال(٢).

ويعتز العربى بقوته، ويفخر بقوة قبيلته وقدرتها على انتجاع الكلأ أيا كان وتتبع مساقط الماء وانتزاع المرعى من القبائل الأخرى. ولا يأبه لانتهاك حمى غيره، ما دام صاحبه ضعيفاً، ولا يلتفت إلى ما فى ذلك من ظلم؛ فالحياة للقوى، ولابقاء للضعيف.

«إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً»(٣).

بل إن مفهوم الظلم - قيمة أخلاقية - يختلف من بيئة إلى أخرى، ومن زمان إلى زمان. فالظلم فى البيئة الجاهلية يكاد يفهم - بل كان يفهم - عند بعضهم على أنه مظهر للقوة ودرع للتفوق وضمان للاستمرار. لذلك كان كثير من شعراء الجاهلية يفخرون به ويتهاجون بالعجز عنه.

---

(١) ديوان الحماسة - لأبى تمام - جـ١ - ص ١٣٦.

(٢) هناك أيام كثيرة كان سببها الصراع حول المرعى، منها: يوم الزورين بين بكر بن ربيعة وتميم، ويوم النسار لضبة وتميم على بنى عامر. (أيام العرب فى الجاهلية ص ٢١٣، ص ٢٨٠).

(٣) الأصمعيات - لأبى سعيد عبدالملك بن قريب - ت. أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون (ط٤ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦م) من الأصمعية ٧٦ ص ٢١٤، وهو لمعود الحكماء معاوية بن مالك.

ولم يكن هذا الطيش خلقاً عاماً فى الجاهلية، فقد كان هناك الحلماء، وكان الحلم فضيلة يتمادحون بها. بيد أن هؤلاء الحلماء كانوا قليلين، وكان وصوت الحلم خافتاً بجوار صوت القوة الذى يرتفع ويعلو فى كل مكان. وكانت بعض القبائل تدلل على قوتها بمهاجمة القبائل الأخرى وإيقاع الظلم بها وإن لم تبدأها بالهجوم، كيلا يظن بها الضعف أو الجبن(١).

ولم تكن القبيلة تحترم غيرها من القبائل إلا على أساس القوة والبطش، فالقبيلة القوية مرهوبة الجانب، محمية، والقبيلة الضعيفة مطمع لغيرها، لذلك وجدت ظاهرة الأحلاف. غير أن هذه الأحلاف لم تكن تلبث إلا قليلا حتى تنفك، وينقلب التماسك إلى نوع من التنافر والتناحر والصراع.

وكانت بعض الحروب تنشأ رغبة فى السلب والحصول على الغنائم، يغيرون على القبائل القريبة الضعيفة ينهبون ويسلبون ويقتلون. وكانت القبائل العربية جميعها معرضة لهجمات فئة من الناس تعيش على السلب والنهب، فئة تشبه إلى حد بعيد قطاع الطرق فى عصرنا الحديث، فئة الصعاليك من الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم، ومن أبناء الإماء السود الذين نبذهم آباؤهم ولم تعترف بهم قبائلهم لعار ولادتهم. بل إن قبائل برمتها كانت تمارس الصعلكة وتتخذها مسلكاً كفهم وهذيل وكانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف(٢).

وساعد عل كثرة الحروب وانتشارها فى العصر الجاهلى عدم وجود سلطة مركزية يخضع لها العرب جميعاً(٣). كذلك كان اليهود وراء بعض الحروب وبخاصة فى يثرب؛ إذ كانوا يؤججون نيران العداوة بين الأوس والخزرج، يذكرونهما بالقتلى، ويمدونهما بالسلاح، ويحالف بعضهم الأوس، ويحالف بعضهم الخزرج، فإذا انطفأت الحرب نفخوا فى رمادها لتعود وتشتعل من جديد، وهكذا دواليك(٤).

وكان للمرأة دور بارز فى اشتعال الحروب بما تحظى من مكانة واهتمام؛ فهى شرف القبيلة، وأى اعتداء عليها هو اعتداء على القبيلة كلها، وأية إساءة لها تكفى لأن يهب رجال القبيلة ليمسحوا عنها وعن القبيلة مالحق بهما من عار، فالإساءة إلى المرأة فى نظرهم عار، والعار عندهم لايمحى إلا بالدم.

---

(١) عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنترة- ناهد الشعراوى- ص١١٠، ١١١.
(٢) العصر الجاهلى - د. شوقى ضيف (دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١م) ص ٣٧٥.
(٣) شعر الحرب فى العصر الجاهلى - د. على الجندى (مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة سنة ١٩٦٣م) ص ١٧.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام- ت. طه عبدالرءوف سعد (ط٣- مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م) جـ٢ ص ١٣٥.

وكانت المرأة تخرج مع الجيوش المقاتلة لتداوى الجرحى وتحمل جثث القتلى وتطهو الطعام وتقوم بتوصيل الماء وتقف من وراء المقاتلين تحفزهم وتشد من أزرهم وترفع من روحهم المعنوية بالشعر والغناء والضرب على الدفوف(١).

فإذا وضعت الحرب أوزارها وخمد لهيبها عملت المرأة على تجديدها بإيغار الصدور لإدراك الثأر ورد الاعتبار.

والثأر عند العربى له حرمته وقداسته، لايتخلى عنه إلا ضعيف أو جبان، وهو واجب فى عنق الموتور، بل فى عنق قبيلته كلها؛ لأنه إن صرخ هبت لنصرته، وإن استغاث وجد الرجال على أهبة الاستعداد لسكب الدماء، فيزداد عدد الموتورين، وترتفع صرخات أخرى للثأر، وهكذا حتى يتدخل الحكماء فيقدرون عدد القتلى من هؤلاء وهؤلاء وتدفع الديات.

والدية عندهم مائة من الإبل للنفس الواحدة، فإذا كان القتيل ملكاً بلغت ديته ألف بعير. وعلى الرغم من ارتفاع قيمة الدية إلا أنها لم تكن تساوى شيئاً فى نظر الموتور، لذلك كنا نراه فى كثير من الأحيان يأبى قبولها ويعدها عاراً ويعتبرها دليل ضعف وعجز، ويفضل القتال عليها، وإن كلفه هذا القتال وكلف قومه مزيداً من القتلى ومزيداً من الدماء(٢).

ولم تكن المعارك تنجلى عن قتلى فحسب، وإنما كان هناك إلى جانب هؤلاء القتلى الأسرى من الرجال والسبايا من النساء والأطفال. ويتوقف مصير الأسرى والسبايا على نوع الحرب وطبيعتها والملابسات التى تحيط بها؛ فإن كانت الحرب حرب ثأر قتلوا فى الغالب(٣)، وإن لم تكن كذلك كان المن والفداء(٤)، فإن لم يجدوا من يفديهم أو يسعى فى تخليصهم، ولم يمن عليهم آسروهم بالعتق، سخروا لديهم واسترقوا وصاروا عبيداً عندهم.

واستخدام الأسرى واسترقاقهم قديم عند العرب؛ فالطبرى يذكر أن سيف بن ذى يزن بعدما انتصر على الأحباش أمعن فى تقتيلهم حتى أفناهم إلا بقايا ذليلة قليلة فاتخذهم عبيداً له وجمازين يسعون بين يديه بحرابهم(٥). وكانت أم أيمن حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) السيرة النبوية، جـ٣ ص ١٥، ١٦، ١٩، ٢٠، المرأة فى الشعر الجاهلى - د. أحمد محمد الحوفى (ط٣ - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ) ص ٤٥١.

(٢) يؤكد ذلك قول جليلة لأبيها حين سألها عما يكف الحرب بين تغلب وبكر:
"أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات"؟ قالت: "أمنية مخدوع ورب الكعبة!! أبالبدن تدع لك تغلب دم ربها"؟ تعنى كليبا.
وحين أشار التغلبيون على المهلهل بالتريث وقبول الدية لأنه - لا يجدع بحرب أقاربه إلا أنفه ولا يقطع إلا كفه قال: "جدعه الله أنفا وقطعها كفا والله لا تحدثت نساء تغلب أنى أكلت لكليب ثمنا ولا أخذت له دية.

(٣) الإصابة لابن حجر العسقلانى جـ٢ ص ٤٨١، ٤٨٢. وأيام العرب فى الجاهلية ص ٩٩، ٢٧٨.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٤٤، ٣٤٥. معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٥٦، ص٢٥٧. المفضليات ص ١٥٣، ٣٣٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك جـ٢ ص ١٢٠.

من بقايا جيش أبرهة الذى هاجم مكة فى عام الفيل(١). وفى يوم جزع ظلال أغاربنو مرة من ذبيان على التيم فقتلوا وأخذوا سبياً كثيراً فلم يعتقوا منه شيئاً واستخدموهن(٢). وكان لسميفع بن ناكور الكلاعى أربعة آلاف أهل بيت من العرب مماليك أسرهم فى الجاهلية ثم أعتقهم بعد ذلك فى الإسلام(٣). ورووا أن بسام بن قيس بن مسعود قال لأمه ليلى بنت الأحوص إنى «قد أخدمتك من كل حى أمة، ولست منتهياً حتى أخدمك أمة من ضبة»(٤). ويقول قيس بن الخطيم متوعداً الخزرج:

«فلن ننفك نقتل ماحيينا   رجالكم ونجعلكم عبيداً»(٥).

وقد لايستخدم العربى أسيره، ولا يسترقه بنفسه، لأنه لا يأمن جانبه وهو خصمه. فإن أمن جانبه فإنه لايأمن جانب قومه، إذ ليس من المعقول أن يروا أحدهم مسترقاً ولايحاولون تخليصه ولو بالعنف. لذلك كنا نرى الآسرين يعمدون إلى بيع الأسرى والسبايا الذين طال مكثهم ليتفرقوا فى القبائل البعيدة، وليدخلوا عالم الرق من باب البيع والشراء. وفى هذا النوع من الرقيق يقول عبد الله بن عرفة:

«رأيت رجالا لم نكن لنبيعهم   يباعون بالبعران مثنى وموحـــداً

طعامهم لحـــم حـــرام عليهـــم   ويسقون بعد الرى شرباً مسردا»(٦).

رق البيع والشراء:

الفقر والغنى صفتان متلازمتان فى كل أمة، فما وجد فى أمة فقير إلا ووجد معه الغنى، ولا وجد فيها غنى إلا ووجد معه الفقير. لكن الذى يختلف بين أمة وأخرى هو النسبة بين هؤلاء وهؤلاء، والعلاقة التى تربطهما معاً تبعاً لأخلاقيات كل أمة وما تعارف عليه أبناؤها من عادات وتقاليد.

---

(١) بين الحبشة والعرب - د. عبدالمجيد عابدين (دار الفكر العربى - القاهرة - بدون تاريخ) ص ١٠٨.
(٢) أيام العرب فى الجاهلية ص ٣٧٤.
(٣) النقائض جـ١ ص ٤٦.
(٤) أيام العرب فى الجاهلية ص ٣٨٢.
(٥) ديوان قيس بن الخطيم - ت. ناصر الدين الأسد (ط١ - مكتبة دار العروبة - القاهرة سنة ١٣٨١هـ سنة ١٩٦٢م) ص ٩٢.
(٦) أيام العرب فى الجاهلية ص ١٨٨.

وفى البيئة العربية وجد الفقير ووجد الغنى، غير أن الفقر كان أكثر شمولا وأوسع دائرة خاصة فى البادية حيث لايكاد يفلت منه إلا سادة القبائل ورؤساؤها، وهؤلاء كان البون شاسعاً بين ثرائهم وفقر العامة[١]، فهم يملكون مئات الإبل، ولديهم الحظائر الكثيرة، والبساتين، ويعمل بعضهم فى التجارة. وهم فى ذلك كله محتاجون إلى اليد الرخيصة التى تقوم لهم بهذه الأعمال، ويفضلون اليد التى تعمل ولا تنتظر مقابلا غير لقمة العيش، يد العبيد. تلك اليد التى تتوجه حسب إرادتهم دون تذمر أو استياء، ودون مطالبة بحق لأنها لاتظن لنفسها حقاً فى الحياة!!

ولم يكن الحصول على هذه اليد بالأمر العسير، فما على السيد إلا أن يذهب - أو يبعث من ينوب عنه - إلى الأسواق ليشترى ما يشاء منها بأسعار زهيدة يسيرة، ثم يدربها على الأعمال التى يريد أن يسخرها فيها.

وكان بعض الأغنياء يشترون الرقيق لمجرد الزينة، ولأن شراء الرقيق مظهر من مظاهر الغنى، لذلك لانعجب حين نسمع ذلك الشاعر الفقير يقول لامرأتيه وقد طلبتا منه الطلاق لفقره: لاتعجلا فلعلى يكثر المال عندى ويرى الناس العبيد يروحون ويجيئون فى بيتى، ونجر أذيال النعمة، ونهنأ بالعيش:

«تلك عرساى تنطقان على عمد	لى اليوم قول زور وهتـــــر
هما سالتانى الطلاق أن رأتامـــا	لى قليلا قد جئتمانى بنكـــر
فلعلـى أن يكثر المـــال عنـــدى	ويعرى من المغارم ظهـــــرى
وتــــرى أعبـــد لنـــا وأواق	ومناصيف من خوادم عشـــــر
ونجـــر الأذيال فـــى نعمـــة زو	ل تقولان ضع عصاك لدهـــــر»[٢]

وهناك صورة غريبة لرق البيع فى الجاهلية، حين يقدم المرء بقريبته فيبيعها بالأسواق لمن يريد التسرى بها. «روى أحمد وأبو داود والدار قطنى والطبرانى من طريق ابن إسحق عن الخطاب بن صالح عن أمه عن سلامة بنت معقل امرأة من خارجة قيس بن عيلان قالت: قدم بى عمى فى الجاهلية فباعنى من الحباب بن عمرو فاستسرنى فولدت له عبد الرحمن..»[٣]. وكان من هؤلاء عدد كبير فى المدينة[٤].

---

(١) الشماخ بن ضرار الذبيانى- د. صلاح الدين الهادى (دار المعارف- القاهرة سنة ١٩٦٨م) ص٣١.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ - ت. عبدالسلام هارون - جـ١ ص٢٣٥. وفى الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ١٧ ص ٢٨١ نسبها الزبير بن بكار لنبيه بن الحجاج - وهو من شعراء قريش، قتل يوم بدر مشركاً - مع اختلاف يسير.

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد) جـ١ ص ٣٠١.

(٤) مجتمع المدينة فى عهد الرسول- عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس (الناشر: عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض سنة ١٤٠٢هـ سنة ١٩٨٢م) ص٦٨.

وكانت السرقة والخطف من الوسائل التى تمد الأسواق بعدد وافر من الرقيق. والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد خرجت سعدى بنت ثعلبة من بنى معن من طيىء بابنها زيد لتزيره أهلها فأصابته خيل من بنى القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة وهو يومئذ ابن ثمانية أعوام(١).

وخرج سلمان الفارسى إلى بلاد الشام، وأقام بعمورية فترة سمع فيها من أحد الرهبان أن نبياً سوف يبعث بأرض العرب، فمكث قليلا ثم مر به نفر من كلب تجار فقال لهم: احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنمى. فحملوه، حتى إذا بلغوا وادى القرى باعوه لرجل يهودى(٢). وذكر البلاذرى من طريق عوانة بن الحكم أن سمية والدة زياد ابن أبيه كانت من أهل زيدورد من عمل يشكر فسرقها الكوا اليشكرى وسماها سمية بعد أن كان اسمها يامح(٣).

وكان الصعاليك فى الجزيرة ينهبون ويسرقون، ولا يتورعون عن خطف النساء والأطفال، ثم يوافون بهم الأسواق فيبيعونهم، أو يستبقونهم عندهم، وكانوا يحتاطون فى غاراتهم ليحققوا لأنفسهم أقصى درجات النجاح(٤).

وهناك إلى جانب غارات الصعاليك غارات أخرى أكثر عنفاً وأشد شراسة، تشنها القبائل من أجل النهب والسرقة والسبى(٥)، وكانوا يفضلون بيع السبايا التى يحصلون عليها من تلك الغارات؛ لأنهم لايأمنون أن يسعى قومهن إلى تخليصهن بالعنف. وتعتمد غارات السبى على عنصرى المباغتة والسرعة، ولاتحدث فيها غالباً مواجهة، لأنهم لايشنونها إلا على غرة، وكانوا يستغلون خروج الرجال لحرب قبيلة أخرى أولأى سبب من الأسباب فيغيرون على الخلوف من النساء والأطفال، ويسرعون بهم قبل أن ينجح الصريخ فى استغاثة القوم ثم يوافون بهم الأسواق ليبيعوهم فيها بيع الجلائب والعبيد.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام - ت. مصطفى السقا - إبراهيم الإبيارى - عبدالحفيظ شلبى (ط٢ - مكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة سنة ١٩٥٥م) جـ٢ص ٢٤٧. الاستيعاب لابن عبدالبر (ط. مصطفى محمد) جـ١ ص ٥٢٦، الإصابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد) جـ١ ص ٥٤٥/٥٤٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام - ت. مصطفى السقا - إبراهيم الإبيارى - عبدالحفيظ شلبى جـ٢ ص٢١٨. الإصابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد(جـ١ ص ٥٤٥، ٥٤٦.

(٣) الإصابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد) جـ٣ ص ٣٠٠.

(٤) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (ط. أبوالفضل إبراهيم) جـ٢١ ص ١٤٩، ١٥٠.

(٥) أيام العرب فى الجاهلية ص ٤٢، ١٢٥، ١٧٨، ١٨٢، ٣٧٥.

وكانت أسواق العرب المشهورة أفضل مكان يباع فيه العبيد، فى مكة ويثرب والطائف والبحرين وغيرها من البلدان. وربما كان سوق الرقيق بمكة أشهر هذه الأسواق، وفيه بيع صهيب بن سنان لعبد الله بن جدعان(١)، وقد أشار إليه ابن سعد وابن قتيبة(٢)، وعناه قيس بن زهير بن جذيمة العبسى حين عارض ظعائن الربيع بن زياد وأخذ زمام أمه فاطمة وزمام زوجه فقالت أم الربيع: «ماذا تريد يا قيس»؟ قال: «أذهب بكن إلى مكة فأبيعكن»(٣). ومن أسواق مكة المشهورة: سوق عكاظ،وفيه بيع زيد بن حارثة لحكيم بن حزام بن خويلد(٤)، وذو المجاز بالقرب من عكاظ، وفيه بيع عبيد والد أبى وجزة الشاعر المخضرم لوهب بن خالد(٥).

وفى يثرب كانت تجارة الرقيق مزدهرة(٦)، وفيها بيع سلمان الفارسى رضى الله عنه(٧)، ومن أسواقها: سوق مجنة، وسوق بنى قينقاع، وسوق زيادة، وسوق الجسر، وسوق الصفصاف.

وإلى جانب هذه الأسواق فى مكة ويثرب كانت هناك أسواق أخرى مشهورة مثل سوق دومة الجندل فى شمال نجد، وسوق خيبر، وسوق الحجر باليمامة، وسوق صحار، ودبا بعمان، وسوق المشقر بهجر، وسوق الشحر، وسوق حضرموت، وسوق صنعاء وعدن ونجران. وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه(٨).

وربما بيع العبيد فى غير هذه الأسواق الجامعة التى تقوم فيها تجارات موسمية، فقد يتفق أن ترحل القبيلة بسبيها فيفد عليها من يريد الشراء فينعقد البيع(٩).

وكان التجار يقطعون الصحراء ويذهبون إلى البلاد المجاورة لجلب الرقيق، فقد اشترى صهيب بن سنان من أرض الروم وكان أسيراً بها، اشتراه رجل من كلب ثم باعه بمكة لعبد الله بن جدعان(١٠).

---

(١) الإصابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد) جـ٢ ص ١٨٨.
(٢) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١٦١ / المعارف لابن قتيبة ص ١٣٨.
(٣) الكامل لابن الأثير (ط. ليدن) حـ١ ص ٤٢١.
(٤) الاستيعاب لابن عبدالبر (ط. مصطفى محمد) جـ١ ص ٢٦.
(٥) الإصابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد) جـ٣ ص ٦٠٩.
(٦) مجتمع المدينة فى عهد الرسول - عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس - ص٧٨.
(٧) الإصابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد) جـ٢ ص ٦٠.
(٨) العصر الجاهلى - د. شوقى ضيف ص ٧٧.
(٩) القيان والغناء - د. ناصر الدين الأسد (ط٣ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م) ص ٣٦.
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام - ت. مصطفى السقا - إبراهيم الإبيارى - عبدالحفيظ شلبى - جـ٢ ص ٢٦١، ٢٦٣، الإصابة لابن حجر العسقلانى (ط. مصطفى محمد) جـ١ ص ١٨٨.

وكانت بالحبشة منذ عهد قديم أسواق لبيع العبيد من الأفارقة السود. وكان لهؤلاء العبيد مناطق على البحر الأحمر ولاسيما فى ميناء عدول، حيث كانوا يخصون ويحملون فى السفن إلى بلاد العرب وغيرها (١).

وكانت عدن فى جنوب الجزيرة سوقاً هاماً للرقيق القادم من بلاد النوبة. وتعد النوبة إحدى المصادر المشهورة لمد الجزيرة بالرقيق، ويبدو أن النوبيين كانوا معروفين لدى كثير من القبائل العربية كبنى ثعلبة وبنى حنيفة.

وقد نقل الجاحظ عن بعض السود قولهم: «وأنتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط، وإنما رأيتم السبى يجىء من سواحل قنبلة وغياضها، وأوديتها... وقنبلة اسم الموضع الذى ترقون فيه سفنكم إلى ساحله» (٢).

كان العرب يحملون فى سفنهم التمور، فترسوا فى سواحل إفريقيا الشرقية وفيها يبيعون التمور ويشترون بأثمانها عبيداً من الزنوج، ومنهم من كان يسرق أبناء الزنوج بالتمر ويخدعونهم به (٣).

وكانت بلاد فارس إحدى هذه المصادر التى تمد الجزيرة بالرقيق الأجنبى، وكان الاختطاف أحد أسباب رقهم، حين يأتون إلى بلاد العرب لأغراض تجارية أو دينية فيؤسرون ثم يباعون بالأسواق (٤).

ويسمى القائم ببيع الرقيق رقاقاً (٥). ويتفاوت ثمن العبد أو الجارية تبعاً لجنسه وشكله وما يجيد من الأعمال. وكان الرقيق الأبيض - ويسميه العرب الأحمر أو الأصفر - مفضلا على الأسود وأغلى ثمناً منه، ففى رجاله بأس، وفى نسائه جمال وشقرة يهواهما العربى، وفى غلمانه حسن ووسامة، ومنه من يجلب من بلاد متحضرة وقد اكتسب ثقافة وفناً (٦).

---

(١) بين الحبشة والعرب - د. عبدالمجيد عابدين ص ١٩، ١٠٦.
(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (ط. ليدن سنة ١٩٠٣) ص ٧٦.
(٣) الرق ماضيه وحاضره د. عبدالسلام الترمانيني (العدد ٢٣٠ من سلسلة عالم الفكر - الكويت = سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٥م) ص ١٠٤.
(٤) الإصابة لابن حجر العسقلاني جـ٢ ص ٦٢، ٦٣، ، وجـ٤ ص ٢٤٩/ مجتمع المدينة فى عهد الرسول - ص ٧٥.
(٥) بلوغ الأرب للألوسى جـ٣ ص ٣٨٧. وصار الرقاق يعرف بعد ذلك بالنخاس.
(٦) الرق ماضيه وحاضره د. محمد عبدالسلام الترمانيني ص ١١٣، ١١٤.

وكان ثمن الغلام يصل فى بعض الأحيان إلى أربعمائة درهم[١]. وكان الرقاقون يصنفون أنواع الرقيق وأجناسه وأصوله ويولدون بعض الأنواع من بعض فينشأ منهم المولدون وفيهم محاسن الجنسين[٢]. ويعرضون هذه الأصناف فى السوق زمراً زمراً، ويقف الرقيق على منصة ليراه المشترون، وينادى الرقاق عليه ويمتدح مزاياه ويعدد محاسنه، وتجرى المزايدة، فيشتريه من يدفع ثمناً أغلى[٣]. وللمشترى أن يقلب العبد أو الأمة بنظره ويده كما يقلب أية سلعة يريد شراءها ليأمن خدع الرقاقين وحيلهم وتدليسهم فى إخفاء العيوب[٤].

وقد راجت تجارة الرقيق فى الجزيرة، وازدهرت فى نواح عديدة منها، بخاصة فى مكة ويثرب. وقد ذهب أحد الباحثين المعاصرين إلى أن تجارة الرقيق كانت من أهم موارد الثروة عند القرشيين فى الجاهلية[٥].

وكان ابن جدعان واحداً من هؤلاء القرشيين الذين ربحوا من التجارة فى الرقيق ربحاً وفيراً، وكان ثرياً ثراء مفرطاً، وقد شبهه بعض الشعراء بقيصر فقال:

«يوم ابن جدعان بجنب الحزورة كأنه قيصر أو ذو الدسكرة»[٦].

المكانة الاجتماعية للرقيق

شاع الرق فى الجزيرة وانتشر، وكثر الرقيق من الإماء والعبيد كثرة بالغة جعلت منه طبقة اجتماعية كبيرة لها معالمها المميزة وسماتها الواضحة[٧]. وترجع هذه الكثرة إلى انتشار الحروب وشيوع السبى، وتناسل الرقيق، والتسرى بالإماء، فقد كان ابن الحرمن الأمة يستعبد إلا إذا أظهر مهارة فائقة تدفع قبيلته إلى الاعتراف به[٨]، وكان بالمدينة فئة من العبيد يعرفون باسم المولدين ينسبون إلى بلدانهم وقبائلهم. فيقال مولدى حسمى ومولدى مكة، ومولدى السراة، ومولدى مزينة. وكانوا يباعون مثل أى رقيق آخر[٩].

---

(١) الإصابة جـ٢ ص ٥٦٣.
(٢) الرق ماضيه وحاضره، د. عبدالسلام الترمانينى ص ١٠٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٠٦.
(٤) المرجع نفسه والصحيفة.
(٥) محمود سيد أحمد فى كتابه "الإسلام يحارب التفرقة العنصرية" (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة سنة ١٩٦٢م) ص ٤٣.
(٦) معجم ما استعجم للبكرى (ط. السقا) مادة حزورة جـ٢ ص ٤٤٤/العصر الجاهلى- د. شوقى ضيف- ص٢٤، ٥١.
(٧) القيان والغناء- د. ناصر الدين الأسد- ص٣٠.
(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة - ت. أحمد محمد شاكر جـ١ ص ٢٥٦.
(٩) مجتمع المدينة فى عهد الرسول - عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس ص ٧٤، ٧٥.

بالإضافة إلى غزارة الرقيق المجلوب من خارج الجزيرة، من البلاد المجاورة لها كالحبشة والنوبة. وقد عقد ابن حبيب فصلا لأبناء الحبشيات[١]. وأشار ابن حجر العسقلانى إلى كثير ممن عاشوا منهم حتى ظهر الإسلام ودخلوا فيه[٢]. وفى أسد الغابة أسماء كثير من الروم والروميات كزنيرة مولاة بنى مخزوم أو بنى عبد الدار، وأم أبى الروم بن عمير، وأم تمام بن عباس بن عبد المطلب، وكلاهما أم ولد، والأزرق غلام الحرث بن كلدة الثقفى[٣].

وكان بمكة قوم يعرفون بالأحابيش، وهم من قريش أو من عبيد الحبشة، تحالفوا وسموا بذلك[٤]. وكان سلمان من الفرس.

ويبدو أن اللون الأسود كان هو اللون السائد على الرقيق الأجنبى؛ فأكثره مجلوب من ساحل أفريقيا الشرقى، وأغلبه يرجع إلى أصول إفريقية. ولقلة الرقيق الأبيض ارتفع ثمنه وفضل فى كثير من الأحيان. وربما كان مرجع هذا التفضيل إلى أن بعضه كان من أصل عربى.

وكان هؤلاء العبيد يعيشون داخل القبيلة فى منزلة دون منزلة الأحرار. كانت القبيلة - وهى الوحدة الاجتماعية فى العصر الجاهلى - تتألف من ثلاث طبقات، طبقة الصرحاء، وطبقة الموالى، ثم طبقة العبيد والإماء.

أما الصرحاء فهم أبناء القبيلة ذوو الدم النقى الذى لاتشوبه شائبة، وهم الذين تتمثل فيهم العصبية القبلية بأقوى معانيها وفيهم رياستها وبيوتات الشرف فيها. وأما الموالى فمنهم الخلعاء الذين لفظتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم فلجئوا إلى قبائل أخرى يحتمون بها، ومن تحرر من العبيد بالعتق أو الشراء أو أى شكل من أشكال التحرر الأخرى، وكانت هذه الطبقة فى منزلة دون منزلة الصرحاء؛ لأن أحرارها ليسوا من أبناء القبيلة الأصليين، وفوق منزلة العبيد؛ لأنهم أحرار. ويعامل المولى على النصف من الحر؛ فديته نصف دية الحر، ونصيبه من الغنائم نصف نصيب الحر. ويأتى فى المنزلة الأخيرة الإماء والعبيد[٥].

---

(١) المحبر لابن حبيب - ت. د. إيلزه ليختن شتيتر (ط. حيدر أباد الدكن سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م) ص٣٠٦: ٣٠٩.

(٢) الإصابة (ط. مصطفى محمد) جـ١ ص ٣٩، ٦٧، ١٦٥، وجـ٣ ص٣٧٧، ٥٧٥، ٥٩٦، ٦٢٨، وجـ٤ ص١٦٨، ٢٠٠، ٢٦٦، ٤١٧ ومنهم أسلم وأنجشة الحادى وبلالٌ بن رباح وأبو لقيط وأبرهة الحَبشية وحمامة أم بلال وبركة أم أيمن وهلال.

(٣) القيان والغناء- ص ٣٣.

(٤) بين الحبشة والعرب - د. عبدالمجيد عابدين ص ١٣.

(٥) العصر الجاهلى - د. شوقى ضيف ص ٦٧/ عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنتره ص٤٧، ٤٨.

وعلى الرغم من تأخر منزلة الرقيق كانوا يشكلون طبقة لها خطورتها وأهميتها. ومرد تلك الأهمية كثرتهم، وخطورة الأعمال التى كانت توكل إليهم وتنوعها تنوعاً واسعاً (١).

فعلى أكتافهم قام صرح الحياة، وبأيديهم اندفعت عجلة العمل فى العصر الجاهلى (٢)، بدءاً من الأعمال الحقيرة التى كان العربى يستنكف من القيام بها، وانتهاء بالأعمال التى شاركوا السادة فيها كالتجارة والخروج إلى القتال. فهم خدم فى البيوت يتوفرون على راحة سادتهم ويقومون بإعداد المجالس والشراب. وفى ذلك يقول أبو سفيان بن حرب وقد نزل على سلام ابن مشكم:

«سقانى فروانى كميتا مدامة　　　على ظمأ منى غلام ابن مشكم» (٣).

وتقوم الإماء بتجهيز الطعام، ويبدو أنهن كن يستقللن بالطبخ فى بيوت الأشراف، إذ كانت نساؤهم مترفات مترفعات أو مكفيات عن العمل. يقول طرفة:

«تبيت إماء الحى تطهى قدورنا　　　ويأوى إلينا الأشعث المتجرف» (٤).

وكان الغساسنة والمناذرة يتخذون الوصائف فى القصور من الإماء. يصف النابغة فى قصيدته التى يمدح بها عمرو بن الحرث الأعرج ملوكهم بأنهم:

«رقاق النعال طيب حجزاتهم　　　يحيون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائد بينهم　　　وأكسية الإضريج فوق المشاجب» (٥).

ومن شعر ابن قسوة فى امرأة مرفهة:

«وأهوت لتنتاش الرواق فلم تقم　　　إليه ولكن طأطأته الولائد» (٦).

وتقوم الإماء بجمع الحطب وحمله إلى البيوت وإعداده لإيقاد النار، على مافى ذلك من مشقة وتعب. يقول الأخنس بن شهاب التغلبى فى وصف الأطلال إن النعام يسير بها آمناً متثاقلا كإماء حواطب أعياهن ثقل الحمل:

«تظل بها ربد النعام كأنها　　　إماء تزجى بالعشى حواطب» (٧).

---

(١) القيان والغناء - د. ناصر الدين الأسد - ص ٣٠.

(٢) من العبارات التى لها دلالة هامة فى هذا الصدد قول أكثم بن صيفى لبنى تميم بعدما أوقع بهم كسرى: "أنتم قوم قد شاع فى الناس أمركم، وإنما كان قوامكم أسيفا وعسيفا". والأسيف هو العبد الأجير. أيام العرب فى الجاهلية ص ١٣٤.

(٣) الإصابة (ط. مصطفى محمد) جـ٣ ص ٣٣٣. والسيرة النبوية (ط. السقا) المجلد الثانى ص ٤٦.

(٤) ديوان طرفة ص ٤٤، ١٢٧.

(٥) ديوان النابغة الذبيانى ص ٤٧.

(٦) الأغانى (ط. أبوالفضل إبراهيم) جـ٢١ ص ٢٣٢.

(٧) المفضليات ص ٢٠٤.

ويشبه النابغة الذبيانى مشى الناقة وقد حادت عن شجر الأستن بمشى الإماء وهن يحملن الحطب:

«تحيد عن أستن سود أسافله مشى الإماء الغوادى تحمل الحزما» (١).

وكان الاحتطاب من عمل العبيد أيضاً. يدل على ذلك قول امرىء القيس:

«خرجنا نريغ الوحش بين ثعالة وبين رحيات إلى فج أخرب
إذا ماركبنا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتنا الصيد نحطب» (٢).

ويبدو أن جمع الحطب وحمله كان مقصوراً على الإماء والعبيد محتقراً من السادة؛ فقد عير ضرار الأسدى قوماً كانوا يزورون امرأته فى غيبته بأنهم أبناء إماء حواطب (٣).

ومن الأعمال الوضيعة التى كان يوكل للعبيد القيام بها الرعى؛ رعى الإبل والأغنام، وما يتصل به من حلب وبرى وصر. ويبدو أنه كان قاصراً على الرقيق؛ فلم يمارسه من الأحرار سوى الفقراء. يقول ذو الإصبع العدوانى فى التعريض بابن عم له كانت أمه أمة راعية:

«عنى إليك فما أمى براعية ترعى المخاض وما رأيى بمغبون» (٤).

ويقول سحيم عبد بنى الحسحاس:

«فما ضرنى أن كانت أمى وليدة تصر وتبرى باللقاح التواديا».

أى تشد الخرقة على أطباء الناقة وتبرى العيدان وتشدها على أخلافها لئلا يرضعها فصيلها (٥).

ومن الأعمال الخاصة بالإماء دون العبيد تمشيط النساء وتقيين العرائس وختن البنات والرضاع. ذكر ابن هشام أن أم غيلان مولاة دوس كانت تقين النساء فى الجاهلية (٦). وكانت أنمار مولاة شريق بن الأخنس ختانة بمكة، وهى أم سباع بن عبدالعزى الغبشانى وكان يكنى بأبى نيار. قتله حمزة يوم أحد وهو يقول: «هلم إلى يا ابن مقطعة البظور» (٧). وكانت ثويبة جارية أبى لهب ترضع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مقدم حليمة، وقد أرضعت قبله حمزة وعبد الله بن جحش (٨).

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى ص ٦٥.
(٢) معجم البلدان جـ١ ص ١٤٨.
(٣) الأغانى (ط. أبوالفضل إبراهيم) جـ٢٠ ص ٣٨٣.
(٤) المفضليات ص ١٦٠.
(٥) ديوان سحيم ت. عبدالعزيز الميمنى (الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٣٨٤هـ سنة ١٩٦٥م) ص ٢٦.
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ت. طه عبدالرءوف سعد - جـ٢ ص ٤٤.
(٧) المصدر نفسه جـ٣ ص ٢١.
(٨) الإصابة جـ١ ص ٣٥٣. جـ٤ ص ٢٥٠.

وكان بعض الإماء يجدن الغناء والعزف، واشتهرت غير واحدة منهن فى العصر الجاهلى (١). وكان بعض العشاق يستخدمون الإماء فى نقل الرسائل بينهم وبين معشوقاتهم، كالمرقش الأصغر وهو أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته فاطمة بنت المنذر، وكانت له خادمة تجمع بينهما يقال لها هند بنت عجلان (٢). وفيها يقول المرقش:

«يابنت عجلان ما أصبرنى   على خطوب كنحت بالقدوم» (٣).

وقيل إن هند بنت عجلان هى صاحبته التى كان يشبب بها فى قصائده (٤). وكانت هَريرة صاحبة الأعشى من الإماء كانت هى وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مرثد، قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (٥).

وقد وكل إلى الإماء أعمال خطيرة كالتجسس، فقد كن عيوناً لبعض السادة على خصومهم وأصدقائهم، يستكشفون لهم حقيقة أمرهم، ذكروا أن حذيفة بن بدر الفزارى أرسل جارية له خلف الربيع بن زياد العبسى لما قتل رجال حذيفة مالك بن زهير العبسى، وقال لها: «اذهبى إلى معاذة» - بنت بدر وامرأة الربيع - «فانظرى مايصنع الربيع». يقول الخبر: «فانطلقت الجارية حتى دخلت البيت واندست وراء المتاع فجاء الربيع فنفذ إلى البيت حتى أتى فرسه فتبض بمفرقته ثم مسح متنه حتى قبض بعكوة ذنبه ثم رجع إلى البيت ورمحه مركوز بفنائه فهزه هزاً شديداً ثم ركزه كما كان. وقال لامرأته: اطرحى لى شيئاً فطرحت له شيئاً، فاضطجع عليه وقال لها: إليك عنى فقد حدث أمر. ثم تغنى وقال:

نام الخلى وما أغمض حار   من سيء النبأ الجليل السارى ... الخ.

فرجعت المرأة فأخبرت حذيفة الخبر فقال هذا حين اجتمع أمر أخوتكم، ووقعت الحرب» (٦). قال أبو عمرو: «وكان النابغة قد قدم مع منظور بن زبان وسيار بن عمرو الفزاريين وكانا قد وفدا على النعمان فضرب عليهما قبة ليختص بهما مع قينة، فجعلا لا يؤتيان بشىء إلا بدآ بالنابغة. فقالت للنعمان إن معهما شيخاً لايؤتيان بشىء إلا بدآبـــه» (٧).

---

(١) تناولت دراسات كثيرة الغناء فى العصر الجاهلى وعلاقته بالإماء منها: القيان والغناء للدكتور ناصر الدين الأسد، والجوارى المغنيات لنايف العمروسى.
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ت. أحمد محمد شاكر - جـ١ ص ٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.
(٤) المصدر نفسه والصحيفة.
(٥) الأغانى جـ٨ ص ٧٧.
(٦) أيام العرب فى الجاهلية ص ٢٥٥، ٢٥٦.
(٧) ديوان النابغة الذبيانى ص ٢٩.

ولم تك تلك القينة إلا عيناً للنعمان. وعلى هذا نفهم قول النابغة بعد ذلك فى رثائه له:

«رأيتك ترعانى بعين بصيرة ... وتبعث حراساً على وناظـــرا
وذلك من قول أتاك أقـولـه ... ومن دس أعدائى إليك المآبرا»[١]

وقد تورط بعض الإماء فى أعمال دنيئة؛ فمنهن من كن قوادات، يدل على ذلك قول عائشة رضى الله عنها: «ليس الواصلة بالتى تعنون، ومابأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها!! ولكن الواصله أن تكون بغياً فى شبيبتها فإذا أسنت وصلته بالقيادة»[٢]. وفى شعر امرىء القيس والأعشى مايدل على ذلك[٣].

وكان العرب يسخرون العبيد فيما يحسنون من حرفة وصناعة، ومن لايحسن عملا كانوا يسخرونه فى الأعمال الحقيرة[٤]. وقد نبغ بعض العبيد فى أعمال النجارة والبناء والحدادة وصقل السيوف وبرى السهام وعمل الأقداح، وكان خباب بن الأرت نموذجاً رائعاً لهذا النبوغ، وكان قيناً يعمل السيوف بمكة فى الجاهلية[٥]. وكان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان يعمل الأقداح ويبيعها فى حجر زمزم[٦].

ومن العبيد من كانوا يقومون بحراسة القصور والحصون فى اليمن والحيرة وبلاد الغساسنة. ولا أستبعد أن يكون العبيد قد سخروا فى زراعة الأرض وسقايتها وحفر العيون والآبار وتشييد القصور والسدود فى تلك الأجزاء المتحضرة.

وقد استغل بعض السادة العبيد فى التجارة، وكان ميسرة غلام خديجة رضى الله عنها يخرج لها بالتجارة مع قريش إلى الشام واليمن[٧]. وكان لتميم الدارى خمسة غلمان يتاجرون له فى الخمور[٨].

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى ص ٦٨، ٦٩.
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ٤ ص ١٠٢.
(٣) ديوان امرىء القيس ص ١١٣. وديوان الأعشى ص ١١٤، ١٢٢.
(٤) الرق ماضيه وحاضره- د. عبد السلام الترمانينى- ص٥٦.
(٥) متن البخارى بحاشية السندى (دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- بدون تاريخ) جـ٢ ص٩.
(٦) السيرة النبوية لابن هشام- جـ١ ص٢٤٧.
(٧) المصدر نفسه ص ١٨٨.
(٨) الإصابة جـ٢ ص ١٧.

كما شارك بعض العبيد فى القتال كوحشى غلام جبير بن مطعم، وقد كلفوه بقتل حمزة رضى الله عنه يوم أحد وأغروه بالعتق إن نجح فقتله بحربته وكان يجيد الرمى بها(١). وفى يوم عين أباغ اقترح الحرث بن جبلة الغسانى على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة أن يخرج رجل من ولده لرجل من ولد المنذر فمن قتل خرج عوضه آخر فإن فني الأولاد خرج الملكان، فعمد المنذر إلى عبد من عبيده يجيد القتال ودفعه لملاقاة الخصم على أنه ابنه، وقد أجاد العبد وقتل اثنين من أبناء الحرث وألقى برأسيهما بين يديه(٢). وهذا يدلنا على أنهم كانوا يدربون العبيد على فنون القتال وإلا ما أجاد مثل هذا العبد وتفوق على اثنين من أبناء الملوك. وفى الأغانى بعث الحرث بن جبلة إلى المنذر بن ماء السماء بمائة غلام تحت لواء شمر بن عمرو يسأله الأمان على أن يخرج له عن ملكه ويكون من قبله فركن المنذر إلى ذلك وأقام الغلمان معه فاغتاله شمر وتفرق من كان مع المنذر وانتهبوا عسكره(٣).

وليس بعيداً عن الأذهان مشاركة عنترة بن شداد لقبيلته عبس فى كثير من الحروب التى خاضتها فى العصر الجاهلى، وقد كان نموذجاً للفروسية والتفوق فى القتال، وعلى الرغم من هذا فلم يكن له كسائر العبيد نصيب من الغنائم؛ لأنهم لم يكونوا يسهمون للعبيد. ولم يكن ولاء العبد للقبيلة كولاء السيد، ولم يكن يحرص على انتصارها حرص بنيها، ولا تشقيه هزيمتها كما تشقيهم؛ لأنه لن يكسب شيئاً ذا جدوى عند النصر، ولن يخسر شيئاً كبيراً عند الهزيمة، بل ربما حرص على انتصار الخصم إن كان مضطهداً فى قبيلته ويطمع فى الانتقال إلى قوم آخرين(٤).

وكان بعض العبيد يحتالون للحصول على لقمة العيش بالكهانة والعرافة؛ فقد كان لأبى بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشىء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام أتدرى ما هذا؟ فقال أبو بكر وما هو؟ قال: تكهنت لإنسان فى الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته فلقينى فأعطانى بذلك فهذا الذى أكلت منه. فأدخل أبو بكر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ت. طه عبدالرءوف سعد جـ٣ ص ١٥، ٢١.
(٢) أيام العرب فى الجاهلية ص ٥٢.
(٣) الأغانى جـ٢ ص ١٧٢.
(٤) فى الشعر والشعراء جـ١ ص ٣٠٧: ٣٠٩ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٢٠٩، ٢١٠ مواقف تدل على ذلك.

يده فقاء كل شيء في بطنه»(١). وكانت زبراء من الكهنة المذكورين عند العرب، وكلامها له وقع في نفوسهم، ولها في ذلك نوادر معجبة، وكانت أمة مولدة لعجوز من بني رئام تسمى خويلة(٢). أنذرت بني رئام وهم في عرس لهم أن بني داهن وبني ناعب يبيتون لهم الشر، فصدقها جماعة من ذوي الأسنان فانصرفوا، وكذبها جماعة وسخروا منها فبقوا حتى دهمتهم بنوداهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين. وكان فيمن سَخروا منها فتى يقال له هذيل، قام عندما سمعها تقول: «والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد» وقال: «ياخذاق !! والله ما تشمين إلا ذفر إبطيك»(٣). فانصرفت عنهم حزينة. لكنها أمة فلتحزن ولتمت كمداً، فلن يلتفت لها إلا من هو مثلها من العبيد، هؤلاء العبيد الذين حكم عليهم أن يعيشوا في قاع المجتمع منبوذين معزولين، لاحق لهم في شيء إلا مايريده لهم السادة، ولايستطيعون التصرف حتى في أخص شئونهم، آمالهم مدحورة، وتطلعاتهم موءودة، لايملكون من أمر أنفسهم شيئاً، ويملك الآخرون فيهم كل شيء، فقد خول العرف الجاهلي للسيد أن يسخر عبده فيما يريد، وأن يتصرف فيه كما يشاء، فله أن يضربه ويعذبه ويقسو عليه، وله أن يدفع به في الصداق مع الإبل والشياه، وله أن يشرب به الخمر، ويسخره في الأعمال الدنيئة التي تنكرها المروءة وتحرمها الأديان. فإذا مات السيد انتقل العبد في جملة الميراث مع البهائم والمتاع إلى سيد جديد قد لايقل قسوة عن سيده الأول. وقد يتنازعه أكثر من وارث فيصير شركة بينهم، وبعد أن يكون عبد فلان يصبح عبد بني فلان.

والشعر الجاهلي مليء بالأبيات التي تصور قسوة السادة في معاملة العبيد. من ذلك قول مالك بن حريم الهمداني في سياسة قومه لهم:

«ونخلع نعل العبد من سوء قوده ... لكيما يكون العبد للسهل أضرعا
وقد وعدوه عقبة فمشى لها ... فما نالها حتى رأى الصبح أدرعا
وأوسعن عقبيه دماء فأصبحت ... أصابع رجليه رواعف دمعا»(٤).

---

(١) متن البخاري بحاشية السندي جـ١ ص ٣١٩.
(٢) الأمالي لأبي على القالي جـ١ ص ١٢٦.
(٣) المصدر نفسه والصحيفة. وقوله: "يا خذاق" كناية عما يخرج منها.
(٤) الأصمعيات. ت. أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون (ط١ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦م) ص ٦٥، ٦٦. والوحشيات لأبي تمام - ت. عبدالعزيز الميمني (دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٦٣م) ص ٢٣ مع اختلاف طفيف في الرواية.

فهم ينزعون نعله ليسلك بالإبل أو الخيل السهولة، وقد وعدوه أن يركب بعد أن يسير نوبته فظل يسير حافياً حتى تفجر الصبح وكشف الضوء عن رجليه وقد امتلأتا بالدم من طول السير وشدته. صورة قاسية لاشك، ومثيرة إلى حد بعيد؛ صورة العبد وقد تفجرت أصابع رجليه بالدماء فتقاطر منها كما يتقاطر الرعاف من الأنف والدمع من العين. صورة لم تكن شاذة ولا نادرة، بل كانت تتكرر كل يوم فى أشكال مختلفة وأوضاع تعكس مدى العنت الذى كان يلقاه العبيد ومدى العذاب الذى كانوا يتحملونه فى صبر عجيب نظير كسرة خبز تلقى لهم آخر النهار وحظيرة تؤيهم بالليل. فاذا صرخ العبد أو ارتفع صوته قليلا بالشكوى أو العتاب أسكتوه بالسياط وغطوه بوابل من الشتائم والسباب.

وقد دفعت تلك القسوة بعض العبيد إلى الإباق. لكن هؤلاء الآبقين كانوا كمن يستجير من الرمضاء بالنيران. وكان جدع أنف العبد وشق أذنه من الأشياء التى يقرها العرف الجاهلى ويبيحها للسيد مراعاة لمصلحته إن كان ثمة مصلحة له. ولكى يأمنوا على حريمهم كانوا يلجأون أحياناً إلى الخصاء. والخصاء عادة قديمة عرفتها شعوب الشرق كبابل وأشور والفرس، ومارسها المصريون مع الزنوج المجلوبين من بلاد النوبة والسودان ثم انتقلت عادة الخصاء إلى اليونان والرومان، وكانت جزيرة الذهب القريبة من قبرص مركزاً لخصاء أولاد الروم فى القرون الوسطى. كما كانت «بجانة» مركزاً لخصاء أولاد الصقالبة، وفى أفريقيا كانت مدينتا «هدية» و «شغلو» من بلاد الحبشة مركزاً لخصاء الزنوج(١). ويبدو أن تلك العادة انتقلت إلى العرب عن طريق الحبشة، وربما كان للنصارى الموجودين داخل الجزيرة فى مناطق متفرقة منها دور فى نقلها؛ فقد كانوا يخصون أولادهم ويقفونهم على خدمة بيوت العبادة ليكونوا رهباناً، وكان بعضهم يخصون أنفسهم طلباً للعفة.

وللخصاء طرق مختلفة منها: الجب والسل والوجر(٢)، وبهذه الوسائل البدائية كان العبيد يتعرضون لشتى أنواع العذاب، وكثير منهم كانوا يموتون أثناء الخصاء وبخاصة الصغار(٣).

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى (بريل سنة ١٩٠٦م) ص ٢٤٢/ المسالك والممالك لابن خرداذبة (بيروت سنة ١٨٨٩م) ص ١١٢/ صبح الأعشى للقلقشندى (القاهرة ١٩٢٨م) جـ٥ ص ٣٢٨/ الرق ماضيه وحاضره لعبدالسلام الترمانينى (الكويت سنة ١٩٨٥م) ص ١١٤، ١١٥.

(٢) الجب: هو قطع الخصيتين والذكر معاً، أما السل والوجر فيتعلقان بالخصيتين فقط، فإن سلتا فهو السل، وإن رضتا فهو الوجر.

(٣) صبح الأعشى للقلقشندى - جـ٥ ص ٣٢٧.

وكان العبد يباع إذا كان كلا على مولاه أوساء خلقه أو احتاج سيده إلى ثمنه، فينتقل من سيد إلى آخر، ومن معيشة إلى أخرى، ومن أناس قد اعتادهم إلى أناس آخرين سوف يعتادهم بالضرورة مهما كانت طبيعة هؤلاء وهؤلاء؛ فالتأقلم لم يعد مشكلة أمامه، وهو لايملك أن يعترض؛ لأنه كأى شىء مملوك، من حق مالكه أن يفعل به ما يشاء، فيكتم حزنه ويلملم أمتعته ويستعد لسلسلة جديدة من الشقاء. وقد يبوح لنفسه بأشجانه وبإحساسه الحاد بتفاهته وبأنه مجرد سلعة تباع وتشترى فى الأسواق؛ فها هو ذا سحيم يعجب كيف هان على سيده فباعه، وكان سيده قد باعه لرجل من نجد فلما رحل به أنشأ يقول:

أشوقاً ولما تمض بى غير ليلـة ... فكيف إذا سار المطى بنا عشـــراً
أخوكم ومولى خيركم وحليفكم ... ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهراً
وما خفت سلاماً على أن يبيعنى ... بشىء ولوأمست أناملـه صفـراً» (١).

ثم يستيقظ على حقيقته المرة وهى أنه عبد، فيتمتم فى حسرة: «المال مالكم، والعبد عبدكم» !! وقد تنقل سلمان الفارسى بين بضعة عشر سيداً فى الجاهلية (٢).

ومن حق السيد أن يهب عبده لمن يشاء. والهبة كالبيع بالنسبة للعبد، بل ربما كانت أسوأ؛ لأنه فى الغالب ينتقل من مستوى أعلى إلى مستوى أقل؛ فالذى يملك أن يهب هو فى الغالب إنسان غنى، بخلاف الموهوب له فهو فى الأغلب الأعم فقير. أما بالنسبة للسيد فالهبة ليست إلا مظهراً من مظاهر الجود والثراء، يبعثان على المدح والثناء ومأثرة يفخر بها ويفخر بها من بعد بنوه (٣).

وإذا مات السيد انتقل العبد إلى ورثته، وقد ورث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبويه مولاته أم أيمن واسمها بركة وهى حاضنته ومربيته وورث عنهما شقران مولاه (٤).

وقد ينتقل العبد من سيد إلى آخر بطريقة أخرى غير البيع وغير الهبة وغير الإرث؛ طريقة لا اعتبار فيها لكرامته ولا لشعوره، طريقة تنزل به إلى مستوى الجماد فتعتبره مجرد عملة يشرب بها الخمر وتدفع فى الصداق وتقدر بها الديات. يقول عوف بن الأحوص:

«ولكن معشر من جذم قيس ... عقولهم الأباعر والرعاء.

---

(١) ديوان سحيم - ت. عبدالعزيز الميمنى - ص ٥٦.
(٢) الإصابة جـ٢ ص ٦٠.
(٣) ديوان النابغة ص ٢٢، ١٧١ - المفضليات ص ١٣٣ ، ١٣٤، ٢٧٨ - الإصابة جـ ٣ ص ٣٠٠.
(٤) الاستيعاب جـ٢ ص ١٦١، ١٦٢، والإصابة جـ٢ ص ١٥٠.

يريد: نحن من جذم قيس، إذا وجبت علينا الدية أديناها إبلا وعبيداً(١). ويقول آخر:

«ولا تقربى يابنت عمى بوهـــة | من القوم دفناساً غبيــاً مفنـــدا
وإن كان أعطى رأس ستين بكرة | وحكماً على حكم وعبداً مولداً»(٢).

أى لاتقربى هذا الرجل الضعيف الطائش الأحمق وإن كان أعطى ستين رأساً من الإبل وعبداً مولداً صداقاً لك. وعندما تقدم رجل من قضاعة لخطبة امرأة، طلب أبوها منه خمسين من الإبل وعبداً وأمة مهراً لها فأجابه إلى ذلك(٣). وهذا يدلنا على أنهم كانوا يسوقون العبيد والإماء فى المهور كما كانوا يسوقونهم فى الديات. وأما شربهم الخمر بالعبيد فيدل عليه قول المتنخل:

«ولقد شربت الخمر بالـ | عبد الصحيح وبالأسير»(٤).

وقول قيس بن الخطيم:

«وبالشوط من يثرب أعبد | ستهلك فى الخمر أثمانها
يهون على الأوس أثمانهم | إذا راح يخطر نشوانها»(٥).

وكانوا يرهنون العبيد فى المغارم والديون(٦). فإذا لم يستطع المدين تسديد دينه فى الموعد المضروب انتقل عبده رغماً عنه إلى دائنه.

وكانوا يدفعون بإمائهم إلى البغاء لجلب المال أو لإكرام الضيف. وهى سنة من سننهم فى الجاهلية. وكان للبغايا رايات منصوبة فى أسواق العرب يأتيها الناس فيفجرون بها،وكان لكلب فى سوق دومة الجندل قن كثير فى بيوت من شعر أو حوانيت وكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء فيها(٧).وقد روى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: (ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء..) أنه قال: «كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم علــى الزنــا، يأخذون أجورهن»(٨).

---

(١) المفضليات ص ١٧٥.
(٢) البيان والتبيين جـ١ ص ٢٤٦.
(٣) مصارع العشاق جـ١ ص ٤٣٧، ٤٤٥.
(٤) الأغانى (ط. أبوالفضل إبراهيم) جـ٢١ ص ٧.
(٥) ديوان قيس بن الخطيم ص ٢٩.
(٦) الشعر والشعراء جـ١ ص ٤٧٨.
(٧) المحبر لابن حبيب ص٢٦٣، ٣٤٠/ القيان والغناء ص ٣٩، ٤٠.
(٨) تفسير الطبرى (الميمنية بمصر) جـ١٨ ص٩٢، ٩٣.

وكان لعبد الله بن أبى رأس النفاق ست جوار، معاذة وأميمة ومسيكة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء (١). وكانت سمية أم زياد من ذوات الرايات بالطائف وكان منزلها خارجاً عن الحضر فى محلة يقال لها حارة البغايا (٢). وروى عن ابن عباس أنه قال: «كانت بيوت تسمى المواخير فى الجاهلية وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهم، وكانت بيوتاً معلومة للزنا». وكان رضى الله عنه يسمى تسعاً من أصحاب الرايات كلهن من الإماء (٣). وقد عرفت المدينة بيوت القيان منذ العصر الجاهلى وكانت القينة التى تعمل فى تلك البيوت تقوم بالغناء، وقد أعد بعضهن لمزاولة البغاء. ولم تكن تلك البيوت قاصرة على المدينة. يقول الأعشى فى قينة معدة للغناء والبغاء معاً:

ورادعة بالطيب صفراء عندنـــا ... لجس الندامى فى يد الدرع مفتق
إذا قلت غنى الشرب قامت بمزهر ... يكاد إذا دارت له الكف ينطـــق». (٤)

ومن صور النكاح فى الجاهلية المرأة يكون لها راية يختلف إليها من يريد فلا تمنع أحداً وهن البغايا، فإذا وضعت إحداهن جمعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ممن دخلوا عليها فلا يمتنع من ذلك، والرجل يقع على أمة قوم فتحمل منه فيبتاع ولده فيدعيه ويشترى الأمة فيتخذها امرأة له (٥).

وقد لايوافق صاحب الأمة على بيعها، ويكتفى ببيع الغلام لما تدره الأمة عليه من الربح، ثم يدفعها لتعاشر آخر فتحمل منه ويبيع الابن لأبيه، وهكذا دواليك، حتى تنضب الأمة وتجف فيبيعها أو يسخرها فى عمل آخر. وقد احترف هذا العمل بعض الرقاقين كابن جدعان، فقد كان له ست جوار يزنين ويبيع أولادهن (٦).

ولانتشار البغاء بين الإماء صارت لفظة بغى تعنى أمة. يقول ابن السكيت فى شرح بيت للنابغة:

«البغى الأمة. يقال قامت على رءوسهم البغايا أى الإماء» (٧). ويقول أبو عبيدة والأصمعى: البغايا الإماء وأولادها (٨). وفى كتب اللغة - القاموس واللسان -: البغى الأمة أو الحرة الفاجرة.

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (على هامش تفسير الطبرى) جـ٨ ص ٨٧.
(٢) الإصابة جـ١ ص٥٦٣/ مروج الذهب للمسعودى جـ٢ ص٣١٠، ٣١١.
(٣) تفسير الطبرى (الميمنية بمصر) جـ١٨ ص٤٦: ٥٣.
(٤) ديوان الأعشى ص١٤٧/ طبقات فحول الشعراء- السفر الأول- ص٤٣.
(٥) بلوغ الأرب للألوسى جـ٣ ص ٣٤٥/ المرأة فى الشعر الجاهلى - د. أحمد محمد الحوفى ص ٢٥٠.
(٦) الأعلاق النفيسة لابن رستة جـ٧ ص ٢١٥.
(٧) تهذيب الألفاظ ص ٤٧٨./ القيان والغناء ص ٤١.
(٨) الصبح المنير فى شعر أبى بصير ص ١٠. القيان والغناء ص٤١.

ويذكر أبو على القالى أن البغاء الفجور فى الإماء خاصة وأن البغى الأمة(١). فكأن البغاء وقف على الإماء. ولم يكن للإماء فى ذلك إرادة بل كن يدفعن إليه دفعاً، من أجل كسب رخيص يحصل عليه السادة، ويضحون فى سبيله بأثمن شىء تملكه المرأة، شرفها وكرامتها. وهل يبقى لمن استبيح عرضه شرف أو كرامة؟! وصمة عار على جبين العرب فى جاهليتهم، لايمسحها عنهم مشاركة غيرهم من الأمم المجاورة لهم فى هذا الفعل القبيح.

وربما خفف من قتامة هذه الصورة أن البغاء كان قاصراً على بعض الإماء ولم يكن شائعاً فيهن جميعاً، وأن بعض السادة كانوا يحفظون إماءهم وسباياهم من التردى فى هوة البغاء، بعتقهن والزواج منهن، أو بالتسرى بهن واستيلادهن(٢)، أو بتزويجهن لغيرهم من فقراء الأحرار والعبيد(٣).

ولعل فى عتق العبيد وإطلاق سراحهم من الرق ما يخفف أيضاً من قتامة الصورة التى كان عليها العبيد ويعطى بعداً أخلاقياً لمروءة العربى ونبله فى معاملة الضعيف فى العصر الجاهلى، فقد ثبت أن حكيم بن حزام أعتق مائة رقبة ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلم وقال له: يارسول الله أرأيت أشياء كنت أفعلها فى الجاهلية أتحنث بها ألى منها أجر؟ وهو يقصد عتقه لهؤلاء العبيد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسلمت على ما سلف لك من خير»(٤) وأعتق دريد بن الصمة ثلاثاً من أمهات ربيعة بن رفيع بن أهبان(٥) وأعتق أبو لهب ثويبة حين بشرته بميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم(٦). وفى صحيح مسلم أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جدعان فقالوا له كان يقرى الضيف ويعتق ويتصدق فهل ينفعه ذلك؟ فقال: إنه لم يقل يوماً رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين(٧). فقد ثبت أنه مات على الكفر بخلاف حكيم بن حزام إذ مات مسلماً فنفعه ماكان يعمل من خير فى الجاهلية.

---

(١) الأمالى لأبى على القالى جـ٢ ص ١٧٥.
(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى - د. أحمد محمد الحوفى ص ٤٨٤، ٤٨٥.
(٣) الإصابة جـ٣ ص ٣٠٠ والأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢١ ص ١٠.
(٤) متن البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص ٨٢/ الاستيعاب جـ١ ص ٣١٩، ٣٢٠/ الإصابة جـ١ ص ٤٩٤، ٤٩٥.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ت. طه عبدالرءوف شلبى جـ٤ ص ٧٢.
(٦) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (دار الفكر العربى - بدون تاريخ) جـ٢ ص ٢٧٣.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢١٣، ٢١٨.

وكان العربى يفخر بعتق العبيد ويعتبره دليلا على الكرم والمروءة، وكان بعضهم يعلق العتق على مكرمة، وكان بعضهم يعتق وفاء بنذر (١). ويذكر صاحب كتاب «الفقه الميسر» أن التدبير- وهو تعليق العتق بموت السيد - كان معروفاً فى الجاهلية (٢).

ومن صور العتق عندهم «العتق سائبة» وفيه لايكون العبد ملزماً بموالاة من أعتقه وله الحرية فى اختيار مولى له. ومن أمثلته سالم مولى أبى حذيفة، كان عبداً لثبيتة بنت يعار بن زيد من الأوس، أعتقته سائبة فتولى أبا حذيفة زوجها، فتبناه أبو حذيفة وزوجه بنت أخيه (٣).

وكانوا فى الجاهلية يبيعون الولاء ويهبونه كما يبيعون العبد ويهبونه (٤). وفى الحق أن الولاء مظهر طيب يدل على حسن معاملة العبيد فى البيئة العربية؛ فالسيد لايعتق العبد ويتركه بلا نصير يواجه الحياة وحده وإنما يقف بجانبه، يؤازره، ويعتبر نفسه مسئولا عنه حتى بعد انعتاقه من قبضة الرق.

ومن الصور التى قد تدل على حسن معاملة العبيد اختيار الأسماء الحسنة لهم كفلاح ونجاح وسعيد وسرور وخير وجميل ونحوها، فى الوقت الذى كانوا يسمون فيه أبناءهم بأقبح الأسماء ككلب وحنظلة ومرة وضرار وحرب. وقد سئل أحد العرب عن ذلك فقال: «إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا» (٥). فالأبناء يعدون للأعداء وفى الأسماء المكروهة ما يخيف ويبعث الرهبة فى القلوب، والعبيد يعدونهم لأنفسهم، وفى الأسماء الحسنة ما يشيع الراحة والطمأنينة فى النفوس. وعلى الرغم من أن اختيار الأسماء الحسنة هو جزء من مصلحة السادة كما أشار هذا العربى، إلا أن أثرها عام، فهو يشمل السيد والعبد، إذ يحقق للسيد مصلحته التى يريدها، ويبقى للعبد شىء يتيه به ولو كان مجرد اسم جميل.

---

(١) الرق فى نظر الإسلام - عبدالله المشد (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة سنة ١٣٨٦هـ) سنة ١٩٦٢م) ص ٢٤.

(٢) الفقه الميسر فى العبادات والمعاملات - أحمد عيسى عاشور (ط. مكتبة الاعتصام - القاهرة سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م) ص ٤١٥.

(٣) الاستيعاب جـ٢ ص ٦٨، ٧٠ الإصابة جـ٢ ص ٦.

(٤) سبل السلام للصنعانى راجعه وعلق عليه د. محمد عبدالعزيز الخولى ط٤. (شركة مكتبة ومطبعة الحلبى بمصر سنة ١٣٧٩هـ سنة ١٩٦٥م) جـ ٤ ص ١٤٤.

(٥) بلوغ الأرب للألوسى جـ٣ ص ١٩٢.

ومن مظاهر الفتوة فى العصر الجاهلى حماية الضعيف ونصرته[١]. وقد شهدت دار ابن جدعان قبل البعثة بعشرين عاماً حلفاً قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت»[٢]. وهو حلف الفضول تعاقدوا وتعاهدوا فيه ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته[٣]. ووجود مثل هذا الحلف ومثل هذه المبادىء نصرة للعبيد ومظنة لعدم تمادى السادة فى ظلمهم لهم، وحافز للحفاظ عليهم ورعاية حقوقهم وعدم التخلى عنهم[٤].

وكان الكرم سمة فى العرب تكاد تكون عامة، ومن مظاهره إطعام الطعام وصلة الفقراء والمحرومين وكان ابن جدعان تاجر الرقيق ينصب الجفان الواسعة فى عرض الطريق ويملؤها طعاماً طيباً ليأكل منه الناس، وكانت له جفنة عظيمة يأكل منها الراكب على البعير[٥]. ومثل هذا الكرم كان يعود على العبيد بالخير العميم. وكان أهل الكرم مقصداً للمحتاجين من الأحرار والعبيد. يقول المرار بن منقذ مفتخراً:

«لاترى كلبى إلا آنسا ... إن أتى خابط ليل لـم يهـر
كثر الناس فما ينكرهم ... من أسيف يبتغى الخير وحر»[٦].

ومما يدل على حسن معاملة بعض السادة للعبيد قول عبد يغوث بن وقاص الحارثى:

«وأنحر للشرب الكرام مطيتى ... وأصدع بين القينتين ردائيا»[٧].

فهو يشق ثوبه نصفين ليكسو به أمتين له. ويصف المرقش الأصغر هند بنت عجلان الجارية بأنها منعمة مكفية، تنام وتصحو متى تريد:

«لاتصطلى النار بالليل ولا ... توقظ للزاد بلهاء نؤوم»[٨].

وكانت طريقة جارية حاتم تلومه وتأخذ عليه شدة كرمه، ولا يمنعها كونها أمة أن ــ قائلة: «اتق الله وأبق على نفسك،فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولابعيراً»[٩].

---

(١) الفتوة عند العرب د. عمر الدسوقى ص ١٢٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام - ت. طه عبدالرءوف سعد جـ١ ص ١٢٤. رواه ابن إسحق عن محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمى عن عبدالله بن عوف الزهرى.

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٣.

(٤) فى رواية محمد بن فضالة عن عبدالله بن سمعان عن ابن شهاب قال "... تحالفوا على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم". الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ١٧ ص ٢٨٩.

(٥) بلوغ الأرب للألوسى جـ١ ص ٨٩/ الفتوة عند العرب ص٨١.

(٦) المفضليات ص ٨٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

(٩) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص٢١٦. وفى قولها "اتق الله" وهى امرأة جاهلية ما يشعر أن ابن كثير قد روى الخبر بالمعنى لا باللفظ.

وكان عروة بن الورد «أصاب فى بعض غاراته امرأة من كنانة فاتخذها لنفسه فأولدها وحج بها ولقيه قومها وقالوا فادنا بصاحبتنا فإنا نكره أن تكون سبية عندك. قال: على شريطة. قالوا: وما هى؟ قال على أن نخيرها بعد الفداء، فإن اختارت أهلها أقامت فيهم، وإن اختارتنى خرجت بها. وكان يرى أنها لاتختار عليه. فأجابوه إلى ذلك، وفادوا بها. فلما خيروها اختارت قومها ثم قالت: أما إنى لا أعلم امرأة ألقت ستراً على خير منك؛ أغفل عينا وأقل فحشا وأحمى لحقيقته، ولقد أقمت معك وما يوم يمضى إلا والموت أحب إلى من الحياة فيه، وذلك أنى كنت أسمع المرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة كذى، وقالت أمة عروة كذى. والله لانظرت فى وجه غطفانية فارجع راشدا وأحسن إلى ولدك» (١).

اختارت أهلها برغم إحسانه إليها، ذلك الإحسان الذى جعله يظن أنها لاتختار أحداً عليه. إنها فى الحقيقة لم تقارن بين أهلها وبينه، وإنما قارنت بين الحرية والرق، فضحت به على الرغم من كل ما صنع، فالرق فى نظرها - كما هو فى نظر العرب جميعاً- ذل وهوان، ولا يرضى بالذل والهوان إلا العير والجماد:

«هذا على الخسف معقول برمته ‏ ‏ ‏ وذا يشج فلا يبكى له أحد».(٢)

لذلك لانعجب حين نرى شاعراً كبيرا كأبى ذؤيب الهذلى يشبه الحمار بالعبد؛ فالقاسم المشترك بينهما ليس هو وجه الشبه القريب المتمثل فى كثرة نهيق الحمار وارتفاع صوت العبد بالصراخ حين يقع السبع فى غنمه وإنما هو ذلك الشىء البعيد المترسب فى نفس العربى، المنزلة الواحدة التى تجمع بين العبد والحمار؛ فكلاهما مستذل، وكلاهما راض بما هو فيه من الهوان. يقول أبو ذؤيب:

«والدهر لايبقى على حدثانه ‏ ‏ ‏ جون السراة له جدائد أربع

صخب الشوارب لايزال كأنه ‏ ‏ ‏ عبد لآل أبى ربيعة مسبع».(٣)

ويأخذ الكرم مداه مع شاعر كحاتم فيرى نفسه عبدا لضيفه. لكنه لاينسى وهو فى ذروة هذا الإحساس أن ينفى عن نفسه كونه عبداً حقيقياً، أو أن فيه من صفات العبيد غير هذه الصفة. يقول:

«وإنى لعبد الضيف مادام ثاوياً ‏ ‏ ‏ وما فى إلا تلك من شيمة العبد».(٤)

---

(١) الشعر والشعراء جـ٢ ص ١٧.

(٢) حماسة البحترى ص ٢٠.

(٣) ديوان الهذليين - القسم الأول ص ٤.

(٤) البيان والتبيين جـ٣ ص ٣١٠. ومثله قول المقنع الكندى من قصيدة:

وإنى لعبد الضيف ما دام نازلا ‏ ‏ ‏ وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا.

الأمالى لأبى على القالى (ط. بيروت سنة ١٩٧٨م) جـ١ ص ٢٨٤.

فهو لايرى فى البشر من هو أدنى من العبد فيشبه نفسه به ليبرز مدى تفانيه فى القيام بواجب الضيافة ،لكنه لايرضى أن يكون عبداً بالفعل؛ فللعبد خلال تختلف عن خلال الحر ومنزلة يأباها كل حر كريم.

وحين تضيق السبل بالنابغة الذبيانى ويرى أنه قد أحيط به، وأن لامهرب ولامفر من قبضة الملك إلا بالتذلل له، نراه يكثر من وصف نفسه بأنه «عبد»(١). وكأنه بهذا الوصف يلتمس لنفسه العذر، وكأنه يضع نصب عينيه موقفاً مماثلاً لعلباء ابن أرقم مع النعمان بن المنذرحين غضب النعمان عليه فاعتذر له بقصيدة منها:

وأى مليك من معد علمتم   يعذب عبداً ذى جلال وذى كرم؟(٢).

ولايجد ابن زيابة فى هجاء بخيل خيراً من تشبيهه بالعبد جالساً بين أجمال مقيدة يقول:

إنك ياعمرو وترك الندى   كعبد إذ قيد أجماله»(٣).

ويهجو حسان بن ثابت موهب بن رباح، وينسبه فى هجائه إلى العبيد. فيغضب موهب ويتبرأ من ذلك النسب الذى يريد حسان أن يلصقه به ويذكر أنه حر وابن حر .(٤)وليس عجيباً أن يتبرأ من ذلك النسب ويعتبره سبة؛ فالعبد كما يقول أحد بنى سعد لا وزن له ولا مكانة:

«عبد إذا مارسب القوم طفا»(٥).

وهو مزدرى محتقر، يضام فلا يغضب، ويستذل فلا يثور. يقول الأخزر الديلى لما دخل بنو كعب دار عبد يسمى رافع ودار بديل بمكة واستنجدوا بهما:

حبسناهم فى دارة العبد رافع   وعند بديل محبساً غير طائل

بدار الذليل الآخذ الضيم بعدما   شفينا النفوس منهم بالمناصل»(٦).

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى - ت. أبوالفضل إبراهيم ص ٣٨، ٧٤، ١٨٦.

(٢) الأصمعيات ص ١٥٨.

(٣) معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٣٥. والهجاء بالنسب إلى العبيد كثير وغالبا ما كان يعقبه إن كان ثمة رد - هجاء بالمثل مصحوب: بفخر المهجو بنفسه ودفعه كل ما من شأنه أن يصل بينه وبين العبيد من نسب قريب أو بعيد.

(٥) الأغانى (ط. أبوالفضل إبراهيم) جـ٢١، ص ٣٠.

(٦) السيرة النبوية - ت. طه عبدالرءوف سعد جـ٤ ص ٢٤.

ويرسم الحكم بن عبدل صورة تفيض بالسخرية من العبيد وهو يحدث ابناً له من الإماء عن خاله الأسود وعن جلد رجليه الذى تغضن من الحفا وكثرة السير فوق الحصى، وعن عينيه اللتين تذكرانه كلما نظر بعينى غراب. يقول الحكم:

«يارب خال لك مسود القفا ... لايشتكى من رجله مس الحفا

كـــأن عينيه إذا تشوفـــــا ... عينا غراب فوق نيق أشرفا». (١)

وينصح عمير بن جعيل بمؤاخاة الحر والابتعاد عن صحبة العبيد؛ فالحر يزيد صاحبه خيراً، والعبد ينأى بخيره إن كان خير فى العبيد:

«توثق من إخاء الحر إنى ... رأيت العبد فى الحالات عبداً

يزيد الحر خيراً كل يوم ... وخير العبد قد يزداد بعـدا

إذا جريا لغاية مكرمـــات ... كبا هذا وبرز ذاك شـــــدا». (٢)

وليس أدل على هوان مكانة العبيد فى العصر الجاهلى من قول عمرو ذى الكلب:

«وأمى قينة إن لم ترونى ... بعورش تحت عرعرها الطوال». (٣)

فهو يرضى - فى معرض تحديه لهم - أن يقال عنه إنه ابن قينة إن لم يروه فى ذلك المكان. وكأنه بلغة هذا العصر يقول: «أنا ابن كذا» ويشتم نفسه «إن لم أحتق ما أريد»!! ويشدنا الحديث عن مكانة العبيد إلى التساؤل عن السبب الذى من أجله كانوا يزدرونهم. وقد أثار هذا التساؤل من قبل مجموعة من الباحثين المعاصرين، وحاول بعضهم الإجابة عنه كالعقاد، والدكتور عبده بدوى. أما العقاد فقد أشار إلى العامل الاجتماعى؛ كأن يكون العبد مجهول النسب(٤).

وأما الدكتور عبده بدوى فقد ذكر فى دراسته للسود - وأغلب العبيد منهم - أنهم كانوا يزدرون لعلة عنصرية (٥). وينقل عن صاحب كتاب «فن كتابة السيرة الشعبية» قوله: «اعتبر العرب أنفسهم من جنس آخر مخالف للجنس الذى ينتمى إليه الأحباش فاعتبروا أنفسهم أولاداً لسام بن نوح بينما اعتبروا الأحباش أولاداً لحام بن نوح. ثم أعطوا لـــــام

---

(١) الأغانى ج٢ ص ٤٢٣.
(٢) معجم الشعراء ص ٧٥.
(٣) ديوان الهذليين - القسم الثالث ص ١١٩.
(٤) داعى السماء - ص ٦٥:٦٨.
(٥) السود والحضارة العربية - د. عبده بدوى (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٧٦م) ص ١٧٢.

وأولاده الفضائل الخلقية كلها بينما ألصقوا بأولاد حام أقبح الرذائل وأسوأ النعوت»(١).
ويقول إن تلك النظرة لم تأخذ شكل العداء السافر إلا فى مراحل الاحتكاك بالأحباش فى الجنوب(٢). وكأنه يضيف إلى ما ذكره العقاد شيئاً جديداً، فالعاملان كلاهما؛ العامل الاجتماعى والعامل الجنسى يفيدان فى تفسير هذه الظاهرة. لكنهما لايكفيان؛ فقد كان بعض العبيد من العرب أنفسهم، وكان نسبهم معروفاً ومعترفاً به، وعلى الرغم من هذا لم يكونوا فى وضع أفضل مما كان عليه سائر العبيد. وصحيح أن أغلب العبيد كانوا من السود، وبخاصة من الحبشة، وللعرب نظرتها الخاصة للسود، إلا أن بعض العبيد كانوا من أجناس أخرى، ولم يكونوا جميعاً من ذوى البشرة السوداء.

لابد إذن أن يكون هناك إلى جانب هذين العاملين عوامل أخرى يمكن من خلالها تفسير هذه الظاهرة. ونحن نرى فى العصبية القبلية - التى كانت بمثابة الدستور أو القانون الذى تقوم عليه القبيلة وتحافظ به على كيانها ونقائها - ما يعين على فهم هذه الظاهرة وإلقاء مزيد من الضوء عليها؛ فالمجتمع الجاهلى كان يؤمن إيماناً شديداً برابطة الدم وبوحدة القبيلة، ويعتز كل فرد منه بقبيلته اعتزازاً يدفعه إلى رفض كل ماهو دخيل، أو على الأقل اعتباره شيئاً غير مرغوب فيه. لذلك كان الموالى - وبعضهم عرب خلعتهم قبائلهم فلاذوا بقبائل أخرى واحتموا بها - فى درجة دون درجة الصرحاء من أبناء القبيلة الأصليين.

إن فكرة العصبية هذه أقرب - فى تصورنا - من فكرة النعرة الجنسية فى تفسير ظاهرة ازدراء العرب للرقيق، أو هى بالأحرى مكملة لها. فإن كان الإحساس بالتميز الجنسى يفسر ازدراءهم للرقيق الأجنبى فإن العصبية تفسر ازدراءهم للرقيق عامة؛ الأجنبى منه والعربى.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الرقيق العربى كان مصدره الحرب والاغتصاب، وأنهم كانوا يحصلون عليه فى الغالب من القبائل المعادية لهم أمكننا فهم ازدرائهم له بصورة أوضح؛ إنهم أبناء قبائل ليس بينها وبينهم غير الثارات والذحول والدماء، فلماذا لايزدرونهم؟! ولماذا لايتعمدون إهانتهم؟! ولماذا لاينزلونهم منزلة الرقيق الأجنبى وكلاهما سواء؟! كلاهما مملوك يحق لهم التصرف فيه تصرفهم فيما يملكون من المتاع!!

---

(١) السود والحضارة العربية - ص ١٧٢.
(٢) المرجع السابق ص١٧١.

وهل كان ازدراء العبيد وقفاً على العرب دون سواهم؟! إن العبيد هم العبيد، وازدراؤهم شيء معروف فى كل أمة وحضارة، بل ربما كان العرب أقل ازدراء للعبيد من غيرهم. وربما كان العبيد بينهم فى وضع أفضل مما كانوا عليه فى أمم أخرى. ولا نستبعد أن يكون العرب قد تأثروا فى نظرتهم للعبيد وفى معاملتهم لهم بالأمم المجاورة من الفرس والرومان والهنود والمصريين، إذ كانوا على اتصال بهم، اتصالا يمكنهم من التعرف على تقاليدهم وعاداتهم وأساليب حياتهم الاجتماعية.

وكان اليهود منتشرين فى يثرب وغيرها من بلاد العرب، خاصة فى الجنوب. واليهود هم أشد الناس إحساساً بأنفسهم وبتميزهم عن سائر الأجناس. وفى ظلهم شهد العبيد أقصى أنواع الاستعباد وأبشع ألوان المعاملة بعد الهنود والرومان. وربما تسربت بعض أحكامهم الخاصة بمعاملة العبيد، تلك الأحكام التى تحفل بها كتبهم المقدسة إلى العرب برغم العزلة التى كانوا يضربونها على أنفسهم، وانزوائهم داخل المجتمع العربى فى العصر الجاهلى.

٢ - في صدر الإسلام

مصادر الرق في الإسلام:

للإسلام أسلوبه الشمولي في معالجة قضاياه؛ فهو لاينظر إلى القضية - أية قضية - نظرة منفصلة عما يحيط بها، وإنما ينظر إليها في إطار عام يجمع بينها وبين ما يتصل بها من القضايا والمشكلات ثم يعالجها على هذا الأساس.

وحين نظر إلى مشكلة الرق وجدها متولدة من عدة مشاكل؛ منها ما هو فكري، ومنها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو اجتماعي. فعمد إلى المشاكل الفكرية فحرر العقول والأرواح من الأفكار الخاطئة والعقائد الفاسدة وقضى على الفلسفات المنحرفة التي توفع بعض الناس إلى منزلة الآلهة وأنصاف الآلهة وتهبط بالآخرين إلى الحضيض، وعمد إلى المشاكل الاقتصادية فأصلح الأوضاع الفاسدة ونظم الثروات ووزعها توزيعاً عادلا ومنع الاحتكار والاكتناز وحرم الربا والقمار والرشوة وشرع الزكاة والصدقة. وعمد إلى المشاكل الاجتماعية فقضى على التعصب القبلي وعلى نعرة التفوق الجنسي وأحل محلهما فكرة الأخوة الدينية التي تجمع أبناء الإسلام من كل القبائل والأجناس في بوتقة واحدة لافرق فيها بين أبيض وأسود ولابين عربي أو أعجمي إلا بالتقوى فكل لآدم وآدم من تراب. كذلك قضى على نظام الطبقات وشيد بنيانه الاجتماعي على أساس من التكافل والتعاطف والرحمة(١).

جاء الإسلام والرق ضارب أطنابه في الجزيرة وما حولها، فلم يكن بد أمامه من الاعتراف بالرقيق الموروث من الجاهلية أيا كان مصدر استرقاقه مراعاة لمصالح السادة ومصالح الأرقاء أنفسهم ومصالح المجتمع الذي تغلغل الرق فيه. ولم يشأ أن يقضي على الرق مرة واحدة أو يعالج تلك الظاهرة عن طريق الطفر حتى لاتحدث ردود فعل عنيفة قد تزلزل أركان المجتمع كله: فوضع خطة تتفق وأسلوبه التربوي الحكيم في معالجة الظواهر الاجتماعية بالأناة والتدريج.

نظر إلى منابع الرق فوجدها كثيرة، فالحرب بجميع أنواعها، والقرصنة واللصوصية والخطف، والفقر الذي يدفع الإنسان إلى بيع نفسه أو بيع أحد ممن يعول، وارتكاب الجرائم الخطيرة كالسرقة والزنا والقتل، والاستمتاع بالإماء، والمقامرة، كلها أبواب تزيد كل يوم

---

(١) لا رق في القرآن - إبراهيم هاشم الفلالي (دار القلم - بدون تاريخ) ص ١٢٩.

في عدد المسترقين، ولا سبيل إلى إنضاب معين الرق إلا بإغلاق هذه الأبواب أو على الأقل تضييقها. وهذا بالتحديد ما صنعه فى خطوته الأولى لمعالجة ظاهرة الرق؛ إذ أغلق الأبواب كلها، ولم يعترف منها إلا بباب واحد عمد إلى تضييقه إلى أبعد حدود التضييق، فقد حرم القرصنة واللصوصية والخطف تحريماً مطلقاً، ووضع لها أحكاماً قاسية وعاقب عليها بأشد أنواع العقوبات، وحرم على الإنسان بيع نفسه أوبيع أحد ممن يعول وكانت سلطة الآباء على أبنائهم تخول لهم بيعهم، وكانت سلطة المرء على نفسه تخول له بيعها فى بعض الأمم القديمة نتيجة الفقر وضيق ذات اليد. وأفسح المجال أمام الفقراء وجعل لهم حقاً فى مال الأغنياء، وأوجب على المجتمع الذى يعيشون فيه أن يتكفلهم ويقوم على مؤونتهم لسد حاجتهم والابتعاد بهم عن هذا العمل المشين. ولم يجز الإسلام للدائن أن يسترق المدين إذا عجز عن دفع دينه فى الموعد المضروب بل أمر الدائن بإمهاله حتى يزول عسره وحبب للدائن أن ينزل عن دينه ويتصدق به على مدينه إذا كان فى أدائه إرهاق شديد له(١)، وجعل للمدين المعسر حقاً فى الزكاة(٢)، وأجاز له السؤال وحث الناس على إجابته إذا كان ذا غرم شديد، ولم يجز الإسلام الاسترقاق بسبب الجريمة كما كان الشأن فى بعض الشرائع السابقة، وأمر بتنفيذ الحدود فى جرائم الحدود وهى السرقة والسلب والزنا وشرب الخمر والقذف، كما أمر بالقصاص فى جرائم القصاص، وأمر بالتعزير فيما دون ذلك، وحرم الميسر وجعله رجساً من عمل الشيطان فسد باب المقامرة وكانت من أبواب الرق، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن بيع الحر وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

قال الله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره».

لم يبق إذن من أبواب الرق التى تزيد كل يوم فى عدد المسترقين من الأحرار سوى باب واحد. هو باب الحرب. فقد كان القانون السائد المتعارف عليه فى سائر الأمم فى الوقت الذى ظهر الإسلام فيه هو استرقاق الأسرى إذا من عليهم أعداؤهم فلم يقتلوهم ومنوا عليهم بالعتق أو الفداء. وهو قانون قديم جداً، ولم يكن من العدل أن يسترق أسرى المسلمين فى يد

---

(١) سورة البقرة :الآية. ٢٨٠.

(٢) فى قوله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... والغارمين) والغارمون كما يقول المفسرون هم المدينون الذين غرقتهم الديون فى غير تبذير ولا فساد.

أعدائهم، ويدع المسلمون أسراهم من الأعداء. إن المعاملة بالمثل هى خير وسيلة يمكن أن يقابل بها صنيع هؤلاء، بل هى أعدل قانون يمكن استخدامه.

على أن الإسلام لم يبح استرقاق أسرى الحرب إباحة مطلقة، وإنما قيد هذا الحق بشروط كثيرة منها: أن تكون الحرب بين المسلمين والكفار، وأن تسبق بإذن من الإمام، ويراعى فيها آداب الحرب وقوانينها من الإنذار والإشهار والبدء بعرض الإسلام ثم الجزية أو القتال. ومعنى هذا أن الإسلام يضيق هذا الباب الذى يقره حتى يكاد يغلقه؛ لأنه لايبيح من الحروب إلا الحرب المشروعة التى تهدف إلى نشر الدين ورفع كلمة لاإله إلا الله ورد عدوان الكفار والذود عن حرمات المسلمين. وقد حرم الإسلام كل أنواع الحروب الأخرى التى كانت سائدة عند العرب فى جاهليتهم وعند غيرهم من الشعوب المجاورة لهم، حرم الحروب والغارات التى لم يكن يقصد بها إلا الفتك والقهر والاستعباد وتوسيع الرقعة واستغلال موارد الآخرين وإشباع الشهوات الشخصية والثارات، ولم يعترف إلا بالجهاد فى سبيل الله، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه من فى سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»(١). ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم دماء الجاهلية كلها تحت قدميه، وأكد روح الأخوة فى الدين ليتضى على الثارات القديمة والإحن والعصبيات التى كانت وراء كثير من الحروب فى الجاهلية، وأعلن أن قتال المسلم كفر وسبابه فسوق، وقال فى خطبة " .. : «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا»(٢). وهذا يعنى أن استرقاق المسلم غير جائز لأن قتاله نفسه حرام، وأن الرق لايضرب إلا على أسرى الكفار والمشركين الذين يعتدون على المسلمين أو يأبون الدخول فى دين الله ويرفضون دفع الجزية عن يد وهم صاغرون(٣).

---

(١) متفق عليه. وفى رواية عند مسلم عن أبى موسى قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله". وفى حديث آخر أخرجه أبو داود والنسائى بإسناد جيد: "جاء رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ قال: لا شىء. فأعادها ثلاثا كل ذلك يقول: لا شىء ثم قال "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه". سبل السلام للصنعانى ج٣ ص ٦٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام - ت. طه عبد الرءوف سعد جـ٤ ص ١٨٥.

(٣) روى ابن عباس أن الكفار هم المشركون عبدة الأوثان. وقيل كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة. ذكره الماوردى واختاره ابن العربى: وقال: "هو الصحيح لعموم الآية فيه" وهو يقصد آية القتال. تفسير القرطبى ج ١٦ ص٢٢٥/ المرأة فى الشعر الجاهلى- د.أحمد محمد الحوفى- هـ٦ ص ٥٢١.

لذلك يعرف فقهاء المسلمين الرق بأنه «عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر» (١). فيحصرونه فى هذا الباب وحده. بينما يعرفه المشرعون الغربيون بأنه «حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكاً للغير» (٢). فلا يخصونه بوسيلة معينة لتعدد أسبابه ومصادره عندهم.

ولم يكن الاسترقاق ضربة لازب على أسرى الحرب عند المسلمين، فهم مخيرون فى معاملة أسراهم بين أربعة أوجه، المن وهو إطلاق الأسرى بغير مقابل، والفداء وهو إطلاق الأسرى بمقابل ويدخل تحت هذه الوجه تبادل الأسرى، والقتل ويقع غالباً على أئمة الكفر ومن عرفوا بشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين، والاسترقاق وهو آخر هذه الأوجه. فإذا لم يمن المسلمون على أسراهم، ولم يفادوهم، وتفضلوا عليهم بعدم قتلهم لم يكن بد من الاسترقاق.

أما المن والفداء فقد صرح القرآن بهما فى آية القتال. يقول تعالى: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها (٣).

وظاهر الآية أن الوجهين الآخرين غير جائزين على مايفهم من استخدام «إما» فى اللغة العربية. لذا زعم بعض المفسرين أن الآية منسوخة، وتكلف بعضهم الوجه الرابع - وهو الاسترقاق - وأدخلوه فى المن تارة وفى الفداء تارة أخرى (٤). وذهب الأستاذ أمين الخولى إلى أن الآية محكمة، وتمسك بظاهرها فأنكر قتل الأسرى واسترقاقهم، وذكر أن الآية تمثل الاتجاه الأخير فى معاملة الأسرى وهو الاتجاه الذى يسميه بالمثال؛ فالواقع يجيز قتلهم واسترقاقهم، والمثال يحرمهما، والعبرة عنده بالمثال لأنه يمثل المرحلة الآخيرة فى تصوره (٥).

والحقيقة أن القتل والاسترقاق كلاهما ثابت بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وفعل الخلفاء الراشدين، فقد استشار صلى الله عليه وسلم صحابته يوم بدر فى أسرى قريش، ولم يكن للمسلمين قانون يعاملون به أسراهم «فقال أبو بكر يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة،

---

(١) الرق فى نظر الإسلام لعبدالله المشد ص ٣٠، ٣١.
(٢) المرجع نفسه ص ٣١.
(٣) سورة محمد الآية رقم ٤.
(٤) المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء لمحمد محمد المدنى ص ٢٨١.
(٥) ذكر هذا فى مقال له نشره بمجلة العربى الكويتية العدد الثالث - جمادى الآخر سنة ١٣٧٩هـ ديسمبر ١٩٥٩م.

والإخوان وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر لكنى أرى أن تمكننى من فلان- قريب عمر- فأضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا موادة للمشركين وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم». فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر وأطلق بعض الأسرى بمقابل(١). ثم نزل القرآن موافقاً لرأى عمر(٢). قال تعالى: (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)(٣). ومعنى هذا أن القرآن نفسه قد أباح قتل الأسرى إن كان فى قتلهم مصلحة للمسلمين. وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عزة يوم أحد وكان قد أطلقه يوم بدر بلا مقابل(٤). وساق أبو نعيم عن الطبرانى «من طريق الوليد بن مسلم حدثنى من سمع علقمة بن هلال بن تيم الله يحدث عن أبيه عن جده أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجل من قومه وهو بالمدينة بعد مهاجرته إليها. قال: فوافيناه يضرب أعناق أسارى على ماء قليل. فتتل عليه حتى سفح الدم الماء. قال صفوان الراوى عن الوليد: سفح معناه غطى»(٥). وأهدر النبى صلى الله عليه وسلم دم ثمانية من أهل مكة يوم الفتح(٦).

واسترق صلى الله عليه وسلم بعض الأسرى، وأقر السبى فى الجهاد. وقد مكنه الله من بنى قريظة بعد أن خانوا عهدهم معه وساعدوا عدوه عليه، فحكم فيهم سعد بن معاذ رضى الله عنه فحكم بقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية يستعين بهم المسلمون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أصبت حكم الله فيهم»(٧). ثم أمر بقتل الرجل وكانوا نحواً من أربعمائة(٨). وسبى النساء والذرية وفيهم ريحانة بنت شمعون (٩). وبعث صلى الله عليه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (ط١- دار الفكر العربى- القاهرة سنة ١٣٥١هـ سنة ١٩٣٢م) ج٣ ص٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) أخرج مسلم عن عمر قال: وافقت ربى فى ثلاث: فى الحجاب وفى أسارى بدر، وفى مقام إبراهيم. تاريخ الخلفاء للسيوطى (ط٤- المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٨م) ص ١٢٢.

(٣) سورة الأنفال الآية رقم ٦٧.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ت. طه عبد الرءوف سعد ج٣- ص٤٦/ طبقات فحول الشعراء لابن سلام- السفر الأول ص٢٥٣: ٢٥٥.

(٥) الإصابة ج٤ ص٢٠٨.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ت. طه عبد الرءوف سعد ج٤ ص٣٨: ٤٠.

(٧) الاستيعاب ج٢ ص٢٩.

(٨) المصدر نفسه والصحيفة.

(٩) الإصابة ج٤ ص٣٠٢، ٣٠٣.

وسلم سعد بن زيد الأنصارى بسبايا من بنى قريظة إلى نجد فابتاع لهم بها خيلا وسلاحاً (١).

وسار الخلفاء الراشدون من بعده على هذه السنة. وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه سبى معاوية أربعة آلاف رأس من قيسارية وبعث بهم إلى عمر فأمر بهم فأنزلوا الجرف ثم قسمهم عل يتامى الأنصار وجعل بعضهم فى الكتاب والأعمال للمسلمين. وكان أبو بكر الصديق قد أخدم بنات أبى أمامة أسعد بن زرارة خادمين من سبى عين التمر فمات فأعطاهن عمر مكانهما من سبى قيسارية (٢). وفى ترجمة عبيد الله بن معمر «قال الزبير بن بكار حدثنى عثمان بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عامر وعبيد الله بن معمر اشتريا من عمر رقيقاً من السبى» (٣).

وكما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الخلفاء الراشدين قتل الأسرى واسترقاقهم ثبت عنه صلى الله عليه وسلم وعنهم رضوان الله عليهم المن والفداء. والأمثلة على ذلك كثيرة؛ ففى بدر فادى بعض المشركين أنفسهم بتعليم عشرة من أولاد الأنصار الكتابة (٤)، وفادى بعضهم بالمال كالسائب بن عبيد جد الشافعى (٥)، والعباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم (٦)، وأبو عزيز بن عمير (٧).

ومن الفداء عند المسلمين فداء النفس بالنفس، وهو ما يعرف فى عصرنا الحديث بتبادل الأسرى، وبه قال الجمهور، وقال أبو حنيفة: لا تجوز المفاداة ويتعين إما قتل الأسير أو استرقاقه، وزاد مالك: أو مفاداته بأسير، وقال صاحبا أبى حنيفة: تجوز المفاداة بغيره أو بمال أو قتل الأسير أو استرقاقه (٨).

وقد فادى أبو سفيان ابنه عمراً بعبد الرحمن بن سهل الأنصارى، وكان عبد الرحمن قد خرج بعد بدر معتمراً فأسرته قريش (٩). وعن عمران بن حصين رضى الله عنه أن

---

(١) الاستيعاب ج٢ ص ٤٤.
(٢) فتوح البلدان- مراجعة رضوان محمد رضوان (دار ومكتبة الهلال- بيروت سنة ١٣٩٨ سنة ١٩٧٨م) ص ١٤٧.
(٣) الإصابة ج٣ ص٧٧.
(٤) الكامل للمبرد ج١ ص ٢١٣.
(٥) الإصابة ج٢ ص١١.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٦٣، ٤٣٠، ٤٨٧.
(٧) السيرة النبوية- ت. مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى- المجلد الأول ج١ ص ٦٤٥.
(٨) سبل السلام للصنعانى ج٤ ص ٥٥.
(٩) الإصابة ج٢ ص ٣٩٤.

رسول الله صلى الله عليه وسلم فدى رجلين من المسلمين برجل مشرك(١).

وإلى جانب الفداء عرف المسلمون المن ومارسوه بكثرة، وقد أطلق الرسول صلى الله عليه وسلم أبا العاص بن الربيع زوج ابنته زينب وأبا عزة الجمحى ذا العيال وربيعة بن دراج الجمحى يوم بدر بلا مقابل(٢). وكان يقول: لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له(٣). يعنى أسرى بدر من الكفار. ومن صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أثال الحنفى(٤)، وسفانة ابنة حاتم الطائى(٥)، ووهب سبى بكر بن وائل لمرثد ابن ظبيان (٦)، وكلمه الأقرع بن حابس وأخوه فراس ووردان بن محرز وسبرة بن عمرو وربيعة بن رفيع وغيرهم من سادات بنى تميم فى سبيهم فحكم فيهم الأعور بن بشامة فحكم أن يفدى شطر ويعتق شطر(٧). وفى ترجمة الشيماء «قال أبو عمر أغارت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم على هوازن فأخذوها فيما أخذوا من السبى فقالت لهم أنا أخت صاحبكم، فلما قدموا بها قالت يا محمد أنا أختك وعرفته بعلامة عرفها فرحب بها وبسط رداءه فأجلسها عليه ودمعت عيناه فقال لها إن أحببت أن ترجعى إلى قومك أوصلتك وإن أحببت فأقيمى مكرمة محببة فقالت بل أرجع فأسلمت وأعطاها رسول صلى الله عليه وآله وسلم نعماً وشاء وثلاثة أعبد وجارية»(٨). واستأنى النبى صلى الله عليه وسلم على السبى بضعة عشر يوماً، لعل أحداً يستشفع فيهم فلما لم يأته أحد قسمهم على المجاهدين وكانوا ستة آلاف من الذرارى والنساء(٩). ومن صلى الله عليه وسلم على بنى قينقاع وكانوا سبعمائة رجل غير النساء والأطفال واكتفى بإجلائهم عن المدينة بعد أن خانوا عهدهم معه وأقدره الله عليهم(١٠).

ويوم الفتح كان هذا المشهد العظيم والحوار الرائع بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عز جانب المسلمين وارتفعت كلمة الحق وقريش وقد تطامنت رءوسهم وسقطت فوق

---

(١) أخرجه الترمذى وأصله عند مسلم.
(٢) الاستيعاب ج٤ص١٢٥: ١٢٩/ الإصابة ج١ ص ٤٩٤.
(٣) متن البخارى بحاشية السندى - ج٣ ص ١٤.
(٤) الاستيعاب ج١ ص ٢٠٦، ٢٠٧.
(٥) الإصابة ج٤ ص ٣٢٢.
(٦) المصدر نفسه ج٢ ص ٣٧٨.
(٧) المصدر نفسه ج١ ص ٤٩٥.
(٨) الاستيعاب ج٤ ص ٣٣٦/ الإصابة ج٤ ص ٣٣٥، ٣٣٦.
(٩) السيرة النبوية لابن هشام- ت. طه عبد الرءوف سعد ج٤ ص ٩٨.
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام- ت. طه عبد الرءوف سعد ج٢ ص ٦٠٥.

الصدور: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١). وطالما عذبوه من قبل، وطالما حاربوا دينه، وأخرجوه من أرضه، وألبوا عليه، فلوشاء قتلهم، ولو شاء ساقهم فى السلاسل والحبال وباعهم فى الأسواق بيع الجلائب والعبيد، لكنه لم يزد عن قوله: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». وماذا يصنع بتعذيبهم؟ وماذا يصنع باسترقاقهم وقد دخلوا فى دين الله؟! إنه لم يبعث للقتل والاسترقاق وإنما بعث رحمة للعالمين، وكان همه، كل همه، إعلاء كلمة الحق ونشر دين الله فهى الغاية. أما ما حدث من استرقاق فلم يكن إلا وسيلة أقرها الإسلام على مضض وقيدها بشروط عديدة وجعلها آخر الحلول بعد الدعوة بالسلم وبعد الجزية وبعد الجهاد والإثخان فى الأرض، وجعل معها من البدائل مايكفى لإنضابها أو على الأقل لإضعاف شأنها، فالإمام مخير بين قتل الأسرى وقبول الفداء والمن والاسترقاق يفعل مافيه خير المسلمين حسب الظروف المحيطة بهم فى الزمان والمكان بلا ضرر ولا ضرار.

وغالباً ما كانوا يقدمون المن والفداء وهما المذكوران فى آية القتال نصا. وقد بش رسول الله صلى الله عليه وسلم لنبيشة وسماه نبيشة الخير لأنه اقترح عليه أن يمن على الأسرى أو يفاديهم(٢). وأعرض عن عتبة حين طلب منه أن يسوق إليه بنى تميم متيدين بالحبال(٣). وكان عمر رضى الله عنه يفضل الجزية على السبى، كتب إلى عمرو بن العاص إبان فتح مصر: «أما بعد فإنه جاء فى كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض عليك أن يعطيك الجزية على أن ترد ما أصبت من سبايا أرضه، ولعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلى من فى يقسم ثم كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية مايوضع على أهل دينه. فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لانقدر على ردهم ولانحب أن نصالحهم على أمر لانفى به»(٤).

---

(١) المصدر نفسه ج٤ ص ٤١.
(٢) الإصابة ج٣ ص ٥٢١.
(٣) الإصابة ج٣ ص ٢٤٣.
(٤) مجموعة الوثائق السرية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة - د. محمد حميدالله الحيدر أبادى (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - بالقاهرة سنة ١٩٤٠) ص ٢٧٦.

وحسب الإسلام أنه ضيق مصادر الرق وحصرها فى مصدر واحد، ولم يجعل الرق غاية، ولم يضربه إلا على الكفار، والمشركين فى حرب مشروعة، ولم يبح استرقاق مسلم، إلا أن يكون رقيقاً أصلا. وقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى بنى جنام، وكان زيد بن حارثة قد أوقع بهم وهم مسلمون(١). ولم يقع مسلم فى رق آخر إلا فى الفتنة الكبرى وكان ذلك مخالفاً للدين؛ فقد سأل أبو الرباب وصاحب له أباذر الغفارى رضى الله عنه- وكان قد صلى صلاة أطال قيامها وركوعها وسجودها وتعوذ فيها ودعا الله عز وجل- «مم تعوذت؟ وفيم دعوت»؟ قال: « تعوذت بالله من يوم البلاء يدركنى، ويوم العورة أن أدركه» قالا: «وما ذاك»؟ قال: «أما يوم البلاء فتلتقى فتتان من المسلمين فيقتل بعضهم بعضاً، وأما يوم العورة فإن نساء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشتريت على عظم ساقها، فدعوت الله أن لايدركنى هذا الزمان ولعلكما تدركانه». قال الراوى: «فقتل عثمان ثم أرسل معاوية بشر بن أرطأة إلى اليمن فسبى نساء مسلمات فأقمن فى السوق»(٢).

وكان بعض الخوارج يبيحون لأنفسهم استرقاق المسلمين وسبى نسائهم. وفى عهد على رضى الله عنه أغار التباع الكلبى على بكر بن وائل فسباهم فبعث إليه على عمرو بن مرة فاستعاد منه السبى(٣). وهؤلاء ليسوا حجة على الدين، بل الدين حجة عليهم؛ فنصوصه ومواقفه تؤكد أن لارق إلا على كافر أو مشرك. وكان هذا الشرط كفيلا بسد باب الرق لو لم يصر كافر على كفره ولم يتكبر عن الدخول فى دين الله.

(١) الإصابة ج٤ ص ٧.
(٢) الاستيعاب ج١ ص ١٦٤، ١٦٥.
(٣) الإصابة ج٣ ص ١١٧.

المكانة الاجتماعية للرقيق

عمل الإسلام فى معالجته لقضية الرق على تصفيته بتضييق المصادر وتوسيع منافذ التحرير(١). لكنه فى خلال ذلك لم يغفل المدة الزمنية التى تستغرقها عملية التصفية، ولم يغفل كذلك الوضع الاجتماعى الذى ينبغى أن يكون عليه العبيد فى فترة الانتقال، فحث على حسن معاملتهم، وأوصى السادة بهم، ووضع من المبادئ والقوانين ما يكفل لهم حياة اجتماعية كريمة، ويوفر لهم سبل الخلاص من الداخل، فيشعر المسترق أنه هو وسيده سواء، لافرق بينهما إلا بالتقوى، وأن الظروف التى وضعته فى هذه الحال ظروف طارئة قابلة للزوال.

يقول تعالى: (وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم...)(٢). فقرن الإحسان بالوالدين وذوى القربى والجار والصاحب بالإحسان بالمستضعفين من اليتامى والمساكين وابن السبيل وملك اليمين من الإماء والعبيد. وربما كان العبيد هم أحوج الناس إلى حسن المعاملة؛ لتخفف عنهم ما يعانونه فى قبضة الرق من الآلام النفسية، ولترفع من روحهم المعنوية، فلا يشعرون بما هم فيه من نقص وعجز. لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من الوصايا بالمستعبدين، ويحض سادتهم على الرفق بهم والتخفيف عنهم والتجاوز عن هفواتهم. ومما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن قوله: «ما خففت على خادمك من عمله كان لك أجراً فى موازينك»(٣). وجاءه رجل فقال: «يا رسول الله كم نعفوا عن الخادم»؟ فصمت، ثم أعاد الكلام، فصمت، فلما كان فى الثالثة قال: «اعفوا عنه فى كل يوم سبعين مرة»(٤). ومن مآثره صلى الله عليه وسلم أنه «ما ضرب بيده خادماً قط»(٥).

وقد تهدد صلى الله عليه وسلم كل من يسىء الملكة فقال: «لايدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سىء الملكة» (٦). وسوء الملكة تقصير السيد فى حق عبده.

---

(١) وسائل التحرير فى الإسلام كثيرة منها العتق تطوعاً وقربى، والعتق فى الكفارات والعتق بالإيلام والمثلة والعتق بملك ذى الرحم والعتق بجزء من مال الزكاة والعتق باللجوء إلى أرض الإسلام والمكاتبة والتدبير والتسرى والاستيلاد. ولنا فى تلك الوسائل بحث صغير نشرته دار رياض الصالحين بالقاهرة سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٢) سورة النساء من الآية ٣٦.

(٣) رواه أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه، الترغيب والترهيب للمنذرى ج٤ ص ٢٦٣.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألبانى (ط٤ - المكتب الإسلامى - بيروت سنة ١٤٠٥ هـ سنة ١٩٨٥م) المجلد الأول ص ٨٠٠.

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى (ط٢ - المكتب الإسلامى - بيروت سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م) المجلد الثانى ص ١٩، ٢٠.

(٦) أخرجه أحمد مجموعاً والترمذى مفرقاً وابن ماجة مقتصراً على سىء الملكة من حديث أبى بكر، وليس عند أحد منهم متكبر، وزاد أحمد والترمذى البخيل والمنان، وهو ضعيف، وحسن الترمذى أحد طريقيه، المغنى عن حمل الأسفار لأبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى، على هامش كتاب إحياء علوم الدين للغزالى (دار القلم بيروت- بدون تاريخ) ج٣ ص ١٩٩، ٢٠٠.

فللعبد حقوق على سيده منها: أن يطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل فوق ما يطيق، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء، وأن يعفو عن زلته، ويتجاوز عن هفوته، فيكظم الغيظ ما استطاع، ويعلم أن قدرة الله عليه فوق قدرته على عبده، وأنه أحوج إلى رحمة الله من حاجة العبد إلى صفحه وإقالته(١). وهذه الحقوق مستمدة من روح القرآن ومن تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقد صح عنه أنه قال: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»(٢).

وبلغ من حرص الإسلام على كرامة العبيد والحفاظ على مشاعرهم أنه أمر بأن يقال للعبد فتى والأمة فتاة، ونهى عن دعوة العبد بكلمة «عبدى» والأمة بكلمة «أمتى» قال صلى الله عليه وسلم: «لا يقولن أحدكم عبدى فكلكم عبيد الله ولكن ليقل: فتاى. ولا يقل العبد ربى ولكن ليقل سيدى»(٣).

وكما نهى عن إيلام النفس وعدم جرحها نهى عن إيذاء البدن بالضرب فى غير حد أو تأديب، ونهى عن لطم الوجه وجعل كفارة اللطم العتق. فإذا كان اللطم - مجرد اللطم - منهياً عنه فمن باب أولى سمل العيون وتمزيق الجسم والخصاء والقتل. قال صلى الله عليه وسلم: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه» (٤). وهذا مبدأ صريح فى الحفاظ على كيان العبيد وعلى سلامة أبدانهم ممن تسول له نفسه ظلمهم أو التجنى عليهم بالقتل أو الجدع أو الخصاء أو أية صورة من صور التعذيب التى كان يمارسها كثير من السادة قبل الإسلام، فليس للسيد في الإسلام إلا أن يسوس عبده باللين، فإن لم يحقق اللين ما أراد فعليه أن يبيعه ولا يعذبه، وله أن يشترى غيره. يقول صلى الله عليه وسلم: «من لاءمكم من خدمكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون، ومن لايلائمكم من خدمكم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله عز وجل»(٥).

---

(١) إحياء علوم الدين لأبى حامد محمد بن محمد الغزالى (دار القلم - بيروت - بدون تاريخ)ج٢ ص١٩٩، ٢٠٠.
(٢) متن البخارى بحاشية السندى ج٢ ص ٨٣.
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة- المجلد الثانى ص ٤٥٣، ٤٥٤.
(٤) رواه أحمد والأربعة وحسنه الترمذى. سبل السلام ج٣ ص ٢٣٢، ٢٣٣.
(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة - المجلد الثانى - ص ٣٧٤، ٣٧٥.

وفيما يتصل بالإماء حرم البغاء، ونزل قوله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً) فى جاريتين لعبد الله بن أبى بن سلول، كان يريدهما على الزنا فشكتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية لتضع حداً فاصلا بين ما كان معروفاً فى الجاهلية وما ينبغى أن تكون عليه حال الإماء فى الإسلام من الحفاظ على عرضهن وشرفهن(١).

وكما حرم الإسلام البغاء حرم المخادنة؛ وهى اقتصار الأمة على رجل مسافح غير سيدها تعاشره فى السر. ونزل فيها قول الله عز وجل: (ولا متخذات أخدان)(٢).

ورغب الإسلام فى تأديب الإماء وتعليمهن وعتقهن والتزوج بهن بعد العتق؛ فعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: «أيما عبد أدى حق الله وحق مواليه فله أجران»(٣).

وقد أعفى الإسلام العبيد من أشياء كثيرة أوجبها على الأحرار كصلاة الجمعة والحج(٤). واتجه إلى التخفيف عنهم فى كثير من العقوبات مراعاة لظروفهم الخاصة كالزنا والقذف، فجعل عقوبة الأمة الزانية على النصف من عقوبة الحرة المحصنة. قال تعالى: (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب)(٥). وكذلك القذف حيث يجلد الحر ثمانين لقوله تعالى (فاجلدوهم ثمانين جلدة) ويجلد العبد أربعين(٦).

وحض رسول الله صلى الله عليه وسلم العبيد على الصبر والطاعة، وحثهم على أداء واجبهم نحو سادتهم، وعلمهم أن الأجر محفوظ لهم عند الله وأن الله مبتليهم بما هم فيه، فإن صبروا وأطاعوا كان لهم ضعف أجر الأحرار؛ فـ «ما من مملوك يطيع الله ويطيع مالكه إلا كان له أجران»(٧). وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «للعبد المملوك الصالح أجران، والذى نفسى بيده لولا الجهاد فى سبيل الله والحج

---

(١) الاستيعاب ج٤ ص ٤٠١، ٤٠٢؛ الإصابة ج٤ ص ٣٩٤، ٣٩٥.
(٢) سورة النساء من الآية رقم ٢٥.
(٣) متن البخارى بحاشية السندى ج٢ ص ٨٣، ٨٤ باب: فضل من أدب جاريته وعلمها.
(٤) نظام الرق فى الإسلام- د. عبد الله ناصح علوان ص ٣١.
(٥) سورة النساء من الآية رقم ٢٥.
(٦) الفقة الميسر ص ٣٥٣.
(٧) أخرجه أبو موسى من طريق سعيد بن سليمان بن عباد بن حصين سمعت عبد الله بن مسلم وكانت له صحبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. الحديث. الاستيعاب ج١ ص ٤٣١، ٤٣٢/ الإصابة ج٢ ص ٣٦٢، ٤٣٩.

وبر أمى لأحببت أن أموت وأنا مملوك»(١).

ورهب صلى الله عليه وسلم من إفساد العبيد على سادتهم؛ فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ليس منا من خبب امرأة على زوجها أو عبداً على سيده»(٢). ورهب العبيد من الإباق؛ فعن جرير رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما عبد أبق فقد برئت منه الذمة». رواه مسلم. وعنه رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة». وفى رواية: «فقد كفر حتى يرجع إليهم»، رواه مسلم فى صحيحه. لكنه وقد رهبهم من الإباق رغب سادتهم فى الشفقة عليهم وتوعد الذين لا يترفقون بهم ويتطاولون عليهم بالضرب والسب ويتعمدون جرحهم وإهانتهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نموذجاً رائعاً أمام المسلمين، يقتدون به فى معاملتهم للعبيد ويتمسكون بوصاياه ويتبارون فى تحقيقها على أكمل وجه. فها هو ذا صلى الله عليه وسلم يداعب غلام أم سلمة ويقول له وقد رآه ينفخ فى صلاته: «يا أفلح ترب وجهك»(٣). وها هو ذا يعتق غلامه زيداً ويخيره بين العودة إلى أهله والإقامة معه فيختاره على أهله فيتبناه ويزوجه من ابنة عمه زينب وهى من أشراف قريش(٤). وها هو ذا يرسل سرية على رأسها كرز لينتقم من أولئك الذين خانوه فقتلوا عبده وسملوا عينيه.(٥) وها هو ذا يمسح على رأس مملوك وقد جاءه مولاه مسلماً ويدعو له بالبركة(٦). وها هو ذا يستمع إلى أبى رافع وزوجه ويفسح لهما من وقته على كثرة ما وراءه من الأمور الجسام ويمازحهما(٧). وها هو ذا يأكل مع ذى اليدين ويناول الجارية مما يأكلان فتنسى أنها صائمة وتأكل معهما وحين تتذكر وتنفض يدها من الطعام يقول لها ذو اليدين: «الآن بعدما شبعت»! أما هو صلى الله عليه وسلم فيهون عليها ويقول: «إنما هو رزق ساقه الله إليك»(٨).

---

(١) متن البخارى بحاشية السندى ج٢ ص ٨٤. واللفظ لأبى هريرة، ورواه مسلم فى صحيحه.

(٢) رواه أبو داود وهذا أحد ألفاظه والنسائى وابن حبان فى صحيحه ورواه أبو يعلى من حديث ابن عباس ورجال أبى يعلى كلهم ثقات. الترغيب والترهيب ص١٥٢، ١٥٣. وخبب بفتح الخاء المعجمة وتشديد الباء الأولى معناه خدع وافسد.

(٣) رواه الترمذى من طريق أبى حمزة ميمون عن أبى صالح عن أم سلمة وقال: "غريب" وأخرج النسائى من طريق كريب عن أم سلمة نحوه. الإصابة ج١ ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٤) السيرة النبوية د. طه عبد الرءوف سعد ج١ ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٥) المصدر نفسه ج٤ ص ٢١١، ٢١٢.

(٦) الاستيعاب ج٤ ص ٨٩/الإصابة ج٣ ص ٣٧٥.

(٧) الإصابة ج٤ ص ٣٢٦.

(٨) أخرجه أحمد من طريق أم حكيم بنت دينار- عن مولاتها أم إسحق. الإصابة ج٤ ص ٤١٣.

إلى هذا الحد كان صلى الله عليه وسلم يترفق بالعبيد فيأكل معهم ويستمع إليهم ويمازحهم ويخفف عنهم ويوصى بهم. وقد اقتدى به الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون من بعدهم وحرصوا على تطبيق وصاياه رغبة فى رضى الله سبحانه والتماسا لعفوه وغفرانه.

وفى ظل الشريعة الإسلامية نال العبيد كثيراً من الحقوق وتساووا فيها مع الأحرار، كإمامة المسلمين فى الصلاة والإجارة «روى ابن أبى شيبة من طريق أبى سفيان مولى ابن أبى أحمد أنه كان يؤم بنى عبد الأشهل وهو مكاتب وفيهم من الصحابة محمد بن سلمة وسلمة بن سلامة»(١) وفى فتح كور فارس وكور مان «حاصر المسلمون حصنا فكتب عبد أمانا ورمى به إليهم فى مشقص فقال المسلمون: ليس أمانه بشىء، فقال القوم: لسنا نعرف الحر من العبد. فكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب إن عبد المسلمين منهم ذمته ذمتهم.» (٢) فأنفذوا الأمان.

وأجاز الإسلام شهادة العبد إذا كان عدلا، وكانوا من قبل لا يتقبلون شهادته. تزوج عقبة بن الحرث أم يحيى بنت أبى إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت: قد أرضعتكما. فذكر عقبة ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه. فكرر عليه فقال: «فكيف وقد زعمت أن قد أرضعتكما»؟ ونهاه عنها فانتهى وأجيزت شهادة الأمة (٣). وأجاز عمر رضى الله عنه شهادة علقمة وكان خصياً (٤).

ومن الحقوق التى ساوى فيها الإسلام بين العبيد والأحرار - من حيث هو مبدأ مع الاختلاف فى القيمة - عطاء بيت المال. «أخرج ابن أبى عاصم والبغوى وابن قانع من طريق عمرو بن دينار عن الحسن عن محمد بن الحنفية عن مخلد الغفارى أن ثلاثة أعبد لبنى غفار شهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً وكان عمر يعطيهم كل سنة لكل رجل منهم ثلاثة آلاف» (٥). وأبصر عثمان بن عفان وهيباً - وكان عبداً لزيد بن ثابت - يعين المسلمين فى بيت المال فقال: من هذا؟ فقال زيد: مملوك لى. فقال عثمان: أراه يعين المسلمين وله حق وإنا نفرض له ألفين. فقال زيد: والله لا تفرض لعبد ألفين. ففرض له ألفا (٦).

وأعفى الإسلام العبيد من التصرف فى البيوع بغير إذن سادتهم ليحمل السادة المسئولية

---

(١) الإصابة ج٢ ص ٦٤.
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٨٣.
(٣) متن البخارى بحاشية السندى ج٢ ص ١٠٣ باب شهادة الإماء والعبيد.
(٤) الإصابة ج٣ ص ٢٢٠، ٢٢١.
(٥) الإصابة ج٣ ص ٣٧٢.
(٦) الاستيعاب ج١ ص ٥٣٤.

عنهم كاملة، وفى الوقت نفسه أجاز للعبد أن يتصدق من مال سيده وجعل الأجر بينهما. روى مسلم عن عمير مولى آبى اللحم قال: «كنت مملوكاً فسألت النبى صلى الله عليه وسلم أتصدق من مال مولاى بشىء؟ قال نعم والأجر بينكما».

وحث على تزويج العبيد والإذن لهم بذلك، وإن كان قد واجه هذا الزواج بشىء من التضييق من حيث العدد المباح وعدد التطليقات، فلا يجوز للعبد أن يتزوج فوق اثنتين على الأرجح(١)، ولايملك من الطلاق غير تطليقتين(٢). ولا أرى تعليلا لذلك إلا رغبة الشارع فى إنضاب معين الرق وتضييق باب من أوسع أبوابه هو باب التناسل.

فإذا نظرنا إلى الأعمال التى كانت توكل إلى العبيد والإماء، وجدناها كثيرة ومتنوعة لكنهما على كل أعمال بسيطة كالخدمة فى البيوت، ولم يكن بيت يخلو من الرقيق إلا نادراً وقد أخدم الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة أمة نوبية فكانت تعجن وتحتطب لها(٣). وكان له صلى الله عليه وسلم غلام يخدمه يدعى عبد القدوس وكان يهودياً(٤). وكان لأم هانئ جارية حبشية تدعى نبعة تقوم على خدمتها.(٥)

وكان لعائشة غلام يخدمها اسمه رافع(٦). وعميت أروى بنت أويس فكانت تقودها جارية(٧). وأصيب سعد بن يربوع ببصره فعاده عمر فقال له لاتدع شهود الجمعة والجماعة فقال ليس لى قائد فبعث إليه غلاماً من السبى(٨). وابتاع أصرم عبداً حبشياً فقال يا رسول الله سمه وادع له. قال: ما اسمك؟ قال: أصرم قال: بل زرعة. فما تريده؟ قال راعياً. قال فقبض أصابعه فقال هو عاصم(٩). وكان عبيد والد أبى وجزة الشاعر عبداً لوهب بن خالد وقد أقام عنده زماناً يرعى إبله(١٠). وكان أبو كثير مولى تميم الدارى جمالا لتميم(١١).

---

(١) وهو مروى عن على وزيد بن على والناصر والحنفية والشافعية ويؤيده قول عمر: "ينكح العبد امرأتين ويطلق تطليقتين". وذهب أبو الدرداء ومجاهد وربيعة وأبو ثور والقاسم بن محمد وسالم إلى أنه يجوز للعبد أن ينكح أربعا كالحر. نيل الأوطار ج٧ ص ٣٢٩.

(٢) المرجع نفسه ج٨ ص ٣٠ / الفقه الميسر ص ٣٠٢.

(٣) الإصابة ج٤ ص ٣٧٦.

(٤) المصدر نفسه ج٢ ص ٤٢٢.

(٥) المصدر نفسه ج٤ ص ٤٠٢، ٤٠٣.

(٦) الإصابة ج٤ ص ٤٨٨.

(٧) الاستيعاب ج ٢ ص ٨.

(٨) الإصابة ج٢ ص ٥٠.

(٩) أخرجه أبو داود والحاكم فى المستدرك والطبرانى. الإصابة ج١ ص ٣٦.

(١٠) الإصابة ج٤ ص ١٦٥.

(١١) المصدر نفسه ص ١٦٥.

واتخذ عمر يسار بن نمير خازناً له وكان يسار من العبيد(١). وكانت سلمى مولاة صفية قابلة، وعلى يديها ولد إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم، وهى التى غسلت فاطمة رضى الله عنها مع زوجها على وأسماء بنت عميس(٢). وشهدت سلمى خيبر. ولم تكن أول من شارك فى القتال من العبيد؛ فقد شهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون مملوكاً(٣). وشهد كيسان أحداً وكان عبداً لبنى مازن بن النجار من الأنصار(٤). وكان بعض العبيد يخرجون مع سادتهم ليكونوا ردءاً لهم فى القتال، يعدون الآلات ويلتقطون الأسهم ويقومون على خدمتهم(٥). وكان بعض العبيد ممن يحسنون القتال يشاركون مشاركة فعلية فيه، وقد أظهر بعضهم مهارة فائقة.(٦) لكن لم يثبت أن المسلمين كونوا جيشاً نظامياً من العبيد فى صدر الإسلام، ولم يثبت كذلك أنهم كانوا يجبرونهم على الخروج إلى القتال كما كان الشأن فى أمم سابقة.

وكانت توكل إلى العبيد بعض المهن الصغيرة بالإضافة إلى مايقومون به من خدمة سادتهم؛ فكان ياسر مولى المغيرة يرش المسجد النبوى ويكنسه، وكان أنجشة مولى النبى صلى الله عليه وسلم يحدو بالنساء وكان حسن الصوت بالحداء، وكان أيمن بن عبيد مولى الرسول يتولى أمر مطهرته(٧).

ومن العبيد من كانوا يحترفون صناعات خفيفة لكنها تحتاج إلى مهارة وخبرة؛ فقد كان أبو شعيب وهو عبد لرجل من الأنصار لحاماً(٨)، وكان محرز قصاباً(٩)، وكان يسار خفافاً وكانت له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانة عظيمة(١٠). وكان أبو سعيد المقبرى مكاتبا. وقد جعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حفر القبور بالمدينة(١١). وابتاع عثمان أبا فروة من مال الصدقة وجعله يحفر القبور(١٢). وفى الصحيح أن الذى شيد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام امرأة من الأنصار كان يجيد النجارة.

---

(١) المصدر نفسه ج٣ ص ٦٣٧.
(٢) الاستيعاب ج٤ ص ٣٢٢.
(٣) الإصابة ج٣ ص ٥٦٩.
(٤) السيرة النبوية - ت. طه عبدالرءوف سعد ج٣ ص ٦٠.
(٥) الإصابة ج٤ ص ١٤٠.
(٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج٣ ص ٦٢١.
(٧) بين الحبشة والعرب - د. عبدالمجيد عابدين ص ١١٠.
(٨) الإصابة ج٤ ص ١٠٢، ١٠٣.
(٩) المصدر نفسه ج٣ ص ٤٦٣.
(١٠) المصدر نفسه ج٣ ص ٢٦٨.
(١١) المصدر نفسه ج٣ ص ٢٠٠.
(١٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٢٩.

ومن الأعمال اليدوية التى مارسها العبيد فى صدر الإسلام الحياكة وصناعة الحلى والحدادة وصناعة الجلود والأوانى(١). وإلى جانب هذه الأعمال اليدوية الخنيفة زاولوا بعض المهن الثقيلة وبخاصة فى المدن الجديدة كالبصرة والكوفة حيث قاموا بحفر الترع وشق القنوات وإصلاح البطائح وسائر أعمال الإنشاء(٢).

وكانت هناك أعمال خاصة بالعبيد يحظر على الأحرار احترافها كالحجامة؛ فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام، واختلف الفقهاء فيه فمنهم من حمل النهى على التحريم، ومنهم من حمله على كراهة التنزيه(٣). وحكى صاحب الفتح عن أحمد وجماعة الفرق بين الحر والعبد؛ فكرهوا للحر الاحتراف بالحجامة... وأباحوها للعبد مطلقاً»(٤). وحجم أبو طيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه أجره وكلم مواليه أن يخففوا عنه، وكان عبداً لبنى بياضة(٥).

وقبل أن نترك العبيد فى صدر الإسلام نسجل أن تلك المعاملة الحسنة التى أحيطوا بها كانت هى القاعدة، لكن القاعدة لاتنفى الشذوذ، ووجود الشاذ لاينفى القاعدة؛ فقد كان بعض السادة ممن لم يتعمق الإسلام نفوسهم يعاملون عبيدهم بالطريقة نفسها التى كان يعامل بها العبيد فى الجاهلية، خاصة فى البادية حيث طبع البدو على الشدة والغلظة فى كل شىء. وكان هذا الشذوذ وراء انحراف بعض العبيد.

وقد تمثل الانحراف فى صور شتى؛ أبسطها أن يرد العبد على سيده بالمنطق نفسه دونما اعتبار لمكانته أو التفات لما قد يترتب على رده من العواقب. «قال شداد الحارثى ويكنى أبا عبيد الله: قلت لأمة سوداء بالبادية: لمن أنت ياسوداء؟ قالت لسيد الحضر يا أصلع. قلت: أو لست بسوداء؟ قالت: أولست بأصلع؟ قلت ما أغضبك من الحق؟ قالت: الحق أغضبك»(٦). وقد يكون الانحراف سلبياً فيترر العبد الإباق ويجازف بالهروب على الرغم مما يكتنفه من المخاطر ويحدق به من الشرور(٧).

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج٢ ص ٦٣.
(٢) المصدر نفسه ج٣ ص ٤١٤.
(٣) نيل الأوطار للشوكانى ج٧ ص ٣٢.
(٤) نيل الأوطار للشوكانى ج٧ ص ٣٢.
(٥) الاستيعاب ج٤ ص ١١٨، ١١٩/ الإصابة ج٤ ص ١١٥.
والحديث فى الصحيحين عن جابر وأنس وغيرهما.
(٦) البيان والتبيين للجاحظ- ت. عبد السلام هارون ج٢ ص٧١.
(٧) الإصابة ج٣ ص ٢٥٨.

وقد يأخذ الانحراف صورة عنيفة فيثور العبد على سيده فيقتله أو يدبر لقتله على المدى البعيد، كما حدث لمظهر بن رافع الأنصارى الحارثى، وهو صحابى عاش إلى خلافة عمر فقتله أعلاج من عبيده بخيبر، وكان أقامهم يعملون فى أرضه فحملهم اليهود على ذلك(١).

وكان المقداد بن الأسود الكندى عظيم البطن، وكان له غلام رومى فقال له: «أشق بطنك فأخرج من شحمه حتى تلطف». فشق بطنه ثم خاطه فمات المقداد وهرب الغلام وكان ذلك فى خلافة عثمان(٢). وغير بعيد عن الأذهان أن الذى قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه غلام فارسى يدعى أبا لؤلؤة المجوسى(٣). ولم يك عمر شاذاً عما قرره الإسلام فى معاملته للعبيد، ولكنه سوء فهم الغلام حين رفض عمر تخفيف الضريبة عنه، وربما كانت هناك دوافع أخرى وراء تجرئه عليه واغتياله له.

ومن هذا القبيل - الانحراف الذى لايقابله شذوذ - ما كان من حميدة والدة أشعب الطماع، ذكروا أنها «كانت تدخل بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فيستظرفنها، ثم إنها فارقت ذلك وصارت تنقل أحاديث بعضهن إلى بعض وتغرى بينهن(٤). وكانت أم سارة التى بعث معها حاطب بن أبى بلتعة كتابه إلى قريش يحذرهم فيه من قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة لقريش(٥) وكان حاطب نفسه مكاتباً(٦).

ويكون الانحراف أخطر عندما يتمثل فى الارتداد عن الدين(٧). والكذب فى رواية الحديث النبوى الشريف(٨)، والانضمام إلى الفرق المناوئة كالشيعة والخوارج(٩). وقد استقطبت هذه الفرق عدداً كبيراً من العبيد والموالى فى نهاية صدر الإسلام وفى العصور التالية.

---

(١) الإصابة ج٣ ص ٤٠٦.
(٢) الإصابة ج٣ ص ٤٠٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٥٤٨.
(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج١٩ ص ١٣٥.
(٥) الإصابة ج ٣ ص ٤٣٦.
(٦) المصدر نفسه ج١ ص ٢٩٩.
(٧) المصدر نفسه ج٢ ص ٣٦٣.
(٨) المصدر نفسه ج٢ ص ٣٦٧.
(٩) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٤٨/ تاريخ اليعقوبى ج٢ ص ١٩٧.

الفصل الثانى

اتجاهات شعر العبيد

* الاتجاه الأول

الاتجاه نحو التسامى والاستعلاء عند عنترة

* الاتجاه الثانى

الاتجاه نحو العبث والمجون عند سحيم

* الاتجاه الثالث

الاتجاه نحو الصعلكة عند السليك والشنفرى

تشترك المرايا جميعها فى خاصة واحدة، وهى قدرتها على عكس الشعاع الذى يسقط فوقها. لكنها تختلف فى درجة (الانعكاس)؛ فهو فى المرآة (المستوية) غيره فى المرآة (المحدبة) وكذلك فى المرآة (المقعرة).

وكما تختلف درجة (الانعكاس) فى تلك المرايا يختلف تأثير العبودية فى نفوس العبيد؛ لأنها بطبيعتها مختلفة، فلا توجد نفس تتشابه مع أخرى فى كل شىء. ولأن هؤلاء العبيد - على الرغم من وقوعهم جميعاً تحت وطأة مؤثر كبير فعال متمثل فى العبودية والرق - كان لكل واحد منهم ظروف خاصة لايشترك فيها مع غيره، فضلا عن وجود ما يسميه علماء النفس المعاصرون بـ «الاستعداد الخاص» وهو يختلف من شخص إلى آخر.

لذا تعددت الاتجاهات فى شعر العبيد. وقد لاحظ الأستاذ العقاد هذه الاتجاهات من قبل وأشار إلى أن عنترة كان يتجه فى شعره نحو التسامى والاستعلاء، وأن سحيماً كان يتجه نحو العبث والمجون، وأن السليك كان يتجه نحو الصعلكة.

وقد رأيت أن أفرد لهذه الاتجاهات - بعد أن تحققت منها - فصلا خاصاً أتتبع فيه كل اتجاه على حدة مبيناً مظاهره المختلفة والأسباب التى أدت إليه عند عنترة وسحيم والسليك والشنفرى، وهم أبرز شعراء العبيد.

الاتجاه الأول

الاتجاه نحو التسامى والاستعلاء عند عنترة

قال معاوية لمحمد بن الأشعث عندما دخل عليه فجلس بينه وبين الأحنف بن قيس، وكان محمد قد وجد فى نفسه من تقديم معاوية الإذن للأحنف وتقريبه منه: «.... وما رأيت أحداً يرفع نفسه فوق قدرها إلا من ذلة يجدها»(١).

وهذا القول ينطبق إلى حد كبير على صاحبنا عنترة؛ فقد نشأ بين العبيد، ولم يعترف به أبوه إلا على مضض وتحت ضغط حاجة من حاجات القبيلة وبعد أن بلغ مبلغ الرجال وسار فارساً يصاول الأبطال ويقارع الشجعان. وعلى الرغم من اعتراف أبيه به ظل إحساسه بالمهانة ملازماً له؛ فقد عيروه بالسواد وأبى بعضهم أن ينسبه إلا إلى أمه فكانوا ينادونه بابن السوداء وابن زبيبة، ورفضوا أن يقسموا له من الغنائم مثلما يقسمون للصرحاء وهم يعرفون فضله عليهم خاصة فى القتال، وكانت سمية زوج أبيه تحرض عليه، وكان أبوه يقسو عليه ويشتد معه. على أن أشد ما وجده عنترة فى نفسه صلف عمه مالك وغرور ابنه عمرو وضروبهما بعبلة من وجهه ورفضهما له. وقد بلغ إحساس عنترة بالضعة مداه عندما زفت عبلة لغيره، وفشلت كل محاولاته لإقناع أبيها وأخيها، وربما لإقناعها هى أيضا؛ فقد كانت- على نحو ما يصور شعره- تزدريه وتضحك منه(٢).

وقد كان الإحساس بالنقص- على ما يبدو- ملازما لكثير من العبيد فى البيئة العربية، وبخاصة الشعراء. غير أنه كان يأخذ عند كل منهم مظاهر مختلفة. وأبرز مظاهره عند عنترة التسامى والاستعلاء.

ولا أعنى بهما ما يعنيه علماء النفس من التسامى بالفن على الرغبات المكبوتة التى لا يستطيع الفنان أن يعلن عنها صراحة، وإلا فكل فنان يتسامى على هذا النحو فى ضوء ما يفسر به بعضهم الفن، وإنما هو مجرد الرغبة فى العلو والارتفاع ليثبت للجميع أنه لا يقل عن أى منهم إن لم يكن هو الأفضل، ولينتزع فى النهاية اعترافاً حقيقياً به واعجاباً يستر عن العيون مواطن النقص فيه.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ- ت. عبد السلام محمد هارون- ج٤ ص ٧١،٧٠.

(٢) شرح ديوان عنترة- عبد المنعم عبد الرءوف شلبى (المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة- بدون تاريخ) ص ١٢١.

ويظهر هذا الاستعلاء في تعففه وفروسيته وترفعه عن المدح والاعتذار وعفته في الهجاء وكلفه بالفخر الذاتي.

١ - التعفف:

أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قول عنترة:

«ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به كريم المأكل».

فقال صلى الله عليه وسلم: «ماوصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلاعنترة» (١)

هذا الأثر الذي رواه صاحب الأغاني بسند له عن ابن عائشة يؤكد - إن صح - تسامي عنترة في خلقه تسامياً يرفعه إلى منزلة رفيعة لم يبلغها إلاقلة قليلة في ذلك العصر حتى ليرغب النبي صلى الله عليه وسلم في رؤيته ولم يرغب قط في رؤية غيره من الأعراب، فالأعراب أهل غلظة وقسوة وجفاء، وقليل منهم الذين كانوا يتورعون عن النهب والسرقة والسباء وغيرها من العادات والصفات التي جاء الاسلام فحرمها ونهى عنها. وقد كان عنترة واحداً من هؤلاء القلة، فهو يبيت على الجوع، ويبقى كذلك بالنهار، وتمر عليه الليالي. وتمر عليه الأيام ولاتمتد يده إلى طعام خبيث، يصبر على الطوى حتى ينال كريم المأكل، فرب لقمة خبيثة جاءت من وجه غير حق أورثت صاحبها الذل وألصقت به من الصفات ما يربأ عنترة بنفسه عنها ويتسامى عن الاتصاف بها. شأنه في ذلك شأن الحر الكريم، يموت جوعاً ولاتمتد يداه إلى طعام غير كريم.

وكما كان يجوع ويصبر على شهوة البطن، كان يصبر على شهوة الجسد ويتعالى حتى عن النظرة فيغض الطرف عن حليلة الجار حتى تتوارى عن عينيه:

«وأغض طرفي مابدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مأواها» (٢)

ولايزور جارته إلا في حضرة زوجها، فإن غاب عنها ابتعد، ابتعاد الحر عن موطن الشبهات:

«أغشى فتاة الحي عند حليلها   وإذا غزا في الجيش لاأغشاها». (٣)

---

(١) الأغاني (ط. بيروت) ج٨ ص ٢٤٠ وسنده "أخبرني أحمد بن عبدالعزيز الجوهري قال: حدثنا عمر بن شبة قال حدثنا ابن عائشة قال: أنشد....".

(٢) شرح ديوان عنترة ص ١٨٥.

(٣) المصدر نفسه والصحيفة.

وقصته مع عبلة مشهورة وحبه لها أظهر من أن ندل عليه، غير أنه كان حباً عفيفاً تتردد فيه معانى الهجر وآلامه والفرقة وحرقتها وقسوة الحرمان. وكان يتصف بالنقاء. ولم يكن لعنترة غير امرأة واحدة يدور حولها غزله ويأبى قلبه غيرها من النساء:

«ولئن سألت بذاك عبلة أخبرت أن لا أريد من النساء سواها» (١).

وربما تجمح به العاطفة فيصفها وصفاً حسياً، لكنه لا يوغل فى هذا الوصف، ولا يبعد عن الفم والجيد والشعر ورهافة الخصر، ليدلل على جمالها حسب مقاييس الجمال فى عصره.

وتخرج عبلة من الديار، ويزج بها إلى غيره، ويزج به إلى غيرها، لكن حبه لها يبقى راسخاً فى قلبه، تزيده الأيام اشتعالا، وتنفخ فيه الذكريات كلما خبت ناره، فيبقى نهباً لهذه الآلام.

ويعجز عنترة عن محو هذا الحب، أو زحزحته، أو إيجاد بديل له؛ فالمرأة التى ارتبط بها واتخذها لنفسه زوجا، لم تذكر فى شعره إلا مرة واحدة، وهو فى هذا المرة يعلن فى غير مواربة تبرمه منها وضيقه، وكأنه كان يرغب فى الانفصال عنها وقطع ذلك الرباط الواهى الذى يربطه بها.

أليس بعجيب أن يفضل فرسه عليها، ولا يحتمل منها ما قالته عن الفرس ويتهددها أن استمرت بالقطيعة والفراق؟! إنها على ما يبدو لم تكن إلا مجرد شىء يمكن الاستغناء عنه فى أى وقت.

يقول عنترة:

«لا تذكرى مهرى وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجرب
إن الغبوق لــه وأنت مســوءة فتأوهــى ماشــئت ثــم تحوبى
كـذب العتيق ومـاء شـــن بـارد إن كنت ســائلتى غبوقاً فاذهبى» (٢).

وعلى الرغم من حب عنترة الكبير لعبلة وشدة تعلقه بها إلا أنه كان يرفض التذلل لها أو إظهار نفسه فى مظهر المحتاج الذى لا يستطيع الاستغناء عنها أو العيش بدونها.

«لا تصرمينى يا عبيل وراجعى فــى البصيرة نظــرة المتأمــل
فلرب أملــح منك دلا فاعلمــى وأقــر فــى الدنيــا لعين المجتلــى
وصلـت حبالـى بالـذى أنـا أهلـه مــن ودهــا وأنا رخـى المطول» (٣).

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٨٦.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ٢٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١٢١.

فهنا يظهر عنترة فى موضع الأعلى وكأنه يملى عليها رغباته، ويتهددها إن هى تركته بوصل أخرى ممن يتهافتن عليه وما أكثرهن فى رأيه!!

وهل كان حقا يستطيع الاستغناء عنها؟! وهل كان مرغوباً من غيرها من ذوات الدل والجمال كما يزعم وهو الأسود الدميم؟ أم أنه مجرد الاستعلاء عن التذلل للنساء وإن كانت معشوقة القلب؟! لقد كان عنترة شديد الاعتزاز بنفسه، يتسامى عن الذل فى كل أشكاله وصوره. ويثور على كل من يحاول إذلاله وإن كان هذا باسم «الحب»!!

ومن الذل أن يقبل الإنسان ظلم الآخرين له. ويعجز عن دفع الضيم عن نفسه أو أقرب الناس إليه، لذلك وجدنا عنترة يرفض الذل ويأباه، ويصف نفسه بأنه سمح الخليقة فى كل شىء إلا أن يظلم فإذا ظلم ذهبت عنه السماحة وزال عنه الحلم وقابل الظلم بالظلم وما أمر ظلمه:

«أثنى على بما علمت فإننى ... سمح مخالطتى إذا لم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل ... مـر مذاقته كطعـم العلقـم» (١)

ومما يذكر لعنترة فى هذا الصدد موقفه من ابنى ضمضم اللذين تطاولا عليه بالشتم وتوعداه بالقتل فقد خشى أن يموت دون أن يلقاهما، ويشتفى لنفسه مما قالاه:

«ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشـاتمى عرضـى ولـم أشـتمهما ... والناذريـن إذا لقيتهـما دمـى» (٢)

وربما عفا عنهما - فلم يذكرا فى قتلاه - واكتفى بحربهما والانتصار عليهما ليكون عفوه عن مقدرة. والعفو عند المقدرة أبرز سمات الحلم عند العرب. (٣)

وعلى الرغم من خشونة العيش التى كان يأخذ نفسه بها على نحو ما يصور قوله:

«تمسى وتصبح فوق ظهر حشية ... وأبيت فوق سراة أدهم ملجم

وحشيتى سـرج على عبل الشـوى ... نهـد مراكلـه نبيل المحـزم» (٤)

لم يعرف عنه أنه كان بخيلا، بل كان يجود بكل ماملكت يده. وكثيرا مافخر بجوده؛ فالجود والكرم من ضرورات السيادة، والسيادة مطلب أسمى بالنسبة له.

وكان - كسائر أهل عصره - يشرب الخمر. لكنه يشربها دون تفريط. يبذل فيها المال كى لا يقال عنه إنه بخيل، لكنه لا يتمادى فى شربها حتى يذهب العقل ويمس العرض. وكأن الخمر مظهر من مظاهر الاستعلاء عن البخل وإمساك المال، لذلك يقرن بينها وبين الكرم وشدة الإنفاق:

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٤٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٤.
(٣) الفتوة عند العرب- د. عمر الدسوقى ص ٩٥.
(٤) شرح ديوان عنترة ص ١٤٦.

«فـإذا شـــربت فإننـى مســتهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم». (١)

ويحرص عنترة على ذكر الجود بعد الصحو من الشراب كى لا يظن أنه شىء عارض يدفعه إليه سكره:

«وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى».

إنها الشمائل التى حاول عنترة من خلالها أن يحقق لنفسه السيادة، وأن يثبت للجميع - لا لعبلة فحسب - أنه سيد بالفعل. وأنه لا يقل عن أى سيد من سادات العرب الذين ورثوا السيادة عن آبائهم؛ إنه سيد بما فيه من صفات السيادة؛ سيد بكرمه وجوده، سيد بإبائه ورفضه الذل والضيم، سيد بحلمه وسهولة أخلاقه فى السلم، سيد بتعففه وصيانته لحقوق الجار، سيد باستعلائه عن الصغائر وتساميه عن كل مايشين، وتمسكه بكل ما من شأنه أن يرفعه فى عيون الآخرين.

٢ - الفروسية:

الفروسية فى العصر الجاهلى مظهر من مظاهر الفتوة(٢). وظاهرة اجتماعية ساعد على وجودها وانتشارها النظام القبلى والعصبية وكثرة الحروب وتعدد الأخطار. (٣) وقد شهدت البيئة العربية فى ذلك العصر نماذج متعددة من الفرسان؛ فهناك الفارس الحر، والفارس الصعلوك، والفارس العبد. (٤)

واشتهر من هؤلاء الفرسان خالد بن جعفر بن كلاب العامرى وعتيبة بن حارث وربيعة بن مكدم وملاعب الأسنة وزيد الخيل وزيد الفوارس وعامر بن الطفيل وعنترة بن شداد. وكان عنترة أشهر فرسانهم على الإطلاق. لذلك اتخذ مادة لسيرة شعبية تحول فيها من شخص إلى نموذج، ومن واقع إلى مثال؛ مثال للفارس العربى، لا فى الجاهلية فحسب بل على امتداد العصور.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٩.
(٢) الفروسية العربية فى العصر الجاهلى - د. سيد حنفى (دار المعارف بمصر ١٩٦٠م) ص٩.
(٣) المرجع نفسه ص ١١ وما بعدها
(٤) المرجع نفسه ص ٦١ وما بعدها.

وعلى الرغم مما لهذه السيرة من فضل على شاعرنا. فى إضفاء الشهرة عليه وحفر صورته فى قلوب العامة وتمجيد مواقفه وتسجيل بطولاته وبلائه فى القتال حتى عده بعض المعاصرين (أخيل) العرب وقرن سيرته بملاحم الإغريق الشهيرة.(١) إلا أنها ساعدت فى الوقت نفسه على طمس صورته الحقيقية أو على الأقل ساعدت على تشويهها. فكان لابد للباحث من تنحية هذه السيرة جانباً وتخليص شعره من المنحول إن أراد التعرف على شخصيته الحقيقية والوقوف على فروسيته دون تحريف أو تزييف.نشأة عنترة فى قبيلة عبس، وهى من القبائل المحاربة - كما ذكرت - بل كانوا يعدونها جمرة من جمرات العرب لكثرة حروبها ورفضها الانضواء تحت حلف من الأحلاف.(٢) وقد ساعدت هذه الحروب الكثيرة على وجود طائفة كبيرة من الفرسان فيها، عرفوا بالقوة والبأس ونالوا قسطاً كبيراً من الشهرة، منهم غير عنترة - قيس بن زهير، وعروة بن الورد. غير أن الأول فارس سيد، والثانى فارس صعلوك. وقد «كانت فروسية عنترة نموذجاً مخالفاً لنموذج الفارس السيد والفارس الصعلوك؛ فى دوافعها النفسية، وفى موقف القبيلة منها، وموقفها من القبيلة، فالفارس السيد ابن قبيلته البار، فهو عندما يتغنى ببطولاته لاينسى أن هذه البطولة إنما هى ملك للقبيلة، بل إنه يتغنى بكل شاب وصبى وطفل يستطيع أن يباهى به لأنه عنوان لبأس القبيلة ورمز لخشية أعدائها لها... أما الفارس الصعلوك فهو ابن جماعته الصغيرة ومذهبها فى الحياة، ابن صحرائه بوحوشها ونباتها وعواصفها، وفروسيته قائمة على صداقة عناصرها الطبيعية ومعاداة أناسها الظالمين.... أما عنترة الفارس العبد فهو ابن بطولته، ابن صراعه اليومى فى سبيل حريته وفى سبيل إبقائه على حياته».(٣)

ويبدو أن فروسيته كانت نوعاً من ملء الفراغ وتعويضاً عن ذلك الإحساس العميق بالنقص؛ فهو من خلالها يكرم ذاته ويتسامى بها على ما يصيبه من التعيير وما يناله من الهوان(٤). وليس أدل على ذلك من أنه كان يجد فى بطولاته وانتصاراته فى حروب قبيلته شفاء لنفسه، بالمفهوم العميق لكلمة «شفاء»:

---

(١) تاريخ العرب- فيليب حتى جـ١ ص ١٠٧.
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٢م) ج٣ ص٣٦٧.
(٣) الفروسية العربية فى العصر الجاهلى د. سيد حنفى ص ٩٧، ٩٨.
(٤) عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنترة- ناهد الشعراوى ص ٢٢.

-«ألا هـل أتاهـا أن يـوم عراعر   شفى سغبا لو كانت النفس تشتفى». (١)
-«ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها   قيل الفـوارس ويـك عنـد أقـدم» (٢)

فليس من قبيل المصادفة أن تتكرر هذه الكلمة وتتردد فى شعره مقترنة بالنصر والتفوق فى القتال. إنها الدليل البارز على ما كان ينتابه من الإحساس بالدونية وهى التى حفزتنا إلى أن ننظر إلى فروسيته على أنها ضرب من التسامى والاستعلاء.

كان عنترة يسعى إلى نيل حريته، واعتراف القبيلة به، وعبس قبيلة محاربة تمجد القوة ولاتعترف إلا بالأقوياء. وقد وهبه الله قوة فى الجسد وقوة فى العقل، ولم يكن ينقصه فى بداية أمره غير الطريق التى يستثمر من خلالها هذه القوة أو بالأحرى يسمح لها بالظهور. وقد وجد فى حروب قبيلته ضالته، فشارك فيها، راضياً من الغنيمة بالنصف شأنه فى ذلك شأن كل العبيد، لأنه لم يكن يسعى إلى الغنيمة وإنما كان يسعى إلى ما هو أهم؛ اعترافهم به وبأهميته فيهم وبحاجتهم إليه.

وقد استطاع فى فترة وجيزة أن ينال هذا الاعتراف. وقصة إقرار شداد له بالحرية مشهورة، وهى تظهر مدى ذكاء عنترة واستغلاله للفرص القليلة النادرة، وهى ذات دلالة على مانحن فيه؛ فقد أظهرت مدى حاجة القبيلة إليه عندما تعرضت للهزيمة وانكشفت أمام الأعداء:

- كر يا عنترة!
- العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والصر!
- كر وأنت حر.

فكر وأظهر بطولة نادرة. وساعدته الأقدار فانقلبت ميزان المعركة وانتصرت عبس.

واعترف قيس بن زهير بفروسية عنترة وفضله على القبيلة حين قال فى يوم من أيام عبس: «والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء». (٣)

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٠٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٤.
(٣) الأغاني (ط. بيروت)ج٨ ص ٢٣٨.

وربما حل عنترة فى بعض الأوقات محل القيادة. يدل على ذلك قوله:

«لما سمعت دعاء مرة إذ دعا ... ودعاء عبس فى الوغى ومحلل

ناديت عبسا فاستجابوا بالقنا ... وبكل أبيض صارم لم ينحل

حتى استباحوا آل عوف عنوة ... بالمشرفى وبالوشيج الذبل». (١)

وقوله:

«إذ لا أبارد فى المضيق فوارسى ... ولا أوكل بالرعيل الأول». (٢)

وقوله:

وفوارس لى قد علمتهم ... صبر على التكرار والكلم

يمشون والماذى فوقهم ... يتوقدون توقد الفحم». (٣)

وقد شارك عنترة فى كثير من أيام عبس، وخاصة تلك الأيام المتصلة بحرب داحس والغبراء، وهى الحرب التى دامت ما يقرب من أربعين عاماً. شارك قومه يوم المريقب، ويوم عراعر، ويوم الهباءة (٤). وكان له دور بارز يومى «ذات الجراجر» (٥) و «الفروق» (٦). وفيه قتل معاوية بن نزال الأحنف. كذلك شاركهم يوم شعب جبلة وفيه يقول:

«ونعم فوارس الهيجاء قومى ... إذ علقوا الأعنة بالبنان

هم قتلوا لقيطاً وابن حجر ... وأردوا حاجبا وابنى أبان». (٧)

كما شارك فى «غدير قلهى»، ولم يستجب لدعوة زوجه بالتنحى عن القتال. (٨) هذا عن أيام داحس والغبراء التى شهدها عنترة مع قومه. وفى شعره ما يدل على مشاركته لهم فى حروب أخرى غير داحس والغبراء، منها «يوم أقرن» لبنى عبس على بنى مالك بن حنظلة من تميم. (٩)

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١١٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ١٥٥.
(٤) العقد الثمين - وليم آلورد ص٤١، ٤٩، ٥٠.
(٥) الكامل لابن الأثير ج١ ص ٣٥٣.
(٦) العقد الثمين ص ٥٣/ عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنترة - ناهد شعراوى ص٧٧.
(٧) شرح ديوان عنترة ص ١٨٠.
(٨) المصدر نفسه ص ١٩٨/ عناصر الإبداع الفنى ص٧٧.
(٩) العقد الثمين ص ٣٥.

وكان عنترة يدفع عن قومه غارات طيء المتكررة. وفى إحدى هذه الغارات يقول:

«ومغيرة شعواء ذات أشلة ... فيها الفوارس حاسر ومقنع
فزجرتها عن نسوة من عامر ... أفخاذهن كأنهن الخروع»(١).

وعلى الرغم من كثرة هذه الحروب التى شهدها عنترة إلا أنه لم يكن متعطشاً للدماء كما قد يظن بعض من يقرأ سيرته، بل كان على النقيض من ذلك يكره الحرب ويندد بمن يشعلونها، ولاينفك يعلن رغبته عنها إلا فيما دعت إليه الضرورة؛ كالدفاع عن حرمة أو رد عدوان أو الوصول إلى حق لم يستطع الوصول إليه بطريق أخرى غير الحرب. يقول فى رثاء مالك بن زهير منددأ بمن كانوا سبباً فى حرب داحس والغبراء:

«فلله عينا من رأى مثل مالك ... عقيرة قوم أن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا نصف غلوة ... وليتهما لما يرسلا لرهان
وليتهما ماتا جميعاً ببلدة ... وأخطاهما قيس فلا يريان
لقد جلبا حيناً وحرباً عظيمة ... تبيد سراة القوم من غطفان.(٢)

وقال يخاطب الربيع بن زياد العبسى:

«وإن تك حربكم أمست عواناً ... فإنى لم أكن ممن جناها
ولكن ولد سودة أرثوها ... وشبوا نارها لمن اصطلاها
فإنى لست خاذلكم ولكن ... سأسعى الآن إذ بلغت مداها».(٣)

وهكذا كان عنترة يتسامى عن إشعال حرب لغير حق، ويندد بمن يشعلونها حتى لو كانوا من سادة القبيلة. لكنه لايجد مفراً من المشاركة فى القتال لنجدة قومه وإغاثتهم مادامت الحرب قد اشتعلت ولاسبيل لإخمادها. وفى الحق أن فروسية عنترة كانت تتوم فى جوانب كثيرة منها على التسامى؛ فهو يتعفف عن المغانم فلا يحارب من أجلها كما كان يحارب معظم أهل الجاهلية.

«يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم.(٤)

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٠٤/ عناصر الإبداع الفنى ٧٨.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ١٧٧.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ١٨٦.
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٠.

ويربأ عن استرقاق السبية ونكاحها قبل أن يوفى مهرها مولاها ويتزوجها زواج الرضا والقبول:

«ما استمت أنثى نفسها في موطن حتى أوفى مهرها مولاها.(١)

ويوظف جانبا كبيراً من فروسيته للدفاع عن النساء وحفظ حرمات القبيلة:

-«ونحن منعنا بالفروق نساءنا نطرف عنها مشعلات غواشيا.(٢)
-«ومرقصة رددت الخيل عنها وقد همت بإلقاء الزمام
فقلت لها اقصرى منه وسيرى وقد علق الرجائز بالخدام.(٣)

وهل هناك من هو أولى بالإغاثة والدفاع عنه عند عنترة من عبلة؟ تلك التى وهبها قلبه ووقف عليها شطراً كبيراً من عمره؟

«ولئن سألت بذاك عبلة أخبرت أن لاأريد من النساء سواها
وأجيبها إما دعت لعظيمة وأغيثها وأعف عما ساها.(٤)

ومن ملامح الفروسية عند عنترة الاستهانة بالموت، فقد كان على جاهليته يؤمن بحتمية الموت وأنه إن جاء لايؤخر. وقد نمى فيه هذا الإيمان الفطرى الشجاعة، وجعله يرمى بنفسه وفرسه فى خضم المعارك دون خوف. يقول مخاطباً أعداءه:

«تعالوا إلى ما تعلمون فإننى أرى الدهر لاينجى من الموت ناجياً.(٥)

ويقول فى عاذلة أرادت تثبيطه عن القتال بتخويفه من الموت- وربما كان حديثه إلى العاذلة حديثاً إلى النفس فى لحظة ضعفها:

«بكرت تخوفنى الحتوف كأننى أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل لابد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل.(٦)

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٢.
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٧، ١٥٨.
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٦. وقد خفف الهمزة ثم حذفها فى كلمة "ساءها" للضرورة.
(٥) شرح ديوان عنترة ص ١٩٤.
(٦) المصدر نفسه ص ١٢٠.

ويقول فى موضع آخر:

«وعرفت أن منيتى إن تأتنى | لاينجنى منها الفرار الأسرع
فصبرت عارفة لذلك حـــرة | ترسو إذا نفس الجبان تطلع.(١)

وقد دفعه هذا الإيمان إلى المفاضلة والاختيار؛ فالموت قتلا خير من الموت رغم الأنف، والموت فى ميدان القتال خير من الموت على الفراش:

«اليوم تبلو كل أنثى بعلها | فاليوم يحميها ويحمى رحلها
وإنمـا تلقى النفوس سـبلها | إن المنايـا مـدركـات أهلـها

وخير آجال النفوس قتلها.(٢)

وقد شهد له بالفروسية كثير ممن عاصروه؛ شهد له بها الصديق، كما شهد له بها العدو. سئل الحطيئة: كيف كنتم فى حربكم؟ قال: كنا ألف فارس حازم. قال: وكيف يكون ذلك؟ قال: كان فينا قيس بن زهير وكان حازماً فكنا لانعصيه، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم، وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأى وكنا نستشيره ولانخالفه، وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره.(٣) وروى أن عمرو بن معد يكرب - فارس العرب والمسلمين يوم القادسية - قال: لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ماخفت أن أغلب عليها، مالم يلقنى حراها أوعبداها. فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب وأما العبدان فأسود بنى عبس، يعنى عنترة، والسليك بن السلكة. وكلهم لقيت، فأما ... وأما .... وأما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب.(٤)

وقد سجلت كتب التاريخ بعض أخبار فروسيته، وجاء شعره سجلا حافلا لمن يريد الوقوف على بطولاته وشجاعته النادرة وبلائه فى القتال. وقد حققت هذه الأخبار والأشعار لعنترة من الشهرة مالم تحقق لغيره من الفرسان، غير أن شهرته انصبت على الجانب الجسدى؛ أعنى على القوة الجسدية وحدها دون الجانب الأخلاقى، وكأنهم قد استكثروا أن يكون عنترة على مثل هذه الأخلاق، خاصة أنه لم يكن عربياً محضاً وإنما كان من المهجنين.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٠ وفى "قتلها" إقواء.
(٣) الأغانى (ط. بيروت) ج٨ ص ٢٤٢ وصدره بـ: "أخبرنى حَبيب بن نصر وأحمد بن عبد العزيز - قالا: حدثنا عمر بن شبة قال: قال عمر بن الخطاب للحطيئة كيف كنتم فى حربكم؟...".
(٤) الأغانى (ط. بيروت) ج٨ ص ٢٤٣ وصدره : (أخبرنى أبو خليفة عن محمد بن سلام).

وقد تبين لنا من دراستنا له أن فروسيته كانت تقوم على الجانب الأخلاقى أكثر مما تقوم على الجانب الجسدى، وأن محورها الرئيس هو التسامى والترفع عن الأشياء التى يتكالب عليها الآخرون كالمغانم والأسلاب وإشعال الحروب من أجلها، وأنه كان يوجه جزءاً كبيراً من فروسيته للدفاع عن القبيلة والذود عن محارمها وخاصة النساء.

والعجيب أن كثيراً من الدارسين قد تصور- مثلما تصور العامة- أن قوة عنترة مصدرها الجسد وحده، وأنه كان نموذجاً للقوة التى لاتقهر والبأس الذى لايرد. فى حين أنه هو نفسه كان يعترف أن مصدر قوته الأساسى هو الذكاء والقدرة على التصرف والاحتيال. سئل ذات مرة: أنت أشعر العرب وأشدها؟ قال: لا. قيل له فبم شاع لك هذا فى الناس؟ قال: كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ولا أدخل موضعاً إلا أرى لى منه مخرجاً، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه فأقتله. (١)

وسجل التاريخ فراره من بعض الفرسان الذين لم ينالوا من الشهرة مثلما نال. يقول المرزبانى فى ترجمة عويمر بن عدى بن ربيعة بن عامر بن عقيل: «فارس شاعر هرب منه عنترة بن شداد العبسى فأخذ ماله وقال:

تركت بنى زبيبة غير فخر ... بجو الماء ليس لهم بعير
أجير الناس قد علمت معد ... ومالى غير سيفى من مجير

وإياه عنى المتنكب السلمى بقوله:

أعنتر ما صبرت لنا ولكن ... جزعت وما المحافظ كالجزوع».(٢)

وفى زيادات البطليوسى على ديوانه تلك القطعة لحصين بن ضمضم فى قتل شداد، وكان حصين قد قتله هو وأخوه وطعنا عنترة فى عينيه:

«أما بنو عبس فإن زعيمهم ... أجلت فوارسه وأفلت أعورا
لما رأى فرسان مرة والقنا ... لم يستطع لتناهم أن يصبرا».(٣)

---

(١) الأغانى (ط. بيروت) ج٨ ص ٣٤١، ٣٤٢ وصدره: "أخبرنى عمى قال أخبرنى الكرانى عن النضر بن عمرو عن الهيثم بن عدى قال: قيل لعنترة....".

(٢) معجم الشعراء للمرزبانى ت. عبد الستار أحمد فراج (دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م) ص ٧٦ وفى البيتين الأولين إقواء.

(٣) شرح ديوان عنترة ص ١٩٩.

فلماذا اهتموا إذن ببطولة عنترة الجسدية وتغافلوا عن النواحى المعنوية؛ عن المثاليات والقيم التى تحلى بها؟ ألأنهم كانوا يتوقون كما يتوق عامة الناس إلى البطل القوى الذى يفتقدونه فى الوقت الذى تعج فيه الجزيرة شعراً وواقعاً بالمثاليات؟ ربما. فهذا شاعرنا الكبير أحمد شوقى لايكاد يرى فى مسرحيته «عنترة» غير هذا الجانب فيطلق على عنترة «ليث الصحارى» و «غول القبائل». (١) وتمضى بنا أحداث المسرحية فنرى عنترة وهو يحطم النسور بكفه ويمزقها بأظفاره. (٢) ثم وهو يذبح الأسد كما يذبح الشاة. (٤) وقد عجت سيرة عنترة الشعبية بمثل هذه الأخبار، وطفحت بالحكايات التى تظهر صاحبنا فى صورة أسطورية تعلو على الأفهام ولا يقرها المنطق. وربما كانت هذه السيرة هى السبب الرئيس فى تشويه صورة عنترة الحقيقية فى أذهان العامة بالإضافة إلى ما نحل عليه من الأشعار، وهذه وتلك لاتمجد فى عنترة إلا الجانب الجسدى فى الوقت الذى تتغافل فيه - تغافلا شديداً - عن الجانب الأخلاقى.

٣- الفخر الذاتى:

عنترة ابن بطولاته، ابن صراعه الدئم مع الحياة، فإذا انتصرت عليه البيئة فى الواقع انتصر عليها بالفخر فى شعره مستمداً من بطولاته وشجاعته وبلائه فى القتال مايعينه على الفخر أو بالأحرى على مواجهة الحياة وعلى إثبات وجوده فيها.

لكن فخره يمتاز عن فخر غيره من الشعراء الجاهليين بأنه فخر ذاتى محض؛ فهو يفخر بذاته أو بشخصه، ويتعالى عن الفخر بالنسب أو بالأصل. وكان الفخر بالنسب والأصل وطيب المحتد محوراً أساسياً للفخر فى عصره. لكن كيف يفخر بنسبه وهو وضيع من جهة الأم، ومشكوك فيه من جهة الأب، إن لم يكن منه فممن حوله من الذين كانوا ينظرون إليه نظرة الشك والازدراء، من الذين اتهموا أباه ورموه بالجنون عندما اعترف به ابناً شرعياً له؟!

ولعل فخره بذاته وتساميه عن الفخر بالنسب والفخر بالقبيلة هو الذى حدا بمارون عبود إلى وصفه بالنرجسية (٤) واعتباره واحداً من الذين عشقوا أنفسهم عشقاً مرضياً. والحقيقة أن عنترة لم يكن نرجسياً، وإنما كان يعانى من ورقة النسب بل من ضعفه ودناءته. ولذلك استمد فخره من ذاته ونأى عن الفخر بالآباء والأجداد.

---

(١) مسرحية عنترة لأحمد شوقى (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٢م) ص ٢٤.
(٢) نفسه ص ٣٢. (٣) نفسه ص ٣٣.
(٤) أدب العرب - مارون عبود ص ١٧.

وعلى الرغم من هذا ففى شعره بعض الإشارات إلى نسبه وإن وكان فيها قدر كبير من التحفظ(١). يقول عنترة فى وصف فرسه:

«يقدمه فتى من خير عبس أبوه، وأمه من آل حام». (٢)

يقصد بالفتى نفسه، ويشير إلى مكانة أبيه من عبس، وأن أمه من حام. ثم لاندرى إن كان هذا موضع فخر بأمه أو موضع ازدراء؛ والأرجح أنه موضع ازدراء يدل على ذلك قوله فى موضع آخر:

«إنى امرؤ من خير عبس منصباً شطرى، وأحمى سائرى بالمنصل». (٣)

فأحد شطريه من خير عبس والباقى «يحميه من الذم باستعمال السيف يوم الروع وحسن البلاء فى الحرب حتى يلحقه بالخلص ولاتقعد به هجنته عن الدخول فى زمرة الصرحاء». (٤)

فإذا مضينا فى قراءة القصيدة التى ورد فيها هذا البيت وجدناه يفخر بنفسه وبمواقفه فى القتال وكأنه يعوض بذلك ما يشعر به من ضعف النسب ودنانته من جهة الأم. فكونه منسوباً لهذه الأمة لم يحل بينه وبين الوصول إلى أسمى الدرجات، حتى لقد صار فى نظر نفسه وفى نظر كثير ممن حوله خيراً من المعم المخول كريم الآباء والأمهات:

«إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا أشدد وإن يلفوا يضنك أنزل
حين النزول يكون غاية مثلنا ويفر كل مضلل مستوهل
ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفيت خيراً من معم مخول

ولعل انصراف عنترة عن الفخر بالقبيلة والفخر بالأنساب إلى الفخر بالنفس كان نوعاً من التحدى ومحاولة لإثبات الذات فى مواجهة المجتمع والحياة. (٥) وكأن ذاته - كما سبق أن قلنا - فى حاجة إلى تأكيد مستمر.

(١) عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنترة - ناهد الشعراوى ص ٣٨.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ١٥٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٩.
(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ص ١٦٩، ١٧٠.
(٥) عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنترة - ناهد الشعراوى ص ٢٣، ٢٤.

وقد يكون هذا الفخر رد فعل عنيف لمحاولة النيل منه والتقليل من شأنه بتعييره بالسواد والهجنة وضعة الأصل من جهة الأم والتشكيك فى نسبه من جهة الأب.

٤- الترفع عن المدح والاعتذار والإقذاع فى الهجاء:

وكما قل فخر عنترة بغير ذاته، قل مدحه لغيره وقل اعتذاره؛ لأنه كان يعتز بنفسه اعتزازاً شديداً.(١) ويعجب بها إعجاباً يستر عنه فضائل غيره، ويتعالى عن الوقوف بين يدى الآخرين متضائلا بالمدح أو منكسراً بالاعتذار.

ولايتنافى هذا مع ما سبق أن قررناه من عمق إحساسه بالنقص؛ فالاعتزاز بالنفس والإعجاب بها شىء، وشدة الاعتزاز وشدة الإعجاب إلى الحد الذى يتوارى فيه عن العين فضائل الآخرين شىء آخر، وهو تصورنا رد فعل طبيعى للإحساس بالنقص، أو بالأحرى هو مظهر من مظاهر هذا الإحساس.

ولم يقذع عنترة فى هجائه إلا مرة أو مرتين.(٢) ولم يبلغ به الإقذاع ما بلغ بغيره من الشعراء الذين عرفوا بالهجاء. وهو فى هجائه يتأرجح بين التصريح والتلميح، لكنه- حتى فى هجائه الصريح- يتسامى كثيراً عن القذف والتجريح والشتم القبيح.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٤، ١٥١، ١٩٦.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ٧٥.

الاتجاه الثانى

الاتجاه نحو العبث والمجون عند سحيم

يرتبط هذا الاتجاه فى الشعر عند سحيم(١) بتجربته العاطفية وما لاقى فيها من صدمات. وتبدأ أحداث هذه التجربة بنزول امرأة من بنى يربوع من تميم تسمى غالية - أو عالية على اختلاف فى المصادر- على سيده أبى معبد. متى؟ لا نعرف على وجه التحديد.

ويبدو أنه كان بين هذه المرأة وأهلها خلاف. وأن هذا الخلاف كان أساسه مالها. فأكرمها مولى سحيم وأحسن وفادتها وأقامها بين أهله مكفية مرضية(٢) ويبدو أن هذه المرأة كانت على درجة كبيرة من الجمال والبهاء والرقة والحدب؛ فقد شغفت قلب سحيم وحركت أوتاره، وأزالت عنه ما تراكم حوله من تراب فى سرداب الرق، فنسى عبوديته، وراح يؤمل نفسه بحياة جديدة خضراء وارفة الظل، وأخذ يتغنى بذلك الوادى البعيد الذى ضم سيله نوى تلك الحبيبة الحسناء ويباركه ويحييه ويحلم بيوم سعيد يرود فيه مع الحبيبة خالى الرياض:

«ألا أيها الوادى الذى ضم سيله ... إلينا نوى الحسناء حييت واديا
فياليتنى والعامرية نلتقى ... نرود لأهلينا الرياض الخواليا»(٣).

والذى يبدو كذلك أن تلك الحبيبة كانت حرة عنيفة:

«وليست من اللائى يروم وصالها ... دنىء ولاعند الفعال ذميم»(٤).

---

(١) هو سحيم عبد بنى الحسحاس، شاعر مخضرم؛ عاش فى الجاهلية وصدر الإسلام. ولم تثبت له صحبة. قتل فى خلافة عثمان أو بعدها بقليل، واختلفت الروايات فى مقتله، إلا أنها على اختلافها وتعددها تلتقى- أو تكاد- فى سبب مقتله وهو مجونه وعبثه وتشبيبه الفاحش بنساء مواليه. ومواليه هم بنو الحسحاس؛ بطن من بنى أسد ينسب إليهم من دون أبيه فهو مجهول النسب، ويذهب جمهور القدماء ممن ترجموا له إلى أنه كان من الحبشة ولم يشذ عنهم إلا ابن معصوم فى سلافة العصر، وأبو الفرج فى الأغانى (ط. بيروت جـ٢ ص٣) حيث ذكرا أنه كان من النوبة. وأشار ابن شاكر (فوات الوفيات- المجلد الثانى ص٥٢) إلى أنه كان زنجيا. وذهب الدكتور عبده بدوى فى كتابه عن الشعراء السود (ص٣٢) إلى أنه كان من المنطقة التى تشغلها السودان الآن ولم يكن حبشياً. والرأى عندى هو ما ذهب إليه الجمهور؛ فقد كان يرتضخ لكنه حبشية "ينشد الشعر ثم يقول أهسنك والله يريد أحسنت". ومعروف أن اللغة الحبشية هى التى تستخدم الكاف للمتكلم والمخاطب بدلا من التاء ويبدو أنه قد نشأ فى بلاد العرب منذ كان طفلا صغيراً- وإن كنا لانعرف شيئا عن نشأته الأولى- فابن سلام يقول فى ترجمته له (طبقات فحول الشعراء جـ١ ص١٨٧): "ذكروا عن عثمان بن عفان أنه أتى بعبد من عبيد العرب..." ويؤكد ذلك أيضا شاعريته وفصاحة لغته وقوله فى إحدى قصائده مخاطبا مواليه:

"أخوكم ومولى خيركم وحليفكم ... ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا".

(٢) ديوان سحيم ت. عبد العزيز الميمنى (الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٥٠م) ص٦٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢١.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦.

فلا سبيل إلى الوصول إليها، خاصة أن سحيماً لم يكن فى نظرها إلا عبداً، والعبد فى عرف الأحرار (دنىء) كما أنه أسود قبيح الوجه دميم الخلقة، يشعر فى مرارة بحدة قبحه وشدة سواده، وفى ذلك يقول:

«أتيت نساء الحارثيين غدوة ... بوجه براه الله غير جميل
فشبهننى كلباً ولست بفوقه ... ولادونه إن كان غير قليل». (١)

والحارثيون من صبير بن يربوع من تميم، ويربوع قوم غالية كما سبق أن ذكرت.

إذن فلا سبيل إلا الكتم:

«أتكتم حييتم على النأى تكتما ... تحية من أمسى بحبك مغرما
وما تكتمين أن تكونى دنيئة ... ولا أن تكونى يا ابنة الخير محرما. (٢)

ولا سبيل إلا الرضا بالفراق الذى ينعق به غراب البين. غير أن تلك النار- نار الكتمان- ليست بأقل من نار البوح. فمعنى أن يظهر العبد حبه لسيدته الحرة العفيفة المستضافة المكرمة، معنى ذلك أنه يقدم حياته على كف الحماقة للموت. فالسيف قائم بينهما قيام العرف الذى قضى أن يولد العبد ويموت بلا قلب ليعانى الرق والغيظ الشديد وليقف أمام النأى والفرقة مكتوف اليدين. يبصر حياته تجف وينابيعه تنشف أمام عينيه ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، فهو بين نارين؛ نار الكتمان ونار البوح:

«خليلى هذا البين قد جد جده ... فعوذا بنا من شر ماالبين مقرف
وإن لم تبوحا خفت من باطن الجوى ... وإن بحته فالسيف عريان ينطف
وللسيف أحجى أن أقاسى والشبا ... من الوجد لايقضى علىَّ فيرعف
أرقا وتغنيطا ونأيا وفرقة ... على حين أبصرت المشارع تنشف؟ (٣)

وتمرض حبيبته، ويلم بها السقام، وتحيط به الهموم فيقف عاجزاً، لايستطيع أن يدفع عنها المرض ولا أن يدفع عن نفسه الهموم. ويطول به الليل ويتغنى فيه بكلمات حائرة تفيض رقة وعذوبة. يقول أبو عبيدة: «كانت أخت مولاه عليلة وهى التى اتهم بها فسمع بليل وهو يقول: (٤)

«ماذا يريد السقام من قمر ... كل جمال لوجهه تبع
مايبتغى! جار فى محاسنها ... أماله فى القباح متسع
غير من لونها وصغرها ... فزيد فيه الجمال والبدع
لو كان يبغى الفداء قلت له: ... ها أنا دون الحبيب ياوجع» (٥)

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص ٤٠٨/ الأغانى (طـ. بيروت) جـ٢٠ ص ٦ وهو من رواية الأصمعى. وقد ذكره محقق الديوان ص ٦٩ بالشعر المنحول.

(٢) ديوان سحيم ص ٣٤، ص ٣٥.

(٣) ديوان سحيم ص ٦٣.

(٤) تضاربت المصادر فى ذكر هذه المرأة، وذكر بعضهم أنها بنت مولاه، وذكر آخرون أنها أخته. وأرى أنها لم تكن بنته ولاأخته وإنما كانت- كما ذكرت- مقيمة عند مولاه كابنته وأخته. وربما اتخذها ابنة له فوصفت بذلك. ولأن سحيما (عبد بنى آلحسحاس) فهى بنت بعض مواليه وأخت بعضهم.

(٥) ديوان سحيم ص ٥٤.

ويعرف أمره، ويفتضح مكنون قلبه. ويدور الشاعر فى دوامات لاحصر لها ولا انتهاء، لكنه لايجد مفراً من الاعتراف والوقوف أمام الواقع موقف الحر الشجاع. فماذا يصنعون؟ هل يوقدون له النار ويضعونه فيها؟! إن تلك النار أرحم من نار الجبن وأرحم من نار الكتمان. فليبح المجمجم بما طواه زمناً طويلا فى صدره ولتعلم الحبيبة على رغم آناف تساء وترعف. وليكن بعد ما يكون:

«أعالى قد باح المجمجم فاعلمى على رغم آناف تكت وترعف
فلو أوقدوا ناراً تحش بساعدى وكفى ما أقلعت مادمت أطرف»(١).

بيد أن الأمر لم يكن- كما يظن المرء للوهلة الأولى- مبالغة من الشاعر دفعته إليها وقدة الحماس وشدة الحب. فهل يعقل أن توقد نار ويقرب منها الإنسان ولو على سبيل التهديد؟! لقد فعلوها، وهم إذ يفعلون إنما يعربون عن كنه نظرتهم للعبيد، فالعبد كالعود إن جف ويبس فليس له إلا النيران.

وتشعل النار وتذكى وتضرم حتى تشب ألسنتها وترتفع إلى عنان السماء ويقرب منها المعتوه حتى يعود له رشده. ولكنه يزداد جنوناً وتشبثاً بحب فرضه عليه قلب محروم فيهزأ بالنار، ويتخبط، ويتحول من موقف الضعف إلى القوة، فإذا به يهدد ويتوعد غير مبال بالعواقب ويالها من عواقب! يقول:

«لعمر أبى المذكين والمضرم الذى يشب ولايألو على جهنما
لئن ورثوها مشعلين لربما جعلت لهم فوق العرانين ميسما».(٢)

وحين لاتجدى معه النيران يخرج به مولاه إلى السلطان فى المدينة. ولانعرف على وجه التحديد من هذا السلطان إلا أنه- فيما أظن- واحد من الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، إذ صار فى المدينة سلطان يرجع إليه فيقضى بين الناس. ويكون قضاؤه فى سحيم أن يسجن ويضرب بالسياط، ففى رواية الزبير «كان أبو معبد جندل خرج به إلى السلطان بالمدينة فسجنه وضربه ثمانين سوطاً، ثم خرج به راجعاً إلى بلاده. فتغنى سحيم فقال:

«أبا معبد بئس الفراضة للفتى ثمانون لم تترك لحلفكم عبداً
كسونى غداة الدار سمراً كأنها شياطين لم تترك فؤاداً ولا عهداً
فما السجن إلا ظل بيت سكنته وما السوط إلا جلدة خالطت جلداً(٣).

والحلف هنا العبد.

---

(١) ديوان سحيم ص ٦٤.
(٢) ديوان سحيم ص ٦٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٦.

ويصرخ سحيم صرخته المدوية فى وجه مواليه: فما السجن إلا تلك الحياة التى أحياها بين ظهرانيكم وما السوط إلا تلك المعاشرة التى خالط الجلد فيها الجلد، ثم لم يرع من هذا شىء.

«فما السجن إلا ظل بيت سكنته وما السوط إلا جلدة خالطت جلدا».

وقد يكون هذا البيت فى فهم آخر مجرد استهزاء بما صنع مواليه. فما السجن إلا كبيت ظليل قضى فيه فترة. وما السوط إلا جلدة ضرب بها الجلد فخالطته دون أن تمس - أو يمس السجن - القلب، ودون أن يغيرا فيه شيئاً. لذلك نراه يصرح فى البيت التالى ببقاء حبه على الرغم من السجن وعلى الرغم من السوط، وأنه لم يزدد بها إلا كلفاً ووجداً:

«أبا معبد والله ماحل حبها ثمانون سوطاً بل تزيد بها وجدا».

وعندئذ يترك مولاه سبيل العقاب. ويلجأ معه إلى أسلوب آخر، أسلوب يعتمد هذه المرة على الأناة والرفق واللين. يرسل إليه من يعظه، يرشده ويذكره أنه ليس إلا عبدا، وهل يليق بالعبد أن يخرج عن طوع مولاه من أجل امرأة؟! يقول الزبير: «حدثنى داود بن علقمة أن أبا الجوزاء حوط بن هذلق الأسدى ثم النعامى وعظ عبد بنى الحسحاس فى نشوزه (كذا) بمولاته. وكان مولاه جندل ليناً معه رقيقاً عليه. فقال العبد:

«يقول أبو الجوزاء حوط بن هذلق غداة ثنايا الحبل لى لست واعيا
أبو معبد مولاك فاشكر بلاءه وإن كنت موسوم الملاطين داميا
وما حنيت منى الضلوع على التى تكون بلاغاً حين تذكر ماهيا
فقلت له والقول يؤثر كله فيبقى ويفنى منه ماليس باقيا
لعلك إن كان القذى ليس مطرقاً جفون عيون فابغنى اليوم قاذيا
وإلا فحو حين تندى دماثه على حرام حين أصبح غاديا» (١)

غير أن هذا كله لم يجد مع العبد المفتون شيئاً. لا الرفق ولا التهديد ولا السجن ولا الضرب بالسياط، لكن الذى أوقفه حقاً وأثار دهشته وأصابه بطعنة ظل أثرها باقياً فى شخصيته وفى اتجاه حياته بعد وفى شعره، هو موقف تلك الحبيبة الذى يتسم بالبرود. فما جاءها مرة يبغى الشفاء بنظرة إلا عاد كماجاء، يرزح تحت دائه، فيقاسى الويل، ويطول به الليل، ولايأتيه الصبح إلابما يهيج قلبه ويبلبل فكره ويزعزع خاطره. يقول:

«وما جئتها أبغى الشفاء بنظرة فأبصرتها إلا رجعت بدائيا
ولاطلع النجم الذى يهتدى به ولا الصبح حتى هيجا ذكر ماليا» (٢)

وتأخذه عزة نفسه فينسى أنه تعرض من أجلها لشتى أنواع العذاب ويخاطبها فى أناة: ياابنة

(١) ديوان سحيم ص ٦٥، ٦٦.
(٢) ديوان سحيم ص٢٢.

القوم إننى لاأفرض عليك ذاتى:

«فإن تقبلى بالود أقبل بمثله ... وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا» (١)

ولكن أية حال تلك التى سيذهب إليها؟ إنه لايدرك فى غمرة صحوته ماسوف يقاسى من آلام. ويمعن فى خطابه مؤكداً أنه لايزال بعقله، يضع الشىء موضعه فيصل ويصرم ما اقتضاهما الرأى. وكأنه بذلك يهددها تهديداً ضمنياً بالهجر والنسيان إن هى ظلت على موقفها الذى يتسم بالجفاء.

ألم تعلمى أنى صروم مواصل ... إذا لم يكن شىء لشىء مواتيا» ؟(٢)

والذى يبدو أنها كانت تنظر إليه نظرة الحرة الأبية إلى عبدها المملوك الأسود . لكنه يحبك؟ وماذا يكون الحب؟! وهو شاعر؟ وماذا يفيد الشعر وصاحبه رث مملوك؟!

«أشارت بمدراها وقالت لتربها ... أعبد بنى الحسحاس يزجى القوافيا

رأت قتباً رثاً وسحق عبـــاءة ... وأسود مما يملك الناس عاريـــا» (٣)

وأمام هذا الموقف المتعجرف، نرى سحيماً الذى كان يقول منذ قليل إنه صروم مواصل يضع الشىء موضعه ينسى كل ماقال ولايذكر إلا أنه سوف يفقدها ويفقد بفقدها قلبه، وبفقد قلبه يفقد كل ماله فى الحياة. ونراه يوقع على نغم غزلى عفيف قطعة حلوة رقيقة يصدر كل بيت فيها بهذا الاسم العذب الذى لايمل ترديده وتكراره:

«أغالى أعلى الله كعبك عاليـــا ... وروى برياك العظـــام البواليـــا

أغالى لو أشكو الذى قد أصابنى ... إلى جبل صعب الذرى لانحنى ليا

أغالى ماشمس النهار إذا بـــدت ... بأحسن مما بين برديك غاليـــا

أغالى علينى بريقـــك علـــة ... تكن رمقى أو .... عن فؤاديا» (٤).

وتذهب نغماته أدراج الرياح، وتضيع توسلاته وتصبح هباء منثوراً، إذ يقع البين المحتوم الذى هو نهاية كثير من حكايات الحب فى شعرنا العربى. ترحل عنه غالية وتعود إلى حيها فى بنى تميم ليبقى هو للهموم، الطارف منها والتليد:

---

(١) ديوان سحيم ص ٢٢.
(٢) المصدر نفسه والصحيفة
(٣) المصدر نفسه ص٢٥.
(٤) ديوان سحيم ص٢٥ وبالبيت الأخير خرم مكان النقط.

«تأوبنى ذات نعشاء همـــــوم　　عوامد منها طا رف وقديـــم
وماليلـة تأتى على طويلــة　　بأقصر من حول طباه نعيـم
وقد كنت أشكى للعزاء فشاقنى　　لهند بصحراء الجبيل رسوم».(١)

ويحاول سحيم أن يجد سلواه فى رحلة طويلة يقطعها كل يوم فى صحراء عمره المجدبة، متخذاً من الناقة رمزاً لتلك الرحلة الشاقة العسيرة:

«فلولا تسلى النفس عنك بجسرة　　لها حين تكبو الناجيات رسيم».(٢)

لما استطعت أن أبقى بعدك يوماً واحداً فى تلك الديار التى لاترحم، وتلك الحياة التى أحيا فيها بدونك، حياة النبت بلا جذور.

ويفقد سحيم تجلده، وينفجر فى داخله ينبوع شديد من الأحزان، ويتذكر حياته الطويلة الماضية ومواقفه الصلبة العنيدة فى الدفاع عن حبه، وموقفها الرخو المهترىء وهى تقسم بالله ألايجمع بينهما هوى أبدا، حتى تحول أمرداً:

«تزود من أسماء ماقد تزودا　　وراجع سقما بعدما قد تجلدا
وقد أقسمت بالله يجمع بيننا　　هوى أبداً حتى تحول أمردا».(٣)

ويخرج من تجربته بهذه الحكمة الباقية الخالدة. وفيها يلخص موقفه كله، موقف المكروه المبغض الذى لايجديه تودده مهما بالغ فيه. فالمشنوء سيبقى مشنوءاً وعلى الرغم من هذا فإنه لايملك أن يكره يوماً من أحب:

«رأيت الحبيب لايمل حديثه　　ولاينفع المشنوء أن يتوددا».(٤)

وتنتهى تلك القصة التى بدأت بظهور غالية على مسرح حياته الآمنة الوادعة فى بنى أسد مخلفة وراءها جرحاً عميقاً، وندباً لن تدمله السنون، وعطشاً لن ترويه حياته العابثة اللاهية ولاشربه من نبع آسن يمتزج فيه الماء بالطين!!

لقد تصور سحيم فى لحظة أن الحياة أقل من أن نحافظ على براءتها لأنها ليست بريئة، فما البراءة إلا مجرد قشرة زائفة تخفى تحتها أعماقاً من الدنس والقذارة. وكأن الحياة فى حقيقتها لاتنطوى إلا على الشر. فراح يغرق نفسه فى هذا الشر، ويعب من هــذا

---

(١) ديوان سحيم ص٣٧.
(٢) المصدر نفسه والصحيفة.
(٣) ديوان سحيم ص٣٩، ٤٠.
(٤) ديوان سحيم ص٤١.

المعين القذر ويتقلب بين أحضان رخيصة متهتكة ويسجل هذا كله فى شعره فتتفتح فيه أزهار جديدة للشر، بدأت على يد امرىء القيس وتبلورت على يد هذا الشاعر المجروح الذى يقول عنه العقاد: «وأحسب هذا العبد الفاجر إمام الشعر المكشوف فى اللغة العربية قاطبة ومن كلامه مايروى فى هذا المقام وما لايروى. ومنه ماسمعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له إنك لمقتول! وقد كان».(١)

كان سحيم يتصور أن انتقامه من عبوديته التى سببت له هذا الفشل الذريع ووقفت بينه وبين حبيبته بل بينه وبين الحياة التى كان يحلم بها ويتوق إليها لتخلصه من حياة الذل والفقر والحرمان، كان يتصور أن هذا الانتقام لن يكون إلا فى هذا النوع الغريب من الاندفاع وراء العبث والمجون بلا وازع من حياء أو ضمير أو دين. فاستنفد عمره فيهما حتى جفت ينابيعه وانطفأت روحه وخمدت أنفاسه. ومع ذلك ظل الجرح كما هو، ينزف بلا انقطاع، ويدفعه إلى مزيد من التجارب، وإلى المزيد من الشعر المكشوف الذى ينفس من خلاله عن رغباته الدفينة سواء ماحقق منها أولم يحقق. فالشعر عنده كالحلم وسيلة مشروعة للتنفيس عن الرغبات.

معنى ذلك أن تجاربه فى الشعر المكشوف ليست كلها ذات ظلال فى الواقع فكثير منها لم يحدث إلا فى مخيلته على نحو ماسوف نرى عند تحليلنا لبعض هذه التجارب.

أما تجاربه الحقيقية فمنها تلك التجربة التى يصدر بها نغطويه ديوانه ليصدم بها حس القارىء ويوقفه على طبيعة شعر سحيم منذ الوهلة الأولى. يقول: «قال أبو عبيدة معمر بن المثنى جالس سحيم عبد بنى الحسحاس - وقد أدرك الجاهلية وكان شديد السواد - نسوة من بنى صبير بن يربوع وكان من شأنهم إذا جلسوا للغزل أن يتعابثوا بشق الثياب وشدة المعالجة على إبداء المحاسن فقال سحيم:

«كأن الصبيريات يوم لقيننـــا	ظباء حنت أعناقها فى المكـانـس
وهن بنات القوم إن يشعروا بنا	يكن فى بنات القوم إحدى الدهارس
فكم قد شققنا من رداء منيـــر	ومن برقع عن طفلة غير عانـس
إذا شـــق برد شق بالبرد برقع	دواليك حتى كلنا غير لابـــس».(٢)

(١) بين الكتب والناس - عباس محمود العقاد مطبعة مصر - القاهرة ١٩٥٢ ص٧٦.
(٢) ديوان سحيم ص١٥، ١٦.

والذى يؤكد ماذهبنا إليه من أن سحيماً كان يسير فى هذه الطريق مدفوعاً بشعور عميق من المهانة والرغبة فى الانتقام أن هؤلاء النسوة اللائى جالسهن فى هذا المجلس - الذى يذكرنا بمجالس الفساق فى العصر العباسى وبيوت الريبة فى العصر الحديث - كن من بنى صبير بن يربوع وهم رهط غالية. ولايخدعنا قوله «وهن بنات القوم». فربما لم يزدن عن كونهن من الجوارى والإماء، وهذا هو الشىء الطبيعى الذى نستطيع أن نتقبله وأن نصدقه عن هذا العبد الموصوف بالدمامة فى تلك البيئة المحافظة. وهل يمكن لهذا العبد أن يجلس بين نسوة يتبادلن مسواكه ويحتفظن به ويهبنه خاتماً مذهباً نوعاً من الذكرى إلا أن يكن من الإماء؟!

«تعاورن مسواكى وأبقين مذهبا	من الصوغ فى صغرى بنان شماليا
وقلن ألا يا العبن مالم يردنـــــا	نعاس فإنا قد أطلنا التنائيـــــا
لعبن بدكداك خصيب جنابـــــه	وألقين عن أعطافهن المراديـــا
وقلن لمثل الرئم أنت أحقنـــــا	بنزع الرداء إن أردت تخاليـــا
فقامت وألقت بالخمـــار مدلـــة	تفادى القباح السود منها تفاديا
وما رمن حتى أرسل الحى داعيا	وحتى بدا الصبح الذى كان تاليا».(١)

فمن هؤلاء النسوة اللائى يبتن حتى الصباح فوق رابية لينة من الرمال خارج الحى إن لم يكن من الإماء اللائى يستوى فى كثير من الأحيان حضورهن وغيابهن؟!

ألا يلفت الأنظار أن تلك التى ألقت بالخمار مدلة تفادى القباح السود منها وهن بلاشك إماء؟ إنها ليست إلا واحدة منهن، ففى رواية الخالديين:

«وقلن لصغراهن أنت أخفنا	بطرح الرداء إن أردت التباهيا».(٢)

وفى الحق أن هذا اللون من الشعر السخيف كثير فى ديوانه. منتشر بين أعطافه كانتشار القذى فى الرياح، أو كالغبار حين يعلق بالماء. يختلط بالغزل العفيف حيناً فيكتفى سحيم بتتبع الأجزاء الحسية من المرأة كالرقبة والشعر والعيون. ولابأس إن عرج على الشفاه فوصف الريق بالخمر المعتقة، ومال إلى اليدين فوصف امتلاء المعاصم والأنامل:

«ومادمية من دمى ميسنا	ن معجبة نظراً واتصافـــاً
بأحسن منها غداة الرحيـ	ل قامت ترائيك وحفاً غدافا

(١) ديوان سحيم ص٢٦، ٢٧.
(٢) المصدر نفسه ص٢٧.

وجيداً كجيد الغـــزال النزيـ ف يأتلف الدر فيه ائتلافـــا
وعينى مهاة بسقط الجمـــا د تعطـو نعافاً وتقرو نعافـــا
....
كـــأن القرنفـل والزنجبيـل والمســك خالـط جفناً قطافا
يخالـط مـن ريقهـا قهـــوة سباها الذى يـستبيها سلافـا
بعـود مـن الهند عند التجار غـال يخالـط مســكاً مدافـا
يخـالطــه كلمــا ذقتــــه علـى كـل حال أردت ارتشافا
وأبـــدت معاصـم مكـــورة تزيـن أنــاملهن اللطافـــا»[1]

وينفصل حيناً آخر عن بقية الموضوعات فيكون بمثابة الوقدة الحسية الحادة واللحظة الانفعالية العارمة. وهو فى هذه الوقدات لايتحرج من وصف الأجزاء الخاصة بالمباشرة الجنسية وصفا مباشراً، [2] ولايتورع عن تصوير العملية الجنسية نفسها فى أسلوب عار وألفاظ حادة واضحة[3].

فإذا عدنا إلى حياته مرة أخرى وجدنا نوعاً شديداً من الرفض يواجه به من قبل القبيلة، وبخاصة سيده الذى عرضه للبيع أملا فى التخلص منه ومن شعره الذى يلطم الذوق ويصدم الشعور ويعرض القبيلة - حين يعرض بنسائها - للفضيحة والشنار. ويباع سحيم إلى عبد الله بن أبى ربيعة فيكتب إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه: «إنى قد ابتعت لك غلاماً شاعراً حبشياً» فيكتب إليه عثمان: «لاحاجة لى به فاردده فإنما قصارى أهل العبد الشاعر إن شبع أن يشبب بنسائهم وإن جاع أن يهجوهم». فيرده عبد الله. [4] ويشتريه رجل من نجد. [5] وفى الطريق أنشأ سحيم يقول:

«أشوقاً ولما تمض بى غير ليلة فكيف إذا سار المطى بنا عشـــرا
أخوكم ومولى خيركم وحليفكم ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهـرا
وما خفت سلاماً على أن يبيعنى بشىء ولو أمســت أنامله صفـــرا»[6]

(١) ديوان سحيم ص٤٣، ٤٤.
(٢) المصدر نفسه ص٣٤، ٥٨، ٥٩.
(٣) المصدر نفسه ص١٩، ٢٠، ٢١، ٥٧، ٥٩.
(٤) المصدر نفسه ص٥٥/ ديوان المعانى ج٢ ص١٦٦.
(٥) فوات الوفيات لابن شاكر - المجلد الثانى ص٤٣.
(٦) ديوان سحيم ص٥٦.

يقول أبو الفرج: «... فلما بلغهم شعره هذا رقوا له فاستردوه»(١). ويقول فى رواية أخرى يرفعها إلى يوسف بن الماجشون: «... فلما استردوه نشب يقول الشعر فى نسائهم، فأخبرنى من رآه واضعاً إحدى رجليه على الأخرى يقرض الشعر ويشبب بأخت مولاه».(٢) وحين يصل الأمر إلى التشبيب بحرائر القبيلة تهتز العصبية القبلية وتتحرك بدافع من الحفاظ على الشرف إزاء كل مايخدش العرض أو يمس الكرامة، ويتجهون إلى مولاه، يحفزهم شعور عميق بحقارة هذا العبد الذى لايستحق فى رأيهم إلا القتل. وتتطور الأحداث حتى تصل فى نهاية المطاف إلى قتله. وتطوى صفحته، ولايبقى فى الأذهان إلا صورة باهتة له، يحيط بها السواد من كل جانب، ويكتنفها - مع الزمان - غير قليل من الغموض.

هل كانت تجارب سحيم حقيقية؟ قلنا إن بعض هذه التجارب - فقط - هو الذى كان مرتبطاً بالواقع وله ظلال فيه، وكثير من هذه التجارب لم يحدث الافى خيال شاعرنا المريض. يؤكد هذا الحد الذى أقامه عليه السلطان فى المدينة حين رفع الأمر إليه؛ فقد سجنه فترة وأمر بتعزيره فجلد ثمانين جلدة. وهذا الحد من الجلد لايبعث فى النفس إلا تصوراً واحداً، وهو أنه أقيم للقذف لا للزنا. فإذا احتكمنا إلى شعره وجدنا بعض اللفتات الفنية التى تؤكد مانقول وترجح كون بعض هذه التجارب مجرد وهم أو خيال أو سرد قصصى يسوقه الشاعر للتنفيس عن الرغبات المكبوتة والإعلاء؛ فهو حين يتحدث عن تلك التجارب يشعر المرء كأنه أمام إنسان يحلم أو يطلق لخياله العنان فى حالة بين بين كما يقولون؛ بين اليقظة والمنام. فمرة مع الحارثيات:

«أتيت نساء الحارثيات غدوة ....».(٣)

ومرة مع الصبيريات:

«كأن الصبيريات يوم لقيننا ظباء ....».(٤)

ووجود النسوة - لا المرأة الواحدة - فى التجربة يشعر إلى حد ما أن صاحبها يتخيل أو يحلم فى يقظة. فالنسوة هنا يتجمعن من كل مكان؛ ثلاث ثم أربع ثم واحدة. ويحطن به فى مشهد خيالى:

(١) الأغانى (ط. بيروت) ج٢٠ ص٧.
(٢) المصدر نفسه والصحيفة.
(٣) الشعر والشعراء ج١ ص٤٠٨ وهو فى الديوان ص٦٩ مع الشعر المنحول.
(٤) ديوان سحيم ص١٥.

«تجمعن من شتى ثلاث وأربع   وواحدة حتى كملن ثمانيا».(١)

إن هذا المشهد لم يخلقه إلا خياله المريض تحت وطأة الحرمان وشدته:

«وأقبلن من أقصى الخيام يعدننى   نواهد لم يعرفن خلقاً سوائيا

يعدن مريضاً هن هيجـن داءه   ألا إنما بعض العوائد دائيـا».

كذلك نراه فى مواقف كثيرة يشف بغير قصد عن حقيقة موقفه. فحين يقول:

«فأسند كسلى بزها النوم ثوبها   إلى الصدر والمملوك يلقى الملاقيا».

يصدر بيتاً سابقاً على هذا البيت ببيت واحد بقوله:

«فياليتنى من غير بلوى تصيبنى   أكون لأجمال ابن أيمن راعيا».(٢)

ألا توحى كلمة (ياليتنى) هنا بأن سحيماً كان يحلم؟! لكنه فى غمرة هذا الحلم ينسى نفسه فيقول كأنه فى واقع:

«فلما أبت لاتستقل ضممتها   ترى الحسن منها والملاحة باديا».

ومما يؤكد رجحان ظننا كثرة الألفاظ التى تدل على العطش فى خضم تجاربه المكشوفة والعطش إنما ينم عن الحرمان:

«سقتنى على لوح من الماء شربة   سقاها بها الله الذهاب الغواديا».(٣)

واللوح هو العطش. وفى موضع آخر يقول:

«فلم أر مثلى مستغيثاً بشربة   ولا مثل ساقينا المصرد ساقيا».(٤)

والمصرد هو المقل. فالتصريد فى السقى دون الرى.

إن العشق عند سحيم يصل إلى حد المرض. بل هو مرض حقيقى كالخمر عند أبى نواس. وقد كان يشعر بمرضه هذا، ويشعر أنه مدفوع تحت وطأته إلى مزيد من العشق. نلمح هذا فى مثل قوله:

«ألا ياطبيب الجن بالله داونـى   فإن طبيب الإنس أعيـاه مابيـا

فقال دواء الحب أن تلصق الحشا   بأحشاء من تهوى إذا كان خاليا».(٥)

---

(١) ديوان سحيم ص٢٣.
(٢) المصدر نفسه ص٥٦.
(٣) المصدر نفسه ص٢٠.
(٤) المصدر نفسه ص٢٤.
(٥) ديوان سحيم ص٢٠.

غير أن هذا الدواء الذى يصفه له شيطانه الخبيث هو ذاته عين مرضه. فما هؤلاء النسوة اللائى تجمعن حوله من كل مكان ليعدنه إلا المرض الذى أصابه لذلك فهو يصرخ قائلا:

«ألا إنما بعض العوائد دائيا».(١)

لأنهن فى الحقيقة يذكرنه بإحباطه وفشله فى تجربته الأولى مع غالية التى ما جاءها مرة يبغى الشفاء بنظرة إلا عاد كما أتى:

«وما جئتها أبغى الشفاء بنظرة فأبصرتها إلا رجعت بدائيا».(٢)

إن تصور سحيم لهذا الداء تصور فطرى بسيط، لأنه مريض. والمريض أكثر إحساساً بدائه من أى شخص آخر. لكن تصوره للدواء هو عين ضلاله، وسبب ضياعه وهلاكه وتعرضه لكثير من المآزق. ثم هو فى نهاية الأمر لم يكن ليزيده إلا داء وإحساساً بهذا الداء.

وربما حاول مرة أو أكثر التغلب على هذا المرض بالتجلد والصبر لكنه كان يبوء فى نهاية الأمر بالفشل. نلمح هذا فى قوله:

«تزود من أسماء ماقد تزودا وراجع سقما بعدما قد تجلدا».(٣)

لذلك فلا مفر من التسليم والمضى فى تلك الطريق الهابطة حتى القاع، لأنه لن ينجو. وهل ينجو مريض كان يشعر من قبل بالقوة والجلد ثم أصيب بهند وأتراب هند؟!

«وقد كنت أشكى للعزاء فشاقنى لهند بصحراء الجبيل رسوم

لهند وأتراب لها شبه الدمـــى يصدن فما ينجو لهن سليم».(٤)

إن عشق سحيم لم يكن نوعاً من المرض فحسب، بل كان كذلك نوعاً من الجنون:

«جنوناً بها فيما اعتشرنا علالة علاقة حب مستسرا وباديا».(٥)

ذلك الجنون الذى دفعه فى نهاية المطاف إلى التغزل بابنة مولاه أو أخته وإلى التشبيب الفاحش بحرائر قومه دون مبالاة بالعواقب الوخيمة التى قد يجرها عليه مثل هذا العبث والمجون.

(١) ديوان سحيم ص٢٣.
(٢) المصدر نفسه ص٢٢.
(٣) المصدر نفسه ص٣٩.
(٤) ديوان سحيم ص٣٧.
(٥) المصدر نفسه ص١٧.

الاتجاه الثالث

الاتجاه نحو الصعلكة عند السليك والشنفرى

١- السليك بن السلكة:

هو السليك بن عمرو، وقيل بن عمير بن يثربى. أحد بنى مقاعس، وهو الحرث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.(١) منسوب إلى أمه سلكة، وكانت أمة حبشية سوداء.(٢) ومنها سرى إليه السواد، وجرت فيه دماء أجنبية، كما جرى فيه الدم العربى من قبل أبيه. فهو «أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم ورجيلائهم، وكان له بأس ونجدة».(٣)

لقب بسليك المقانب.(٤) والمقانب: جمع مقنب وهو من الخيل من الثلاثين إلى الأربعين . وذكر ابن حبيب أنه كان يدعى «الرئبال»(٥).

أخباره منثورة عن أبى عبيدة والأصمعى والمفضل الضبى وابن الأعرابى وغيرهم فى كتب الأدب واللغة والتاريخ. وله شعر قليل. ونستطيع من خلال هذا الشعر - على قلته - ومما دار حوله من أخبار أن نتعرف على جوانب كثيرة من شخصيته، وبخاصة صعلكته فهى التى تعنينا هنا. ولنحاول أولا أن نتلمس أسباب هذه الصعلكة ودوافعه إليها لنقف على ماهو عام وماهو خاص فيها.

قلنا إن السليك من الأغربة، وهى طائفة من السود الذين سرى إليهم السواد من قبل أمهاتهم الإماء، وحال اللون، واختلاط الدم، وعار الولادة بين كثير منهم وبين اعتراف آبائهم بهم فنشأوا فى قبائلهم بين العبيد. وكان السليك واحداً من هؤلاء. استعبدته قبيلته وهو يعرف من أبوه. وكل من فى القبيلة يعرف ذلك. لكن أحداً لايجرؤ على الاعتراف به، مادام أبوه - هو نفسه - لم يعترف به. ويرى هذا الهجين إخوة له ينعمون بالحرية لأنهم ليسوا سوداً مثله

---

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٥. الشعر والشعراء لابن قتيبة - ت. أحمد محمد شاكر ج١ ص٣٧٢. وفى الكامل للمبرد (مكتبة المعارف - بيروت - بدون تاريخ) ج٢ ص٦٥: "... وهو السليك بن عمير السعدى".

(٢) المحبر - لابن حبيب - ت. إيلزة ليختن شتيتر (حيدرآباد الدكن ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م) ص٣٠٧، ٣٠٨. الكامل للمبرد - ج٢ ص٦٥ . مجمع الأمثال للميدانى ج١ ص٤٥١.

(٣) الشعر والشعراء ج١ ص٣٧٢.

(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢ ص٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٣.

(٥) المحبر لابن حبيب ص٤٣٣.

ولأن أمهاتهم من الحرائر لا الإماء. وماذنبه فى ذلك والمرء لايختار أصله ولاينتقى لون جلده؟! هل قدر عليه أن يعيش عبداً بين أهله ويبقى كذلك إلى أن يأتيه الموت ويبقى أبناؤه من بعده عبيداً مثله لالشىء إلا لأنه غير معترف به؟ ما أقسى تلك الشروط التى يضعها المجتمع الجاهلى للاعتراف بأبناء الإماء!! لماذا لايسعى للحصول على هذا الاعتراف؟ وهل من سبيل إلى ذلك؟ لاسبيل غير القوة فلكى يعترف به لابد أن يكون قوياً؛ فإما أن تفيد القبيلة من قوته - وما أحوجها إليها - فتعترف به مثلما صنعت بعض القبائل مع أمثاله، وإما أن يترك القبيلة كلها ويفر منها وينجو بنفسه من قبضة الرق، ولن يحتاج إلى الاعتراف لأنه سيعيش عندئذ مثلما يعيش الأحرار. هذا هو المفتاح الأول - فى تصورى - لاتجاه السليك نحو التمرد والصعلكة. يؤيد ذلك من بعض الوجوه قوله:

«أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرحال
يشق على أن يلقين ضيمـــاً ويعجز عن تخلصهن مالى».(١)

وقوله بعد أن قطع فى الصعلكة شوطاً بعيداً وقد وقف بين يدى ربه مناجياً:

«اللهم إنك تهيىء ما شئت لما شئت إذا شئت. اللهم إنى لو كنت ضعيفاً كنت عبداً، ولو كنت امرأة كنت أمة. اللهم إنى أعوذ بك من الخيبة، فأما الهيبة فلا هيبة». (٢) أى أنه كان يدرك فى قرارة نفسه إدراكاً عميقاً أن العبودية قرينة الضعف، وأن المخلص منها هى القوة فـ «لو كنت ضعيفاً كنت عبداً». إن القوة هى التى خلصته من قبضة الرق فصار حراً يطلب من الله المزيد من التوفيق وألا يصادفه العثار. أما الهيبة فلا يهاب أحداً وقد صار قوياً تخشاه القبائل وتحسب له - وحده - ألف حساب، حتى ليقول عنه عمرو بن معديكرب وهو واحد من الفرسان القلائل المشهود لهم بالشدة والبأس: «ماأبالى من لقيت من فرسان العرب مالم يلقنى حراها وهجيناها، يعنى بالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحرث بن شهاب، وبالعبدين عنترة والسليك بن السلكة». ويصف عمرو السليك بأنه «بعيد الغارة» وأنه «كالليث الضارى» (٣).

---

(١) الكامل للمبرد ص٣١٠.
(٢) الشعر والشعراء ج١ ص٣٧٢. عيون الأخبار لابن قتيبة (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٣م) ج٢ ص١٧٥، ١٧٦. الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٦.
(٣) الأغانى (ط. بيروت) ج٨ ص٢٤٣.

ومن الأسباب التى دفعت السليك إلى الصعلكة - وهو أيضاً ناشىء عن عبوديته - الفقر، أو بالأحرى شدة الإحساس به، حين ينظر فلا يجد فى يده - وهو المملوك - شيئاً، والناس من حوله يملكون كل شىء، أرباب المخاض من الإبل، وأصحاب القوافل التجارية الكبيرة، وذوو الضياع الممتدة بامتداد البصر.

ومن الآثار النفسية للفقر ماأسماه علماء النفس المحدثون بـ «عقدة الفقر» وهى «تلك التى تتكون نتيجة الإحساس بالفقر وتدفع صاحبها فى محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنياً»(١). وأقرب الطرق وأيسرها للتحول السريع من الفقر إلى الغنى الطرق الملتوية غير الشريفة. من هنا ينشأ الانحراف. وهذا المفتاح الثانى للصعلكة عند السليك. وقد لاحظه القدماء وربطوا بينه وبين صعلكته ربطاً مباشراً، ففى الأغانى، وفى أول خبر له عن صعلكة السليك يقول أبو الفرج:

«ذكروا أنه أملق حتى لم يبق له شىء فخرج على رجليه رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر فيذهب بإبله». ثم التقى برجلين قصتهما مثل قصته فقادهما إلى جوف مراد وأغار بهم على الرعاء وعادوا ومعهم ما أرادوا من الإبل.(٢) وهذا الخبر نفسه أورده قبل ذلك المفضل الضبى فى المفضليات وابن قتيبة فى الشعر والشعراء.
وصدره ابن قتيبة بقوله: «... أصابته خصاصة شديدة فخرج ....» (٣).

وقد عبر السليك عما كان يعتريه من جوع وكيف كان يغمى عليه فى أشهر الصيف ويأخذه الدوار وتظلم الدنيا فى عينيه حتى ليشرف على الهلاك:

«وما نلتها حتى تصعلكت حقبـــة ... وكدت لأسباب المنية أعـــرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى ... إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف»(٤).

وليس غريبا أن يصدر هذا الشعر عنه وهو عائد من إحدى غاراته غانماً سالماً، وكأنه الحجة يقنع بها نفسه ويسكت بها صوت الضمير إذا تحرك وأمضه.

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى - د. يوسف خليف (ط ٣ - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٨) ص٣٢.
- Groves, Personality and social Adjustment (u.s.A - 1931) P. 231.

(٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٦.

(٣) الشعر والشعراء ج١ ص٣٧٢.

(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٨. وخص الصيف بالذكر لكثرة اللبن فيه.

وكان لظهور زعامات غير متنزنة فى بنى تميم، وكثرة الصعاليك فيها وخاصة من بنى سعد قوم السليك دور فى توجه السليك أو توجيهه نحو الصعلكة؛ فسيد بنى نهشل يرتشى ويغدر (١)، وكثير من السادة يمارسون الصعلكة للوصول إلى الغنى من أقصر الطرق. ألا ينحرف السليك ويتصعلك وهو أشد حاجة إلى الغنى وأكثر رغبة فى الانطلاق من الفاقة ليخلص نفسه وأهله من الرق؟! وماذا يمنع ولديه كل مايحتاج إليه الصعلوك من قوة النفس والإرادة، وقوة الجسم، وسعة العقل والدهاء، وشدة العدو؟!

ولنقف هنيهة عند هذه الأشياء التى كانت تعد من لوازم الصعلكة والتى توافرت فى السليك فكانت من عوامل نجاحه فيها. أما قوة النفس بما فى ذلك من إقدام وجرأة فقد أشار إليها قران الأسدى إشارة عابرة حين قال:

«لزوار ليلى منكم آل برثن ... على الهول أمضى من سليك المقانب».(٢)

فكأن السليك مقياس لمضاء العزيمة عنده. وقد أشرنا الى قوة جسمه ووصف عمرو بن معديكرب له بأنه «كالليث الضارى». ونشير أيضا إلى قول عمرو فيه وقد رآه للمرة الأولى:

«وسيرى حتى قال فى القوم قائل ... عليك أبا ثور سليك المقانـــب

فرعت به كالليث يلحظ قائمـــــاً ... إذا ريع منه جانب بعد جانـــب

لـــه هامة ماتأكل البيض أمهـــــا ... وأشباح عادى طويل الرواجب».(٣)

فيصفه «بالليث يلحظ قائماً»، ويلفت نظره كبر الرأس وصلابتها وطول أصابع اليدين. ويكفى تصديره للبيت الثانى بقوله: «فرعت به»، وهو من هو من الفرسان الشجعان.

ومما كان يكفل لسليك القوة أنه كان يغير فى «عصابات» ونادراً ماكان يغير وحده.

وعن سعة العقل والدهاء وشدة الحيلة نورد رواية أبى الفرج عن الأثرم عن أبى عبيدة قال: «خرج سليك فى الشهر الحرام حتى أتى عكاظ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه ثم خرج متفضلا مترجلا، فجعل يطوف بالناس ويقول من يصف لى منازل قومه وأصف له منازل قومى؟ فلقيه قيس بن مكشوح المرادى، فقال أنا أصف لك منازل قومى وصف لى منازل قومك، فتوافقا وتعاهدا ألا يتكاذبا». ووصف له قيس منازل قومه من مراد وخثعم. ولما انطلق إلى قومه وأخبرهم الخبر قال أبوه المكشوح: «ثكلتك أمك! هر تدرى من لقيـــــت؟

---

(١) مجمع الأمثال للميدانى ت. محمد أبو الفضل إبراهيم - ط٢ (دار الجيل - بيروت سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، جـ١ ص ٦٤، ٦٥.

(٢) معجم الشعراء للمرزبانى ص٢٠٤.

(٣) الشعر والشعراء ج١ ص٣٧٥.

قال: لقيت رجلا فضلا، كأنما خرج من أهله. فقال: هو والله سليك بن سعد». وتوقع غارته عليهم. وحدث ماتوقع. ولم ينجهم ترقبهم له لأنه كان قد أحكم الخطة. ووقع قيس فى الأسر. وأصاب السليك نعماً كثيرة وسبى سبية منهم ثم انصرف. (١)

ويعلق الدكتور يوسف خليف على هذه الرواية فيقول: «ويبدو من معرفة المكشوح للسليك بمجرد حديث قيس عنه أن هذا اللون من الاحتيال من «السوابق» التى عرفتها «صحيفة» السليك، والتى يعرفها عنه أصحاب الخبرة كما يعرف رجال الشرطة فى العصر الحديث أرباب السوابق من المحتالين بمجرد ذكر حوادث احتيالهم». (٢)

وقد ضرب المثل بالسليك فى شدة العدو فقيل: «أعدى من السليك».(٣)

وهو واحد من ثلاثة كانوا لايجارون عدواً، هو والمنتشر بن وهب الباهلى وأوفى بن مطر المازنى. وكان السليك مع شدة عدوه خبيراً بالصحراء وطرقها ومسالكها حتى قيل عنه إنه «أدل من قطاة» (٤) وقد هيأت له هذه العوامل جميعها مكانة متميزة بين الصعاليك، بل أهلته -فى تصورى - للزعامة، فقد كان فيما يبدو زعيماً لعصبة منهم، فأخباره تؤكد أنه كان يخرج فى جماعات، وأنه هو الذى كان يقودها، ويرسم الخطة لها، ويضع على كاهله تنفيذ القدر الأكبر منها، وهو الذى يحدد الجهة، ويقوم بتوزيع الغنائم والنهاب(٥).

وكان يغير على المناطق البعيدة كمراد وخثعم وما وراءهما من بلاد اليمن وقد كثر فى شعره ذكر مناطق كثيرة منها مثل تحتم وقضيب وجأش ومأرب وعشار. (٦) وكان يعد لهذه الغارات البعيدة إعداداً محكماً، فلايغير إلا فى الصيف، عندما تنقطع الخيل، ويضع البيض - بيض النعام - فى الربيع وفى الشتاء فى أماكن معينة لايعرفها غيره، فإذا جاء الصيف وانقطع المطر تزود منها هو ومن معه.

وكان يعطى إتاوة لعبد الملك بن مويلك الخثعمى ليجيره على بلاده ويجيزه وهو عائد بالغنائم والأسلاب فلا يتعرض له ولالأصحابه أحد فيها. (٧) وربما كان يهتدى فى بلاد اليمن

---

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠.
(٢) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى - د. يوسف خليف ص١٢٢.
(٣) مجمع الأمثال للميدانى ج١ ص٤٥١.
(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٥.
(٥) المصدر نفسه ٣٧٦: ٣٨٠.
(٦) معجم ما استعجم البكرى - ت. مصطفى السقا (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م) ج٣ ص٩٤٤، ١٠٨٠، ١١٧٠.
(٧) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٥.

ببعض أهلها. يدل على ذلك قوله:

«بحمد الإله وامرىء هو دلني   حويت النهاب من قضيب وتحتما».(١)

غير أنه - بلاشك - كان يفيد بخبرته الكبيرة ومعرفته العلمية الواسعة بالمسالك والصحراء، وبقدرته الفائقة على الاحتيال.

وكانت له غارات قريبة على ماجاور بلاده من الأحياء. غير أنهُ اشتهر بأنهُ بعيد الغارة كما وصفه عمرو بن معد يكرب.

وقد دفعت تلك الغارات البعيدة ورواية أبى عبيدة عن المنتجع بن نبهان أنه «كان لايغير على مضر وإنما يغير على اليمن فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة»(٢) الدكتور يوسف خليف إلى القول بأن السليك لم يفقد عصبيته القبلية كما فقدها غيره من الصعاليك، وأنها تطورت عنده إلى ماأسماه بـ «العصبية الجنسية»(٣). ونحن وإن كنا لاننكر أن السليك لم يفقد عصبيته وأنه ظل على ولائه لقبيلته - بدليل إشراكه لمجموعة من بنى سعد فى عصبته، وإنذار قومه عندما أحس بطلائع جيش بكر بن وائل عند إغارته عليهم - إلا أن القول بأن هذه العصبية قد تحولت عنده إلى عصبية جنسية هو فى تصورنا أمر بعيد، بل إننا لانعدو الحقيقة إذا قلنا إن عصبيته القبلية قد خفتت بعد خروجه من القبيلة وتشرده فى الصحراء، وأن مابقى منها لم يكن إلا نوعاً من الولاء يمليه عليه ارتباطه القديم بالقبيلة ووجود أهله فيها، فهو واحد منها وإن كانت قد أنكرته فى وقت من الأوقات.

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى ج٣ ص١٠٨١. وقضيب وادٍ باليمن لمراد وتحتم أرض هناك.
(٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٥.
(٣) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى - ص١١٨، ١٥٦.

٢- الشنفرى

هو قحطانى من الأزد، من بنى الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر بن الهنء بن الأزد[١]. والشنفرى اسم. وزعم بعضهم أنها لقب له - ومعناه عظيم الشفة - وأن اسمه الحقيقى ثابت بن جابر. وهذا غلط، كما غلط العينى فى زعمه أن اسمه عمرو بن براق، بل هما صاحباه فى التلصص[٢]. والمعروف أن ثابت بن جابر هو الاسم الحقيقى لتأبط شراً الشاعر الصعلوك[٣].

أما اسم أبيه فمجهول، ولانعرف عنه إلا أنه كان فى موضع من أهله ولكنه كان فى قلة، وأنه مات مقتولا، قتلته بنو سلامان - من الأزد أيضاً - ولم يبؤ أحد منهم بدمه، حتى باء به رجل منهم يقال له حزام بن جابر قتله الشنفرى بعد ذلك وهو محرم[٤].

أما أمه فقد ذكر ابن الأنبارى أنها كانت «سبية»[٥]. ولم يصرح بأكثر من ذلك. ولم يذكر أحد غيره شيئاً عنها. وقد أوقع هذا السكوت وما اكتنف حياة الشنفرى نفسه من الغموض كثيراً من الباحثين المحدثين فى حيرة، وتضاربت أقوالهم حتى خطأ بعضهم بعضاً، فهى أمة حبشية سوداء، وابنها غراب أسود تجرى فى عروقه دماء أجنبية عند ليال (lyall)[٦] وفرسنال (Fresnel)[٧] وشوقى ضيف[٨] ويوسف خليف[٩]. وهى ليست سوداء وليست من الحبشة وابنها ليس من الأغربة عند عبده بدوى[١٠].

وهى عربية من فهم عند عبد الحليم حفنى[١١]. وإن لم يذكر ذلك صراحة، فقد اعتبر السليك ابن أخت تأبط شراً، وتأبط شراً من قبيلة فهم.[١٢]. ويعلق الدكتور محمد

---

(١) خزانة الأدب - لعبد القادر البغدادى - ت. عبد السلام محمد هارون (دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م) ج٣ ص٣٤٣، ٣٤٤. الطرائف الأدبية - عبد العزيز الميمنى (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٧م) ص٢٧. والشنفرى شاعر جاهلى لم يشذ عن كونه جاهلياً إلا صاحبا اللسان وتاج العروس، حيث ذكرا فى مادة (غرب) أنه من الأغربة الإسلاميين وهو خطأ. وقد تبعهما فى هذا الخطأ إبراهيم الإبيارى فى مقدمة شرح ديوان عنترة.

(٢) الخزانة ج٣ ص٣٤٤.

(٣) المصدر نفسه والصحيفة. وكان الشنفرى يدعوه أمه لقيامه بحاجته وحاجة من معه من الصعاليك.

(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٨٤/ شرح المفضليات لابن الأنبارى (بيروت ١٩٢٠) ص١٩٨.

(٥) شرح المفضليات لابن الأنبارى ص١٩٥.

(٦) The Mufaddaliyat, vol II (translation and nostes (Oxford-1918) P.73

(٧) Lettres sur L, Histoire des Arabes avant L, Islamisme (paris, 1836) P93.

(٨) العصر الجاهلى - د. شوقى ضيف ص٣٧٩.

(٩) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص٣٣٢، ٣٣٣.

(١٠) الشعراء السود - د. عبده بدوى ص٢٥، ٢٧.

(١١) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه. د. عبد الحليم حفنى ص١١٢.

(١٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٢٧.

مصطفى هدارة على قول الشنفرى:

«أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصباً   وأمى ابنة الأحرار لوتعرفينها».

بقوله: «ونلاحظ أنه يطلق على أمه اسم ابنة الأحرار، مع أننا نعلم من جميع أقوال الرواة أنها أمة. وقد يكون المقصود بالتسمية أنها أمة فارسية، فقد شاع اصطلاح بنى الأحرار فيما بعد، وهى ترجمة حرفية لكلمة «أزاد مود» تلك التسمية الفارسية للأرستقراطية الإيرانية» (١).

والذى نرتاح إليه فى هذه المسألة الشائكة ونراه أقرب للصواب هو ماصدرنا به الكلام من قول ابن الأنبارى إنها كانت «سبية». والسبايا غير الإماء، فالأمة تطلق على المسترقة عربية كانت أو أجنبية، وتغلب فى الإطلاق على الأجنبيات. أما السبية فلا تطلق فى الجاهلية إلا على المرأة المسترقة من العرب ولاتطلق على الأجنبيات. من هنا كانت السبية فى منزلة أعلى من منزلة الأمة، وكان العرب يفخرون بأبنائهم من السبايا ولايعترفون بأبنائهم من الإماء (٢). وهذا يعنى أن الشنفرى عربى من جهة الأب والأم. وعلى هذا نفهم معنى فخره بأمه، ووصفها بأنها «ابنة الأحرار» فهى عربية حرة فى الأصل، وإن كانت قد استرقت فهى ليست عريقة فى الرق، وليست من الإماء اللائى كن مشاعاً واقترن ذكرهن بالبغاء.

وقد تكون هذه السبية سوداء، فمن العرب قبائل سود. وربما يكون سوادها قد انتقل إلى ابنها فعده ابن الأعرابى من الأغربة وتبعه صاحبا اللسان والتاج (٣).

وإن كنا لانجزم بهذا الأمر لقول الشنفرى فى بعض شعره:

«إذا ما أروم الود بينى وبينها   يوم بياض الوجه منى يمينها».(٤)

وقوله أيضاً فى وصف نفسه ومن معه من الصعاليك:

«سراحين فتيان كأن وجوههم   مصابيح أو لون من الماء مذهب».(٥)

---

(١) دراسات فى الشعر العربى - د. محمد مصطفى هدارة (دار المعرفة الجامعية ١٩٨٣م) ج١ ص٧.
(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى - د. أحمد محمد الحوفى ص٤٩٣.
(٣) مادة: (غرب). وقد أول د. يوسف خليف (الشعراء الصعاليك ص٣٣٢) البياض هنا بالسواد على افتراض أنه من أسماء الأضداد، أو أنه أطلق للسخرية من اهتمام سادته بمسألة اللون. ورفض د. عبده بدوى (الشعراء السود ص٢٧) هذا التأويل وذكر أنه لم يثبت لديه فى شعر هذا الشاعر والطائفة التى ينتمى إليها أنها تستعمل أسماء الأضداد. أما مسألة السخرية فقد أجاب عنها بأن هؤلاء السادة قد عاش الشاعر بينهم واحداً منهم. وقد قبل والد الفتاة فكرة زواجه من ابنته وأضاف إلى ذلك أن الشنفرى لم تشغله فكرة اللون فى شعره.
(٤) الطرائف الأدبية - ت. عبد العزيز الميمنى ص٤١.
(٥) الطرائف الأدبية - ت. عبد العزيز الميمنى ص٤١.

أما قوله:

«ألا ليت شعرى والتلهف ضلة بما ضربت كف الفتاة هجينها» (١)

واصفاً نفسه بأنه هجين «فسياق الحادثة والأبيات يدل على أن المراد بها لايخرج عن التعبير عن وضعه المهين» (٢). وضع العبودية والرق. فكأنها تساوى عنده كلمة عبد (٣).

وهل كان الشنفرى عبداً؟ نعم كان الشنفرى من العبيد. وأخباره تدل على ذلك وإن اضطربت أشد الاضطراب، فاضطرابها لاينفى تلك الحقيقة المرة التى دفعته إلى التصعلك دفعاً. ولنستعرض بعض هذه الأخبار (٤):

أـ كان الشنفرى «من الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث. أسرته بنو شبابة بن فهم ابن عمرو بن قيس عيلان، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج بن عوف بن ميدعان بن مالك بن الأزد رجلا من فهم أحد بنى شبابة ففدته بنو شبابة بالشنفرى. قال: فكان الشنفرى فى بنى سلامان بن مفرج لاتحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذى كان فى حجره، وكان السلامى اتخذه ولدا وأحسن إليه وأعطاه، فقال لها الشنفرى: اغسلى رأسى يا أخية وهو لايشك فى أنها أخته، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته، فذهب مغاضباً حتى أتى الذى اشتراه من فهم فقال له الشنفرى: اصدقنى ممن أنا؟ قال: أنت من الأواس بن الحجر. فقال: أما إنى لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتمونى. ثم إنه مازال يقتلهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلا. وقال الشنفرى للجارية السلامية التى لطمته وقالت لست بأخى:

«ألاليت شعرى والتلهف ضلـــة بما ضربت كف الفتاة هجينها؟
ولو علمت قعسوس أنساب والدى ووالدها ظلت تقاصر دونهـــا
أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصبا وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها».

(١) الطرائف الأدبية ص٣٢.
(٢) المصدر نفسه ص٤١.
(٣) وقد تطلق كلمة (هجين) ويراد بها (عبد). نلمح هذا فى مقابلة عمرو بن معديكرب بين الهجين والحر فى قوله: "ما لم يلقنى حراها وهجيناها) وبقية الرواية تؤكده: "يعنى بالحرين... وبالعبدين...". الأغانى (ط. بيروت) ج٨ ص٢٤٣.
(٤) نحاول من خلال هذا العرض إثبات عبودية الشنفرى، والتأكد من ارتباط صعلكته بها دافعاً واتجاهاً، ولعلنا نستطيع التوفيق بين بعض هذه الروايات على ما يسودها من الاختلاف والاضطراب.

قال: ثم لزم الشنفرى دار فهم فكان يغير على الأزد على رجليه فيمن تبعه من فهم، وكان يغير وحده أكثر من ذلك(١).

ب - كان من أمر الشنفرى وسبب أسره ومقتله أن الأزد قتلت الحرث بن السائب الفهمى، فأبوا أن يبوءوا بقتله فباء بقتله رجل منهم يقال له حزام بن جابر قبل ذلك. فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم فيقتتل من أدرك منهم ثم قدم منى وبها حزام بن جابر فقيل له هذا قاتل أبيك فشد عليه فقتله(٢).

ج - كان من أمر الشنفرى أنه سبت بنو سلامان بن مفرج الشنفرى وهو أحد بنى ربيعة بن الحجر وهو غلام، فجعله الذى سباه فى بهمة يرعاها مع ابنة له فلما خلابها الشنفرى أهوى ليقبلها فصكت وجهه ثم سعت إلى أبيها فأخبرته فخرج إليه ليقتله فوجده وهو يقول:

«ألا هل أتى فتيان قومى جماعة   بما لطمت كف الفتاة هجينها؟..الأبيات.

فلما سمع قوله سأله ممن هو، فقال: أنا الشنفرى أخو بنى الحرث بن ربيعة وكان من أقبح الناس وجهاً. فقال له: لولا أنى أخاف أن يقتلنى بنو سلامان لأنكحتك ابنتى، فقال: على إن قتلوك أن أقتل بك مائة رجل منهم. فأنكحه ابنته وخلى سبيله، فسار بها إلى قومه، فشدت بنو سلامان بعد رحيله على الرجل فقتلوه، فانتقم له الشنفرى وقتل منهم مائة(٣).

د- ويقال إن السبب فى غزو الشنفرى الأزد وقتلهم أن رجلا منهم وثب على أبيه فقتله، وكان أبوه فى قلة من قومه، فلما رأت أمه أن قومه لايقدرون على الثأر له ارتحلت بابنها وبأخ له أصغر حتى جاورت فى فهم، وفيها شب الشنفرى والتقى بتأبط شراً فوقع فى نفسه وأخذ يدنيه ويكرمه. وأخذ الشنفرى بعد ذلك يغير معه(٤).

هـ - قتلت الأزد رجلا من فهم فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه وأسلموهم ولم يفدوهم فنشأ فيهم الشنفرى فكان شديد البأس والنفس وكان أشد فهم على الأزد قتلا وسلباً(٥).

---

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٧٩، ١٨٠.
(٢) المصدر نفسه ص١٨٤.
(٣) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٩٣.
(٤) شرح المفضليات لابن الأنبارى ص١٩٦، ١٩٨.
(٥) المصدر نفسه ص١٩٧، ١٩٨.

هذه هى الروايات التى دارت حول نشأة الشنفرى الأولى وسبب تصعلكه ومقتله.أورد الثلاث الأولى صاحب الأغانى: أ- عن الحرمى عن أبى العلاء قال حدثنا أبو يحيى المؤدب وأحمد بن أبى المنهال المهلبى عن مؤرج عن أبى هشام محمد بن هشام النميرى. وهى أيضاً عند ابن الأنبارى فى شرح المفضليات.

ب ، ج - لراويين مجهولين. صدرهما أبو الفرج بقوله: «وقال غيره».

ويلاحظ أن الرواية ب - تبدأ بـ «لا بل كان من أمر الشنفرى...». وكأن صاحبها ينفى الرواية الأولى (أ)،وكذلك الرواية (ج) وكأنها تنفى الروايتين الأوليين (أ،ب) وان كانت الأولى (أ) هى التى وثقها المصنف بذكر السند وهى الرواية الوحيدة المشتركة بين الأغانى وشرح المفضليات.

د - رواها ابن الأنبارى عن مؤرج ومال إليها الدكتور يوسف خليف.(١)

هـ - رواها ابن الأنبارى عن راو مجهول.

فإذا استثنينا الرواية (د) التى مال إليها وارتضاها الدكتور يوسف خليف، والرواية (ب) تأكد لنا أن الشنفرى كان عبداً وأن العبودية هى التى دفعته إلى الصعلكة:

فعلى الرواية (أ) وقع أسيراً فى يد فهم، والأسير عبد إن لم يفد أو يمن عليه. وحتى عندما فادوه فادوه برجل منهم كان فى يد (بنى سلامان) وهم ليسوا بأهله، وإنما هم فرع بعيد من الأزد. فكأنه خرج من عبودية - لانعرف كم استمرت-إلى عبودية أخرى ظلت حتى تصعلك. ولايخدعنا إكرام السلامى له أو أنه «اتخذه ولداً» كما تقول الرواية، فقد صرح الشنفرى فى النهايه بأنه لم يكن إلا عبداً: «أما إنى لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتمونى».

وعلى الرواية (ج) وهى الرواية الأخيرة عند الأصفهانى والتى كذب فيها صاحبها المجهول الروايتين السابقتين أ، ب وقع الشنفرى فى سبى بنى سلامان وهو غلام «فجعله الذى سباه فى بهمة يرعاها مع ابنة له» فهذه الرواية إذن تؤكد عبوديته فى بنى سلامان، ولاتنفـــــى

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص٣٣٦.

وجوده فى فهم قبل اتصاله ببنى سلامان، لأنها لم تحدد الجهة التى سبى منها، فهم أم الأواس.

والرواية (هـ) وهى الأخيرة عند ابن الأنبارى تصرح بعبودية الشنفرى فى بنى فهم لأن أهله من الأواس رهنوه وأمه وأخاه «وأسلموهم ولم يفدوهم فنشأ فيهم الشنفرى».

والذى نراه أن هذه الروايات الثلاث يكمل بعضها بعضاً وتفيد فى استنباط صورة عامة لحياة الشنفرى الأولى وإن اختلفت فى بعض التفصيلات. ونخرج منها جميعاً بأن الشنفرى ولد فى الأواس، وقضى بعض طفولته فيها ثم انتقل إلى فهم ومن فهم إلى بنى سلامان. ونخرج منها أيضاً بأن إقامته فى فهم وبنى سلامان كانت على العبودية، وأنه قضى شطراً كبيراً فى هذه العبودية.

فإذا عدنا إلى الروايتين اللتين استثنيناهما، ونظرنا إليهما فى هذا الضوء وجدنا الرواية (ب) لاتنفى ذلك، إلا بالنفى العام الذى صدرت به. ولاندرى ما الشىء الذى تنفيه على وجه التحديد. هل هى تنفى الرواية (أ) جملة أم تنفى بعض التفاصيل. فإن كانت تنفيها جملة فقد أعقبها أبو الفرج بالرواية (ج) وهى تنفيها جملة أيضاً على هذا الأساس، و(ج) صريحة فى عبودية الشنفرى. وإن كانت تنفى بعض التفاصيل فلا تعارض، بل ربما أكدت ماذهبنا إليه لأنها تقول: «فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم» دون أن تحدد سبباً لذلك.

وقد لاحظ محققا كتاب الأغانى اضطراب هذه الرواية والتواء بعض عباراتها فقالا مانصه: «تقدم أن الميت أخوه، لاأبوه، وقد يكون المراد بهذا الأب الحرث بن السائب الفهمى، وعلى كل فالعبارة لاتخلو من التواء»(١). ويكفى لتضعيف هذه الرواية خلوها من السند وتصدير أبى الفرج لها بقوله: «وقال غيره» دون تحديد.

ويبقى الإشكال فى الرواية الثانية (د) فهى صريحة بأن الشنفرى وأمه وأخاه كانوا فى جوار فهم وظل الشنفرى فى هذا الجوار حتى تصعلك، وصريحة أيضاً فى تحديد السبب الذى من أجله اتجه الشنفرى إلى الصعلكة وهو الانتقام لأبيه من قاتليه. على أن هذه الرواية انفرد بها ابن الأنبارى ونسبها إلى مؤرج، ومؤرج هو نفسه صاحب الرواية (أ) التى ذكرها

---

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٨٤ هـ٤.

كل من ابن الأنبارى وأبى الفرج. وفى الروايتين مافيهما من التناقض غير أن إحداهما انفرد بها واحد (ابن الأنبارى) والثانية اتفق عليها الاثنان. وليس للأولى مايعضدها وللثانية روايات أخرى تعضدها وتؤكد بعض أجزائها.

ونحن لانستطيع أن نتفق مع الدكتور يوسف خليف فى اختياره لهذه الرواية، لأن الأسباب كلها تؤدى إلى رفضها أو على الأقل تنحيتها، ويكفى أن الدكتور يوسف خليف لم يحدد سبب اختياره لها تحديداً موضوعياً يتصل بالرواة ويعتمد على السند دون المتن، ولم يحدد أيضاً موقفه من الروايات الأخرى التى تعارضها على كثرتها مكتفياً بالإشارة إلى اختلافها واضطراب بعضها.

على أن الدكتور يوسف خليف - بعد هذا كله - يعتبر الشنفرى عبداً، فهو عنده من الأغربة (١)، والأغربة عنده أيضاً عبيد (٢).

بقى ماوصف به تأبط شراً الشنفرى - وكان أستاذه وصاحبه فى الصعلكة - بأنه حر. وذلك فى مرثيته له حيث قال: «ويصبر إن الحر مثلك صابر».

وقال:

«لئن ضحكت منك الإماء لقد بكت ... عليك فأعولن النساء الحرائـــر».

وقال:

«وخفض جأشى أن كل ابن حرة ... إلى حيث صرت لامحالة صائر».

ثم ختم بقوله:

«إذا راع روع الموت راع وإن حمى ... حمى معه حر كريم مصابر».(٣)

وهذا الوصف يحاول من خلاله تأبط شراً أن يثبت للشنفرى الحرية، وقد كان حراً بالفعل قبل أن يقع فى الأسر، فهو ليس عريقاً فى الرق، وحتى بعد أن وقع فى الرق لم يستمر فيه العمر كله، بل عاد إلى الحرية مرة أخرى مغتصباً إياها بالقوة مثلما فعل السليك.

---

(١) نص على ذلك فى كتابه "الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى" ص٣٣١. حيث قال: "الشنفرى أحد أولئك الأغربة". وقد اعتمد فى ذلك على اللسان والتاج والمزهر للسيوطى وكلهم ينقل عن ابن الأعرابى فهو المصدر الأساسى فى نسب الشنفرى إلى الأغربة.

(٢) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص٥٨، ٣٣٢.

(٣) أورد الأستاذ عبدالعزيز الميمنى المرثية كاملة وأشار إلى مصادرها الأساسية فى كتاب الطرائف الأدبية ص٢٨،٢٩.

وربما كان إلحاح تأبط شراً على وصفه بأنه حر دليل آخر على أنه كان فى فترة من العمر عبداً، لأن المرء لايلح على شىء إلا إذا استقر فى أذهان الناس ضده، وقد عرف الناس الشنفرى عبداً وأراد هو أن يثبت ماصار إليه بعد أن اتصل به ومارس معه الصعلكة، أو ماكان عليه قبل أن يقع فى الرق، وكأنه يقول: إن ماحدث له لم يكن إلا وضعاً طارئاً. وهو بالفعل كذلك، لكن هذا الوضع الطارىء كان كافياً لأن يعتبره الناس من العبيد، وأن أعتبره أنا أيضاً منهم، لأنه استغرق النشأة الأولى كلها وهى أخطر مراحل الإنسان وأجدرها بالتطبع والاكتساب وتشكيل الشخصية تشكيلا اجتماعياً، ومحور هذا البحث هو تأثير العبودية على الشعراء العبيد وشعرهم، وقد تأثر الشنفرى - بلا أدنى شك - بالفترة التى عاشها فى الرق. ولعل اتجاهه نحو التمرد والصعلكة كان أبرز مظاهر هذا التأثر، أو كان الوجه الذى عبر من خلاله عن تأثير العبودية فيه، تماماً كالسليك، وإن اختلفا فى حجم هذا التأثر وفى مقدار التمرد، وفى بعض التفاصيل الأخرى التى توضحها المقارنة بين شعر كل منهما ومادار حولهما من الأخبار.

كان السليك صعلوكاً شيطاناً، لايتورع عن قتل من يعرف ومن لايعرف، وكان لايرى فى انتهاك حرمات الناس عاراً ولا فى الخيث بالوعود، وكان مقتله بسبب امرأة تسنمها فى غياب أهلها وخان عهده مع زوجها فانتقم منه أهلها،(١) وكان يدفع الإتاوة والرشوة، ويضع جل همه فى السرقة والنهب.

أما الشنفرى فصعلوك شريف - إن جاز التعبير - قتل أبوه وهو صغير فلم يجد من ينتقم له، ومات أخوه فلم يبق له سوى أمه، وكانت سبية فلم يجد القوم حرجاً فى رهنها وابنها، وربما وقعا بدون إرادة القبيلة فى الأسر، لكن أين كانت هذه القبيلة بعد ذلك ولماذا لم تسع لتخليصهما من الأسر أوفك رهنهما على كلا الحالين؟ وأين كانت حين لطمته يد الفتاة السلامية وقد أهوى ليقبلها أو طلب منها أن تغسل رأسه وهو يظن أنها قد صارت أخته بحكم إقامته بين أهلها وتكريم أبيها له؟! لقد أوقفته تلك اللطمة على حقيقته المرة وهى أنه عبد أو على حد تعبيره «هجين»:

«ألا هل أتى فتيان قومى جماعة   بما لطمت كف الفتاة هجينها»؟(٢)

---

(١) الشعر والشعراء ج١ ص٣٧٢.
(٢) الطرائف الأدبية ص٤٠. وفى رواية أخرى: "ألا ليت شعرى والتلهف ضلة".

وربما كانت نفسه قد طمحت فى وقت ما إلى عشق هذه الفتاة لقوله بعد ذلك:

«إذا ما أروم الود بينى وبينها ... يوم بياض الوجه منى يمينها».

يقول الدكتور مصطفى هدارة: «كانت هذه اللطمة بمثابة الارتداد العنيف للماضى بكل أوضاره، بل إنها جعلت الشنفرى يصحو من غفوة لذيذة ليشعر فجأة بذل مولده وهوان وضعه الاجتماعى» (١).

وكان الشنفرى - مع ما مضى - دميم الوجه(٢). وكان فقيراً شديداً الفقر يعبر عن فقره فيقول:

«وليس جهازى غير نعلين أسحقت ... صدورهما مخصورة لاتخصف
وضنية جرد وأخلاق ريطـــــة ... إذا أنهجت من جانب لاتكفف».(٣)

غير أنه مع هذا يملك سيفاً وقوساً:

«وأبيض من ماء الحديد مهند ... مجذ لأطراف السواعد مقطف
وحمراء من نبع أبى ظهيرة ... ترن كإرنان الشجى وتهتف».(٤)

ويملك أيضاً عزيمة جبارة وقوة فى النفس:

«أنا السمع الأزل فلا أبالى ... ولو صعبت شناخيب العقاب
ولاظمأ يؤخرنى وحـــــر ... ولاخمص يقصر من طلاب».(٥)

ولديه سلاح آخر لايقل مضاء عن العزيمة وقوة النفس، ألا وهو العدو، فقد كان من العدائين، بل ضرب به المثل من بينهم فى شدة العدو(٦). وهو عزيز ذو أنفة يصبر على الجوع ولا يعرض نفسه للذل بسؤال الناس:

«أديم مطال الجوع حتى أميتـــه ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كى لايرى له ... على من الطول امرؤ متطول».(٧)

ويشعر أن بين جنبيه نفساً حرة لاترضى بالضيم:

«ولكن نفساً حرة لاتقيم بى ... على الضيم إلا ريثما أتحول».(٨)

---

(١) دراسات فى الشعر العربى. د. محمد مصطفى هدارة ج١ ص٧٠٦.
(٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٩٣.
(٣) الطرائف الأدبية ص٣٧.
(٤) نفسه ص٣٨.
(٥) نفسه ص٣٣.
(٦) مجمع الأمثال للميدانى ج١ ص٤٥٠.
(٧) الأمالى - لأبى على القالى (دار الكتب المصرية ١٩٢٦م) ج٣ ص٢٠٤.
(٨) المصدر نفسه والصحيفة.

وقد لمس فيه تأبط شراً كل هذه الجوانب، وأدرك بخبرته أن لديه من الأسلحة ما يؤهله لأن يكون صعلوكاً ناجحاً، وأن جراحه كثيرة، ودوافعه كامنة، فليس عليه سوى أن يلمس هذه الجراح ويحرك تلك الدوافع، وهو ما حدث بالفعل حين التقى به فى فهم. وكان الشنفرى مهيئاً بطبيعته لممارسة هذا النوع من الحياة، لذلك رأيناه يعود إلى فهم - بعد أن ترك بنى سلامان - ويتخذها مقراً له ويلازم تأبط شراً وعمرو بن براق ويغير معهما على بجيلة وغيرها من الأحياء (١).

ولاينسى فى هذه الأثناء قبيلته التى ضيعته وضيعت من قبل أباه فيخصها بنصيب وافر من غاراته، ويوجه إليها الغارة تلو الغارة حتى يقتل منهم تسعاً وتسعين نفساً كما تذكر بعض الروايات (٢). وتذكر بعضها أنه كان قد أقسم أن يقتل منهم مائة فأتمها وهو ميت، لأنهم لما قتلوه وصلبوه وظل على هذه الحال عاماً أو عامين «جاء رجل منهم كان غائباً فمر به وقد سقط فركض رأسه برجله، فدخل فيها عظم من رأسه فعلت عليه فمات منها فكان ذلك الرجل هو تمام المائة» (٣).

ولايعنينا إن كان قد قتل منهم مائة بالفعل أو دون ذلك أو أكثر، وإنما يعنينا أن نسجل أن حياته قد اصطبغت بالدم، وارتبطت الصعلكة عنده بالثأر أكثر من ارتباطها بالرغبة فى الحصول على الغنائم والأموال، وأن هذا الثأر كان موجهاً فى المقام الأول إلى بنى سلامان وهم من نشأ فيهم، وفيهم قاتل أبيه، وفيهم أيضاً تلك الفتاة المتعجرفة التى صكت وجهه وحرضت أباها عليه. وكأنه كان يجد فى كثرة إغاراته عليهم والثأر منهم بعض الشفاء:

«وإنى لأهوى أن ألف عجاجتى ... على ذى كساء من سلامان أو برد
وأصبح بالعصداء أبغى سراتهم ... وأسلك خلا بين أرباغ والسرد». (٤)

ويؤكد ذلك من بعض الوجوه أنه كان يغير عليهم فى جماعات، وأغلب الأحيان كان يغير عليهم وحده (٥). فلغيره من الصعاليك مندوحة عن بنى سلامان، وليس له مندوحة عنهم. لذلك نراه يتهددهم ويتوعدهم فى كثير من شعره كقوله:

---

(١) مجمع الأمثال ج١ ص٤٥٠/ خزانة الأدب ج٣ ص٣٤٤، ٣٤٥/ الطرائف الأدبية ص٢٧.
(٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٧٩.
(٣) المصدر نفسه ص١٩٤.
(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٨٠ والبيت الثانى بـ"الطرائف الأدبية" ص٣٤
"وأمشى لدى العصداء أبغى سراتهم ... وأسلك خلا بين أرفاغ والسرد"
(٥) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٨٠.

«سنجزى سلامان بن مفرج قرضهم بما قدمت أيديهم وأزلت(١).

وقوله:

«فإن لاتزرنى حتفتى أو تلاقنى أمش بدهو أو عداف بنـــورا
أمشى بأطراف الحماط وتـــارة ينفض رجلى بسبطأ فعصنصرا
أبغى بنى صعب بن مر بلادهـــم وسوف ألاقيهم إن الله أخـــرا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك نبغى القاصى المتغـــورا».(٢)

وقد أحدثت هذه الغارات المستمرة لبنى سلامان نوعاً من الرعب فأخذوا يترصدونه(٣) حتى قتلوه، قتله واحد منهم يدعى أسيد بن جابر(٤). وبمقتله ارتاح ناس واغتم ناس. وكان ممن اغتم له تأبط شراً فرثاه بقصيدة رائعة مطلعها:

«على الشنفرى سارى الغمام فرائح غزير الكلى وصيب الماء باكر(٥).

وصفه فيها بالقوة، حيث نراه وهو يجول ويتحرك بسلاح الموت فى يوم عصيب والناس من أمامه تجرى كالضأن النافرة هلعاًوخوفاً من بطشه وشدة فتكه:

«ويومك يوم العيكتين وعطفة عطفت وقد مس القلوب الحناجر
تجيل سلاح الموت فيهم كأنهم لشوكتك الحدى ضئين نوافر».

ووصفه بالحزم والصبر:

«فيكفى الذى يكفى الكريم بحزمه ويصبر إن الحر مثلك صابر».

ووصفه بالكرم وطهارة العرض والبعد عن الخنا والفحش:

«قضى نحبه مستكثرا من جميله مقلا من الفحشاء والعرض وافر».

وكأنه بذلك يؤكد نزاهة ذلك الصعلوك، ويجعلنا نتأكد من أنه - بحق - كان مثالا للصعلوك الشريف على الرغم من كثرة قتلاه وكثرة ما أسال من الدماء(٦).

---

(١) الأغانى (ط أبو الفضل إبراهيم) جـ٢١ ص ١٨٩.
(٢) الطرائف الأدبية ص٣٥، ٣٦.
(٣) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١، ١٨٠، ١٨١.
(٤) كان الشنفرى قد قتل أخاه بعد أن باء من دون بنى سلامان كلها بقتل أبيه. المصدر نفسه ص١٨٤، ١٨٥.
(٥) الطرائف الأدبية ص٢٨، ٢٩.
(٦) اتخذه الدكتور يوسف خليف (الشعراء الصعاليك ص٣٣٠) نموذجا للصعلوك الشيطان. ورأينا هذا الوصف ينطبق على السليك فى أشياء كثيرة. ولا ينطبق على الشنفرى إلا فى كثرة القتل، أما العرض فوافر وأما النفس فحرة وأما الصفات فخير ما يعتز بها أبناء عصره من الكرم والصبر والشجاعة والبأس والبعد عن الخنا والفحش وغيرها مما فاض بها شعره وشهد له بها بعض من عاصروه.

- ولنقف هنيهة قبل أن نتركه مع مقتله، فقد كان أشبه بالمأساة، بل كان مأساة حقيقية مارس فيها قاتلوه أبشع أنواع الانتقام، من السخرية، حيث طلبوا منه أن ينشدهم وهو مقرون بالحبال فقال: «إنما النشيد على المسرة» فذهبت مثلا. ومن التنكيل والتعذيب، حيث رموه فقطعوا يده، فقال الشنفرى فى ذلك وكانت بيده المقطوعة شامة، وهى مزيج من الرثاء والفخر كيلا يشمتوا به:

«لاتبعدى إما ذهبت شامه　　فرب واد نفرت حمامه

ورب قرن فصلت عظامه».

وربما سملوا عينيه «قال له السلامى: أأطرفك»؟ وكأنه يستأذنه، ثم رماه فى عينيه. فقال الشنفرى: «كأن كنا نفعل كذلك». أى كذلك كنا نفعل . ثم خيروه فى المكان الذى يدفن فيه حين هموا بقتله فقال أبياته المشهورة:

«لاتقبــرونى إن قبرى محـــــرم　　عليكم ولكن أبشرى أم عامــر

إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى　　وغودر عند الملتقى ثم سائرى

هنالك لاأرجو حياة تســرنــــــى　　سجيس الليالى مبسلا بالجرائر». (١)

يريد ألا يقبروه، وأن يتركوه للضبع تأكل لحمه، فهو إذا قتل، وقطعت رأسه - وفى الرأس أكثره كما يقول - وغودر جسمه، فما حاجته إلى قبر يحيا فيه حياة أخرى مثقلا بجرائمه إلى الأبد؟!

فإن تناثر لحمه وتوزع فى بطون الوحوش عزت عودته - هكذا ظن وهو الجاهلى - وربما اختار صحبة الوحش بعد الموت كما اختارها فى الحياة، أليس هو القائل:

«ولى دونكم أهلون سيد عملس　　وأرقط زهلول وعرفاء جيال

هم الأهل لا مستودع السر شائع　　لديهم ولا الجانى بما جر يخذل». (٢)

وربما لم يزد ذلك على أن يكون نوعاً من السخرية، يوجهها إليهم وقد أرادوا أن يسخروا منه وهو قريب من الموت.

---

(١) تفاصيل مقتله بالأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٨٠: ١٨٢، ١٨٤: ١٨٦، ١٩٤. والأبيات بالطرائف الأدبية ص٣٦.

(٢) الأمالى - لأبى على القالى (مطبعة السعادة - القاهرة - بدون تاريخ) ج٣ ص٢٠٥.
أعجب العجب فى شرح لامية العرب - للزمخشرى (ط١ - الجوائب ١٣٠٠هـ) ص١٧، ١٨.

الفصل الثالث

موضوعات شعر العبيد

أولا : الموضوعات فى دائرة الرق:

١ـ العبودية.

٢ـ الفقر.

٣ـ الدمامة واللون.

٤ـ العزلة والموت.

ثانياً : الموضوعات العامة :

١ـ الطبيعة.

٢ـ الغزل.

٣ـ الحماسة.

٤ـ الحكمة.

٥ـ الرثاء وموضوعات أخرى.

يدور شعر العبيد فى دائرتين رئيستين؛ دائرة خاصة هى دائرة الرق وما يتصل بها من شكوى العبودية والمكانة الاجتماعية، والفقر وآثاره، والدمامة واللون، والعزلة والموت. ودائرة أوسع هى دائرة الموضوعات العامة التى تطرق إليها شعراء آخرون من غير العبيد وكثرت وشاعت حتى عدت من أبواب الشعر؛ كالطبيعة والغزل والحماسة والهجاء والحكمة والرثاء. وللعبيد فى هذه الدائرة سمات خاصة، وصفات أخرى عامة يشتركون فيها مع غيرهم. وسوف نتلمس هذه وتلك فى دراستنا المفصلة لموضوعات شعر العبيد.

أولا: الموضوعات فى دائرة الرق

١- العبوديــــــــة:

أول مايميز شعر العبيد من ناحية الموضوعات كثرة حديثهم عن العبودية والرق والمكانة التى يعيشون فيها. وهى مكانة (وضيعة) بطبيعة الحال، وقد بينا هذا فى الفصل الأول، لكننا نحاول الآن أن نتبين هذه المكانة من خلال شعرهم، المرآة الأولى لهم.

ولانتوقع أن يأتى حديثهم عن العبودية ومايستتبعها من هوان المنزلة حديثاً مستقلا، فالعبودية - شأنها فى ذلك شأن سائر الموضوعات - تتداخل مع غيرها. وقد يأتى حديثهم عنها عرضاً فلا يتجاوز البيت أو البيتين، ونادراً ما يقف أحدهم أمام العبودية وقفة طويلة يحدثنا فيها عن أسبابها ونتائجها وأبعادها المختلفة وأثرها فى نفوسهم وفى المجتمع حديثاً مفصلا، وإن كانت العبودية فى حد ذاتها تستحق مثل هذه الوقفة خاصة من العبيد لأنها تمثل المحور الأساسى الذى تدور حوله حياتهم، أوبالأحرى الفلك الذى يدورون فيه.

وعلى الرغم من هذا فإنهم فى لمحاتهم الخاطفة وفى وقفاتهم السريعة لمسوا جوانب كثيرة وعميقة. ولاعجب، فهم يتحدثون حديثاً ذاتياً، ويتوجهون بهذا الحديث إلى أنفسهم قبل أن يتوجهوا به إلى غيرهم. ويمتزج حديثهم عن العبودية بالشكوى والإحساس بهوان المنزلة؛ فهى عند سحيم شىء مكروه يبغضه الشاعر أيما بغض، نلمح هذا فى جملة خاطفة جاءت معترضة داخل بيت تمنى فيه أن يكون راعياً عند ابن أيمن ليمارس فحشه مع من عنده من النساء:

«وددت - على إبغاضى الرق - أننى   أكون لأجمال ابن أيمن راعيا».(١)

---

(١) ديوان سحيم - ت. عبدالعزيز الميمنى - ص٥٦.

ويمزج فى بيت آخر بين الرق و(التغنيط) وهو أشد أنواع الغيظ، وفرقة الحبيب وجفاف العيش ليبين سوء حاله وقد تجمعت عليه كل هذه المصائب:

«أرقا وتغنيطاً ونأياً وفرقة   على حين أبصرت المشارع تنشف؟»(١)

ويعبر عن هوان منزلته بسبب ماهو فيه من الرق تعبيراً مؤثراً، فها هى ذى المرأة التى عشقها تشير إليه فى سخرية مرة مستكثرة عليه حتى الشعر، فهل يزجى العبد القوافى؟ وأى العبيد؟ العبد الفقير الأسود الذى لايجد مايستر به جسده ويباع ويشترى دون أن يملك من أمر نفسه شيئاً؟!

«أشارت بمدراها وقالت لتربها   أعبد بنىَ الحسحاس يزجى القوافيا

رأت قتبأرثاً وسحق عبـــــاءة   وأسود مما يملك الناس عاريـــا».(٢)

ويصرخ سحيم فى وجه مواليه حين عرضوه للسجن والضرب بالسياط:

«فما السجن إلا ظل بيت سكنته   وما السوط إلا جلدة خالطت جلدا».(٣)

فإقامته بينهم هى السجن الحقيقى، ومعاشرته لهم هى السوط الفعلى، على الرغم من أنه كما يظهر من شعره ومن الأخبار التى دارت حوله كان مكرما فيهم أول أمره «وكان مولاه جندل لينا له رفيقا عليه»(٤).حتى إنه عندما عرضه للبيع - والبيع أسوأ ما كان يتعرض له العبيد - أنشد هذه الأبيات فكانت سببا فى إعادتهم له:

«أشوقاً ولما تمض بى غير ليلة   فكيف إذا سار المطى بنا عشــرا

أخوكم ومولى خيركم وحليفكم   ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهــراً

وما خفت سلاماً على أن يبيعنى   بشىء ولو أمست أنامله صفـــرا».(٥)

لكنها العبودية على أية حال. ومثل هذا نجده عند الشنفرى؛فقد أكرمه مولاه وكان يعامله فى طفولته وصباه كما يعامل الأب ابنه،لكنه عندما لطمته ابنة سيده تذكر حقيقته المرة الأليمة؛ وهى أنه عبد، مجرد عبد، أو هجين كما قال:

«ألا هل أتى فتيان قومى جماعة   بما لطمت كف الفتاة هجينها».(٦)

---

(١) ديوان سحيم - ت عبدالعزيز الميمنى ص ٦٣.
(٢) المصدر نفسه ص٢٥.
(٣) المصدر نفسه ص٦٦.
(٤) المصدر نفسه ص٦٥.
(٥) ديوان سحيم ص٥٦.
(٦) الطرائف الأدبية - عبدالعزيز الميمنى ص٤٠.

لم يقل (بما لطمتنى) وإنما أشار إلى نفسه نكرة (هجين) ولم تعرف هذه النكرة إلا بالإضافة إليها (هجينها) فهو مجرد مملوك لها. ويتحسر الشنفرى فى بيت آخر على نفسه ومآل إليه أمره، فقد أقام فى غير أهله، ولم يكن هذا بمحض إرادته، وبعدوا به ولم يشعر بينهم بأى لون من ألوان السعادة:

«وهنىء بى قوم وما إن هنأتهمَ وأصبحت فى قوم وليسوا بمنيتى».(١)

أما عنترة فكان إحساسه بالمرارة لما هو فيه من العبودية والرق أشد، فالذين استعبدوه هم أهله. وعلى الرغم من أنه كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه حر مثلهم وكان يسعى بكل مايملك لينال اعترافهم به نراه يردد فى لحظة يأس هذه الشطرة التى تفيض مرارة وحزناً: «المال مالكم والعبد عبدكم» (٢).

ومثل هذه المرارة نجدها عند السليك حين يرى خالاته من الإماء بين الرجال ويعجز عن تخليصهن من الرق بسبب ماهو فيه من العبودية والفقر:

«أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرجال

يشق على أن يلقين ضيماً ويعجز عن تخلصهن مالى».(٣)

وإذا كانت العبودية قد أشابت رأس السليك فهى عند عامر بن فهيرة رضى الله عنه ضرب من الموت:

«إنى وجدت الموت قبل ذوقه».(٤)

وذلك أنه عاش فى الجاهلية عبداً ولم ينل حريته إلا بعد فترة طويلة من الرق.

وكان بعض العبيد يرون أنفسهم أحراراً، ليسوا أحراراً بالمعنى الذى يتبادر إلى الذهن، وإنما يعنون بذلك حرية النفس. وقد تعرضنا لأبيات كثيرة من هذا القبيل فى دراستنا للشنفرى. ونعرض الآن لبعضها عند عنترة وسحيم. يقول عنترة:

«فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع».(٥)

---

(١) المفضليات - ت. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون (مطبعة المعارف - القاهرة سنة ١٣٦١هـ) ج١ ص١١٠.

(٢) شرح ديوان عنترة - عبد المنعم عبد الرءوف شلبى ص٨٩.

(٣) الكامل للمبرد ت. محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة (دار نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة. بدون تاريخ) ج٢ ص١١٨.

(٤) الإصابة (ط. مصطفى محمد) ج٢ ص٢٤٧ وعجزه: "إن الجبان حتفه من فوقه".

(٥) شرح ديوان عنترة - عبد المنعم عبد الرءوف شلبى ص١٠٤.

وهو يعنى نفسه بطبيعة الحال. ويقول سحيم:

«إن كنت عبداً فنفسى حرة كرما ... أو أسود اللون إنى أبيض الخلق».(١)

فهو يفرق بين نوعين من العبودية؛ عبودية لايدله فيها وهى امتلاك الآخرين له، لأنه ولد هكذا، وعبودية قائمة على الاختيار وهى عبودية النفس. وقد كان من هذه الناحية حراً، أو كذا رأى. أما العبودية الأولى التى لايد له فيها فقد أشار إليها بقوله:

«فما ضرنى أن كانت أمى وليدة ... تصر وتبرى باللقاح التواديا».(٢)

على النفى أو الاستفهام، وإن كان الاستفهام أبلغ. وقوله:

«فإن تحبسونى تحبسوا ذا وليدة ... وإن تطلقونى تطلقوا أسداً وردا.(٣)

فى شعر عنترة والسليك ما يعبر عن احتقارهما للعبودية وازدرائهما للعبيد، ولاعجب فكلاهما قد نال حريته وانتقل من حال إلى حال. يقول عنترة فى وصف فرسه:

«يقدمه فتى من خير عبـــــس ... أبوه وأمه من آل حـــــام».(٤)

يقول أيضاً:

«إنى امرؤ من خير عبس منصبا ... شطرى وأحمى سائرى بالمنصل».(٥)

أحد شطريه - وهو الأب - مثار فخر، والآخر - نسبه من جهة أمه - عورة يسترها بالشجاعة والفروسية والبسالة فى القتال، فكأن هذه الأشياء تعويض لما يشعر فى نفسه إزاءها من الدونية والنقص.

• يقول فى وصف مجموعة من الفرسان خرجوا معه فى إحدى غاراته:

«كم من فتى فيهم أخى ثقة ... حر أغر كغرة الرئـــــم

ليسوا كأقوام علمتهـــــم ... سود الوجوه كمعدن البرم».(٦)

أما السليك فقد خرج فى إحدى غاراته مع صاحبين له فأمهلهما حتى يعلم خبر الحى، فلما لم ير إلا بعض العبيد والإماء رفع صوته قائلا:

«ياصاحبى ألا لاحى بالوادى ... سوى عبيد وآم بين أذواد

(١) ديوان سحيم ص٥٥.
(٢) المصدر نفسه ص٢٦.
(٣) المصدر نفسه ص٥٧.
(٤) شرح ديوان عنترة ص١٥٩.
(٥) المصدر نفسه ص١١٩.
(٦) المصدر نفسه ص١٥٥.

أتنطران قريباً ريث غفلتهم أم تغدوان فإن الريح للغادى؟ »(١)

فالعبيد لن يحولوا مهما كان عددهم بينه وبين ما أراد من السلب، ويستطيع بأقل حيلة أن يخدعهم ويستغل غفلتهم فهم ليسوا سوى (عبيد وآم) كما يقول.

وهكذا يفيض شعر العبيد بالحديث عن العبودية مقترنة بالمرارة وهوان المنزلة الاجتماعية، وما يتعرض له العبيد من بيع وقسوة فى المعاملة تصل إلى حد الحبس والشتم والضرب بالسياط، وقد وصف بعض العبيد أنفسهم بالحرية وهم يعنون بذلك حرية النفس فى مقابل عبودية الجسد، حيث لايملكون فيها اختياراً، وقد ثار بعضهم على العبودية بالسخرية منها ومن العبيد.

٢- الفقــــر :

لعل الفقر أبرز مايميز العبيد فى كل مجتمع، فهو والعبودية توأم، ومتى كان المرء عبداً كان فقيراً، لأنه وما يملك - إن كان يملك شيئاً - ملك لغيره، وهو عالة عليه، لاحق له فى شىء مالم يقذف به سيده إليه أو يعترف به له. كان هذا فى الجاهلية، أما فى صدر الإسلام فقد تحول مفهوم العبودية وصار امتلاكاً للمنفعة بعد أن كان امتلاكاً للشخص.

وأوجب الإسلام على السيد النفقة على عبده نفقة تامة تسد حاجته من الطعام والكسوة وغيرهما من ضرورات الحياة، وصار للعبد كسب خاص. وعلى الرغم من هذا فقد كان الفقر سمة عامة بين العبيد، وقليل منهم هم الذين استطاعوا أن يتخلصوا من ربقة الفقر.

وقد كان إحساس العبيد بالفقر إحساساً حاداً، خاصة فى الجاهلية، وكانت شكواه صارخة، حتى عددناه موضوعاً خاصاً من الموضوعات التى دار حولها شعرهم على الرغم من مشاركة غيرهم لهم فيه، فالفقر عندهم ليس كالفقر عند سائر الناس، وإحساسهم به ليس كإحساس غيرهم، وتعبيرهم عنه ليس كتعبير غيرهم من فقراء الأحرار، وهو قبل هذا وذاك يكاد يكون ملازماً لهم طوال حياتهم، لايتخلص منه إلا من يتاح له التخلص من الرق. لذلك طفحت أشعارهم بالشكوى منه، وهى شكوى تختلف بطبيعة الحال عن شكوى غيرهم ممن يستجدون بالشعر حين يصفون ضمور الناقة ومشقة السير قبل أن يمدحوا من يمدحون من الأغنياء، لأن الشكوى عند مثل هؤلاء صنعة، والشكوى عند العبيد ناطقة بالصدق.

---

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٧. الشعر والشعراء لابن قتيبة ج١ ص٢٧٣. والآم جمع أمة.

ولنستمع إلى السليك وهو يصف فقره وقد كان سبباً فى اتجاهه نحو الصعلكة كما سبق أن ذكرنا فى دراستنا له. يقول السليك:

وما نلتها حتى تصعلكت حقبــــة ... وكدت لأسباب المنية أعـــــرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى ... إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف.(١)

فهو لم ينل تلك الغنيمة من الإبل إلا بعد أن تعرض للموت، وبعد أن ذاق طعم الجوع فى حياته الأولى، فكان إذا قام أظلمت عيناه وغشاه الدوار. وخص الصيف بالذكر - كما قالوا - لكثرة اللبن فيه. فإن كانت هذه حاله فى الصيف والناس مخصبون، فكيف تكون فى باقى العام؟! ولا يخفى ما فى هذه الإشارة من التفاتة إلى حال الأغنياء، ففى الوقت الذى ينعمون فيه يشعر هو بمثل هذا الجوع. وحتى عنترة الذى كان يعيش بين أهله عبداً ثم نال بعد ذلك حريته كان يشعر بمثل هذا الفقر، وكان فقره مثاراً لعجب عبلة، وضحكها وسخريتها منه، وقد جعله الفقر شاحباً نحيلا حتى لتكاد العروق الغائرة تظهر من تحت الجلد، ولم يترك له الفقر مجالا للزينة، فثوبه ممزق وشعره لا يرجل ولا يعرف الدهن إلا عاماً بعد عام:

«عجبت عبيلة من فتى متبذل ... عارى الأشاجع شاحب كالمنصل

شعث المفارق منهج سربالــــه ... لم يدهن حولا ولم يترجــــل».(٢)

وسحيم - كما رأينا - كعنترة، رث الثياب ممزقها، وهذه الثياب - التى هى علامة الفقر - مثار سخرية صاحبته فضلا عن لونه الأسود، وهو يبدو فيها وكأنه عار إذ لاتكاد تستره.(٣)

وقد نظرت إليه ذات يوم امرأة فأشفقت عليه حتى جرت الدموع من عينيها وتعجبت من شغف الغوانى به وهو من هو فقراً ولوناً:

«وقائلة والدمع يحدر كحلها ... أهذا الذى وجداً يبكى الغوانيا»؟!(٤)

والشنفرى لا يختلف عن سحيم ولا عن عنترة فى تمزق الثياب؛ فهو لا يملك غير نعلين باليتين، لا يستطيع إصلاحهما من كثرة ما بهما من قطع، وملحفة دارسة وريطة خلقة إذا شدت على جانب تعرى منه الجانب الآخر. يقول الشنفرى:

---

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٨.
(٢) شرح ديوان عنترة ص١٢٠.
(٣) ديوان سحيم ص٢٥.
(٤) ديوان سحيم ص٢٤.

«وليس جهازى غير نعلين أسحقت ... صدورهما مخصورة لا تخصف

وضنية جرد (؟) وأخلاق ريطة ... إذا أنهجت من جانب لا تكفف».(١)

وفى موضع آخر يصف الشنفرى نعليه بأنهما أشلاء طائر ممزق، لذلك فهو يلقيهما غير آسف عليهما:

«ونعل كأشلاء السمانى تركتها ... على جنب مور كالنحيزة أغبرا».(٢)

غير أنه فيما يبدو لم يجد بعد ذلك ما يمكنه من الحصول على نعلين آخرين فسار بين الناس كالأفعى بغير حذاء.

يقول لصاحبته فى لاميته المشهورة:

«فإما ترينى كابنة الرمل ضاحياً ... على رقبة أحفَى ولا أتنعل».(٣)

وفى رواية أخرى للبيت: «على رقة أحفى ولا أتنعل» وهى رواية الزمخشرى.

وتشير كلمة «رقة» إلى السبب الذى من أجله صار حافياً، وهو يعنى رقة الحال؛ أى الفقر الذى باعد بينه وبين الترف فلم يرجل فى يوم شعره، ولم يعرف هذا الشعر طريقاً للدهن:

«وضاف إذا هبت له الريح طيرت ... لبائد عن أعطافه ما ترجـــل

بعيد بمس الدهن والفلى عهـــده ... له عبس عاف من الغسل محول».(٤)

ويصف الشنفرى فى قصيدته الثانية جوعه وجوع أصحابه من الصعاليك، وكيف كان تأبط شراً - وهو القائم على أمر طعامهم - يقتر عليهم مخافة أن ينفد الطعام فلا يجدوا فى غدهم ما يعينهم على الحياة. غير أن هذا الحرص الذى يخشى عليهم حرمان الغد قد حرمهم - فى رأى الشنفرى - اليوم أيضاً:

«وأم عيال قد شهدت تقوتهم ... إذا أطعمتهم أوتحت وأقلت

تخاف علينا العيل إن هى أكثرت ... ونحن جياع أى آل تألت».(٥)

والسعار - أو شدة الجوع - رفيق ملازم للشنفرى، يسير معه أينما سار، فهو صاحب له يعز عليه أن يتركه حتى وهو خارج إلى أحدى مغامراته فى الصعلكة:

---

(١) الطرائف الأدبية ص٣٧.
(٢) الطرائف الأدبية ص٣٥.
(٣) الأمالى للقالى ج٣ ص٢٠٧.
(٤) المصدر نفسه ص٢٠٨.
(٥) المفضليات. ت. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ج١ ص١٠٨.

«دعست على بغش وغطش وصحبتي ... سعار وإرزيز ووجر وأفكل» . (١)

ويقترن بشدة الجوع نحول الجسم والنحافة، فقد كان الشنفرى - شأنه فى ذلك شأن كثير من العبيد - ناحل الحسم نحيفاً، فجسده لا يكاد يصل إلى الأرض إذا استلقى فوقها لبروز عظامه. فإذا توسد ذراعه كان كمن يضع رأسه فوق حجر صلب:

«وآلف وجه الأرض عند افتراشها ... بأهدأ تنبيه سناسن قحـــــل

وأعدل منحوضاًكأن فصوصـــــه ... كعاب دحاها لاعب فهى مثل» . (٢)

من الآثار الأخرى للفقر غير الجوع والنحافة وهزال الجسم، ما يمكن تسميته بالآثار النفسية، وهى تلك السياط التى يشعر بها الفقير حين يجد نفسه عاجزاً محروماً والناس من حوله يتقلبون فى النعيم والثراء. نلمح هذه الآثار فى شدة إحساس السليك بالعجز، حين يرى خالاته وسط الرحال مسخرات ولا يستطيع أن يفعل من أجلهن شيئاً. (٣)

ونلمحها أيضاً فى ذلك الحرمان الذى يشعر به عنترة ويعبر عنه فى قوله:

«ألا قاتل الله الطلول البواليا ... وقاتل ذكراك السنين الخواليـــا

وقولك للشىء الذى لا تناله ... إذا ما حلا فى العين ياليت ذاليا».(٤)

فالفقر هو الذى يحول بينه وبين ما يريد، فما أقسى هذا الفقر الذى يشعر صاحبه بالعجز حتى ليشيب منه الرأس. وما أقسى هذا الفقر الذى يشعر صاحبه بالحرمان وأى حرمان!!

ومن السياط النفسية الأخرى للفقر غير الشعور بالعجز والإحساس بالحرمان اعتياد الهموم، فقلما ينجو فقير منها، بل هى عند سحيم متنوعة فمنها القديم ومنها الحديث:

«تأوبنى ذات العشاء هموم ... عوامد منها طارف وقديـــم

وما ليلة تأتى على طويلة ... بأقصر من حول طلباه نعيم».(٥)

وهى عند الشنفرى كالحمى تعوده مرة بعد مرة ولا يجد لها مدفعاً:

«وإلف هموم ما تزال تعوده ... عياداً كحمى الربع أو هى أثقـــل

إذا وردت أصدرتها ثم إنهـا ... تثوب فتأتى من تحيت ومن عل».(٦)

---

(١) الأمالى للقالى ج٣ ص٢٠٨.
(٢) المصدر نفسه ص٢٠٧.
(٣) الكامل للمبرد. ت. محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة ج٢ ص١١٨.
(٤) شرح ديوان عنترة ص١٩٢.
(٥) ديوان سحيم ص٣٧.
(٦) الأمالى ج٣ ص٢٠٧.

وهى صورة مليئة بالإيحاءات، فمثلا لفظ إلف «يوحى بأنه أصبح أليفاً للهموم معتاداً عليها. وكذلك «ما تزال» يوحى باستمرار توارد الهموم عليه. وكذلك «تعوده»يوحى بثقل الهموم عليه كأنه مريض منها. وكذلك «إذا وردت أصدرتها» يوحى بالصراع العنيف الذى يعانيه مريض فى مد الهموم وجزرها فى نفسه. وكذلك «من تحيت ومن عل» تعبير يوحى بأن الهموم قد أغرقته وأنها تأتى من مصادر عدة وأسباب مختلفة. وكذا لفظ «تحيت» وحده يوحى بقربها والتصاقها المؤلم به، وكونها كالفراش ولكن لا مهرب منه، بالإضافة إلى إيحاءات أخرى مثل التأكيد الذى يوحيه «تعود عياداً» والتفضيل فى «أثقل»، والإطلاق فى «عل» بما يوحى من فضاء واسع قد يكون كله هموماً متلاحقة نازلة عليه. والصورة كلها مع ذلك لها فى جملتها إيحاء خاص فوق إيحاء الألفاظ والتراكيب. وقد يكون ذلك من نواح؛ كالتنكير فى «هموم» الذى يوحى بكثرة الهموم وتنوعها»(١). وعلى الرغم من كثرة هذه الهموم، وعلى الرغم من شدة إحساس العبيد بالعجز والحرمان، ومع ما هم فيه من جوع ونحافة وهزال نتيجة للفقر إلا أننا وجدنا من يتسامى منهم على هذا الفقر ويواجهه بالصبر، ولا يعرض نفسه للذل بسؤال الناس. فها هو ذا الشنفرى يقول:

«أديم مطال الجوع حتى أميتـــــه ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له ... على من الطول امرؤ متطـــول

ولولا اجتناب الذام لم يبقى مشـرب ... يعاش به إلا لدى ومأكـــــل».(٢)

فهو يضرب الذكر عن الجوع ويماطله حتى يميته وينساه، ويستف التراب ويربأ بنفسه عن ذل السؤال، وما يستتبعه من تطول المسئول عليه. ويقول فى النهاية إنه لولا اجتناب الذم لكان لديه كل ما يريد من الطعام والشراب، لكنه شريف، ينظر إلى الطريق الموصلة قبل أن ينظر إلى الغاية، فإن حرم الغاية فما ذلك إلا لانسداد الطرق الشريفة المؤدية إليها. ويقول فى موضع آخر من القصيدة نفسها:

«وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت ... خيوطة مارى تغار وتفتل

وأغدو على القوت الزهيد كما غـــــدا ... أزل تهاداه التنائف أطحـل».(٣)

(١) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه - د. عبد الحليم حفنى ص٢٩٣.
(٢) الأمالى ج٣ ص٢٠٧.
(٣) المصدر نفسه ص٢٠٦.

ويقول:

«فإما تريني كابنة الرمل ضاحياً ... على رقبة أحفى ولا أتنعـــــل

فأني لمولى الصبر أجتاب بــزه ... على مثل قلب السمع والحزم أفعل

وأعدم أحياناً وأغنى وإنمـــا ... ينال الغنى ذو البعدة المتبـــذل

فلا جزع من خلة متكشـــف ... ولا مرح تحت الغنى أتخيــل».(١)

وفي الحق أن الشنفرى كان يتميز إلى جانب صبره على الجوع ومماطلته له وتعففه بنزاهة النفس، فهو إن جلس إلى الطعام لم تمتد يده - على ما به من جوع - قبل أن تمتد أيدي الناس، وذلك نوع من التفضل:

«وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

وما ذاك إلا بسطة عن تفضـــل ... عليهم وكان الأفضل المتفضل».(٢)

لكن مثل هذا التفضل ومثل هذا الصبر ومثل هذا التعفف لا نجده كثيراً عند غيره من العبيد بل نجد كثيراً منهم يسخط على الأغنياء ويسخر منهم في مقارنات طريفة يعقدونها بين ما هم فيه من نحافة ونحول وما عليه هؤلاء المتخمون من البدانة والانتفاخ. يقول سحيم في وصف حبيبته:

«وليست من اللائي يروم وصالها ... دنيء ولا عند الفعال ذميـــم

ولا عضل جثل كأن بضيعـــه ... يرابيع فوق المنكبين جثـــوم

يرى بادناً والجلة الكوم شـــف ... عظيم القصيري والثمام هشيم».(٣)

ويقول عنترة موجهاً حديثه إلى عبلة مشيراً إلى نحافته معرضاً بضخامة زوجها:

«إما تريني قد نحلت ومن يكن ... غرضاً لأطراف الأسنة ينحل

فلرب أبلج مثل بعلك بـــادن ... ضخم على ظهر الجواد مهيل

غادرته متعفرا أوصالـــــه ... والقوم بين مجرح ومجدل».(٤)

---

(١) الأمالي للقالي ج٣ ص٢٠٧، ٢٠٨. و "من خلة" في البيت الرابع عن الزمخشري. وبها يستقيم الوزن. والخلة: الفقر.

(٢) المصدر نفسه ص٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) ديوان سحيم ص٣٦.

(٤) شرح ديوان عنترة ص١٢١.

وهكذا نرى أن الشعراء العبيد فى حديثهم عن الفقر يتطرقون إلى وصف آثاره من الجوع والنحافة والهزال والعجز والحرمان واعتياد الهموم، ويواجه بعضهم الفقر بالتعفف والصبر ويتخذهما وسيلة للفخر بينما يصب بعضهم جام سخطه على الأغنياء متخذاً من بدانة أجساد هؤلاء فى مقابل جسمه النحيل مادة للهزء بهم والسخرية منهم، وقد دفع بعضهم الفقر إلى الصعلكة دفعاً، وقد بين الشنفرى طريق الخلاص من الفقر فى قوله:

«وأعدم أحياناً وأغنى وإنما ... ينال الغنى ذو البعدة المتبذل».

وهى تتلخص فى الاتجاه نحو الصعلكة والسطو ونهب مال الأغنياء. ويظهر هذا أيضاً فى قول السليك:

«فلا تصلى بصعلوك نؤوم ... إذا أمسى يعد من العيـــــال

ولكن كل صعلوك ضروب ... بنصل السيف هامات الرجال».(١)

فالصعلوك فى البيت الأول هو الفقير الذى يعيش عالة على غيره، وهو فى البيت الثانى الثائر على الفقر المتخذ من السيف وسيلة للحصول على لقمة العيش. وكأنهما بذلك يضيفان إلى حديث العبيد عن الفقر بعداً مفقوداً، وهو كيف يتخلصون منه، وإن كان كثير من العبيد قد نأوا بأنفسهم عن هذه الطريق لأنها غير مشروعة، فرضوا بالفقر وآثروه على التصعلك، ولم يجدوا إلا الشعر يبثونه الشكوى ويخففون به عن أنفسهم بعض ما يجدون من عناء.

(١) الكامل للمبرد ج٢ ص١١٨.

٣- الدمامـــة واللـــون:

اللون الغالب على العبيد فى الفترة التى ندرسها، وبخاصة فى العصر الجاهلى - هو اللون الأسود. وللسواد سمات جمالية ومقاييس بها يعرف تماماً كالبياض. غير أن وجود الأسود فى مجتمع من البيض يجعله شاذاً مهما توافرت فيه سمات الجمال. خاصة إذا كان هذا المجتمع ينظر إلى السود نظرة خاصة. وقد تعرض الدكتور عبده بدوى لهذه المسألة فى كتابه «السود والحضارة العربية»(١). ونكتفى نحن هنا بتسجيل أثر هذه النظرة فى نفوس الشعراء السود من العبيد، وكيف نظروا هم أيضاً إلى قضية اللون أو المظهر الخارجى للإنسان.

وقد مر بنا قول سحيم حين عيروه بالعبودية والسواد:

«إن كنت عبداً فنفسى حرة كرما ... أو أسود اللون إنى أبيض الخلق».

وقلنا إنه يقارن بين لونين من العبودية إحداهما عبودية اختيار والأخرى لا يد له فيها. أما السواد فمجرد لون تصطبغ به البشرة، ولا يد له فيه أيضاً، وهو لا يزرى بصاحبه مالم يمتد إلى خلقه، فالخلق يوصف عنده بالبياض والسواد تماماً كالجلد غير أن اصطباغه بأحد اللونين قائم على الاختيار، وهو من هذه الناحية «أبيض الخلق»، فكيف يعيرونه بما لا يد له فيه ويتعامون عن اختياره الصائب المتمثل فى حرية النفس وبياض الخلق؟! كلام منطقى وقضية أحسن الشاعر صوغها فى بيت واحد من الشعر. وقد فصلها قليلا فى بيتين آخرين نسبهما بعض الرواة إلى شاعر آخر من السود وهو نصيب الأكبر يقول فيهما:

«ليس يزرى السواد يوماً بذى اللب ولا بالفتى اللبيب الأديب

إن يكن للسواد فى نصيب ... فبياض الأخلاق منه نصيبى».(٢)

وكأنه يعتذر عن «سواد اللون» بـ «بياض الخلق» أو عن المظهر الخارجى بطهارة القلب ونظافة الباطن، وكأنه يسخر من طرف خفى، من هؤلاء الذين تقف نظرتهم عند الشكل لا تتعداه إلى الداخل حيث الأعماق الطاهرة والقلب النظيف، ويضيف هنا إلى نفسه سلامة العقل والذكاء والأدب، وكلها مثار فخر تحول بينه وبين الاهتمام بازدراء الآخرين له، أو هكذا تصور على الرغم من أن الازدراء لا يحول بينه وبين المزدرى به شىء؛ فتأثيره فى النفس

---

(١) ص٢٢، ٢٣، ١٧٧، ١٨٨.

(٢) ديوان سحيم ص٥٤، ١٥٥.

عميق، ولو لم يؤثر فى نفس سحيم لما نظم مثل هذه الأبيات. والطريف أنه هو نفسه قد نظر إلى لونه بشىء من المرارة فى أكثر من موضع، من ذلك قوله وقد وجد فى نفسه من انصراف النساء عنه:

«فلو كنت ورداً لونه لعشقتنى ولكن ربى شاننى بسواديا» (١).

بل ذم السواد ووصف مجموعة من النساء السود بالقبح فى قوله:

«فقامت وألقت بالخمار مدلة تفادى القباح السود منها تفادياً» (٢).

ومثل هذه النظرة التى يزدرى فيها الشاعر الأسود نفسه ويسخر فيها من السواد نجدها عند عنترة، فهو يشبه نفسه بالموت:

«إن المنية لو تمثل مثلت مثلى إذ نزلوا بضنك المنزل» (٣).

ويصف أصحابه الذين يغيرون معه بالبياض وأنهم ليسوا كغيرهم من العبيد ذوى الوجوه التى تشبه فى سوادها موضع القدر:

«كم من فتى فيهم أخى ثقة حر أغر كغرة الرئـــــم

ليسوا كأقوام علمتهـــــم سود الوجوه كمعدن البرم» (٤).

ويشير فى موضع آخر إلى ازدراء عبلة له وضحكها منه وقد رأته ناحلا نحيفاً ممزق الثوب مهلهل الشعر (٥). وقد يعتذر عن ذلك باهتمامه بالأمور الجسام شأنه فى ذلك شأن غيره من العظماء، فلا وقت عنده للاهتمام بالمظهر ودهن الشعر وتمشيطه، لكنها المرأة، وتلك نظرتها للأشياء.

ومثل هذا أيضاً نجده عند السليك وهو يقرر فى مرارة انصراف واحدة منهن عنه لدمامته وعدم اعتنائه بمظهره الخارجى وهو كل شىء بالنسبة لها، غير أنه يعتذر عن ذلك مثلما اعتذر سحيم وعنترة بـ «الفعل» الذى يربو على فعل ذوى الجمال:

«ألا عتبت على فصارمتنى وأعجبها ذوو اللمم الطـــــوال

فإنى يا ابنة الأقوام أربـــى على فعل الوضىء من الرجال» (٦).

---

(١) ديوان سحيم ص٢٦.
(٢) المصدر نفسه ص٢٧.
(٣) شرح ديوان عنترة ص١٢٠.
(٤) المصدر نفسه ص١٥٥.
(٥) المصدر نفسه ص١٢٠.
(٦) الكامل للمبرد ج٢ ص١١٨.

وفى الحق أن السليك كان دميماً، وكذلك كان سحيم (معلطاً)(١)، وكان عنترة فيما يبدو مشقوق الشفة العليا، لكن الذى زاد من دمامتهم فى نظر المجتمع، وخاصة النساء، سواد اللون وعدم اعتنائهم بالشكل أو بالمظهر الخارجى.

وكثيراً ما عيروا باللون لكنهم كانوا يكتفون فى دفاعهم عن أنفسهم بالاعتذار عنه والإشارة إلى مجالات النبوغ التى برزوا فيها، فكثيراً ما اتجه عنترة بعد الدفاع عن السواد إلى الحديث عن فروسيته وشجاعته فى القتال، وكثيراً ما اتجه السليك إلى الحديث عن الصعلكة باعتبارها مثار فخر عنده. أما الشنفرى فلم تشغله مسألة اللون لأنه كان - كما سبق أن ذكرنا - من الشعراء البيض وليس من الأغربة كما زعم ابن الأعرابى. ونلمح فى شعره شيئاً من الفخر بالبياض، فأصحابه ذوو وجوه كأنها المصابيح أو الماء المذهب:

«سراحين فتيان كأن وجوههم   مصابيح أو لون من الماء مذهب»(٢).

وذكره لوجهه مقترن بذكر البياض:

«إذا ما أروم الود بينى وبينها   يؤم بياض الوجه منى يمينها»(٣).

ولم نجد عنده غير هؤلاء - أو بالأحرى فيما وصلنا من شعرهم - اهتماماً بمسألة اللون. على أن السواد لم يكن دائماً مجالا للاعتذار والتنصل والدفاع وإنما كان فى بعض الأحيان مجالا للفخر، فأجمل الشعر عند العرب الشعر الأسود. يقول سحيم فى وصف حبيبته:

«ليالى تصطاد القلوب بفاحم   تراه أثيثاً ناعم النبت عافياً»(٤).

ويقول:

«بأحسن منها غداة الرحيل(م)   قامت ترائيك وحفا غدافاً»(٥).

والسحاب إذا مال لونه إلى السواد كان ذلك علامة على نزول المطر وهو الغيث عندهم:

«أربت عليه كل هوجاء معصف   وأسحم دان مزنه يستعيدها»(٦).

---

(١) العلاط خطوط تجعل سمة فى عرض عنق البعير وقد استخدم ابن قتيبة هذه الكلمة فى وصف سحيم حين قال عنه (الشعر والشعراء ج١ ص٤٠٨): "وكان حبشيا معلطا قبيحا". وربما عنى بذلك الخطوط التى يصنعها بعض الناس فى وجوههم كما يقول محقق الكتاب.

(٢) الطرائف الأدبية ص٣٢.

(٣) المصدر نفسه ص٤١.

(٤) ديوان سحيم ص١٧.

(٥) ديوان سحيم ص٤٣.

(٦) المصدر نفسه ص٤٩.

والكتيبة إذا وصفت بالسواد كان ذلك أدعى لبث الرعب والرهبة فى نفوس الأعداء:

«بملمومة كالليل رعناء فحمة ورقراقة يعشى العيون حديدها»(١).

والنوق يزينها السواد. يقول عنترة:

«فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم»(٢).

والليلة السوداء أصلح للغارة من الليلة المقمرة لما تتيحه من عنصر المفاجأة أو المباغتة، وهما من العناصر الأساسية فى نجاح الغارات. يقول عنترة:

«ولقد هممت بغارة فى ليلة سوداء حالكة كلون الأدلم»(٣).

ومما مر يتضح أن الشعراء السود من العبيد قد شغلوا بمسألة اللون لأنهم كانوا دائماً يعيرون به، واقترن حديثهم عن السواد بالدمامة، لأن السواد - وإن كانت له مقاييسه الجمالية - من الألوان المستهجنة عند العرب. وقد حاول هؤلاء الشعراء الدفاع عن هاتين المسألتين مسألة اللون والدمامة بالاعتذار حيناً، وبالإحالة على الجوهر حيناً آخر، وبلفت الأنظار إلى بعض الأشياء التى يكون السواد فيها مجال فخر لا ازدراء. غير أن دفاعهم كان يفيض فى كثير من الأحيان بالمرارة، لأنهم وجدوا فى مجتمع يحتفل باللون احتفالا شديداً، ويتخذ من الشكل أساساً يقيس به أقدار الناس.

٤- العزلـة والمـوت:

وقف الشعراء العبيد مع الموت وقفات كثيرة عبروا فيها عن عمق إحساسهم به وقربه من الحياة التى يحيونها، حياة العزلة والقاع، فقد كانوا يعيشون على حافة المجتمع فى الطبقة الثالثة بعد السادة والموالى محصورين فى الأعمال الدنيئة التى يترفع عنها السادة، مسخرين، لا يحق لهم الدخول فى شىء ما لم يسمح لهم به سادتهم ومواليهم. كانوا بحق كما يقول د.عبده بدوى «مطالبين - لكثرة ما بهم من جروح - بالحصول دائماً على ترخيص إقامة داخل الوجود»(٤). ولم تكن عزلتهم عزلة نفسية فحسب، بل كانت عزلة حقيقية خاصة عند الصعاليك منهم، وقد عبر الشنفرى عن هذه العزلة بقوله:

«ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

---

(١) ديوان سحيم ص٥٠.

(٢) شرح ديوان عنترة ص١٤٤.

(٣) نفسه ص١٥٣.

(٤) الشعراء السود - د. عبده بدوى ص٢٣٧.

هم الرهط لا مستودع السر شائع   لديهم ولا الجانى بما جر يخذل»(١).

وقوله:

«وواد بعيد العمق ضنك جماعــه   مراصد أيم قانت الرأس أخــــوف

وحوش موى زاد الذئاب مضلــة   بواطنه للجن والأسد مألــــــف

تعسفت منه بعد ما سقط النــدى   غماليل يخشى عيلها المتعســـف»(٢).

وكانت هذه العزلة المضروبة عليهم بشقيها النفسى والحقيقى نتيجة لوضعهم الاجتماعى والأعمال الوضيعة التى سخروا فيها والتى استنفدت حياتهم. لذلك وجدنا شاعراً كسحيم يصرخ حين قربوه من الموت وهموا بقتله - وكنا نتوقع أن يدافع عن نفسه ويستدر عطفهم عليه - :

«شدوا وثاق العبد لا يفلتكم   إن الحياة من الممات قريب»(٣).

فالحياة التى يحياها بينهم قريبة من الموت، والموت لا يفصله عن الحياة إلا خيط رفيع وقد ضاق بالحياة فلم يبق إلا أن يمزق الخيط، عسى أن يجد فى الموت ما لم يجده فى حياته المريرة القاسية. هكذا تمثل سحيم الموت، ولم يخرج فى هذا عن نظرة غيره من العبيد الذين رأوا فى الموت مخلصاً لهم من قسوة الحياة وربقة الرق.

لقد انتفى عنه كما انتفى عنهم الرهبة من الموت، ولا عجب فقد ذاقوه عندما عاشوا الحياة بقسوتها ومرارتها. يقول عامر بن فهيرة رضى الله عنه:

«إنى وجدت الموت قبل ذوقه»(٤).

وبلغ من شدة إحساس الشنفرى بالموت أنه كان يشم رائحته فى كل شىء. يقول فى شطرة بيت:

«أونس ريح الموت فى المكاسر»(٥).

ويقول فى موضع آخر معبراً عن مدى استهانته بالموت وأنه إن مات فلن يبكى عليه أحد:

«إذا ما أتتنى ميتتى لم أبالها   ولم تذر خالاتى الدموع وعمتى»(٦).

---

(١) الأمالى للقالى ج٣ ص٢٠٥.

(٢) الطرائف الأدبية ص٣٨، ٣٩.

(٣) ديوان سحيم ص٦٠.

(٤) الإصابة (ط. مصطفى محمد) ج٢ ص٢٤٧.

(٥) الطرائف الأدبية ص٣٦.

(٦) المفضليات. ت. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ج١ ص١١٠.

لأنه غريب مشرد فى الأرض بعيد عن أهله، وقدّ احتسبوه منذ زمن بعيد. وتقول السلكة أم السليك إن المنايا تترصد الإنسان فى كل مكان فأينما سلك وجدها أمامه:

«والمنايـــــا رصـــد　　　للفتى حيـــث سلـــــك»(١).

أما عنترة فقد التقى بالموت وجهاً لوجه ولم يكن بينهما حاجز إلا السيف والمجن:

«ولقد لقيت الموت يوم لقيته　　　متسربلا والسيف لم يتسربـــل

فرأيتنا ما بيننا من حاجـــز　　　إلا المجن ونصل أبيض مفصل»(٢).

وهو بلا شك يصف لحظة من لحظات القتال حيث يكون الموت منتشراً فى كل شىء؛ فهو يسير تحت اللواء: «والموت تحت لواء آل محلم»(٣)، وهو طوع يده إذا ما استل السيف من غمده وشارك فى القتال:

«وأن الموت طوع يدى إذا ما　　　وصلت بنانها بالهندوانى»(٤).

وقريب من هذا قول السليك وقد قاتل بين يدى صاحب له:

«فما ذر قرن الشمس حتى أريته　　　قصار المنايا والغبار يثوب»(٥).

وربما كانت كثرة الحروب وطبيعة الحياة التى يعيش فيها الجاهليون وراء شدة احساسهم بالموت. أما العبيد فقد أضيف عندهم إلى هذين العنصرين عناصر أخرى كالعزلة فكان إحساسهم بالموت أشد من إحساس غيرهم.

والغريب أنهم فى نظرتهم للموت لم يخرجوا كثيراً عن النظرة الدينية السماوية له، على الرغم من وثنية الجاهليين. فباستثناء قول عنترة:

«فرأيتنا ما بيننا من حاجز　　　إلا المجن ونصل أبيض مفصل».

حيث حجز بينه وبين الموت حاجز، نرى الموت عند هؤلاء الشعراء العبيد امراً محتماً لا ينجى منه شىء. يقول الشنفرى:

«دعينى وقولى بعد ما شئت إننى　　　سيغدى بنعشى مرة فأغيب»(٦).

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ت. أحمد أمين وعبد السلام هارون (ط١. لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٣٧١هـ سنة ١٩٥١م) القسم الثانى ص٩١٦.

(٢) شرح ديوان عنترة ص١٢٢.

(٣) المصدر نفسه ص١٥٣.

(٤) شرح ديوان عنترة ص١٨٠.

(٥) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٨٠.

(٦) الطرائف الأدبية ص٣٢.

ويقول:

«فإن لا تزرنى حتفتى أو تلاقنى ... أمش بدهو أو عداف بنـــــورا» (١).

ويقول عنترة:

«تعالوا إلى ما تعلمون فإننـــى ... أرى الدهر لا ينجى من الموت ناجياً» (٢).

ويقول أيضاً وقد نصحته امرأة بالفرار من القتل:

«تقول ابنة العبسى قرب جمالنـا ... وأفراسنا ثم انج إن كنت ناجـــيا

فقلت لها من يغنم اليوم نفســه ... وينظر غداً يلق الذى كان لاقيـــا» (٣).

وللموت عند عنترة سبل لا تخطىء صاحبها، وللحياة أجل تنتهى عنده:

«لكل جار حين يجرى منتهى ... ما كل يوم تسعف القوم المنى

حقاً ولا تخطئهم سبل الردى» (٤).

وإذا كان الموت محتماً فإن الحذر لن يغنى عن المرء شيئاً. يقول الشنفرى:

«يا صاحبى هل الحذار مسلمى ... أو هل لحتف منية من مصـــرف

إنى لأعلم أن حتفى فى التـــى ... أخشى لدى الشرب القليل المنزف» (٥).

وعلى الرغم من علمه بأن الموت كامن له فى ذلك الموضع إلا أنه لم يتأخر عنه لأنه كان على يقين أن الأجل لا يؤخر وأن المنية إذا حانت فلا راد لها ولا مفر منها، وإيمانه بحتمية الموت هو الذى دفعه إلى الإقدام. ومثل هذا نجده عند عنترة حين يقول:

«وعرفت أن منيتى إن تأتنى ... لا ينجنى منها الفرار الأسرع

فصبرت عارفة لذلك حـــرة ... ترسو إذا نفس الجبان تطلع» (٦).

فمادام الفرار لا ينجى من الموت مهما كانت سرعته، فليس عليه إلا أن يصبر على القتال وأن يلقى العدو فى شجاعة.

ومادام الأجل لا يقدم ولا يؤخر فالموت قتلا خير من الموت على الفراش (٧).

---

(١) الطرائف الأدبية ص٣٥.
(٢) شرح ديوان عنترة ص١٩٤.
(٣) المصدر نفسه ص١٩٨ وهى من زيادات البطليوسى.
(٤) شرح ديوان عنترة ص١٩٩ وهى من زيادات البطليوسى.
(٥) الطرائف الأدبية ص٣٩.
(٦) شرح ديوان عنترة ص١٠٤.
(٧) شرح ديوان عنترة ص٢٠٠: "اليوم تبلو...". وهى من زيادات البطليوسى.

ولعل أصدق وقفة لعنترة مع الموت هى تلك التى قارن فيها بين موقفه منه وموقف حبيبته؛ حيث تحاول تثنيته عن القتال بكثرة اللوم وتخويفه من لقاء الموت، أما هو فلا يرى بدا من اقتحام الهول؛ فالموت منهل سوف يسقى منه كل إنسان، أراد أم لم يرد، قاتل أو فر من القتال، وأمام حتمية الأجل يقرر عنترة أنه سيموت إن لم يقتل:

«بكرت تخوفنى الحتوف كأننى … أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهـــــــل … لا بد أن أسقى بكأس المنهـــــــل
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى … أنى امرؤ سأموت إن لم أقتـــــل» (١).

وقد يكون هذا الحوار قد دار بينه وبين نفسه - لا بينه وبين امرأة أخرى - فالنفس هى التى تخوفه، والقلب والعقل هما اللذان يحولان بينه وبين الاستسلام لهواجس النفس، وقد انتصر فى النهاية لهما وليس أدل على ذلك من أنه قد وهب - على حد قوله - نفسه للموت (٢).

وقد عبر الشعراء الإسلاميون عن مثل هذه المعانى فى وقفات سريعة، وكنا نتوقع أن تكون نظرتهم للموت أعمق من نظرة الجاهليين؛ لتأثير الإسلام فيها. غير أن ما وصلنا من شعرهم قليل ويدور فى المحور نفسه الذى دار فيه شعر الجاهليين من حتمية الموت وأنه لا يدفع ولا يؤخر ولا يغنى فيه الحذر: يقول محرر بن جعفر مولى أبى هريرة رضى الله عنه:

«لورد ذو شفق حمام منية … لرددت عن عبد العزيز حماما» (٣).

فهو لايستطيع أن يدفع عن صاحبه الموت لأن الموت لا يدفع. ولعل أطرف وقفه وقفها شاعر من العبيد مع الموت هى وقفة سحيم، وهو شاعر مخضرم، ويبدو أن تلك الوقفة كانت فى الإسلام، وقد بلغت عشرة أبيات فى قصيدته الدالية التى بدأها بغزل عفيف راجع فيه هواه بعد تجلده، وسقمه بعد نفاد صبره وانهيار مقاومته، وكأن العدم الذى يعيش فيه يستدعى منه وقفة مع الموت، عقبى كل حادث، ونهاية كل مطاف. فكما أن الفراق عقبى الوصل، والحرمان نهاية اللذة، فكذلك الموت خاتمة الحياة بما فيها من لذة وصل وألم فراق.

---

(١) شرح ديوان عنترة ص١٢٠.
(٢) شرح ديوان عنترة ص١٩٨. وهى من زيادات البطليوسى.
(٣) معجم الشعراء للمرزبانى - ت. عبد الستار أحمد فراج (دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٧٩هـ سنة ١٩٦٠م) ص٤٥٦.

إنه البئر التى تبتلع كل شىء، وهو الشاطىء الذى يسير إليه الزمن فى أيامه المتعاقبة كالأمواج:

«رأيت المنايا لم يهبن محمداً ولا أحداً ولم يدعن مخلـــدأ

ألا لا أرى على المنون مخلدا ولا باقيا إلا له الموت مرصدا».

الموت هنا لا ينتصب فجأة فى خضم حديثه عن اللذة والعشق، إنما هو الشىء الطبيعى الذى تذكرنا به الحياة فى تنقلها بين اللذة والحرمان. ألا يثير الانتباه تصديره للحديث عن الموت - «رأيت»؟ إنه لا ينظر إلى الموت نظرة فلسفية، إنما هى فكرة بسيطة أساسها الرؤية المحسوسة لشىء يحدث فى الواقع كل يوم وكل لحظة. فأين المفر والموت بالمرصاد؟ سيلقاك قرن كمى فى أى مكان وفى أية لحظة، حتى إن لم ترد قتاله، فإن سهمه حتماً سيصيبك؛ لأنه ليس سهمه وإنما هو سهم الموت، فكأنك وإياه على موعد:

«سيلقاك قرن لا تريد قتاله كمى إذا ما هم بالقرن أقصدا

بغاك وما تبغيه إلا وجدتـــه كأنك قد أوعدته أمس موعداً».

والموت لايفرق بين غنى وفقير، إنه أعدل من الحياة نفسها، فلا تظن أن مالك سوف ينجيك او أن فقرك سوف يثير عطفه وشفقته عليك. فكلاكما رهن بلقائه غداً وإن كان فى مجيئه مكروها معمدا.

«رأيت الغنى والفقير كليهمـــا إلى الموت يأتى منهما الموت معمدا

فإلا تلاق الموت فى اليوم فاعلمن بأنك رهن أن تلاقيه غـــــــــدا».

وعندئذ يحتويك لحد ضيق تثوى فيه، ويالها من لحظة تلك التى ستوضع فيها فى التراب، فكأنك لم تشهد من اللهو مشهداً، ولم تله بالنسوة الكعاب كالدمى ولم تكر ولم تفر:

«فتصبح فى لحد من الأرض ثاويا كأنك لم تشهد من اللهو مشهـدا

ولم تله بالبيض الكواعب كالدمـــى زماناً ولم تقعد من الأرض مقعدا

ولم تزع الخيل المغيرة بالضحـــى على هيكل نهد المراكل أجردا»(١).

إن كل المكرمات التى يفخر بها هؤلاء لن تغنى عنهم شيئاً مادام الموت يعقب الحياة ومادامت الحياة تنتهى بالموت.

ولسحيم وقفات أخرى مع الموت غير هذه الوقفة الطويلة، غير أنها وقفات سريعة

(١) ديوان سحيم ص٤٠: ٤٢.

ترتبط بمواقف معينة. وقد مر بنا قوله وقد أوثقوه بالحبال وقربوه من النار:

«شدوا وثاق العبد لا يفلتكم ... إن الحياة من الممات قريب».

فالخيط بين الحياة والموت خيط رفيع لا يكاد يرى لأن الموت قريب من الحياة والحياة قريبة من الموت. وهذا الشعور بزوال الحاجز بين الموت والحياة لا يتبدى عند سحيم في تلك اللحظات اليائسة فحسب، بل يشعر بذلك الزوال شعوراً حاداً في لحظات اللذة والحب، فبعد تجربة من تجارب عشقه، وقد عادت النسوة إلى بيوتهن نراه يقول:

«فأدبرن يخفضن الشخوص كأنما ... قتلن قتيلا أو أصبن الدواهيا

وأصبحن صرعى في البيوت كأنما ... شربن مداماً ما يجبن المناديا

فعزيت نفسي واجتنبت غوايتي ... وقربت حرجوج العشية ناجياً»(١).

إن هيمنة الشعور بزوال الحاجز بين الموت والحياة، وشدة إحساسه بالموت هو الذي أملى عليه تلك الألفاظ: (قتلن قتيلا - أصبحن صرعى - عزيت نفسي) في خضم نشوته وطربه. إنه يذكرنا بـ (سنغور) حين يقول لحبيبته: «أشم رائحة موتانا ورأسك فوق صدري». ولا عجب فكلاهما كان يرزح تحت وطأة حياة قاسية شبيهة إلى حد بعيد بالعدم. وهكذا نرى أن الشعراء العبيد وقفوا مع الموت وقفات عديدة وكأنهم كانوا ينفثون من خلال هذه الوقفات عن أنفسهم بعض ما يجدون من حزن وضيق بالواقع المر الذي يحيون فيه، وأنهم سواء في الجاهلية أو في الإسلام عبروا عن إيمانهم بالموت وحتميته وأنه لا يقدم ولا يؤخر ولا ينفع فيه الحذر، وكان هذا الإيمان دافعاً لبعضهم على الإقدام والجرأة وكان بعضهم يرى في الموت مخلصاً من قسوة الحياة، لكنهم على كل حال لم يتطرقوا إلى ما بعد الموت ولم يكونوا كالشعراء العدميين الذين تغنوا بالموت في وله وعشق.

---

(١) ديوان سحيم ص٣٨.

ثانياً الموضوعات العامة

١- الطبيعة:

أتيح للعبيد الاتصال بالطبيعة كما لم يتح لغيرهم، فاتصالهم بها اتصال وثيق، وقد كان سائرهم من الرعاة يعيشون ليلهم ونهارهم فى أحضانها، وكان بعضهم من الصعاليك، والطبيعة عند الصعلوك كل شيء، فمن خلالها يمارس نشاطه، وفى جبالها وصحرائها يعيش حياته، ويتخذ من حيوانها أصدقاء حين يعز عليه معاشرة الناس وتنقطع المودة بينه وبينهم. وقد أتاح لهم هذا الاتصال الحميم بالطبيعة أن يعبروا عنها تعبيراً صادقاً عميقاً يفوق تعبير غيرهم ممن لم يتصل بها مثل هذا الاتصال. إذن فالصفة الأولى التى يتميز بها شعر الطبيعة عند العبيد صدق الوصف وعمقه، وهو ليس وصفاً مجرداً، لأنهم لم يكونوا بمعزل عن الأشياء التى يصفونها، وإنما يصفونها من خلال أنفسهم، ويربطون بينها وبين تجاربهم فيها، وتلك هى السمة الثانية. وعلى الرغم من فقر الطبيعة التى كانوا يعيشون فيها وقلة ما بها من نبات وحيوان وجماد إلا أنهم استطاعوا أن يخلعوا عليها من ذواتهم، والتفتوا إلى الأشياء الصغيرة فيها كما التفتوا إلى الأشياء الكبيرة، ووقفوا عند الظواهر الطبيعية المختلفة كالبرق والمطر والرعد والبرد والحر والرياح، ووصفوا السهول والجبال والصحارى والوديان، وتحدثوا عن الحيوانات المختلفة الأليفة منها والضارية، وكثر فى شعرهم ذكر الأماكن والبلدان، وتلك سمة ثالثة، وهى أنهم لم يقفوا عند جانب واحد من الطبيعة وإنما وقفوا عند جوانب كثيرة متعددة منها. ولم تكن وقفاتهم معها قصيرة وإنما كانت وقفات طويلة، بل إن وقفاتهم القصيرة كانت تتصف - على قلتها - بالعمق.

ولنستعرض الآن بعض النماذج التى استخلصنا منها هذه السمات، ولتكن البداية بسحيم. ونسجل أولا أن الوصف عنده لا يستقل بذاته وإنما يأتى ضمن موضوعات أخرى داخل القصيدة الواحدة، بل داخل القطعة الواحدة، وقد يأتى سريعاً موجزاً كما فى وصفه لتلك الناقة القوية المضبرة التى تسير فى خفة دون أن تحوج صاحبها إلى الضرب كلت أو لم تكل والتى ليس لها فحل تنهض عند سماع صوته أو فصيل يستفرغ طاقتها كلما دعاها. هذه الناقة عنده خير من الحديث عن الحبيبة التى هجرته، وعن قومها. أو هى إتمام لتلك اللوحة السابقة التى يصور فيها كرم بنى نصر على طريقة الجاهليين فى انتقالهم من لوحة إلى أخرى:

«فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... جمالية تنبى القتود ضلوعهـــا
مضبرة تفرى إذا ما زجرتهـــا ... ولم يثن إذ كلت إليها قطيعهـــا
وليس لها فحل تنوء لـــرزه ... ولا ربع وسط العشار يصوعها» (١).

ويصف فى مقطوعة غزلية جملا أم عمرو وتربها، فأحدهما أحمر ذيال، والثانى آدم تتقى عيونهما اليسرى جديلى القرطين المعلقين فى رأسيهما، وإذا ما أنيخا أرسلا صدريهما فوق أرض سهلة لينة، وكأن صياحهما المكتوم صياح عقابين قويين تقلبا بصيديهما:

«وجاء غلاما أم عمرو وتربها ... وطاوعتا ذا نية وعصاهمـــا
بأحمـــر ذيال وآدم تتقـــى ... عيونهما اليسرى جديلى براهمـا
إذا مـا أنيخا أرسلا كلكليهمـــا ... بمتنين من جرعاء رخو حصاهما
كـــأن صياح ملحمين تقلبـــا ... بصيدين فانقضا صياح شباهمـــا» (٢).

وقد يجنح سحيم فى وصفه للناقة أو الظليم أو غيرهما من الحيوانات الأليفة التى أتيح له الاتصال بهما عن كثب من خلال مهنته راعياً ومن خلال حياته الممتدة فى بوادى نجد إلى شىء من التعاظل اللغوى، شأنه فى ذلك شأن غيره من الشعراء الجاهليين الذين تعرضوا لوصف الناقة والبعير كلبيد وطرفة، إلا أنه لا يقف عند الناقة تلك الوقفة المثالية الطويلة التى وقفها هذا الشاعران، إنما هى كما قلت مجرد لمحة تتم بها اللوحة. ولا يعنى هذا أنها تنفصل عن التجربة، لأنه عادة ما يلجأ إلى الوصف حين تضيق به الحياة فيجد فى الطبيعة بعناصرها الحية متنفساً له ومخرجاً مما هو فيه:

«فلولا تسلى النفس عنك بجسرة ... لها حين تكبو الناجيات رسيم
كأن قتودى حين شدت نسوعـــه ... تضمنه قبل المقيل ظليـــــم
هبـل كمريخ المغالى هجنـــــع ... له عنق مثل السطاع قويـــم» (٣).

كذلك لا ينفصل الوصف فى كثير من الأحيان عن شخصيته. فدائماً تظهر تلك الشخصية فى وصفها فتصبغها بطابعها، إن حزناً وكآبة. وإن فرحاً وحبورا. إنه يعيش فى الطبيعة وتعيش الطبيعة فيه. لذلك فالوصف عنده ليس هروباً مما هوشخصى، بل هو فى الحقيقة تجسيد لتلك الشخصية فى أروع معانى التجسيد. إننا نلمح صورته واضحة جلية فى تلك اللوحـــة

---

(١) ديوان سحيم ص٥٣، ٥٤.
(٢) المصدر نفسه ص٦١.
(٣) ديوان سحيم ص٣٧، ٣٨.

الرائعة التى يصف فيها الخيل والبرق والمطر حين علاه المشيب وانصرف اللهو عنه وفارقه الشباب بعد ما كان يلفه ببرده الرطب الخصيب، لكنه - إن فقد الشباب وفقد معه ما كان يغرى النساء بصحبته - لم يفقد كرمه ونبله:

«فإما ترينى علانى المشيب وانصرف اللهو عنى انصرافا

وبان الشبـــاب لطياتـــــه	وقد كنت رديت منه عطافا
فقد أعقر الناب ذات التليـ	ـل حتى أحاول منها سدافا
بمثنى الأيادى لمن يعتفـــى	وأرفع نارى إذا ما استضافا»؟(١).

كذلك لم يفقد بعد قوته وشجاعته، فيارب خيل ترمى بالدارعين فوقها إلى الأمام وكأنها فى صبب، مشى الوعول إلى الكهاف ضامرة مهزولة من كثرة السير فى الفيافى وكثرة ما أثرنه من الغبار فى القتال، تقدمهن على حصانه النشيط الذى يغلى غليان المرجل والذى يأكل اللجام إذا ما استطير، ويبارى السهام المجلوبة من البحرين مقومة مثقفة. هكذا كان الشباب:

«وخيل تكدس بالدارعيـ	ـن مشى الوعول تؤم الكهافـــا
ضوامر قد شقهن الوجيـ	ـف يثرن العجاجة دونى صفافا
تقدمتهن على مرجـــــل	يلوك اللجام إذا ما استهافـــــا
يبارى من الصم خطيـــة	مقومة قد أمرت ثقافـــــــا».

ويلخص سحيم حركة حياته من الشباب إلى الكهولة فالمشيب من خلال حركة ومضات البرق ومر السحاب، فهذا البرق لم يغتمض، يضىء ويجلو ما تعلق من السحاب، مثافيد متراكبة بعضها فوق بعض، بيضاء كالثياب، هذا السحاب مسحته ريح الصبا ليدركما يمسح الضرع، وقصدته ريح الجنوب ترمى عنه ما تراكم فوقه من ماء غزير فأقبل يزحف زحف الكسير من ثقل ما حمل حتى لكأنه يجر البحر مزنا، هكذا أيضاً كان الشباب:

«أحار ترى البرق لم يغتمض	يضىء كفافاً ويجلو كفافـــا
يضىء شماريخ قد بطنـــت	مثافيد (ريطا)-وريطاً سخافا
مرته الصبا وانتحته الجنـــو	ب تطحر عنه جهاماً خفافا
فأقبل يزحف زحف الكسير	يجر من البحر مزناً كثافا».

(١) ديوان سحيم ص ٤٥.

فلما تنادى بأن لا براح، واستفرغته الرياح كما تستفرغ الأمة أقصى ما فى الضرع من اللبن وحط بذى بقر صدره، أقام وألقى ما تبقى من مياه، هى الدموع تتوالى فى خيوط كخيوط أسرة النبطى وقبابه. هكذا كان المشيب:

«فلما تنـادى بأن لا برا   ح وانتجفته الرياح انتجافا
وحط بذى بقر بركـــه   كأن على عضديه كتافـــا
فألقى مراسيه واستهل كمد النبيط العروش الطرافا».

إن صورة السحاب فى حاليه؛ حال الامتلاء والحركة، وحال الفراغ والعجز، هى صورة سحيم فى شبابه ومشيبه بلا جدال؛ فهو مقيم فى كهف مشيبه، يحن إلى اللهو، ولا يحن اللهو إليه، وليس لديه إلا الدموع يلقيها على ماضيه.

لكنه تحت وطأة الشعور بالعجز الذى يحتويه يرتد ثانية للمطر/الشباب، فى أوج عنفوانه وشدته، فيراه وهو يكب الشجر على أذقانه كما يكب الفحل من الإبل أنثاه الهزيلة، وكما كان يفعل هو فى سالف الأيام مع من صارت تتنكر له حين علاه المشيب:

«يكب العضاه لأذقانها   ككب الفنيق اللقاح العجافا».

وعلى ما فى كلمة «استهل» من روعة ودقة، وعلى ما فى تفسير نفطويه لها بإرسال الدموع من عمق، يقف المستدرك فى الهامش قائلا ملء فيه: «.... والتفسير بالدموع فيه ضرب من المجاز، وهو لا يلائم مقام البيان» (١). ذلك أنه لم يدرك أن وصف سحيم للمطر لم يكن إلا (معادلا موضوعيا) يجسد من خلاله أحاسيسه ومشاعره.

ويصف عنترة فرسه أروع ما يكون الوصف؛ فهو يشعر ويحس ويلتفت إلى صاحبه كأنه يشكو إليه بعض ما يجد من وطأة القتال، إنه ليكاد يتكلم لولا أنه لا يعرف الكلام:

«مازلـــت أرميهـــم بثغرة نحـــره   ولبانه حتى تسربل بالـــدم
فازور من وقع القنا بلبانــــــــه   وشكا إلى بعبرة وتحمحـــم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمى» (٢).

ومن أجل هذا الفرس خاصم عنترة زوجه وهددها بالطلاق حين لامته، وقد وجدته يكرمه أشد إكرام ويخصه بالغبوق من دونها. وفى لاميته التى مطلعها:

---

(١) ديوان سحيم ص٤٨ هامش (x) وهو من زيادات الناشر فى الطبعة الثانية للديوان.
(٢) شرح ديوان عنترة ص١٥٣.

«طال الثواء على رسوم المنزل　　　بين اللكيك وبين ذات الحرمل»(١).

وصف الفرس وصفا جميلا، يشرق فيه الحب، ويتجلى صدق الشعور، أضفى عليه كل خصال الفرس من حب للقتال وتبختر وإقدام، ودلله فشبهه بالسكران، وأكرمه فلم يذكر أسماء الأعضاء الذائعة بل عنقه هاد، وأنفه مخرج الروح، وذيله عسيب، وشعره سبيب»(٢). وغير بعيد عن الأذهان وصفه للروضة والتفاته إلى ما بها من الأشياء التافهة كالذباب فى قصيدته المعلقة(٣).

ويقف الشنفرى فى لاميته ثلاث وقفات مع الحيوان والطير والحشرات، الأولى مع الذئب، والثانية مع النحل، والثالثة مع القطا. يقول فى وصف الذئاب:

«وأغدو على القوت الزهيد كما غدا　　　أزل تهاداه التنائف أطحـــل
غدا طاوياً يعارض الريح هافيـــا　　　يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلمـا لواه القوت من حيث أمـــه　　　دعا فأجابته نظائر نحـــل
مـهلهلـة شيب الوجوه كأنهـــا　　　قداح بكفى ياسر تتقلقـــل»(٤).

هو يعنى فى هذه الأبيات بوصف هيئة الذئاب، وينفذ من خلال هذا الوصف إلى نفسيتها. وقد ربط أحد الباحثين المعاصرين بينها وبين قصيدة «موت الذئب» للشاعر الفرنسى ألفريد دى فينى، ورأى أن بينهما «صلة روحية متينة»(٥). ويقول الشنفرى فى وصف النحل:

«أو الخـشرم المبعـوث حثحث دبـره　　　محابيط رداهن سام معســـل
مهرتـة فـوه كـأن شدوقهــا　　　شقوق العصى كالحات وبســـل
فضج وضجت بالبـراح كأنهـا　　　وإياه نوح فوق علياء ثكـــل
وأغضـى وأغضت واتسى واتست به　　　أرامل عزاها وعزته أرمـــل
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت　　　وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل
وفـاء وفاءت بـادرات وكلهـا　　　على نكظ مما يكاتم مجمـــل»(٦).

---

(١) المصدر نفسه ص١١٨: ١٢٠.
(٢) شعر الطبيعة فى الأدب العربى - د. سيد نوفل (ط٢ - دار المعارف. القاهرة سنة ١٩٧٨م) ص١٠٨.
(٣) شرح ديوان عنترة ص١٤٥.
(٤) الأمالى للقالى ج٣ ص٢٠٦.
(٥) الشوامخ - د. محمد صبرى (دار الكتب المصرية - القاهرة سنة ١٩٤٤م) ج٢ ص١٢٧، ١٢٨. وقد اختلط الأمر عليه فأدخل الأبيات الخاصة بالنحل فى وصف الشنفرى للذئاب.
(٦) الأمالى للقالى ج٣ ص٢٠٧.

وتعبر هذه الأبيات فضلا عن اهتمام العبيد بالأشياء التافهة عن عمق إحساس الشنفرى بالطبيعة ودقة الملاحظة؛ حيث لا يصف النحل مجرد وصف خارجى، وإنما يعرض لنا جانباً من حياتها، ويصف أفواهها وما يعتريها وما يعلو وجهها من الانفعالات، فقد اعتراها الدهشة حين عادت إلى خلاياها فوجدتها محطمة، ويبدو أن أحد جامعى العسل قد اعتدى عليها فحطمها ليجمع ما بها من عسل، وقد جعلها هذه الدهشة «تفتح أفواهها كأن هذه الأفواه شقوق العصى، وبدا على النحل الوجوم والكآبة الشديدان ثم صببن حزنهن ووجومهن فى مأتم صاحب أقمنه على خلاياهن المهدمة يقودهن فى هذا المأتم الخشرم، فأصبح الخشرم وجماعته من النحل فى مأتمهن كأنهن نساء نوح ثكل وظللن فى ضجيجهن ومأتمهن، ثم بدأن يحسسن بأن هذا المأتم لن يجدى عليهن شيئاً، وأنه لا مفر لهن من التعزى ومعاودة الحياة والبناء من جديد». (١)

ويصف الشنفرى القطا فيقول:

«وتشرب أسآرى القطا بعد ما ... سرت قرباً أحشاؤها تتصلصل

هممت وهمت وابتدرنا وأسدلت ... وشمر منى فارط متمهل

فوليت عنها وهى تكبو لعقره ... يباشره منها ذقون وحوصل

كأن وغاها حجرتيه وحوله ... أضاميم من سفلى القبائل نزل

توافين من شتى إليه فضمها ... كما ضم أذواد الأصاريم منهل

فعبت غشاشاً ثم مرت كأنها ... مع الصبح ركب من أحاظة مجفل». (٢)

وهو وصف لا تلغى فيه شخصيته وإنما تبرز واضحة جلية من خلال مقارنة نفسه بها، بل ربما سيق هذا الوصف للتدليل على صفة فيه، وهى شدة العدو والاستدلال بالقطا على مواضع الماء فى الصحراء.

ويصف الشنفرى فى مواضع أخرى ليلة برد شديدة اضطرته إلى اصطلاء قوسه، ويوماً شديد الحرارة ضاقت فيه الأفاعى بجحورها، وبلغ من شدة حره أنك إن نظرت إلى الفضاء ترى خيوطاً كخيوط العنكبوت. (٣) وكأنه بوصف البرد والحر يعرض علينا بعض ما يلقى فى حياته القاسية؛ حياة الصعلكة والتشرد فى الصحراء. ومن هذا القبيل وصفه لواد عميق ملئ بالأشجار الكثيفة والوحوش الضارية؛ فهو يبين كيف قطع هذا الوادى وتجشم ما

---

(١) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه - د. عبد الحليم حفنى ص٣٥٦.
(٢) الأمالى للقالى ج٣ ص٢٠٧.
(٣) المصدر نفسه ج٣ ص٢٠٨.

تجشم فيه من المشقة والعناء(١). ووصفه للمرقبة العنقاء التى يقصر دونها «أخو الضروة الرجل الحفى المخفف»(٢).

ومما سبق تبين لنا أن الشعراء العبيد قد اهتموا بالطبيعة اهتماماً شديداً، وعبروا عنها تعبيراً صادقاً عميقاً، وأنهم وقفوا معها وقفات طويلة متنوعة وصفوا خلالها الظواهر المختلفة للطقس والمناخ والجماد والنبات والحيوان، وقد تبين لنا أن هذا الوصف لم يكن منفصلا عنهم، وإنما كان يتم من خلال ذواتهم، فهم دائماً بارزون فى كل ما يعرضون من صور، وأنهم اهتموا بالأشياء الصغيرة التى قد لا يلتفت إليها كثير من الناس، وخلعوا على الطبيعة من نفوسهم فمنحوها الحياة، وكانت أكثر وقفاتهم مع الحيوان، وبخاصة الحيوانات الأليفة المستأنسة كالخيل والجمال، وإن كان بعضهم كالشنفرى قد وقف مع الذئب، كما وقف سحيم مع الثور الوحشى وعرض لنا صورة له وهو يصارع الكلاب(١).

ومن الحيوانات الأخرى التى ذكروها فى شعرهم ولم أجد بدأ من ذكرها لأن وقفاتهم معها كانت سريعة وعابرة ولأنها لن تضيف شيئاً ذا بال الظباء والشياه والوعل واليربوع والكلاب والثعالب والسباع والضباع. ومن الطيور الغراب والحمام والنسور والصقور والعصافير والنعام. ومن النبات الريحان والقرنفل والزنجبيل.

---

(١) الطرائف الأدبية ص٣٨، ٣٩.
(٢) المصدر نفسه ص٣٧.
(٣) ديوان سحيم ص٢٨: ٣٠.

٢ـ الغـــــــــزل:

على الرغم من هوان المنزلة الاجتماعية للعبيد، وعلى الرغم من التضييق الذى كانوا يعانون منه، وعلى الرغم من السخرية التى كانوا يحاطون بها إذا امتدت أعينهم خارج نطاق الأنثى السوداء، وعلى الرغم من الأعباء الكثيرة التى كانت تلقى على كواهلهم فتصرفهم عن التمتع بمباهج الحياة وتشغلهم عن مجرد التفكير فيها، إلا أنهم مارسوا الحب. ولم يخل شعر واحد منهم من الغزل. وغزلهم كسائر الغزل؛ منه ماهو عفيف، ومنه ماهو حسى، ومنه ما اختلط فيه العفيف بالحسى، ومنه ماوصل إلى حد التهتك والمجون. غير أن النوع الأخير كان خاصاً بواحد فقط من شعرانهم وهو سحيم، وقد تحدثنا عنه وعن دوافعه إليه(١)، بما يغنى عن التكرار وإعادة القول مرة أخرى فيه، ولنا معه وقفة فى جزء تال(٢). ونكتفى هنا بالإشارة إلى أنه لم يتورع عن ذكر الأعضاء الخاصة بالعملية الجنسية ووصف العملية نفسها والدوران حول المعانى السخيفة والتعبير عنها بأسلوب حاد مكشوف صريح. وأنه كان رائداً لهذا اللون من الشعر. وقد تأثر فيه بمؤثرات أجنبية وموروث عربى فطرى ضئيل.

أما الغزل العفيف فقد انتشرت أنغامه فى شعرهم جميعاً، ودارت معانيه حول الهجر والوصل وشكوى البعد والفراق ونفس المحب وما يعتمل فيها من الشوق والآلام وكثرة الجروح واعتياد الهم والإحساس بالمرارة والشقاء والحرمان، وكأنهم لم يروا من الحب إلا وجهه (التعس) الدميم. وكثيراً ماربطوا بين الحب والسقم، وعبروا عن أحزانهم والمخاوف التى تحيط بهم من جراء هذا الحب، حتى لم نعد نشعر معهم بما فى الحب من بهجة وسعادة وإنما هى مجرد أنات قد تعلو فى بعض الأحيان حتى تصل إلى البكاء والعويل والصراخ، ولاعجب، فقد حيل بينهم وبين مايشتهون، ووقفت عقبات كثيرة - منها اللون والدمامة والوضع الاجتماعى - بينهم وبين الوصول إلى مايبتغون. وقد مرت بنا تجربة سحيم(٣) وها هو ذا عنترة يخاطب عبلة قائلا:

«إنى عدانى أن أزورك فاعلمى	ماقد علمت وبعض مالم تعلمـــــــى
حالت رماح ابنى بغيض دونكم	وزوت جوانى الحرب من لم يجرم»(٤).

---

(١) الفصل الثانى ص ١١٤ : ١١٧ .
(٢) الفصل الرابع ص ٢٣٣
(٣) الفصل الثانى ص ١٠٩ : ١٢٠ .
(٤) شرح ديوان عنترة ص١٥٤.

ويقول فى موضع آخرّ من القصيدة نفسها:

«ياشاة ماقنص لمن حلــــــت له … حرمت على وليتها لم تحرم».

غير أنه لم ييأس، فقد أرسل جاريته تتجسس أخبارها وتهيىء له سبل الوصول إليها:

«فبعثت جاريتى فقلت لها اذهبى … فتجسسى أخبارها لى واعلمى

قالت رأيت من الأعادى غـــــرة ، … والشاة ممكنة لمن هو مرتمى».

وفرق بين دور هذه الجارية القائم على التجسس - على حد تعبيره - وبين مثيلاتها اللائى كن يقمن بحمل الرسائل والتوسط بين العشاق عند امرىء القيس والأعشى، ثم بعد ذلك عند عمر ابن أبى ربيعة.

كان عنترة فارساً، وقد أثرت فروسيته على حبه كما أثر حبه على فروسيته. يقول الدكتور يوسف خليف: «وأضفى الحب اليائس المحروم على فروسيته ألواناً من الوجد واللوعة كما أضفت فروسيته العاملة البناءة على حبه ألواناً من القوة والكبرياء والحياة، فجاء شعره مزاجاً طريفاً من اللونين ونموذجاً فريداً فى الشعر الجاهلى»[١]. ولعله يعنى بهذا النموذج الفريد امتزاج أنغام الفروسية عند عنترة بأنغام الحب على هذا النحو الرائع الذى نلمسه فى مثل قوله:

«ولقد ذكرتك والرماح نواهل … منى وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنهـــا … لمعت كبارق ثغرك المتبســـــم»[٢].

«وفى عنترة تحبب إلى صاحبته وتهالك عليها، وحنين متصل إليها، فهو إذا فخر لايفخر على صاحبته، وإنما يفخر لها يريد أن يقنعها بأنه خليق أن تحبه وتميل إليه»[٣].

لذلك نراه دائماً ينتقل من الحديث عن الحب إلى الفروسية، ويصل الفروسية بالحب. وليس فى شعره غير امرأة واحدة مال إليها قلبه وعشقها من دون النساء، وهى عبلة من غير شك برغم تعدد الأسماء، وقد صرح لها بذلك فى مواضع كثيرة.

والمرأة الواحدة التى هى محور الغزل أوضح دليل على الحب العفيف، وهى السمة البارزة فى حب المتيمين والعذريين. وقد كانت عبلة تضحك منه فى بعض الأحيان وتهزأ به

---

(١) الحب المثالى عند العرب - د. يوسف خليف (سلسلة إقرأ رقم ٢٢٠ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٦١م ص٨٦.

(٢) شرح ديوان عنترة ص١٥٠.

(٣) حديث الأربعاء - طه حسين ج١ ص١٥٠.

وتسخر من لونه وثيابه وشعره الملبد الكثيف، وعلى الرغم من هذا فقد كانت مروءته تمنعه أن يرد السخرية بالسخرية والإهانة بالإهانة، بل كان يردد - حتى بعد أن حيل بينه وبينها هذا البيت الصادق الذى يعبر عن مدى حبه لها ومكانتها فى قلبه دون غيرها من النساء:

«ولقد حللت فلا تظنى غيره ... منى بمنزلة المحب المكرم»(١).

غير أنه فى بعض الأحيان كان يستيقظ من خدره اللذيذ على واقعه المر، فيرتد عنيفاً ويتهدد ويتوعد، وكأنه هو الأعلى فى الحب(٢).

ومثل هذه النغمة نجدها عند سحيم حين يقول مخاطباً حبيبته:

«فإن تقبلى بالود أقبل بمثله ... وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

ألم تعلمى أنى صروم مواصل ... إذا لم يكن شىء لشىء مواتيا؟(٣)

ونجدها أيضاً بكثرة عند عمر بن أبى ربيعة بعد ذلك، ونرجح أنه قد تأثر فيها بهذين الشاعرين، وقد تأثر بسحيم على وجه الخصوص فى أشياء كثيرة منها استخدام الألوكة أو الرسالة والوسيط. يقول سحيم فى هذا المعنى:

«ألكنى إليها عمرك الله يافتى ... بآية ما جاءت إلينا تهاديا»(٤).

كما تأثر به فى استخدام أسلوب القص الشعرى فى الغزل. ولنا مع هذا الأسلوب وقفة إن شاء الله.

ومن أطرف الغزل العفيف غزل الشنفرى فى حليلة جاره، ويبدو أن حياته بين الصعاليك مشرداً فى الصحارى مهيئاً للغزو والغارة فى كل حين لم يدع مجالا للحب ويبدو أن لطمة الفتاة السلامية له وهو فى مقتبل العمر قد تركت بصماتها عليه طوال حياته، ويبدو أنها كانت السبب المباشر فى ابتعاده عن هذا الجانب الذى لم يسلم منه إلا قليل من الشعراء، ولم تحدثنا كتب الأدب عن قصة حب واحدة له. وعلى الرغم من هذا فقد جاء غزله العفيف فى امرأة جاره على أرفع مايكون الغزل، وهو خال من التكلف بعيد عن التعقيد والتزييف. يقول فى مستهل تائيته:

«ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت ... وما ودعت جيرانها إذ تولت»(٥).

---

(١) شرح ديوان عنترة ص١٤٣.
(٢) المصدر نفسه ص١٢١.
(٣) ديوان سحيم ص٢٢.
(٤) المصدر نفسه ص١٩.
(٥) المفضليات - أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ج١ ص١٠٦.

الأسلوب للتقرير، وألا للافتتاح، يبدأ بالرحيل؛ فقد أجمعت أم عمرو أمرها وفجأة غادرت المكان دون أن تودع أحداً:

«لقد سبقتنا أم عمر بأمرها وكانت بأعناق المطى أظلت».

وأم عمرو هذه كانت تسمى أميمة، وهى جارته التى عنينا، وقد صرح باسمها وبأثر رحيلها فى نفسه وأشار إشارة سريعة إلى ماكان يكنه لها فى قلبه من إعزاز وتقدير:

«فواكبدى على أميمة بعد ما طمعت فهبها نعمة العيش زلت».

فهل كان يطمع فيها، وحال رحيلها بينه وبين تحقيق مطمعه؟ ربما، وإن كنا ننأى بالشنفرى عن هذا الفهم السريع الذى يتبادر إلى الذهن من ظاهر البيت لما عرفنا عنه من التعفف والانصراف عن النساء ولما سوف يذكر من الصفات التى أعجبته فيها كالحياء والأدب، والأخلاق الحسنة الرفيعة؛ فهى أبعد ماتكون عن الملام لبعدها عن فعل كل قبيح:

«فيا جارتى وأنت غير مليمة إذا ذكرت ولابذات تقلت».

وهى شديدة الخفر، لايسقط قناعها عن وجهها إذا مشت، ولا تتلفت فى الطريق:

«لقد أعجبتنى لا سقوطاً قناعها إذامامشت ولا بذات تلفت».

وتؤثر جيرانها بالزاد عندما تقل الهدية بين الناس. وكأنها بهذا الإيثار ترفع بيتها وتربأ بنفسها عن الذم والعيب والـ«قيل» والـ «قال»:

«تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها لجارتها إذا الهدية قلـــت

تحل بمنجاة من اللؤم بيتهـــا إذا مابيوت بالمذمة حلت».

ثم يصف حياءها، هذا الوصف التصويرى الدقيق؛ فرأسها منكسة، وعينها دائماً فى الأرض كأنها تبحث عن شىء مفقود، وإذا تكلمت تكلمت بكلام لاتكاد تفهم منه شيئاً لتقطعه وإيجازه ولأنه كالهمس:

«كأن لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت».

وما تأتى من فعل لايخزى زوجها، وتعف عن ذكر الآخرين، وتجل عن الخوض فى أعراض الناس، وهى قرة عين لزوجها ومحل ثقة كبيرة. فإذا غابت لم يسألها أين كانت لأنها فوق الشبهات:

«أميمة لايخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت

إذا هــو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسل أين ظلت».

دقت محاسنها ورقت وجلت فى خلقها وطالت وامتدت فلوجن إنسان من الحسن لجنت:

«فدقت وجلت واسبكرت وأكملت ... فلو جن إنسان من الحسن جنت».

ويعبر السليك عن هجر صاحبته وعتابها له وإعجابها بذوى اللمم الطويلة، ويدافع عن نفسه بأن المقياس الحقيقى للناس هو «الفعل» وهو من هذه الناحية لايقل عن هؤلاء الرجال ذوى الحسن والجمال بل يزيد عليهم:

«ألا عتبت على فصارمتنى ... وأعجبها ذوو اللمم الطـــوال

فإنى يا ابنة الأقوام أربـــى ... على فعل الوضىء من الرجال» (١).

ويذكر خيال الحبيبة وكيف ألم به وصورتها عند الرحيل:

«ألم خيال من نشيبة بالركب ... وهن عجال عن نيال وعن نقب» (٢).

ويبدو أن هذا البيت كان مطلع قصيدة فقدت فهو يشبه مطالع القصائد إلى حد بعيد بما فيه من تصريع وذكر للخيال إذا ألم ورحيل الحبيبة وحشد أسماء البلدان. وللسليك قطعة أخرى يمتزج فيها الغزل العفيف بالغزل الحسى قالها فى فكيهة بنت قتادة بن مشنوء عندما أنقذته من سيوف قبيلتها وألقت ثوبها عليه. وفيها يصفها بالحياء والعفة والبعد عما يجلب العار ويعرج فى أثناء ذلك على الأرداف فيصف مجامعها بالنقا:

«لعمـــــرو أبيك والأنباء تنمى ... لنعم الجار أخت بنى عـــــوارا

من الخفرات لم تفضح أباهـــا ... ولم ترفع لأخوتها شنـــــارا

كـــــأن مجامع الأرداف منها ... نقا درجت عليه الريح هـــارا

يعاف وصال ذات البذل قلبى ... ويتبع الممنعة النــــــــوارا

وما عجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف واستلبوا الخمارا» (٣).

ومن هذا النوع من الغزل قول سحيم فى مطلع قصيدته الدالية وقد ذكر الشوق ومراجعة الهوى بعد التجلد وهجر الحبيبة له وعزمها على قطع علاقتها به حتى صار كالأمرد. ثم وصف ريقها بعد النوم وشبهه بالخمر الباردة:

«تزود من أسماء ماقد تزودا ... وراجع سقماً بعد ما قد تجلدا

وقد أقسمت بالله يجمع بيننا ... هوى أبداً حتى تحول أمـــردا

---

(١) الكامل للمبرد ج٢ ص١١٨.

(٢) معجم ما استعجم للبكرى ج٤ ص١٣٣٩.

(٣) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٨٤.

كأن على أنيابها بعد هجعة ... من الليل نامتها سلافاً مبـــــردا
سلافة دن أو سلافة ذارع ... إذا صب منه فى الزجاجة أزبدا» (١).

ومنه أيضاً ماذكره عنترة فى المقطع الطللى لميميته المعلقة، فقد وقف أمام الدار وحياها واستعاد ذكرياته القديمة مع صاحبتها الطاعنة وذكر الفراق وأثره وكيف رحلت فجأة وما كان فى موقف الرحيل من وداع صامت حزين، لكنه فى أثناء ذلك لاينسى أن يعرج على بعض المواضع الحسية فيصف فم الحبيبة ونظرة عينيها:

«حلت بأرض الزائرين فأصبحت ... عسراً على طلابك ابنة مخـرم
علقتها عرضاً وأقتل قومهـــا ... زعماً لعمر أبيك ليس بمزعـــم
ولقد نزلت فلا تظنى غيـــره ... منى بمنزلة المحب المكـــرم
كيف المزار وقد تربع أهلهـــا ... بعنيزتين وأهلنا بالغيلـــــم
إن كنت أزمعت الفراق فإنمـــا ... زمت ركابكم بليل مظلــــم
ماراعنـى إلا حمولة أهلهـــا ... وسط الديار تسف حب الخمخم
فيها اثنتان وأربعون حلوبـــة ... سوداً كخافية الغراب الأسحـم
إذ تستبيك بذى غروب واضح ... عذب مقبله لذيذ المطعـــم
وكأنمـــا نظرت بعينى شـــادن ... رشأ من الغزلان ليس بتـــوأم
وكـــأن فأرة تاجر بقسيمة ... سبقت عوارضها إليك من الفم» (٢).

ومن اللفتات الحسية لعنترة وصف جيد حبيبته بجيد الرئم:

«وكأنما التفتت بجيد جداية ... رشأ من الغزلان حر إرثم» (٣).

وتشبيهه لها بظبية فاتر نظرها وأنها طيعة عند العناق لذيذة طعم الفم:

«دار لآنسة غضيض طرفها ... طوع العناق لذيذة المتبسم» (٤).

على أن لفتات عنترة الحسية قليلة بالقياس إلى شاعر آخر من العبيد وهو سحيم؛ فجنوح سحيم نحو الحسية فى غزله أوضح بكثير. وهو فى هذا الجانب أكثر الشعراء العبيد غزارة وأقدرهم فناً، يصف فى مطلع قصيدته اليائية حبيبته التى جن بها فيبدأ بالشعر ثم الجيد ثم

---

(١) ديوان سحيم ص٣٩، ٤٠.
(٢) شرح ديوان عنترة ص١٤٣، ١٤٥.
(٣) المصدر نفسه ص١٥٢.
(٤) المصدر نفسه ص١٤٣.

النحر ثم الردف.

«جنوناً بها فيما اعتشرنا علالة ... علاقة حب مستسراً وباديـــا

ليالى تصطاد القلوب بفاحـــم ... تراه أثيثاً ناعم النبت عافيـــا

وجيـد كجيد الريم ليس بعاطل ... من الدر والياقوت والشذر حاليـا

كـــأن الثريا علقت فوق نحرها ... وجمر غضى هبت له الريح ذاكيـا

«إذا اندفعت فى ريطة وخميصة ... ولاثت بأعلى الردف برداً يمانيـــا»(١).

وفى مطلع فائيته(٢)، يذكر الخيال وكيف ألم به والداء إذ حل بجوفه لهجرها وتركها له ويشبهها بدمى (ميسان) وهو موضع بالشام، ويشير إلى بعض مواضع الجمال فيها، النظر المعجب، والشعر الأسود الكثيف، والجيد الذى يشبه جيد الغزال النزيف حيث يأتلف الدر فيه، والعين التى تشبه عين المهاة وهى ترفع الرأس وتخفضه، والريق الذى يشبه الخمر القديمة المعتقة، والمعاصم الممتلئة، والأصابع الرفيعة المحاطة بالزينة.

وهكذا نرى أن الغزل كان من الموضوعات المحببة للعبيد، وقد عبروا من خلاله عن رغباتهم الدفينة فى التمتع بالحياة، وقد رأينا كيف حال الوضع الاجتماعى بينهم ، بين ما طمحوا إليه، وكيف واجههم المجتمع بالسخرية فى كثير من الأحيان، وكيف كللت تجاربهم بالفشل والحرمان فاتشح الغزل برداء حزين وارتبط كثيراً بمعانى الهجر والفراق والألم والسقم والبكاء وإن ارتد بعضهم عنيفاً فاستعلى على التذلل للنساء كعنترة، وتوغل آخر - كسحيم - فى الغزل الحسى المكشوف حتى وصل إلى درجة من التهتك والمجون.

ومن هنا كان الغزل عند العبيد عفيفاً وحسياً وماجناً، وقد يختلط فى بعض الأحيان الغزل العفيف بالغزل الحسى، ولايصل إلى حد المجون إلا عند سحيم حيث لايتورع عن ذكر مالا يليق ويعبر عما تميل اللغة نفسها إلى التكنية عنه بأسلوب واضح فاضح صريح.

---

(١) ديوان سحيم ص١٧، ١٨.
(٢) المصدر نفسه ص٤٢، ٤٣.

٣- الحماســـة :

ونعنى بها شعر الحروب والمعارك والشجاعة والضرب والطعان والقتال والحث عليه والاستعداد له ووصف الأسلحة والعتاد وتسجيل الهزائم والانتصارات. وقد شاع هذا الشعر وانتشر فى الجزيرة العربية لكثرة الحروب التى شهدتها فى العصر الجاهلى ورغبة القبائل فى حفظ تاريخها الحربى للفخر والتعيير والإرهاب. وقد وجد العبيد فى هذا اللون مجالا للفخر وتأكيد الانتماء القبلى والخروج من القوقعة التى تحيط بهم وتعزلهم عن باقى أفراد القبيلة، كما وجد فيه بعض فرسانهم كعنترة وصعاليكهم كالشنفرى والسليك مجالا لإظهار الشخصية الفردية ولفت الأنظار إليهم وإلى أعمالهم البطولية الخارقة التى يستوون فيها - إن لم يتفوقوا - مع غيرهم من الفرسان الخلص الأحرار.

ويكاد ديوان عنترة يكون وقفاً على هذا النوع من الشعر؛ فالغزل وهو الموضوع الثانى فيه يختلط بالحماسة كما تختلط الحماسة به. وباقى الموضوعات يمكن إدراجها تحت الحماسة؛ لأنه إذا فخر فخر بأعماله الحربية وبانتصارات قومه وأمجاد قبيلته، وإذا رثى فإنما يرثى فارسين من فرسان القبيلة قتلا فى الدفاع عنها، ولا يقف منهما إلا على ما كان من أمر بطولتهما وفروسيتهما وشجاعتهما فى القتال. وإذا اعتذر فإنما يعتذر عن هزيمة أو عن ضعف أو عن تأخر فى القتال أو فرار، وإذا هجا هجا بالمثالب التى تؤخر صاحبها عن مرتبة الفرسان كالضعف والجبن والقعود عن المشاركة فى المعارك والرضا بالهزيمة والهلع من الأعداء، وهكذا فى سائر الموضوعات.

ولن نقف هنا بطبيعة الحال عند هذه الموضوعات جميعها؛ لأننا لا ندرس عنترة فحسب، وإنما ندرسه مع غيره من العبيد، ولو كانت دراستنا وقفاً عليه لكان هذا مدخلنا إليه.

وقد وجدنا عند غيره كسحيم والسليك والشنفرى بالإضافة إلى ما وجدنا عنده شعراً كثيراً مباشراً يتحدث عن الشجاعة والقتال ويصف المعارك والجيوش والعتاد وهو أولى بالوقوف عنده فى هذا المقام.

وقد سجل عنترة فى شعره أياماً كثيرة من أيام قبيلته. (١) وكذلك سحيم. ومن الأيام التى سجلها سحيم لقبيلته يوم الرشاء، وهو يوم كان لهم على نمير بن عامر، وفيه قتل شريح وكان رئيساً للقوم. ويوم الثنية ثنية أقرن وفيه انتصر بنو أسد على بنى كعب. يقول سحيم:

«ونحن جلبنا الخيل من جانب الغضى	إلى أن تلاقت بالرشاء جنودهـا
بملمومـــة كالليـــل رعناء فحمـــة	ورقراقة يعشى العيون حديدهـا
إذا فزعوا طاروا إلى كل نهـــدة	وأجرد نهد ما تجف لبودهـا
يقضين ديناً من نمير بن عامـــر	ولم ينج منها جعفر ووحيدها
ويوم بنى كعب تركنا سراتهـــم	على آلة لزن قليل عديدهـا ».(٢)

وقد ذكر فى هذه الأبيات كتيبة بنى أسد وكيف التقت ببنى نمير، وحدد مكان اللقاء ووصفها بالليل شدة وقوة. ولفت إلى كثرة السلاح واستخدام الخيل وعنصر المباغتة، وأشار إلى الفزع فزع الأعداء ثم ما لحقهم من هزيمة ووقوع فى قبضة قبيلته، وذكر فى البيت الأخير يوم الثنية حيث ترك بنو أسد سراة بنى كعب على آلة حادة دقيقة وهو يعنى هزيمتهم بطبيعة الحال والمآل الذى صاروا إليه.

وفى قطعة أخرى يفخر بنزول بنى أسد فى منعطف الوادى - حيث أحجمت وجبنت تميم وعامر - بكتيبة كبيرة كأن رايتها فوق الرمح طائر يطير، فمن قبيلة إلى أخرى لايفرغون من إحداهن حتى يسموا إلى غيرها:

«نحن حللنا الجزع حيث علمتم	وقد أحجمت عنه تميم وعامـر
بجأواء جمهور كأن عقابهـــا	إذا رفعت فى قلة الرمح طائـر
إذا ما فرغنا من سوار قبيلـــة	سمونالأخرى نبتغى من نساور ». (٣)

ويسجل سحيم موقف دريد بن الصمة فى يوم من أيام العرب حيث ولى وجبن حين أبصر منيته فيما تثيره حوافر خيل بنى أسد، تلك الخيول الضامرة التى يشبهها بسرحان القصيمة فى خفتها وسرعة عدوها وبالعقاب الجارح المميت فى شدة انقضاضها على العدو:

(١) أشرنا إلى هذه الأيام فى الفصل الثانى ص ١٠٢
(٢) ديوان سحيم ص٤٩، ٥٠.
(٣) المصدر نفسه ص٣٨، ٣٩.

«وولى دريد فى الغبار وقد رأى ... منيتـــــه مما تثيـــر الحوافـــــر
يفرج عنا كل ثغر نخافـــــــه ... مسح كسرحان القصيمـة ضامـــــر
وكل لجوج فى العنان كأنهـــــا ... إذا انغمست فى الماء فتخاء كاسر». (١)

وفى قطعة ثالثة يسمح لنفسه بمخاطبة أحلاف بنى أسد من ضبينة وطىء وغطفان باسم القبيلة ويبدو أن شرخاً ما قد حدث فى جدار هذا الحلف فوضع علىّ عاتقه رأبه. غير أنه فى رعونة وأنفة يبدأ متسائلا منكراً مهدداً تلك الأحلاف من طرف خفى بالتخلى عنهم وعن حلفهم وحينذاك فلن يجدوا من يجعلونه مكان بنى أسد لأن فرسانهم كما علموا فوارس نجدة يضعون على أعناقهم إغاثة من استنجد بهم فى الوقت العصيب الشديد الذى يجبن فيه غيرهم من هؤلاء الزعانف القصار الذين تمتلىء بهم الجزيرة:

«بنى عمنا من تجعلون مكاننا ... إذا نحن سرنا نبتغى من نحالـــــف
ألم تعلموا أنا فوارس نجـــدة ... إذا خام فى الهيجا الضعاف الزعانف؟»

ويفخر بالقبيلة فيشبهها بالغيث الشديد العنيف الذى يتلوى تحت وطأته النبات:

«وكنا لهم كالغيث مال نباته ... حيا سنة أزجى إليه الضعائف».

ويذكر هؤلاء الأحلاف باليوم الذى سارت فيه قبيلة بنى أسد إلى السعدين؛ سعد بن مالك بن ثعلبة، والحرث بن سعد وقالت لهما فيه - وقد جمعتهم غاية واحدة - نحارب من حاربتم ونحالف من حالفتم فحالفناكم لأنكم أحلافهما، أفلا تراعى بيننا هذه العهود؟

«وصرنا إلى السعدين سعد بن مالك ... وسعد بنى الأحلاف تلك العجارف
وقلنا لهم والخيل تردى بنا معـــاً ... نحارب من حاربتم ونحالـــــف». (٢)

وفى موضع آخر يستعدى سحيم بنى أسد لقتال بعض قبائل معد، وبنو أسد من قبائل الجنوب المهاجرة إلى الشمال، والصراع بين قحطان وعدنان قديم كما هو معروف، وقد أغراه بهذا القتال أنه رأى بنى أسد على درجة من القوة تسمح لهم بتمزيق جلود معد إذا اربدت - هكذا رأى - لأن الإله يزيدها:

«بنى أسد سيروا جميعاً فقاتلوا ... معداً إذا اربدت بشر جلودهـــــا
أرى أسداً والحمد لله أصبحــت ... على خير حال والإله يزيدها». (٣)

(١) ديوان سحيم ص٣٩.
(٢) المصدر نفسه ص٥١.
(٣) ديوان سحيم ص٤٩.

أما السليك والشنفرى فقد وصفا بعض الغارات الخاصة بهما، وكانت لهما غارات كثيرة، وافتخرا من خلال تلك الغارات بشجاعتهما الفردية وقدرتهما الفائقة على السطو والسرقة والنهب وبث الرعب فى نفوس الناس، ولا عجب فكلاهما صعلوك، وكلاهما يصارع من أجل البقاء، وقد انشقا عن القبيلة وتشردا فى الصحارى والجبال فهما كالوحوش الضارية لا تعرف من القانون غير القوة؛ فالقوة هى القانون الأول الذى يحكم الغابة وهى الدستور الأساسى فى حياة الصعاليك.

وقد قدما لنا فى شعرهما كثيراً من المغامرات؛ منها تلك القطعة لسليك وفيها يذكر كيف استولى على الإبل، وهى الهدف الذى خرج من أجله، وكيف ذعرت الإبل عندما رأت صاحبها يضرب بالسيف وقد صار الدم فوق جسده طرائق وكأنه برد محبر يرتديه:

«وعاشيـــة راحت بطاناً ذعرتها ... بسوط قتيل وسطها يتسيـــف
كأن عليه لون بـــرد محبـــر ... إذا ما أتـــاه صـــارخ يتلهـــف
فبات لها أهل خلاء فناؤهـــم ... ومرت بهم طير فلم يتعيفـــوا
وباتوا يظنون الظنون وصحبتى ... إذا ما علوا نشزا أهلوا وأوجفوا» (١).

ويذكر فى قصيدته البائية صديقه صرد وكيف قاتل من دونه وضارب عنه القوم، وليلة جابان وما كان فيها، وكيف كان الإياب حبيباً إلى النفوس، ومع هذا ظل يقاتل حتى تحقق له ما أراد:

«فما ذر قرن الشمس حتى أريته ... قصار المنايا والغبار يشـــوب
وضاربت عنه القوم حتى كأنمـا ... يصعد فى آثارهم ويصـــوب
وقلت له خذ هجمة حميريـــة ... وأهلا ولا يبعد عليك شروب
وليلة جابان كررت عليهـــم ... على ساعة فيها الإياب حبيب
عشيـــة كرت بالحرامى ناقـــة ... بحى هلا تدعى به فتجيـــب
فضاربت أولى الخيل حتى كأنما ... أميل عليها أيدع وصبـــيب» (٢).

وعندما رأى طلائع جيش بكر بن وائل استغل عدوه فى الوصول إلى القبيلة قبل أن يدهمها العدو لتأخذ حذرها ووصف لهم الجيش لكنهم كذبوه فقال:

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٨.
(٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٨١.

«يكذبنى العمران عمرو بن جندب   وعمرو بن سعد والمكذب أكـذب
لعمرك ما ساعيت من سعى عاجـز   ولا أنا بالوانى ففيم أكـــذب
ثكلتكما إن لم أكن قد رأيتهـــا   كراديس يهديها إلى الحى موكب
كراديس فيها الحوفزان وقومــه   فوارس همام متى يدع يركبـــوا
تفاقدتم هل أنكرن مغيـــــرة   مع الصبح يهديهن أشقر مغرب».(١)

ويذكر الشنفرى كيف خرج مع مجموعة من الصعاليك من الوادى الذى بين مشعل والجبا لينكى قوماً أو يموت دون أن يقصر فى الوصول إلى ما أراد وكيف كان يغزو على رجليه ولا يركب ويصف ما كان يصيبه من التعب وما كان يهون الأمر عليه:

«وباضعة حمر القسى بعثتهـــا   ومن يغز يغنم مرة ويشمـــت
خرجنا من الوادى الذى بين مشعل   وبين الجبا هيهات أنشأت سربتى
أمشى على الأرض التى لن تضرنى   لأنكى قوماً أو أصادف حمتـــى
أمشى على أين الغزاة وبعدهـــا   يقربنى منها رواحى وغدوتى».(٢)

وخرج الشنفرى فى عدة صعاليك من فهم حتى بيتوا العوص من بجيلة فقتلوا فيهم، واستاقوا إبلهم، فاعترضت لهم خثعم فى الطريق وأشار عامر بن الأخنس بصدق الضراب، فحملوا حملة رجل واحد وهزموهم. وقد سجل الشنفرى هذه المغامرة فى شعره تسجيلا دقيقاً حدد فيه وقت الهجوم وعدد المقاتلين من الصعاليك والطريق التى سلكوها ودور كل واحد منهم فى القتال. ومنها هذه الأبيات:

«فثاروا إلينا فى السواد فهجهجوا   وصوت فينا بالصباح المثوب
فشن عليهم هزة السيف ثابـــت   وصمم فيهم بالحسام المسيب
وظلت بفتيان معى أتقيهـــم   بهن قليلا ساعة ثم خيبـــوا
وقد خـر منهم راجلان وفارس   كمى صرعناه وخوم مسلب
يشن إليه كل ريع وقلعـــــة   ثمانية والقوم رجل ومقنب
فلما رآنا قومنا قيل أفلحـــوا   فقلنا اسألوا عن قائل لا يكذب».(٣)

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم جـ٢٠ ص ٣٨٢، ٣٨٣.
(٢) المفضليات ج١ ص١٠٨.
(٣) الطرائف الأدبية ص٣٢.

ووصف في مطلع قصيدته الفائية المرقبة التي كان يراقب من خلالها الطريق، فهي عالية لا ينالها الصياد صاحب الكلاب المضراة، ويبدو أنها كانت في قمة جبل، وذكر أنه كان يتطوى داخلها كما يتطوى الثعبان وقد التف الظلام وأحاط بالمكان.(١)

أما عنترة فقد افتخر بشجاعته وكثرة خوضه للقتال:

«أعاذل كم من يوم حرب شهدته ... له منظر بادي النواجذ كالح».(٢)

وبقوته وصرامة سيفه:

«وسيفي صارم قبضت عليه ... أشاجع لا ترى فيها انتشارا».(٣)

وبمقدرته على الدفاع عن حرمات القبيلة وصيانة النساء:

«ومغيرة شعواء ذات أشلة ... فيها الفوارس حاسر ومقنع

فزجرتها عن نسوة من عامر ... أفخاذهن كأنهن الخروع».(٤)

وبترفعه عن عرض القتال وتعففه عند تقسيم الغنائم:

«يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم».(٥)

وحسن قيادته للجيش:

«إذ لا أبادر في المضيق فوارسي ... ولا أوكل بالرعيل الأول».(٦)

وخبرته بفنون القتال:

«إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا ... أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل

حين النزول يكون غاية مثلنا ... ويفر كل مضلل مستوهل».(٧)

وتفريق الأعداء:

«والخيل تعلم والفوارس أنني ... فرقت جمعهم بطعنة فيصل».(٨)

والطعن في مقاتل الرجال:

«قد أطعن الطعنة النجلاء عن عرض ... تصفر كف أخيها وهو منزوف».(٩)

---

(١) الطرائف الأدبية ٣٧.
(٢) شرح ديوان عنترة ص٤٢.
(٣) المصدر نفسه ص٧٥.
(٤) المصدر نفسه ص١٠٤.
(٥) المصدر نفسه ص١٥٠.
(٦) المصدر نفسه ص١٢٠.
(٧) المصدر نفسه ص١١٩.
(٨) المصدر نفسه ص١١٩.
(٩) المصدر نفسه ص١١٠.

ومنازلة الشجعان ممن يرغب عن لقائهم وتحقيق النصر عليهم:

«ومدجج كره الكماة نزالـــه   لا ممعن هرباً ولا مستسلـــم
جادت يداى له بعاجل طعنـــة   بمثقف صدق الكعوب مقـــوم
برحيبة الفرغين يهدى جرسها   بالليل معتس الذئاب الضـــرم
فشككت بالرمح الأصم ثيابـــه   ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جـــزر السباع ينشنه   ما بين قلة رأسه والمعصـــم».(١)

وذكر القتال ووصف المكان الذى يدور فيه وشبهه بحومة الموت وتحدث عن صبر الأبطال ومكانته بينهم:

«ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى   إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
فى حومة الموت التى لا تشتكـــى   غمراتها الأبطال غير تغمغـــم
إذ يتقون بى الأسنة لم أخـــم   عنها ولكنى تضايق مقدمـــى».(٢)

وتحدث عن إغاثته للملهوف ونجدته للضعفاء:

«ومكروب كشفت الكرب عنه   بضربة فيصل لما دعانى
دعانى دعوة والخيل تجرى   فما أدرى أباسمي أم كنانى
فلم أمسك بسمعى إذ دعانى   ولكن قد أبان له لسانى».(٣)

وصور نهاية القتال وما تتمخض عنه المعارك من قتلى وجرحى وأسرى وفارين فى الشعاب، ويخص القتلى من دون هؤلاء بالذكر الكثير ليبث الرعب فى نفوس الأعداء ولأن القتل أكثر دلالة على النصر التام وكسر شوكة الخصم على ما فيه من التشفى والانتقام. يقول فى إحدى هذه المعارك:

«وضربت قرنى كبشها فتجدلا   وحملت مهرى وسطها فمضاهـــا
حتى رأيت الخيل بعد سوادها   حمر الجلود خضبن من جرحاها
يعثرن فى نقع النجيع جوافلا   ويطأن من حمى الوغى صرعاهـــا
فرجعت محموداً برأس عظيمها   وتركتها جزراً لمن ناواهـــا».(٤)

---

(١) شرح ديوان عنترةص ١٥٠، ١٥١.
(٢) المصدر نفسه ص١٥٢، ١٥٣.
(٣) المصدر نفسه ص١٧٨.
(٤) المصدر نفسه ص١٨٥.

ويقول فى موضع آخر مصوراً قتيله وقد تسربل بالدماء وأحاطت به الطيور الجارحة من كل جانب وكأنه - والطير من حوله - عروس تزف إلى زوجها:

«وقرن قد تركت لدى مكر ... عليه سبائباً كالأرجـــــوان
تركت الطير عاكفة عليــــه ... كما تردى إلى العرس البوانى
وتمنعهـــن أن يأكلـــن منـــه ... حياة يد ورجل تركضـــان».(١)

ويخصص عنترة جانباً كبيراً من شعره الحماسى لإعلاء شأن عبس؛ فيفتخر بفرسانها، ويشيد بانتصاراتها ويتغنى بما لها من مجد حربى.(٢)

وقد شغف العبيد فى هذا اللون من الشعر بذكر الأسلحة ووصفها وإبراز دورها فى تحقيق النصر أو الذود والدفاع، وهى عندهم - كما عند غيرهم - نوعان؛ أسلحة هجوم، وأسلحة دفاع. أما أسلحة الهجوم فكالسيف والرمح والقوس والسهام، وأما أسلحة الدفاع فكالدرع والترس. وتحدثوا فى أثناء ذلك عن الخيل المدربة والأسلحة النفسية غير المنظورة كالجرأة والإقدام وقوة الإرادة والصبر والحزم والحيلة والدهاء. وقد نال السيف النصيب الأكبر، فتعددت أسماؤه وتعددت أوصافه، وتفننوا فى إبراز أهميته وحاجتهم إليه. ومن الأسماء التى ذكروها له المهند والحسام والمرهف والصارم والباتر. وهى أسماء تحمل فى ذاتها بعض الصفات، ووصفوه إلى جانب ذلك بالمضاء والحدة والنفاذ وشدة الصقل، وشبهوه فى البياض بالملح والبرق وهما أكثر الأشياء بياضاً عندهم.(٣)

أما الرماح فقد أكثر عنترة من ذكرها، ووصفها بالحبال، وبين حاجته إليها.(٤) وأشار إليها سحيم فى قوله:

«يبارى من الصم خطية ... مقومة قد أمرت ثقافا».(٥)

ولم يعن بها الشنفرى والسليك لأنهما كانا من رجلاء الصعاليك، والرمح أكثر ما يوجد عند الفرسان. ولعلهما - وهما من هما بين الصعاليك - قد استعاضا عنها بالقوس والسهام خاصة الشنفرى؛ إذ ولع بهما ولعاً شديداً حتى كان يعلم سهامه ويجعل أفواق نبله مـــن القـــرون

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٧٩.
(٢) المصدر نفسه ص١٥٥، ١٨٠، ١٩٣.
(٣) شرح ديوان عنترة ص٧٥، ٧٦، ١٠٧، ١١٩، ١٢١، ١٥٠، ١٥١، ١٨٠، ١٨٤، ١٩١، ١٩٧. الطرائف الأدبية ص٣٢، ٣٦، ٣٨ - الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٤.
(٤) شرح ديوان عنترة ص٤٦، ٤٩، ٧٦، ١٠٥، ١٠٧، ١١٠، ١٢١، ١٥٠.
(٥) ديوان سحيم ص ٤٦.

والعظام، وكان أعداؤه إذا رماهم يعرفون نبله بأفواقها فى قتلاهم.(١) ويذكر الشنفرى فى بعض شعره كيف كان يتخير سهامه ويريشها ويتابع فيها البرى، ويبين أثرها فى عدو له:

«وردت بمأثـــور يمان وضالـــة | تخيرتها مما أريش وأرصف
أركبهـا فى كل أحمر غاثـــــر | وأنسج للولدان ما هو مقرف
وتابعت فيه البرى حتى تركته | يرن إذا أنزفته ويزفـــــزف
بكفى منها للبغيــض عراضـــة | إذا بعت خلا ما له متعرف».(٢)

ويلتفت إلى عنصرين هامين فى القوس، اللون والصوت، فهى صفراء تارة:

«وإنى كفانى فقد من ليس جازياً | بحسنى ولا فى قربـــه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيــــــع | وأبيض إصليت وصفراء عيطل».(٣)

وحمراء تارة أخرى:

«وباضعة حمر القسى بعثتها | ومن يغز يغنم مرة ويشمت».(٤)

ويبدو أن الشنفرى كان دقيق الملاحظة، فالقوس تكون صفراء فى بداية أمرها، ثم يميل لونها إلى الاحمرار بمرور الزمن وكثرة الاستخدام، غير أنه كان أبرع فى ذكر الصوت لأن ذكره له وتصويره إياه لا يقف عند دقة الملاحظة فحسب، وإنما يتعداه إلى وصف الأثر النفسى ومزجه بأجزاء الصورة، فهو فى سمعه رنين كرنين الشجى الذى أثقلته الهموم والأحزان، وهو أيضاً هتاف:

«وحمراء من نبع أبى ظهيرة | ترن كإرنان الشجى وتهتف».(٥)

غير أن هذا الرنين الخافت لا يلبث أن ينقلب عند انطلاق السهم إلى دوى كدوى النحل الهائج الذى ضل الطريق إلى الغار:

«إذا آل فيها النزع تأبى بعجزهـــا | وترمى بذرويها بهن فتقـــــذف
كأن حفيف النبل من فوق عجزها | غوارب نحل أخطأ الغار مطنف

ويلاحظ الشنفرى أن للقوس صوتين، صوت عند انطلاق السهم، وهوعال صارخ،

---

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢١ ص١٩٤.
(٢) الطرائف الأدبية ص٣٨.
(٣) أمالى القالى ج٣ ص٢٠٦.
(٤) المفضليات. ت. أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون ج١ ص١٠٨.
(٥) الطرائف الأدبية ص٣٨.

وصوت بعد انطلاقه ويكون بمثابة الترجيع. ويشبه الأول بالصياح، والثانى بالأنين:

«وقاربت من كفى ثم نزعتهـــا بنزع إذا ما استكره النزع مخلــج
وصاحت بكفى صيحة ثم راجعت أنين المريض ذى الجراح المشجج». (١)

ويصف غيره من العبيد القوس والنبل والسهام، لكنهم لا يبلغون مبلغه، بل يقفون دونه بكثير. ولا عجب فقد كان عنترة فارساً همه السيف والجواد، وكان سحيم راعياً لا شأن له بفنون القتال، أما السليك وغيره فقد ضاع أكثر شعرهم ولم يصلنا منه إلا القليل.

وقد اختص الشنفرى من دون العبيد بسلاح آخر كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة له فى الهجوم والفرار، ألا وهو العدو وشدة الإحضار. وقد شاركه السليك فيه، إلا أنه لم يعن بتسجيله فى شعره، وربما سجله وضاع فيما ضاع فلم يصل إلينا شىء منه. وقد كانا كلاهما من أشد العدائين، وضرب بهما المثل فى شدة العدو. ومما ذكره الشنفرى فى هذا الشأن:

«ألا لا تعدنى إن تشكيت خلتى شفانى بأعلى ذى البريقين عدوتى». (٢)

وقد بين فى موضع آخر كيف كان يستدل بالقطاة فى الوصول إلى الماء فى الصحراء، وكيف كان يسابقها وتسابقه فإذا اهتدى إلى الماء سبقها إليه ونال منه قبلها:

«وتشرب أسآرى القطا الكدر بعد ما سرت قربا أحشاؤها تتصلصل
هممت وهمت وابتدرنا وأســـدلت وشمر منى فارط متمهــــل
فوليت عنها وهى تكبو لعقــــره يباشره منها ذقون وحوصـــل». (٣)

ومن بين أسلحة الدفاع نال الدرع عند الشعراء العبيد النصيب الأكبر، خاصة عند عنترة وفيه يقول:

«وسارت رجال نحو أخرى عليهم الـ ـحديد كما تمشى الجمال الدوالح
إذا ما مشوا فى السابغات حسبتهـــم سيولا وقد جاشت بهن الأباطح». (٤)

وقد اعتذر عن هزيمة لحقته بأنه قابل العدو وهو غير مستعد ولم يكن عليه درعه:

«خذوا ما أسأرت منها قداحى ورفد الضيف والأنس الجميع
فلو لاقيتنى وعلى درعـــى علمت علام تحتمل الدروع». (٥)

---

(١) الطرائف الأدبية ص٣٤.
(٢) المفضليات ج١ ص١١٠.
(٣) أمالى القالى ج٣ ص٢٠٧.
(٤) شرح ديوان عنترة ص٤٣.
(٥) المصدر نفسه ص١٠٥.

ويذكر الأشلة وهى دروع صغيرة تلبس تحت الدروع الكبيرة،(١) والمجن وكيف حال بينه وبين موت محقق،(٢) واللأمة غير أنها لا تحول بين صاحبها وبينه.(٣) ويذكر الخيل وكيف كانت تعدو بهؤلاء الفرسان المستلئمين.(٤)

وهكذا ينتشر فى شعر العبيد ذكر الأسلحة سواء فى ذلك أسلحة الهجوم أو الدفاع وهى أساس الحروب وإحدى المحاور البارزة فى شعر الحماسة بالإضافة إلى وصف القتال وما تنجلى عنه المعارك من قتلى وجرحى وأسرى وهزيمة وانتصار وفخر وعار والإشادة بالمجد الحربى للقبيلة والبطولات الفردية والمثاليات التى ينبغى أن يتصف بها المقاتل من شجاعة وجرأة وإقدام ونجدة وصبر وثبات وذود عن الحرمات.

ورأينا كيف كان عنترة صاحب النصيب الأكبر بين العبيد فى هذا المجال، حتى ذهبنا إلى أن شعره يمكن إدراجه كله أو على الأقل جله - إذا استثنينا بعض الغزل - ضمن هذا الإطار. ورأينا أيضاً أن هذا النوع من الشعر كان مجالا لخروج بعض العبيد من القوقعة المحيطة بهم والعزلة المضروبة عليهم، كما كان مجالا لإظهار الشخصية الفردية عند بعضهم وخاصة عنترة الذى كان يعمل على تأكيد ذاته ولفت الأنظار إليه بالإكثار منه والتنويع فيه.

---

(١) شرح ديوان عنترة ص١٠٤.
(٢) المصدر نفسه ص١٢٢.
(٣) المصدر نفسه ص١٤٨.
(٤) المصدر نفسه ص١٨٤.

٤- الحكمـــــــة:

يؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكماً»(١). والحكمة هي معدن الشعر وخلاصة تجربة الشاعر. ألفاظ موجزة، ومعان مكثفة، وحياة خلف الكلمات. وهي نوعان؛ عملية ترتبط بحياة الشاعر وتجاربه فيها، ونظرية تكون نتاجاً للتفكير العميق والنظر في الفلسفة والطبيعة وما وراءها من رموز ومغيبات. أما من الناحية الفنية فقد كانت تستخدم في الجاهلية وصدر الإسلام حلية، أو إطاراً يحيط به الشاعر موضوعات القصيدة، كما كانت تستخدم وسيلة انتقال من موضوع إلى موضوع فيما يعرف بـ «براعة الانتقال»، وكانت في بعض الأحيان تستخدم لذاتها موضوعاً أو تجربة يكثف الشاعر فيها موقفه وخلاصة فكره.

فإذا نظرنا إلى الحكمة عند الشعراء العبيد وجدناها لا تخرج عن دائرة الحكمة العملية المستنبطة من واقعهم ومعاناتهم الشخصية في تجاربهم المرة الأليمة مع الحياة باعتبار أنهم من الطبقة الدنيا التي تعيش في قاع المجتمع.

وكما كان عنترة هو المبرز بين العبيد في شعر الحماسة فإن سحيماً هو - بلا جدال - أبرز شعرائهم ولعاً بالحكمة وتصيداً لها في شعره. والحكمة عنده ليست مجرد حلية أو زخرف وليست مجرد إطار، وليست كذلك معبر انتقال، إنما هي لمحات موجزة تتناثر في قلب قصائده، غير منفصلة عن التجربة التي يعيش فيها ويتحدث عنها؛ ففي موقف الوداع، وقد أمسك كل من العاشقين بذرات الحب المتبقية وتشبث بها أملا في الحفاظ عليها وقالت عميرة:

«فإن تثو لا تملل وإن تضح غاديا تزود وترجع عن عميرة راضيا»

أيقن أن حبه سوف يبقى بما زودت من زاد، مع أن الحب - في عالم كعالمه - لا يبقى على النأي والفرقة:

«ومن يك لا يبقى على النأي وده فقد زودت زاداً عميرة باقيا».(٢)

وتمر بمخيلته لحظات الأمس، حين جاءت الحبيبة تتهادى تهادي السيل في السهول ثم وهي تمضي دون أن تقضي ما هو أهل له، وفجأة تنبثق الحكمة كالنار في شطرة بيت

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني المجلد الرابع ص٣٠٩، ٣١٠.
(٢) ديوان سحيم، ص١٨.

لتذكره وتذكرنا بما هو فيه من حرمان فليس كل ما يرجوه الإنسان يلقاه، بل ربما كانت أعز المطالب أبعدها منالا:

«ففاءت ولم تقض الذى هو أهله ... ومن حاجة الإنسان ما ليس لاقيا». (١)

وحين يصدم فى حبه وتهجره الحبيبة إلى مالا نهاية وينطلق فى حياته العابثة الشاردة الكئيبة، يصحو لحظة على واقعه المر فيبصر مدى الهوة التى وصل إليها على يد أولئك النسوة اللائى كان يرى فيهن الدواء، وهن الداء:

«يعدن مريضاً هن هيجن داءه ... ألا إنما بعض العوائد دائيا». (٢)

ولا يلوم نفسه، بل يلقى كل اللوم عليهن، فهن اللائى كن يرمينه بشباكهن، وهل ينجو من شباكهن مريض؟

«يصدن فما ينجو لهن سليم».(٣)

وحين يحبس ويضرب بالسياط، يتحرك فى نفسه شعور غريب بأن حياته بين هؤلاء هى السجن الحقيقى وأن معاشرته لهم - تلك المعاشرة التى لم تصن - هى السياط عينها:

«وما الحبس إلا ظل بيت سكنته ... وما الجلد إلا جلدة قارنت جلدا». (٤)

لكن الذى يبدو أن تلك الصرخة الأليمة التى صدرت عنه فى لحظة ضعف لم تعبر عن كنه شعوره تجاه قومه، فقد كان يحتفظ لهم بشىء من الوفاء، وقد ظهر هذا الوفاء واضحاً فى الليلة الأولى لفراقهم حين تحركت مشاعره نحوهم على الرغم من أنهم باعوه:

«أشوقاً ولما تمض بى غير ليلة ... فكيف إذا سار المطى بنا عشرا؟»(٥)

إن مثل هذه الحكمة التى تعبر عن موقف معين عاشه الشاعر فى يوم ما لا تقف عند دائرته الشخصية، بل تنطلق مما هو خاص إلى ما هو عام لتصبح مثلا يرى كل منا نفسه فيه حين يمر بموقف قريب من هذا الموقف. بل إن من حكمه العملية التى تتصل بأخص خصائصه - وهو السواد - ما يتجاوز نطاقه الشخصى المحدود:

« فلو كنت ورداً لونه لعشقتنى ... ولكن ربى شاننى بسواديا». (٦)

---

(١) ديوان سحيم ص٢٩.
(٢) المصدر نفسه ص٢٣.
(٣) المصدر نفسه ص٣٧ وهو عجز بيت صدره: "لهند وأتراب لها شبه الدمى".
(٤) المصدر نفسه ص٥٧.
(٥) المصدر نفسه ص٥٦.
(٦) المصدر نفسه ص٢٦.

بل يبقى جزء من هذا البيت صالحاً للتعبير عن مختلف المواقف التى تتصل بالحرمان لعلة ما: «فلو كنت ورداً لونه»!!

وتتردد فى ثنايا أبيات سحيم بعض الكلمات الموجزة التى كانت تجرى فى عصره مجرى الأمثال مثل:

- «للصيد غرة» فى قوله:

«وجدتهما يوماً وللصيد غــــــرة   تدقان مسكاً مائلا برقاعهمـــــــا». (١)

و «الظن يخطئ ويخلف» فى قوله:

«وما كنت أخشى جندلا خاب جندل   على مثلها والظن يخطئ ويخلف». (٢)

والحكمة عند غيره من الشعراء العبيد لا تخرج عن هذا الإطار، فهى من النوع العملى المستنبط من تجارب الحياة، وهى لا تأتى مقصودة لذاتها وإنما تتولد فى ثنايا الموضوعات الأخرى ولا تنفصل عنها. يقول الشنفرى حين قتل أبوه ولم يثأر له أحد من قومه:

«أضعتم أبى إذ مال شق وساده   على جنف قد ضاع من لم يوسد». (٣)

فهى أشبه بالصرخة يطلقها فى وجوههم ليوقظهم من سبات عميق: «قد ضاع من لم يوسد» وهى على ما فيها من إيجاز مؤكدة بـ «قد». وحين خيروه فى المكان الذى يدفن فيه اختار ألا يقبر لأنهم إن احتملوا رأسه وغادروا جثته فى القبر فسوف يبقى سجيناً مبسلا بالجرائر، وفى أثناء ذلك تنبثق تلك الحكمة: «فى الرأس أكثرى» لتعترض الكلام:

«إذا احتملوا رأسى - وفى الرأس أكثرى   وغودر عند المتلقى ثم سائرى

هنالك لا أرجو حياة تسرنـــــــــى   سجيس الليالى مبسلا بالجرائر.» (٤)

وكان شعاره الذى استخلصه من كثرة الغزوات «من يغز يغنم مرة ويشمت» أى يفوز مرة ويخيب أخرى فيشمته الناس أو يشمتون به، وهى أيضاً جزء من بيت:

«وباضعة حمر القسى بعثتها   ومن يغز يغنم مرة ويشمت». (٥)

وحين عاد النحل إلى خلاياه فوجدها محطمة مهشمة أخذ يصيح فى جنون، ثم بعد ذلك هدأ

---

(١) ديوان سحيم ص٦٢.
(٢) المصدر نفسه ص٦٤.
(٣) الطرائف الأدبية ص٣٥.
(٤) الطرائف الأدبية ص٣٦.
(٥) المفضليات ج١ ص١٠٨.

وكأنه قد تجمل بالصبر؛ فالصبر أجمل حين لاتنفع الشكوى ولايرد ماضاع البكاء:

«شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت   وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل».(١)

ويرى السليك بعد تجربته الطويلة فى الحياة أن الدهر لونان وطوران، فكأنه لايثبت على حال؛ فمن ثبات إلى حركة ومن حركة إلى ثبات، ومن حزن إلى سعادة ومن سعادة إلى شقاء:

«ألم تر أن الدهر لونان لونه   وطوران بشر مرة وكذوب؟».(٢)

والغلبة والظفر لايكونان مع الكسل والقعود، وإنما يكونان مع السعى والضرب فى الحياة فإن الريح للغادى:

«أتنظران قريباً ريث غفلتهم   أم تغدوان فإن الريح للغادى؟».(٣)

والجبن فى رأى عامر بن فهيرة رضى الله عنه لاينجى من الموت فـ«إن الجبان حتفه من فوقه»(٤). وعلى هذا النحو تسير الحكمة عند العبيد، وهى - كما سبق أن ذكرت - عملية، بسيطة، غير مقصودة لذاتها، وغير منفصلة عن الجو العام للقصيدة ولامتكلفة، كشرارة من نار تعلو فجأة، ثم فجأة تختفى، لكنها تبقى مع ذلك وساماً على صدر القصيدة ووشاحاً تتزيا به، وهى ليست مجرد حلية أو إطار وإنما هى جزء أصيل من تجربة الشاعر لايمكن فصله أو الاستغناء عنه.

---

(١) أمالى القالى ج٣ ص٢٠٧.
(٢) الأغانى (ط: أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٨٠، ٣٨١.
(٣) المصدر نفسه ص٣٧٧/ الشعر والشعراء ج١ ص٣٧٣/ عيون الأخبار ج٢ ص١٧٦.
(٤) الإصابة ج٢ ص٢٤٧ وصدره: "إنى وجدت الموت قبل ذوقه".

٥- الرثاء وموضوعات أخرى:

الرثاء مجال خصب للتنفيس عن الأحزان، وما أكثر تلك الأحزان التى عاشها العبيد وتراكمت فى نفوسهم وعلى الرغم من هذا قل الرثاء فى شعرهم. فلم نجد إلا قصيدة لأم السليك فى رثاء ابنها، وهى كل ما وصلنا من شعرها، وقطعتين لعنترة؛ إحداهما فى رثاء مالك بن زهير والأخرى فى رثاء قرواش بن هنىء العبسى، ورثى محرر بن جعفر مولى أبى هريرة عبد العزيز بن [illegible] من ولد عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عبد العزيز ولم يصلنا من رثائه لهما إلا خمسة أبيات. ولعل أطرف ما وجدناه فى رثاء العبيد رثاء الشنفرى ليده حين قطعت، ورثاء السليك لفرسه النحام، يقول الشنفرى وقد احتزوا يده قبيل مقتله وكانت بها شامة:

«لاتبعدى إما هلكت شامة ... فرب واد نفرت حمامــه
ورب قرن فصلت عظامه ... ورب خرق قطعت قتامه
ورب حى فرقت سوامه». (١)

وهى مزيج من الفخر والرثاء ونلاحظ أنه لم يبالغ فى حزنه على يده، ولم يتوجع، ولم يظهر الشكوى، كى لايشتموا به وهو بين أيديهم. وكان هدفهم من قطع يده ثم سمل عينيه بعد ذلك السخرية منه والهزء به انتقاماً لما كان يصنعه بهم، لذلك رأيناه يتجه نحو الفخر مباشرة وذكر الأعمال العظيمة لتلك اليد، وهى عظيمة فى تصوره هو لاقترانها بالصعلكة، وإن لم تكن كذلك فى تصور الآخرين؛ فكم روعت آمناً وكم مزقت وكم فرقت من سوام وكأنه من خلال رثائه لها يرثى نفسه وهو على شفا الموت. ومن هذا القبيل قول السليك وقد أحاط الموت به وتيقن أن لامفر ولانجاة:

«من مبلغ جذمى بأنى مقتــول؟
يارب نهب قد حويت عثكــول
ورب قرن قد تركت مجــدول
ورب زوج قد نكحت عطبول
ورب عان قد فككت مكبــول
ورب واد قد قطعت مسبــول». (٢)

---

(١) الطرائف الأدبية ص٤٠.

(٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٨٥، ٣٨٦.

غير أنه يرثى نفسه مباشرة، وهى أيضاً مزيج من الرثاء والفخر، وربما دفعه ودفع الشنفرى إلى رثاء أنفسهما قبيل الموت أنهما كانا يشعران أن أحداً لن يبكى لهما أو يتوجع من أجلهما فهما مجرد «عبدين» لايستحقان حتى الرثاء، فتوجعا وبكيا وأظهرا مثل هذه الأبيات. وقد كان الشنفرى صريحاً فى هذا حين قال:

«إذا ما أتتنى ميتتى لم أبالها ولم تذر خالاتى الدموع وعمتى». (١)

وكأنه من دون الناس قد فقد من يشعر به أو يحس بما يعتريه من محن وكوارث ومصائب حتى إذا مات لم يجد من يذرى عليه الدموع. فإن كانت هذه حال الأقارب، فكيف تكون حال الآخرين ؟

وقد انصرف السليك عن رثاء الناس إلى رثاء من هو أعز عليه منهم، فرسه النحام، فهو من دونهم - الذى يستحق مثل هذه الوقفة، وأن يبكى عليه، ويتوجع له، ويظهر مدى افتقاره إليه خاصة بعد أن توترت علاقته بهم واتخذ الصعلكة مسلكاً له فى الحياة. يقول السليك:

«كأن قوائم النحام لما تحمل صحبتى أصلا محار
على قرماء عالية شواه كأن بياض غرته خمار
وما يدريك مافقرى إليه اذا ما القوم ولوا أو أغاروا
ويحضر فوق جهد الحضر نصاً يصيدك قافلاً والمخ رار» (٢)

ويبدو أن هذه الأبيات كانت جزءاً مما قاله فيه وليست كل ما قاله، وفيها يصف قوائمه بالملاسة، والارتفاع، ويشبه بياض غرته بالخمار، ويبين مدى افتقاره إليه عند الإغارة والفرار، ويقف فى البيت الأخير عند شدة إحضاره وفضله فى الصيد.

ولعل ضعف انتماء سحيم إلى قبيلته وانشغاله بنفسه هو الذى صرفه عن مثل هذا اللون من الشعر فإن أحداً مهما كانت مكانته لايستحق - فى تصوره - أن يقف عنده ويرثيه. أما عنترة فقد نال حريته ولم يكن انتماؤه القبلى ضعيفاً مثل انتماء سحيم ولم تتوتر علاقته بالناس مثلما توترت علاقة الشنفرى والسليك بهم، وعلى الرغم من هذا فقد قل الرثاء فى شعره أيضاً وربما كان مرجع ذلك استعلاءه عن رثاء عامة الناس واكتفاءه بالبارزين ذوى المكانة العليا فى القبيلة، فلم يرث إلا مالك بن زهير وقرواش بن هنىء وكلاهما من سادات عبس.

---

(١) المفضليات ج١ ص١١٠.
(٢) الكامل للمبرد ج٣ ص٦٩.

وكان مالك بالاضافة الى مكانته صديقاً لعنترة، وهو من قتلى داحس والغبراء، قتله بنو بدر فقال عنترة فى رثائه وهى قطعة مستقلة فى خمسة أبيات:

«فلله عينــــاً من رأى مثل مالك	عقيرة قوم أن جرى فرسان
فليتهمــــا لم يجريا نصف غلوة	وليتهما لم يرسلا لرهــــــان
وليتهمـــا ماتا جميعاً ببلـــــدة	وأخطاهما قيس فلا يريـان
لقد جلبا حيناً وحرباً عظيمة	تبيد سراة القوم من غطفان
وكان لدى الهيجاء يحمى ذمارهـــا	ويضرب عند الكركل بنان». (١)

ونراه يستغل هذا الرثاء لينفر من الحرب التى دارت بين أبناء العمومة من غطفان، عبس وذبيان، وليبين موقفه من أولئك السادة/ الأقزام الذين كانوا سبباً فى إشعالها بأمور تافهة لم تكن تستدعى مثل هذا القتال الذى راح ضحيته سراة القوم ومنهم مالك بطبيعة الحال.

وفى رثائه لقرواش - قتلته بنو العشراء من مازن حين أسروه بحذيفة بن بدر الفزارى - يقول عنترة:

«هـــــديكم خير أبا من أبيكــــم	أعف وأوفى بالجوار وأحمـــــد
وأطعن فى الهيجا إذا الخيل صدها	غداة الصباح السمهرى المقصـــد
فهلا وفى الفعواء عمرو بن جابر	بذمته وابن اللقيطة عصيـــــــد
سيأتيكـــــــم عنى وإن كنت نائياً	دخان العلندى دون بيتى مذود
قصائـــــد من قيل امرىء يحتذيكم	بنى العشراء فارتدوا وتقلدوا». (٢)

وهو هنا يمزج الرثاء بالهجاء، فرثاء المقتول يستدعى بطبيعة الحال هجاء قاتليه خاصة أنهم من الأعداء. ونلاحظ أنه فى رثائه سواء لمالك أو قرواش يذكر الصفات الحربية من الشجاعة والمهارة فى الطعن والكر وحماية الذمار؛ لأنهما كانا من الفرسان، وهذا يؤكد ماسبق أن قررناه من أن أبواب الشعر عند عنترة تنحصر أو تكاد فى الحماسة ونعنى بها شعر القتال.

وفى رثاء محرر لعبد العزيز بن محمد يقول:

«لانوم فارق قلبى التهماما	إن الرزية مارزينا العاما

(١) شرح ديوان عنترة ص١٧٧.

(٢) شرح ديوان عنترة ص٤٧، ٤٨.

لورد ذو شفق حمام منية   لرددت عن عبد العزيز حماما

فلأبكينك ما دعت قمرية   تدعو على فنن الغصون حماما ».(١)

ويقول فى رثاء عبد الله بن عبد العزيز:

«أقول لناعيه وقد هاب نعيه   بأمرم جليل هد منه المعاشر

نعيــت أبايحيى منيت بطعنة   لها علق تحت الحمالة مائــر ».(٢)

ويبدو أنه كان مدفوعاً لهذا الرثاء بعاطفة قوية تربطه بآل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، لذلك نراه يبين فى رثاء عبد العزيز عظم الرزية ومفارقة النوم له، ويقرر أن الموت قدر لايرد، وأنه سيظل يذكره مابكت قمرية فوق الغصون. ويبين فى رثاء عبد الله جلل المصاب ويدعو على ناعيه بالهلاك.

أما أطول وقفة فى رثاء العبيد وربما كانت أصدقها فهى التى وقفتها أم السليك فى رثاء ابنها السليك،(٣) فهى زفرة حارة وصرخة وعويل وأنين:

«طاف يبغى نجوة   من هلاك فهلك».

تشير إلى تشرده فى الصحارى بحثاً عن لقمة العيش، وتبين كيف كان هلاكه فيما ظنه طوق النجاة، وتتساءل بعد ذلك فى لهفة عن سبب موته، وقد مات بعيداً عنها وعن الأهل والأصحاب والأخلاء:

«ليـت شعرى ضلة   أى شىء قتلك

أمريــــض لم تعد   أم عدو ختلك؟»

ثم تقرر فى حسرة أن لاجدوى من معرفة الأسباب، فإنها مهما تعددت فلن تغير شيئاً من الحقيقة وهى وقوع الموت فى لحظة موقوتة، فالمنايا تترصد الإنسان فى كل طريق، وكل شىء يقتل عندما يحين الأجل:

«والمنايا رصد   للفتى حيث سلك

أى شىء حسن   لفتى لم يك لك؟

كل شىء قاتل   حين تلقى أجلك ».

---

(١) معجم الشعراء ص٤٥٦.

(٢) المصدر نفسه والصحيفة.

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ت. أحمد أمين وعبد السلام هارون - القسم الثانى ص٩١٤: ٩١٨.

فلا تؤخر الأشياء الحسنة الموت، ولاتقدمه الأشياء القبيحة، ولقد كان له من الحسن - فى رأيها - الشىء الكثير. وهى على يقين أنه لن يعود إليها ولن يجيب لها عن سؤال؛ لأنه مشغول عن جوابها بما هو أعظم؛ مشغول بالموت، وإزاء ذلك نراها لاتملك إلا أن تعزى نفسها وتتجمل بالصبر:

«سأعزى النفس إذ   لم تجب من سألك
إن أمـــرأ فادحـــا   عن جوابى شغلــك
طالما قد نلت فى   غير كد أملـــــك».

ومن الموضوعات الأخرى التى قلت فى شعر العبيد الهجاء. وقد علل العقاد لقلته فى شعرهم بقوله: «من شاء أن يرجع إلى علة واحدة تصدهم جميعاً عن التعرض للهجاء لم يعسر عليه أن يرد تلك العلة إلى اشتراكهم فى الرق وإشفاقهم من التعيير به، وهو أسبق شىء إلى لسان من يقصدونه بالهجاء والمذمة؛ فقد كانت الصفات المحمودة عند العرب، تلتقى جميعها فى صفة واحدة هى الكرم، ويعنون به النسب الحر حين يصفون الرجل بأنه كريم الأحساب، وكانت الصفات المذمومة عندهم تلتقى جميعها فى صفة واحدة هى اللؤم ويعنون به النسب المدخول أوالنسب الوضيع». (١)

ولعله قد أصاب التوفيق فى هذا التعليل حيث لم يجرؤ على الهجاء من العبيد غير عنترة، وهجاؤه قليل. وللسليك والشنفرى قطعتان يمكن عدهما من الهجاء وإن لم يقصدا بهما إليه. أما قطعة السليك فبيتان فقط قالهما فى قبيلة بأكملها وهى قبيلة خثعم، وكانت عنده امرأة منهم رهينة وكانت تحذره منهم ليطلقها فسخر منها ومن قومها وقال:

«تحذرنى كى أحذر العام خثعما   وقد علمت أنى امرؤ غير مسلم
ومـــا خثعم إلا لنـــام أذلـــة   إلى الذل والإسحاق تنمى وتنتمى». (٢)

وقد رماها فى البيت الثانى باللؤم والذل. أما الشنفرى فقطعته طريفة، وقد قالها فى زوجه وهى تفيض بالسخرية والتهكم، ويبدو أنه قد حدث بينهما خلاف حول إحدى الظعائن فأنفذ رأيه وأنكر عليها ما ذهبت إليه. يقول الشنفرى:

«إذا أصبحت بين جبال قو   وبيضان القرى لم تحذرينى

---

(١) بين الكتب والناس ص١٨٣.
(٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٨٥.

فــإما أن تودينــا فنرعى ... أمانتكم وإما أن تخونـــــــى

سأخلى للظعينة ما أرادت ... ولست بحارس لك كل حين

إذا ما جئت ماأنهاك عنه ... فلم أنكر عليك فطلقينــــى

فأنت البعل يومئذ فقومى ... بسوطك لاأبالك فاضربينى» (١).

أما عنترة فقد ارتبط الهجاء عنده بالحماسة، وهو يحرص دائماً فى هجائه على تجريد المهجو من الخصال الكريمة والصفات التى يعتز بها الفرسان ليقعد به عنهم ويؤخره عن رتبتهم، ففى هجائه لعمرو رماه بالكفر وهو يعنى عدم الشكر على النعمة وهى مخبثة كما قال:

«نبئت عمراً غير شاكر نعمتى ... والكفر مخبثة لنفس المنعم». (٢)

وفى رثائه لقرواش هجا بنى العشراء من مازن ورماهم بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود وتوعدهم بالهجاء المر الجارح الذى لاينقطع أبداً يرسله قصيدة قصيدة حتى يغمرهم به ويكون كالأردية تغطيهم وتجللهم وكالقلائد حول الأعناق، وشبههم فى البيت الأخير بالنعال تحقيراً لهم وتقليلا من شأنهم. (٣)

وفى هجائه لحصين بن ضمضم رماه بالجبن وكان حصين وأخوه قد قتلا شداداً وطعنا عنترة فى عينيه وفخرا بذلك فقال عنترة:

«اصبر حصين لئن تركت بوجهه ... أثراً فإنى لاإخالك تصبـــــــر

ما سرنى أن القنـــــاة تخرفت ... عما أصابت من حجاج المحجر

إن الكريم ندوبه فى وجهــــــه ... وندوب مرة لاترى فى المنحر

لكن فى أكتافهم وظهورهـــــم ... فبذاك فافخر بئس ذاك المفخر» (٤)

وقد يبلغ عنترة فى الهجاء حد الإقذاع، من ذلك قوله فى بنى لأم:

«عجلت بنو شيبان مدتهم ... والبقع أستاهاً بنو لأم». (٥).

وقوله فى هجاء عمارة بن زياد العبسى - وكان عمارة يحسده ويقول لقومه إنكم أكثرتم ذكره

---

(١) الطرائف الأدبية ص٤١، ٤٢.
(٢) شرح ديوان عنترة ص١٥٢.
(٣) المصدر نفسه ص٤٧، ٤٨.
(٤) المصدر نفسه ص١٩٩ وهى من زيادات البطليوسى، وفى البيتين الثانى والثالث إقواء.
(٥) المصدر نفسه ص١٥٥.

والله لوددت أنى لقيته خالياً حتى أعلمكم أنه عبد:

«أحولى تنقض استك مذرويها   لتقتلنى فها أنا ذا عمـــارا
متى ماتلقنى فردين ترجـــف   روانف أليتيك وتستطارا».(١)

وقد رماه فيها بالجبن والخوف الشديد منه، وذكر ما لا يليق به ذكره، إلا أنه أخرجه فى صورة فنية رائعة ملبئة بالتهكم والسخرية. وفى الحق أن عنترة كانت له مقدرة فائقة على الهجاء الساخر لولا رغبته فى الانصراف عن الهجاء عامة. ونلمح هذه المقدرة فى قوله:

«قد أوعدونى بأرماح معلبـــة   سود لقطن من الحومان أخلاق
لم يسلبوها ولم يعطوا بها ثمنا   أيدى النعـام فلا أسقاهم الساقى
عمرو بن أسود فا زباء قاربـــة   ماء الكلاب عليها الظبى معناق».(٢)

وهى فى هجاء عمرو بن أسود أخى بنى سعد بن عوف بن مالك بن زيد مناة بن تميم. وقد شبهه فى البيت الأخير بفم ناقة منتنة، وتهكم من قومه فى البيتين الأول والثانى فذكر أنهم قد توعدوه برماح سوداء بالية، وهذه الرماح لم تكن من سلب ولا من شراء فليسوا بالشجعان فيسلبوها، ولا بالأغنياء فيدفعوا ثمنها، وإنما التقطوها من مكان بعيد، ولم يفته أن يحدد هذا المكان إمعاناً فى التهكم والسخرية.

وفى هجائه لجرية - وهو رجل من بنى عمرو بن الهجيم وكان شديد البأس رئيساً - يقول عنترة:

«إذا يقع السهام بجانبيه   تأخر قابعاً فيه صـــــدود
فإن يبرأ فلم أنفث عليه   وإن يفقد فحق له الفقود».(٣)

وكان عنترة قد رماه وظن أنه قتله، وهو هنا يعرض صورة موجزة لجرية فى القتال، لكنها على إيجازها تبعث فى النفوس السخرية منه، حيث نراه وهو يجرى مدبراً والسهام تطير من خلفه وتلاحقه من جانبيه.

غير أن عنترة كان - على تلك المقدرة - راغباً عن الهجاء، وكان فى أحايين كثيرة يصرف نفسه عنه صرفاً - ويتغاضى عن إساءات تستوجبه، من ذلك ماذكره عن ابنى ضمضم

(١) شرح ديوان عنترة ص٧٥.
(٢) شرح ديوان عنترة ص١١٠.
(٣) المصدر نفسه ص٤٩.

وشتمهما له وسبهما إياه وقد منعه نبل أخلاقه أن يرد الشتم بالشتم والسباب بالسباب، ودفعته سماحته إلى التماس العذر لهما لكنه عذر أقبح - كما يقال - من ذنب، وقد أصاب به مقتلا:

«ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهمـــا   والناذرين إذا لقيتهما دمـــى
إن يفعلا فلقد تركت أباهمـــا   جزر السباع وكل نسر قشعم».(١)

وهكذا قل الهجاء فى شعر العبيد كما قل الرثاء، ولم نجد فى شعرهم مدحاً، ونعنى به الشعر الذى يذكر فيه الشاعر صفات حسنة محمودة فى شخص ما يتوجه به إليه تكسباً أو اعترافاً بالفضل أو غير ذلك، وإلا فقد استحسنوا أشياء وامتدحوها وليست من قبيل المدح، كما ذموا أشياء كثيرة واستهجنوها وليست من قبيل الهجاء. وقد يكون انصرافهم عن المدح نتيجة لمكانتهم الاجتماعية؛ فهم ليسوا ممن يرتاد القصور، ولا يستطيعون الوصول إلى هؤلاء السادة الذين يثيبون على المدح ويحركون الشعراء للقول فيه، وإن وصلوا فربما قوبلوا بالازدراء والاحتقار. وربما شغلتهم أنفسهم عن هؤلاء السادة، ودفعهم نفور عميق فى داخلهم إلى الابتعاد عنهم والرغبة عن مدحهم.

ولعل قلة الهجاء فى شعر العبيد وعدم وجود المدح كان وراء إهمال القدامى لهم وقلة اعتنائهم بهم وبشعرهم؛ فالمدح والهجاء بابا الشعر الرئيسان عند كثير ممن اهتموا بالأدب العربى القديم من القدماء وربما أيضاً من المحدثين، وقد كان بعض القدماء يرون الشعر مدحاً وهجاء، أما مادون ذلك فهو عالة عليهما. فكيف ينظر هؤلاء إلى شعر خلا من المدح وكاد أن يخلو من الهجاء؟

على أن هذا الشعر قد ساير كما سبق أن بينت - الشعر المعاصر له، ولم يقصر عنه فى بعض الموضوعات العامة كالطبيعة والغزل والحماسة والحكمة والرثاء، وتميز داخل هذه الموضوعات ببعض السمات الخاصة التى هى فى تصورنا نتيجة للوضع الاجتماعى المتمثل فى العبودية والرق؛ فالطبيعة لاتظهر إلا من خلالهم وقد خلعوا عليها من أنفسهم والتفتوا إلى الأشياء التافهة الصغيرة وعبروا عنها فى عمق وصدق واستخدم بعضهم (المعادل الموضوعى) وخاصة سحيم فى وصفه للمطر والثور الوحشى والشنفرى فى وصفه للنحل والذئب. وفى الغزل لم نر من الحب إلا وجهه الكئيب، وكثيراً ما ربطوا بينه وبين السقم والإحبـــاط

(١) شرح ديوان عنترة ص١٥٤.

والحرمان وعبروا من خلاله عن الأحزان. والمخاوف التى تحيط بهم من جرائه والسخرية منهم كلما امتدت أعينهم خارج نطاق الأنثى المستعبدة السوداء. وقد وصل الغزل عند واحد منهم - وهو سحيم - إلى نوع من التهتك والمجون لم نجد له مثيلا عند غيره من الشعراء المعاصرين له حتى عده العقاد رائداً لمدرسة فى الشعر أطلق عليها اسم «مدرسة الشعر المكشوف».

وقد وجد بعضهم فى الحماسة مجالا لإظهار الشخصية الفردية ولفت الأنظار إليه وإلى بطولاته التى تسترعن عيون الناس ما فيه من العيوب وأهمها فى تصوره اللون وضعة النسب والرق. ويكاد ديوان عنترة - كما سبق أن أشرت - يكون وقفاً على هذا اللون من الشعر.

وأهم مايميز الحكمة عندهم على مافيها من البساطة ارتباطها بحياتهم واستنباطهم لها من معاناتهم الشخصية فى تجاربهم المرة الأليمة مع الحياة باعتبار أنهم من الطبقة الدنيا التى تعيش فى قاع المجتمع. وقد قل الرثاء عندهم بصورة ملحوظة كما قل الهجاء، ووجدنا منهم من يرثى نفسه وهو على شفا الموت كأنه يشعر أن أحداً لن يلتفت إليه أو يرثيه بعد أن يموت، ومن ينصرف عن رثاء الناس إلى رثاء فرسه فهو من دونهم الذى يستحق فى تصوره الرثاء.

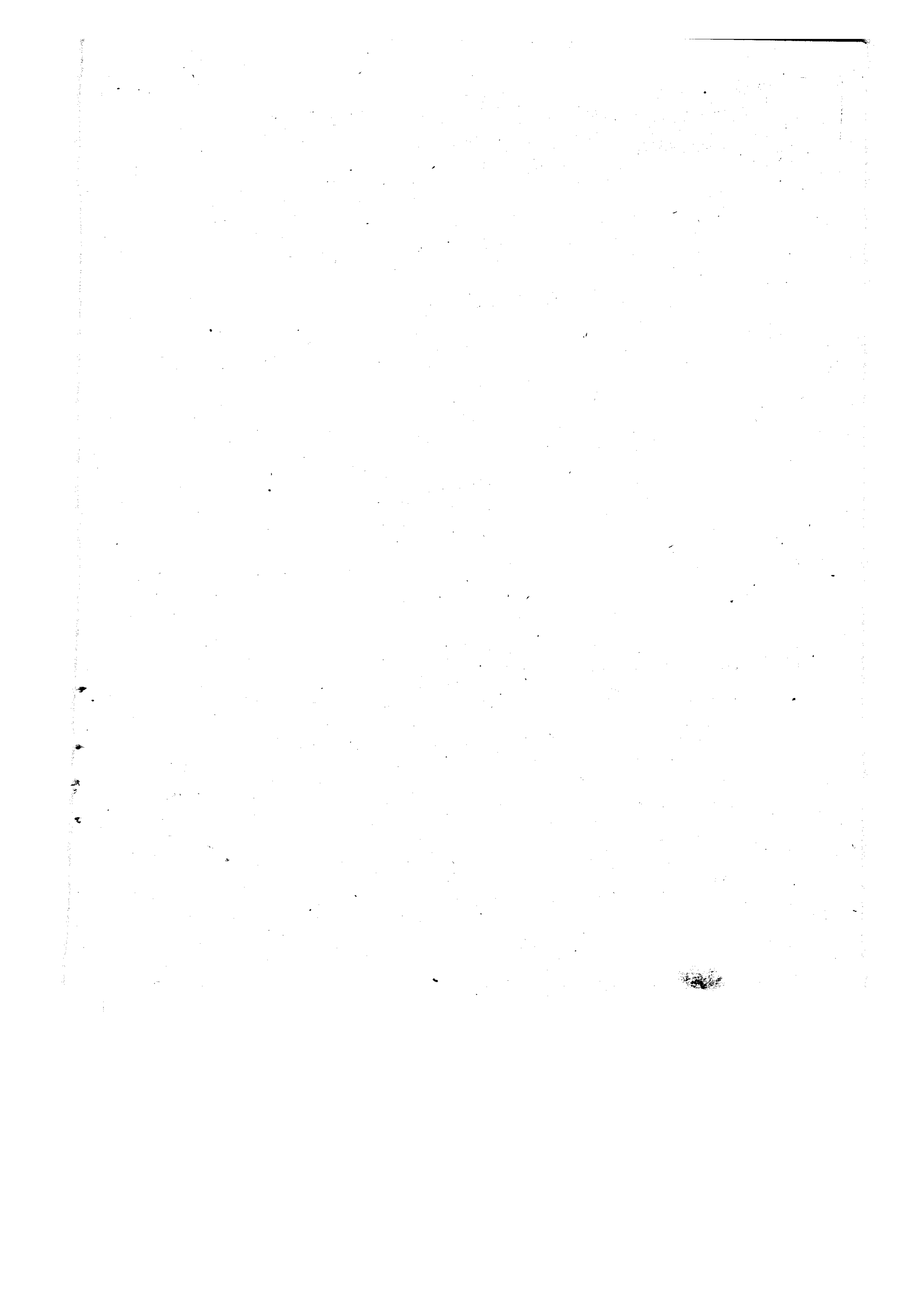
وتميز الهجاء عند عنترة والشنفرى بلون من السخرية والتهكم الشديدين.

غير أن تميز العبيد فى هذه الدائرة كان أقل بكثير من تميزهم فى دائرة أخرى، هى دائرة الموضوعات الخاصة؛ كالعبودية والفقر والدمامة واللون والنظرة الخاصة إلى الحياة والموت. لذلك رأينا فصل الدائرتين ودراسة كل منهما على حدة، فإحداهما خاصة بهم والثانية يشتركون فيها مع غيرهم ولهم فيها سمات خاصة تميزهم وسمات أخرى عامة.

الفصل الرابع

ظواهر أدبية

١- بين القصائد والمقطوعات
٢- وضوح الشخصية
٣- الجنوح نحو الواقع
٤- أثر الإسلام والثقافات الأجنبية في شعر العبيد



١- بين القصائد والمقطوعات

يتنوع شعر العبيد بين القصائد والمقطوعات، لكنه فى جملته أميل إلى المقطوعات منه إلى القصائد؛ حيث يزيد عدد المقطوعات على ثلاثة أضعاف عدد القصائد، بما فى ذلك القصائد القصيرة التى يتراوح طولها بين تسعة أبيات وعشرين بيتاً. وهذا رسم إجمالى يبين مجموع القصائد والمقطوعات ونصيب كل شاعر منها(١):

النوع	عنترة	سحيم	الشنفرى	باقى الشعراء	المجموع
مقطوعات (١ ـ ٨)	٢٥	٢٤	١٧	١٧	٨٣
قصائد قصيرة(٩ـ ٢٠)	٧	٤	٢	٢	١٥
قصائد طويلة (أكثر من ٢٠ بيتاً).	٥	٢	٢	-	٩

وبناء على هذا نلاحظ الآتى:

١- عدد المقطوعات عند عنترة أكثر من ضعف عدد القصائد، والقصائد القصيرة عنده أكثر من القصائد الطويلة.

٢- عدد المقطوعات عند سحيم أربعة أمثال عدد القصائد، وقصاندة القصيرة ضعف قصائده الطويلة، وليس له من الطويل غير قصيدتين.

٣- باستثناء قصيدتين طويلتين للشنفرى هما اللامية والتائية المفضلية، وقصيدتين أخريين قصيرتين إحداهما فى أحد عشر بيتاً(٢)، والثانية بلغت العشرين،(٣) فإن كل شعره مقطوعات.

---

(١) اعتمدنا فى شعر عنترة على روايتى الأصمعى والبطليوسى، بما فى ذلك الزيادات التى انفرد بها البطليوسى. وبالنسبة لسحيم على ديوانه المطبوع واستبعدنا منة قطعة واحدة رويت له ولعنترة وتأكد لدينا أنها من شعر عنترة حيث أخل بها الأحول وهو من الرواة الثقات لشعر سحيم، وهى عند عنترة أكمل وأتم. وبالنسبة للشنفرى اعتمدنا على ديوانه المطبوع بالطرائف الأدبية. وأضفنا إليه لاميته المعروفة. بلامية العرب وتائية المفضلية، وقد أشار إليهما المحقق واعتذر عن عدم رصدهما بوجودهما فى مصادر أخرى كثيرة. أما بقية الشعراء فقد جمعناهم لقلة شعرهم من ناحية ولأنهم ليسوا من أصحاب الدواوين من ناحية أخرى. وقد جمعنا شعرهم من بطون الكتب المختلفة.

(٢) الطرائف الأدبية ـ عبدالعزيز الميمنى ص ٣٢.

(٣) المصدر نفسه ٣٧:٣٩.

٤- ليس لباقى الشعراء قصائد طويلة، وشعرهم كله باستثناء قصيدتين إحداهما للسليك فى أربعة عشر بيتاً(١)، والثانية لأمه فى اثنى عشر بيتاً.(٢) شعر مقطوعات.

٥- القصائد الطويلة عند العبيد جميعاً لاتزيد عن تسع قصائد، فإذا استثنينا مع هذه القصائد التسع خمس عشرة قصيدة قصيدة أخرى قصيرة فلن يتبقى غير المقطوعات وهى تقرب من أربعة أضعاف عدد القصائد.

ونضيف:

١- أطول قصائد العبيد هى قصيدة سحيم اليائية وقد وصلت فى ديوانه المطبوع إلى ثلاثة وتسعين بيتاً، يليها معلقة عنترة وهى فى تسعة وثمانين بيتاً، ثم لامية الشنفرى فى ثمانية وستين بيتاً.

٢- أقصر المقطوعات فى بيت واحد، وربما كان هذا البيت جزءاً من قصيدة، ولم يصل لنا من هذا النوع سوى بيت واحد لسحيم(٣)، واثنين للشنفرى،(٤) وثلاثة للسليك(٥).

٣- بعض المقطوعات من الرجز تعتمد الشطرة لا البيت، ومنها واحدة لسحيم فى ثلاثة أشطر(٦)، واثنتان للشنفرى إحداهما فى خمسة أشطر(٧)، والثانية فى سبعة أشطر(٨)، وأربع مقطوعات لعنترة اثنتان فى ثلاثة أشطر(٩)، واثنتان فى خمسة أشطر(١٠).

---

(١) الأغانى ط. أبو الفضل إبراهيم جـ ٢٠ ص ٣٨٠، ٣٨١.
(٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزى - ت. محمد محيى الدين (الناشر المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة سنة ١٣٥٧هـ سنة ١٩٣٨م) جـ٢ ص ٣٧٠:٣٧٢. وهى عند المرزوقى (القسم الثانى ص ٩١٤) فى ثمانية أبيات.
(٣) ديوان سحيم - ص ٦٠.
(٤) الطرائف الأدبية ص ٣٣، ٣٧.
(٥) معجم ما استعجم جـ٣ ص ٩٤٤، ١٠٨١، جـ٤ ص ١٣٣٩.
(٦) ديوان سحيم ص ٥٨.
(٧) الطرائف الأدبية ص ٤٠.
(٨) المصدر نفسه ص ٣٦.
(٩) شرح ديوان عنترة ص ١٩٨، ١٩٩ وهما من زيادات البطليوسى.
(١٠) المصدر نفسه ص ٢٠٠ وهما من زيادات البطليوسى.

٤- للعبيد أربع وعشرون مقطوعة فى بيتين، واحدة لمحرر[١]. وواحدة لعامر[٢]، واثنتان لعنترة[٣]، وخمس لسليك[٤]، وست للشنفرى[٥]، وتسع لسحيم[٦]. وعشر مقطوعات فى ثلاثة أبيات، واحدة لمحرر[٧]، واثنتان للشنفرى[٨]، واثنتان لسحيم[٩]. وخمس لعنترة[١٠] وبقية المقطوعات تتراوح بين أربعة أبيات وثمانية، ومنها خمس للشنفرى[١١]، وست لسليك[١٢]، واحدى عشرة لسحيم[١٣]، وأربع عشرة لعنترة[١٤].

وهذا جدول مبسط لعدد المقطوعات ونصيب كل شاعر منها:

عدد الأبيات	عنترة	سحيم	الشنفرى	باقى الشعراء	مجموع
بيت	-	١	٢	٣	٦
ثلاثة أشطر	٢	١	-	-	٣
بيتان	٢	٩	٦	٧	٢٤
خمسة أشطر	٢	-	١	-	٣
ثلاثة أبيات	٥	٢	٢	١	١٠
سبعة أشطر	-	-	١	-	١
٤-٨ أبيات	١٤	١١	٥	٦	٣٦

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٥٦.
(٢) الإصابة (ط. مصطفى محمد) جـ٢ ص ٢٤٧.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ٩٢، ١٩٨ والثانية من زيادات البطليوسى.
(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢ ص ٣٧٧، ٣٨٤، ٣٨٥.
معجم ما استعجم جـ٤ ص ١١٧٠ - سمط اللآلى جـ١ ص ٤٧، ٤٨.
(٥) الطرائف الأدبية ص ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠.
(٦) ديوان سحيم ص ٣٤، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٥.
(٧) معجم الشعراء ص ٤٥٦.
(٨) الطرائف الأدبية ص ٣٥، ٣٦.
(٩) ديوان سحيم ص ٥٢، ٥٦.
(١٠) شرح ديوان عنترة ص ١١٠، ١٨٦، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧ والمقطوعات الثلاث الأخيرة من زيادات البطليوسى.
(١١) الطرائف الأدبية ص ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤١، ٤٢.
(١٢) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٠ ص ٣٧٨، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦. الكامل للمبرد جـ٢ ص١١٨، جـ٣، ص ٦٩.
(١٣) ديوان سحيم ص ١٥، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٥١، ٥٦، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦.
(١٤) شرح ديوان عنترة ص ١٧، ٢٠، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١١٠، ١٧٦، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، والمقطوعات الثلاث الأخيرة من زيادات البطليوسى.

وليس لدينا تعليل بالنسبة لكثرة المقطوعات وغلبتها على شعر العبيد، وهى ظاهرة - كما بينا - عامة، لم يخل منها واحد منهم، وإن تفاوتت النسبة بينهم، إلا أحد احتمالين؛ إما أن تكون هذه المقطوعات، أو على الأقل بعضها أجزاء من قصائد لم تصل إلينا كاملة، وإما أن تكون هذه طبيعة شعرهم. ولكل من الاحتمالين مايؤيده؛ فقد ضاع معظم الشعر الجاهلى، ولم يلق شعراء العبيد من العناية بهم ولا بأشعارهم مثلما لقى غيرهم من الشعراء، وليس بين أيدينا غير ثلاثة دواوين فقط لثلاثة منهم؛ عنترة وسحيم والشنفرى، أما بقيتهم فقد تبعثرت أشعارهم فى بطون الكتب وأغلبها من كتب الشواهد والمختارات، وهى بلا شك تنتقى من الشعر مايعنيها وتترك منه مالا يفيدها فى شىء. وقد وجدت بيتين لسحيم فى مقطوعة منفصلة بالديوان(١)، ثم وجدتهما هما بتصرف يسير فى مقطوعة أخرى أكبر فى الديوان نفسه(٢)، ثم إنه ليس من المعقول أن يقول الشاعر بيتاً واحداً دون أن يكمله بأبيات أخرى لتتم بذلك التجربة، وقد أشرت من قبل إلى بيت للسليك ورجحت أنه مطلع قصيدة ضائعة بما فيه من تصريع وحشد لعدد من الأماكن ولأنه يشبه المطالع التقليدية التى يتحدث فيها الشعراء عن خيال المحب والمامه وتصور لحظات الهجرة والظعن(٣). وقد وجدت هذا البيت فى معجم البكرى(٤)، ولم أجد مايكمله فى المصادر الأخرى. هذا بالنسبة للاحتمال الأول. أما بالنسبة للاحتمال الثانى فهو الأرجح عندى؛ ذلك أن طبيعة العبيد لم تكن تسمح لهم بالتفرغ للشعر وتجويده وإطالته؛ فحياتهم ليست ملكاً لهم، ووقتهم وقف على ساداتهم، ثم إنهم كانوا يعيشون على هامش المجتمع، وينظر إليهم وإلى شعرهم فى غير قليل من الازدراء والاحتقار على نحو مايصور سحيم فى قوله:

«أشارت بمدارها وقالت لتربها أعبد بنى الحسحاس يزجى القوافيا».(٥)

(١) ديوان سحيم ص ٥٧.
(٢) ديوان سحيم ص ٦٦.
(٣) معجم ما استعجم جـ٤ ص ١٣٣٩.
(٤) جـ ٤ ص ١٣٣٩.
(٥) ديوان سحيم ص ٢٥.

وقد بلور هذه النظرة الخاصة إلى شعر العبيد الفرزدق بعد ذلك فى قوله:

«وخير الشعر أشرفه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد».

ولايعنى مثل هؤلاء بطبيعة الحال التمسك بالتقاليد الفنية الشائعة؛ لأنهم إنما يقولون الشعر لأنفسهم لا لإرضاء الناس عنهم، وهذا السبب بالذات هو الذى يفسر لنا كثيراً من السمات التى يتميز بها شعر العبيد عن سائر الشعر المعاصر له. على أن الشعر فى العصر الجاهلى لم يخل من المقطوعات، وقد شاع استخدامها فى طوائف أخرى تتشابه مع طائفة العبيد فى كثير من الظروف كالصعاليك، والخلعاء، بل عند غيرهم أيضاً من الشعراء الذين لم تكن لهم ظروف خاصة تحيط بهم كما أحاطت بالصعاليك والعبيد. وقد قيل إن نظام المقطوعة كان شكلا أولياً للقصيدة فى تطورها الزمنى، وسمى مهلهل بهذا الاسم لأنه أول من هلهل الشعر وقصد القصيد ولم يقل أحد قبله عشرة أبيات كاملة(١).

وقد رجح لدى هذا الاحتمال - فضلا عما سبق - قول ابن قتيبة عن عنترة وهو فى صدد الحديث عن معلقته والمناسبة التى قالها فيها: «وكان لايقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة، حتى سابه رجل من عبس ... فكان أول ما قال قصيدة «هل غادر الشعراء من متردم». وهى أجود شعره وكانوا يسمونها المذهبة»(٢).

ومن الظواهر الفنية التى تلفت النظر فى شعر العبيد من الناحية الشكلية غير غلبة المقطوعات قلة التصريع والتخلص من المقدمات الطويلة اللهم إلا فى بعض قصائد قليلة، وهذه القصائد على قلتها أولى بالتعليل لها من القصائد المتميزة بالخلو من التصريع والمقدمات الطويلة؛ لأن عزلة العبيد، وقلة احتفالهم بالمجتمع، وقلة احتفال المجتمع بهم كان يدفعهم إلى مثل هذا التميز، غير أنهم كانوا يسعون فى بعض الأحيان للحصول على التقدير الفنى بعد أن ينسوا من الحصول على التقدير الاجتماعى، فقالوا مثل هذه القصائد وحرصوا فيها على توفير كل ما يحرص عليه الشعراء القبليون من التصريع وتعدد الموضوعات والطول النسبى وغيرها من الأشياء التى ترضى الوسط الفنى أكثر مما ترضى ذوقهم الخاص، وتتفق وطبيعة العصر ومقاييسه أكثر من اتفاقها مع طائفتهم الخاصة بتقاليدها الفنية المتميزة.

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى جـ٢ ص ٢٣.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ١ ص ٢٠٦.

ولسنا نعنى بهذا أن وجود مثل هذه القصائد يعد شذوذاً فى شعر العبيد - خاصة بالنسبة للتصريع فهو من الكثرة بمكان - وإنما نعنى وجود اتجاهين، أحدهما نابع من طبيعة الطائفة وظروف حياتهم الخاصة، والثانى عام يشتركون فيه مع غيرهم. والاتجاه الأول أكثر وضوحاً، وانتاجهم فيه أغزر من الاتجاه الثانى، وسوف نتلمس أثر هذين الاتجاهين فى كل الظواهر الأدبية والخصائص الفنية. لكن قبل أن نترك هذا الجزء نسجل هذه الملاحظات:

١- أكثر التصريع عند الشعراء العبيد فى القصائد وبخاصة القصائد الطويلة، وأقله بالتالى فى المقطوعات.

٢- كل قصائد سحيم الطويل منها والقصير مصرع، بينما لانجد فى مقطوعاته غير أربع قطع فقط هى المصرعة(١) من أربع وعشرين قطعة.

٣- كل شعر الشنفرى باستثناء تائيتة المفضلية ومقطوعة من خمسة أشطر (٢) خال من التصريع. وهذا جدول يبين عدد القصائد والمقطوعات المصرعة وغير المصرعة فى شعر العبيد: (٣)

النوع	عنترة		سحيم		الشنفرى		باقى الشعراء		مجموع	
	م	غ م	م	غ م	م	غ م	م	غ م	م	غ م
مقطوعات (١-٨)	٧	١٨	٤	٢٠	١	١٦	٥	١٢	١٧	٦٦
قصائد قصيرة (٩-٢٠)	٢	٥	٤	—	—	٢	١	١	٧	٨
قصائد طويلة (أكثر من ٢٠)	٤	١	٢	—	١	١	—	—	٧	٢

أما بالنسبة لمقدمات القصائد والمقطوعات فنسجل هذه الملحوظات:

(١) ديوان سحيم ص ٣٤، ٣٧، ٥٨.
(٢) الطرائف الأدبية ص ٨٠.
(٣) رمزنا فى الجدول إلى القصائد والمقطوعات المصرعة بالرمز (م)، وغير المصرعة بـ (غ م).

١- ليس فى شعر العبيد مقدمات طللية إلا فى قصيدتين اثنتين فقط وكلاهما لعنترة(١). ولسحيم قصيدة قصيرة بدأها ببيتين يشبهان من بعض الوجوه تلك المقدمات الطللية(٢).

٢- لبعض القصائد مقدمات غزلية منها اثنتان عند عنترة(٣)، وثلاث عند سحيم(٤)، وواحدة عند الشنفرى وهى قصيدته المفضلية.

٣- كل هذه القصائد ذات المقدمات سواء الطللية أو الغزلية بدأت مصرعة.

٤- كل القصائد الطويلة بدأت بمقدمات ماعدا قصيدتين لعنترة إحداهما مطلعها:

«وكتيبة لبستها بكتيبة   شهباء باسلة يخاف رداها»(٥)

والثانية مزج فيها الغزل بالحماسة مزجاً حتى صار الغزل جزءاً أساسياً من الموضوع غير منفصل عنه(٦) وقصيدة واحدة للشنفرى وهى أطول قصائده (٧).

٥- ليس للقصائد القصيرة مقدمات باستثناء قصيدتين لسحيم كلاهما مصرع(٨).

ولعنترة قصيدة قصيرة بدأها بالنفور من الأطلال والغزل:

«ألا قاتل الله الطلول البواليا   وقاتل ذكراك السنين الخواليا».

ثم تحدث عن حرمانه فى البيت الثانى وتخلص بعد ذلك إلى الموضوع(٩).

٦- كل شعر الشنفرى باستثناء تائيته المفضلية وقصيدة بائية مهد لها ببيت واحد(١٠)، بلا مقدمات.

٧- كل شعر السليك خلا بيت واحد اعتبرناه مقدمة لقصيدة ضائعة(١١) بلا مقدمات.

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١١٨، ١٤٢ وهما الميمية المعلقة وقصيدة لامية مطلعها:
"طال الثواء على رسوم المنزل   بين اللكيك وبين ذات الحرمل".
(٢) ديوان سحيم ص ٤٩.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ٤١، ١٥٦.
(٤) ديوان سحيم ص ١٦، ٣٩، ٤٢.
(٥) شرح ديوان عنترة ص ١٨٣.
(٦) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٧) قصيدته اللامية وقد بدأها بقوله:
"أقيموا بنى أمى صدور مطيكم   فإنى إلى قوم سواكم لأميل".
(٨) ديوان سحيم ص ٣٩، ٤٩.
(٩) شرح ديوان عنترة ص ١٩١.
(١٠) الطرائف الأدبية ص ٣٢.
(١١) معجم ما استعجم جـ٤ ص ١٣٣٩.

٨- من الطريف أن نجد لبعض المقطوعات مقدمات غزلية، وقد وقفت منها على ثلاث مقطوعات لعنترة إحداها فى ستة أبيات (١)، والثانية فى سبعة أبيات (٢)، والثالثة فى ثمانية (٣)، واثنتين لسحيم كل منهما فى ثمانية أبيات (٤).

وأرجح كون هذه المقطوعات أجزاء من قصائد لم تصل إلينا كاملة، خاصة أنها كلها بدأت مصرعة، وعلى اعتبار أنها نظمت هكذا ولم يضع منها شىء يكون الشعراء قد تأثروا فيها بأسلوبهم فى بعض قصائدهم الطويلة.

٩- أما سائر المقطوعات فبدون مقدمات وهى أضعاف القصائد. والجدول الآتى يبين القصائد والمقطوعات ذات المقدمات، والقصائد والمقطوعات التى ليس لها مقدمات:

النوع	عنترة		سحيم		الشنفرى		باقى الشعراء		مجموع	
	لها	بدون	لها	بدون	لها	بدون	لها	بدون	لها	بدون
مقطوعات (١-٨)	٣	٢٢	٢	٢٢	–	١٧	١	١٦	٦	٧٧
قصائد قصير (٩-٢٠)	٢	٥	٢	٢	١	١	–	٢	٥	١٠
قصائد طويلة (أكثر من ٢٠)	٣	٢	٢	–	١	١	–	–	٦	٣

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٩٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٣.
(٤) ديوان سحيم ص ٣٤، ٣٧.

٢- وضوح الشخصية

لعل أبرز ما يميز شعر العبيد وضوح الشخصية الفردية، فقد كانت شخصية الشاعر الجاهلى فى أغلب الأحيان تذوب فى شخصية القبيلة، فهو لسانها الذى ينطلق باسمها، وشعره صحيفة يسجل فيها أمجادها وكل ما يتصل بها، لذلك كانوا يفرحون إذا نبغ شاعر فيهم ويقيمون الولائم ويهنىء بعضهم بعضاً(١).

وكان الشاعر من ناحيته يحرص على أن يحقق لقبيلته كل مطامحها فيه وآمالها المعلقة عليه، ولو كان ذلك على حساب شخصيته الفردية، بل كان يستشعر فى ذلك نشوة ما بعدها نشوة، فهو ليس إلا واحداً منها، وهى ليست إلا (كلا) تجمع فيه. ولم تكن شخصيته تظهر إلا فى مجالات ضيقة محصورة كالغزل والرثاء ونحوهما، ومما زاد من ضيق هذه المجالات أنها أخذت مع الزمن صورة نمطية مكررة، فالمعانى التى يطرقونها واحدة، والطرق التى يعبرون بها عن هذه المعانى تكاد تكون متشابهة.

ومن هنا لم تكن شخصية الشاعر الجاهلى تتضح فى شعره مثل ذلك الوضوح الذى نراه فى شعر العبيد. وقد تنبه لهذا العقاد فى حديثه عن الصدق الفنى والتقليد، وقد اتخذ من الشعراء العبيد وشعرهم نموذجاً لوضوح الشخصية، وأرجع هذا الوضوح إلى الصدق الفنى والبعد عن التقليد(٢)، فكلما كان الشاعر صادقاً اتضحت شخصيته، وكلما كان مقلداً ذابت شخصيته فى النموذج الذى يقلده. ونحن وإن كنا لا ننفى أهمية (التقليد) فى بداية كل طريق حتى تنضج الشخصية وتتضح معالمها الذاتية إلا أننا نجد فيما ذكره العقاد مفتاحاً أساسياً لفهم هذه الظاهرة فى شعر العبيد. ويؤيدنا فى هذا أن معظم هؤلاء الشعراء كانوا يعيشون فى عزلة اجتماعية، وكان يزدرى بهم وبشعرهم، ولم يكن يعنيهم من هذا الشعر إرضاء الآخرين بتوفير القيم الفنية المتعارف عليها، وتقليد النماذج الرفيعة فى العصر الذى يعيشون فيه بقدر ما كانوا يهتمون بالتعبير عن أنفسهم تعبيراً صادقاً، ولم نعرف أن أحداً منهم كان راوية لغيره مثلما كان كعب راوية لزهير وكان الحطيئة راوية لكعب. يقول الدكتور عبده بدوى: «والذى لا شك فيه أن مشاعر الشعراء السود كانت مكبوتة ومضغوطة، وأنهم

---

(١) العمدة لابن رشيق. (ط١ - القاهرة سنة ١٩٢٥م) ج١ ص٣٧.
(٢) بين الكتب والناس ص٧٣.

كانوا ينفسون عن أنفسهم بما يقولون من شعر، ومن هنا يمكن القول بأن الشاعر «يستشفى» حين يقول الشعر، ثم إنه فى فترة توهجه يفجر أشياء كثيرة تقيم فى نفسه دون إدراك لكنهها، ومن ثم يمكن أن تتحول القصائد إلى عدد من الشفرات يمكن تقديم ترجمة لها، ومن هذا وغيره يمكن أن نعثر على ما يسمى شعر الشخصية»(١). وأكثر العبيد كما قلنا من هؤلاء السود.

ولا يجانبنا الصواب إذا قلنا إن هذه الظاهرة كانت قاصرة على الشعراء العبيد دون غيرهم، حتى الصعاليك الذين ضعفت عصبيتهم القبلية وافتقدوا التوافق الاجتماعى واستحالت علاقاتهم بمجتمعهم إلى عداء محكم ونفور عميق؛ فقد تخلص الشاعر الصعلوك من أسر القبيلة ليقع فى أسر المذهب الذى اختاره وانتمى إليه، وظل التعبير بصيغة «نحن» قائماً فى شعر كثير منهم، لكنها ليست «نحن» التى تعبر عن القبيلة وإنما هى كما يقول الدكتور يوسف خليف: «التى تعبر عن الشخصية الجماعية»(٢). وقد تقرأ شعر هؤلاء الصعاليك فلا تستطيع أن تميز صاحبه وأقصى ما يمكنك الوصول إليه أن هذا الشعر لصعلوك، فتمييز شعر الصعاليك عن شعر غيرهم أمر يسير لأنه بالفعل متميز من هذه الناحية، أما أن تميز بين صعلوك وآخر فأمر عسير؛ لأنهم يشتركون - أو يكادون - فى سمات عامة تجمع بين أبناء مذهبهم جميعاً، لذلك كان تضارب الرواة فى نسبة بعض الشعر إليهم، وقد نسبوا قطعة واحدة لثلاثة منهم؛ تأبط شراً وابن أخيه والشنفرى، بل نسبها بعضهم إلى خلف الأحمر واعتبرها من الشعر المصنوع(٣). وكان خلف عالماً بصناعة الشعر، وكان على دراية كبيرة بمذهب هؤلاء فيه، فربما صنع هذه القطعة وأمثالها ولم يجد صعوبة فى نسبتها إلى أحدهم لكونهم متشابهين فى مذهبهم الشعرى(٤).

أما العبيد فعلى الرغم من اشتراكهم جميعاً فى الوضع الاجتماعى المتمثل فى الرق إلا أنهم قد تميزوا فى شعرهم تميزاً شديداً، لا عن غيرهم فحسب، بل تميز كل شاعر منهم عن صاحبه الذى يشاركه فى الوضع نفسه؛ فقد اتخذت العبودية عند عنترة اتجاهاً نحو التسامى

---

(١) الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى ص٢٥٧.
(٢) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص٢٧٨.
(٣) الطرائف الأدبية ص٣٩. وقد أشار فيه المحقق إلى اضطراب الرواة فى نسبة القصيدة حيث نسبت للشنفرى فى المفتالين (١٦٢/٥) والخالديين (نسختاى ٢٣٤ و ٢٩٠) وفى الحماسة (٣٨٢، ٢/١٦٠) لتأبط شرا، وفى التبريزى والعقد (١٩٣/٢ و ٤٠٢/٣ و ٤٢٥) لابن أخت تأبط شرا، وصحح التبريزى نسبتها لخلف الأحمر.
(٤) الشعراء الصعاليك - د. يوسف خليف ص١٧٦: ١٧٩.

والاستعلاء، واتخذت عند سحيم اتجاهاً نحو العبث والمجون، واتخذت عند السليك والشنفرى اتجاهاً نحو الصعلكة، وقد كان هذا وراء كتابتنا للفصل الثانى من هذا البحث، وقد فصلنا فيه هذه الاتجاهات، وميزنا بين صعلكة السليك والشنفرى؛ فالأول كان ممثلا للصعلوك الشيطان، والثانى كان جل همه من الصعلكة الثأر. وإن كان هذا شأن شعرائهم الكبار فالأمر كذلك بالنسبة لغيرهم، وهو ليس قياساً وإنما استقراء لما وصلنا من شعرهم على قلته؛ فعامر يلتزم بمبادىء الدين ويحرص على تحقيق قيمه فى شعره، وأم السليك فى شعرها طابع النساء ويميزها عن غيرها من النساء كالخنساء وجليلة بنت مرة إحساسها الحاد بهوان منزلتها وأثر العبودية والسواد فى الشعر عامة، ومحرر يكاد يكون قد تخصص فى الرثاء.

ومما يلفت الانتباه فى شعر العبيد ذلك «التخصص الموضوعى»؛ فقد تخصص كل شاعر منهم أو كاد فى نوع من الشعر برز فيه؛ تخصص عنترة فى الحماسة واختص سحيم بالمجون، والسليك بمغامراته فى السطو والنهب، والشنفرى بالثأر والتهديد والوعيد، ومحرر كما قلت بالرثاء، وكذلك أم السليك.

ويشد انتباهنا فى شعرهم أيضاً تلك «الوحدة الموضوعية» التى تهيمن على سائر المقطوعات، وتظهر فى كثير من القصائد، ولعل هذا راجع إلى صدقهم الفنى وقلة احتفالهم بالتقليد ومحاكاة النماذج الفنية الرفيعة حيث كانت تتعدد الموضوعات فيها، وكانت براعة الانتقال من المقاييس الفنية المتعارف عليها.

ويؤيد هذا من بعض الوجوه أن القصائد القليلة التى شذت عن وحدة الموضوع فى شعر العبيد كانت تتضح فيها سمات أخرى للتقليد كالتصريع فى البداية والوقوف على الأطلال أو الاستعاضة عنه بالمطلع الغزلى فضلا عن الطول النسبى واللغة الجزلة والصور المكررة. وهذه القصائد - كما قلت - تمثل اتجاهاً ضعيفاً فى شعر العبيد كان مرجعه رغبة بعضهم فى كسب التقدير الفنى، لكنهم حتى فى مثل هذه القصائد لم تنعدم شخصياتهم، بل ظلت موجودة وإن كانت فى صورة أقل وضوحاً مما هى عليه فى سائر شعرهم، وأعتقد أن هناك فرقاً كبيراً بين معلقة عنترة - على ما فيها من تقليد - وسائر المعلقات، ووقفة سريعة عندها وعند معلقة عمرو بن كلثوم تظهر صدق مانقول، فشخصية عنترة واضحة من البداية إلى النهاية، بينما غابت شخصية عمرو واندمجت فى شخصية القبيلة. والمعلقة هى أطول ما

قال عنترة، وأكثر قصيدة حرص فيها على إرضاء الذوق العام بمحاكاة النمط الشائع للقصيدة الطويلة فى عصره، وعلى الرغم من هذا كانت على هذا القدر من التماسك والاتساق ووضوح الشخصية.

وكذلك يائية سحيم وهى أطول قصيدة فى شعر العبيد؛ فهى صورة صادقة من حياة سحيم بما فيها من لهو وعبث ومجون وإحساس حاد بالهوان والدونية والنقص، وقد ظهرت شخصيته حتى فى الأجزاء التى عكف فيها على الوصف؛ وصف البرق والمطر، ووصف الثور الوحشى؛ فمن خلال حركة السحاب ونزول المطر جسم مراحل عمره وانتقاله من الشباب إلى المشيب؛ من القوة والحركة إلى الضعف والسكون، وفى صراع الثور مع البرد والكلاب صورة صادقة لصراعه هو فى الحياة وارتطامه بالعرف الذى يحيط به وبالمجتمع الذى يعيش فيه.

ولامية الشنفرى التى كانت تسمى لامية العرب والتى بلغت فى مجملها ثمانية وستين بيتاً، وهى أطول شعره وقد قالها حين لم يكن له أهل ولا وطن، لا تعدو تصوير ظروفه الخاصة، ولا تطرق أى غرض آخر خارج نطاق هذه الظروف، فهى كما يقول الدكتور عبد الحليم حفنى «تبدأ بإظهار سخطه على الناس، وتصميمه الجامح على هجرة مجتمعهم إلى الأبد حيث يقول فى مطلعها:

«أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميـــل

فقد حمـــت الحاجات والليل مقمر وشدت لطياتى مطايا وأرحل».

ثم يبين القوم الآخرين الذين آثرهم على الناس الذين هجرهم فإذا هم قائمة من الوحوش الضارية يرى فيها الأهل والأنس والفضيلة اللائى افتقدهن فى مجتمع الآدميين، ثم يصف حياته فى الصحراء ومشاهده فيها من الذئاب الجائعة الباحثة عن الطعام مثله ومن النحل الصاخب لسطو آدمى على خلاياه مهدماً إياهاخلال جمعه العسل، ويصف مناخ الصحراء ببردها الشديد فى الليل وحرها القائظ فى النهار، وما يعانيه من عطش وجوع، ويصف نفسه هو فى هذه الحياة فنراه ناحل الجسم بارز العظام مهلهل الثياب حافى القدمين ضافى الشعر الملبد الذى لم يرجل ولم يغسل منذ أمد بعيد» (١).

فإذا كانت هذه حال القصائد الطوال وقد حرصوا فى بعضها على التقليد فكيف تكون

---

(١) شعر الصعاليك: منهجه وخصائصه ص٣٩٤.

الحال فى القصائد القصيرة والمقطوعات التى ارتبطت بالمواقف السريعة واللحظات العابرة؟!

قد يقرأ الإنسان ديواناً من الشعر كاملا دون أن يعرف شيئاً عن صاحبه، ثم يخرج منه متسائلا عن الشاعر وعن موطنه وطبيعة عمله وأسلوبه فى الحياة وطريقه بين الناس وغيرها. وقد يقرأ قطعة واحدة لواحد من هؤلاء العبيد فيعرف من خلالها الشيء الكثير عن صاحبها، فيعرف من بيتين اثنين لسحيم مثلا أنه كان عبداً وأنه كان أسود اللون وأنه كان يعير بهذا السواد وأنه على درجة من الأخلاق تحول بينه وبين مقابلة الازدراء بالازعواء وأنه كان مشغولا بالدفاع عن عبوديته وعن سواده وكأنهما كانا وصمة وسبة فى العصر الذى كان يعيش فيه، وأنه كان يفخر بشعره فى الوقت الذى يفخر الناس فيه بالمال والأصل. يقول سحيم:

«أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له ... يوم الفخار مقام الأصل والورق
إن كنت عبداً فنفسى حرة كرمـــا ... أو أسود اللون إنى أبيض الخلق».(١)

ويقرأ بيتاً واحداً لعنترة فيعرف أنه كان هجيناً وأن أباه كان ذا مكانة رفيعة فى قبيلته، وأنه كان يعير بنسبه لأمه، وأن نظرة العرب للهجين تختلف عن نظرتها للحر الصريح، وأنه كان يتعالى بالفروسية ليستتر عن عيون الناس ضعة الأصل ورقته من جهة الأم. يقول عنترة:

«إنى امرؤ من خير عبس منصبا ... شطرى وأحمى سائرى بالمنصل».(٢)

وقد يقرأ بيتين اثنين لسليك فيعرف أنه كان عبداً وأن خالاته كن من الإماء وأنهن كن يسخرن للخدمة وسط الرحال وأنهن كن يتعرضن لكثير من الظلم، وأنه كان فقيراً، ولولا فقره لخلصهن من ذلك الرق، وأنه كان يستشعر كثيرا من الضعة والهوان لعجزه عن تخليصهن. يقول السليك:

«أشاب الرأس أنى كل يوم ... أرى لى خالة وسط الرحال
يشق على أن يلقين ضيماً ... ويعجز عن تخلصهن مالــى».(٣)

وهذه هى الذاتية التى نعنيها فى شعر العبيد؛ فهى ليست مجرد الالتفات إلى النفس والتحدث بضمير الـ (أنا) والانفلات من أسر الـ (نحن) وإنما هى ترجمة واضحة أشبـــــه

---

(١) ديوان سحيم ص٥٥.
(٢) شرح ديوان عنترة ص١١٩.
(٣) الكامل للمبرد - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم) والسيد شحاتة ج٢ ص١١٨.

بالمذكرات الشخصية التى يسجل فيها الإنسان كل ما يتصل به. وننقل فى هذا السياق شهادة الدكتور عبد الحليم حفنى، وهى شهادة لها قيمتها بالنسبة لما نحن بصدده، يقول فيها عن شعر الشنفرى: «... وكذلك شعر الشنفرى نعلم منه عن شخصيته ومعيشته وظروفه أكثر مما نعلمه عنه من أخباره؛ فأخباره فى الروايات محدودة لا تكاد تتعدى نسبه ثم انتقاله أسيراً بين قبيلتين، ثم نقمته على بنى سلامان وأحداثاً معدودة من خلال ذلك فى صعلكته وفى رفقته مع تأبط شراً وعمرو بن براقة. ولكن شعره يطلعنا من شخصيته ومعيشته وظروفه على أكثر من ذلك بكثير؛ فحين نقرأ ديوانه على قلة شعره نجد فيه حياته كاملة بظروفها وأحداثها ومشاعرها، بل حين نقرأ لاميته نجده هو أوضح فيها منه فى الأخبار والروايات حتى ليخيل إلينا أننا نراه بأعيننا ونتابع حركاته وأعماله ومعيشته ونسمع نجوى نفسه ونرى مشاعره وأفكاره»(١).

والشنفرى واحد من الصعاليك، وهو أيضاً واحد من العبيد، وما يقوله الباحث لا ينطبق على الشنفرى وحده بل ينطبق كذلك على سائر العبيد، وهو يؤكد ما نحن بصدده من وضوح شخصياتهم، ووضوح الشخصية فرع عن الصدق الفنى كما يقول العقاد، وسبب فى تماسك شعر العبيد وظهوره على هذا النحو المتسق المتكامل، فى مقطوعاته وفى كثير من قصائده كما بينا، وهو بذلك يحقق درجة من الوحدة لعلها من أكمل درجات الوحدة فى شعرنا العربى القديم.

(١) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ص٣٧٢، ٣٧٣.

٣- الجنوح نحو الواقع

يتجه شعر العبيد فى جملته نحو الواقع أو الواقعية بمفهومها البسيط الذى يقابل الغلو فى التعبير والإفراط فى الخيال لا الواقعية المذهبية التى نعرفها اليوم بجذورها الفلسفية والاجتماعية وخصائصها الفنية المستمدة من هذين الأصلين. ولعل أول ما يتعارض فى شعر العبيد مع واقعية اليوم تلك الذاتية التى تحدثنا عنها فى الجزء السابق من خلال وضوح الشخصية، وليس فى هذا تقليل من شأنه ولا حكم عليه؛ فمن الحيف البالغ تطبيق المفاهيم النقدية الحديثة على أدبنا القديم خاصة إذا كانت هذه المفاهيم وافدة من بيئات أخرى نشأت ونمت فيها فى ظل ظروف اجتماعية وفلسفية وأدبية تختلف فى قليل أو كثير عن ظروفنا الاجتماعية وطريقة تفكيرنا وخصائص أدبنا القديم.

وقد يكون للمثالية ظلال فى شعر العبيد، خاصة فى جانب الوصف؛ وصف الناقة والفرس والمرأة عند عنترة وسحيم. وقد يتعارض مع جنوح شعرهم نحو الواقع تلك التجارب المتخيلة عند سحيم، والغلو والشطط فى بعض التشبيهات، لكن هذا وذاك لا ينفيان غلبة هذا الجنوح على سائر شعرهم؛ فالعبرة هنا بالعموم لا بالشمول. على أن تجارب سحيم المتخيلة قابلة للحدوث فى عالم كعالمه وظروف كظروفه، ونحن لا نعنى فى هذا الإطار بما حدث بالفعل - فنحن لسنا بمؤرخين - وإنما نعنى بما يمكن حدوثه. وقد اعتبر الدكتور عبده بدوى هذه التجارب تجارب حقيقية (١).
وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أنها - وإن لم تكن حدثت بالفعل - قابلة للوقوع.

وللجنوح نحو الواقع فى شعر العبيد مظاهر كثيرة يمكن جمعها فى أصلين عظيمين؛
الأول: اتخاذهم الحياة بخيرها وشرها، بحلوها ومرها، بفرحها وترحها مادة للشعر.
والثانى: التعبير عن هذه المادة تعبيراً صادقاً دقيقاً. وهذا الفرع فى تصورى هو الأهم - وإن كنا لا نقلل من قيمة الفرع الأول - فكم من الشعراء من اتخذ الواقع مادة له ثم شط فى التعبير عنه شططاً كبيراً باعد بينه وبين هذا الاتجاه. وقد رأينا كيف تحدث الشعراء العبيد عن مكانتهم الاجتماعية، وما يسببه اللون الأسود لكثير منهم من المشكلات، كما تحدثوا عن فقرهم بدون مواربة، ووصفوا نحول أجسادهم، وتتبعوا أثر الفقر فيهم وكذلك الجـــــوع،

---

(١) الشعراء السود ص٧٤.

وصور عنترة معارك قومه وما كان يدور فيها وطرق القتال ومثالياته، والأسلحة المستخدمة فيه، وعرى سحيم والسليك والشنفرى الجوانب السيئة فى مجتمعهم من خلال التجارب المكشوفة عند سحيم، ومغامرات الصعلكة عند الآخرين، وذكر سائر العبيد كثيراً من الأماكن والظواهر الطبيعية كالحيوان والنبات والجماد واختلاف الطقس والمناخ. وشعر العبيد فى جملته يصلح لدراسة المجتمع دراسة دقيقة فى كثير من الجوانب، بل لعلنا لا نتجاوز الصواب إذا قلنا إنه أهم مصدر لدراسة الطبقات الدنيا فى المجتمع الجاهلى.

ويدخل فى هذا الفرع أيضاً اهتمام العبيد بالأشياء التافهة والتفاتهم إليها. وتعبيرهم عنها كالذباب عند عنترة(١)، وجماعات النحل ووصف الخشرم وصفاً دقيقاً عند الشنفرى(٢). ومن هذا القبيل حديث الشنفرى عن نعليه الباليتين وثوبه الرث الممزق(٣).

أما الفرع الثانى فيتبدى لنا فى أشياء كثيرة، فى صدق التعبير الذى نحسه فى قول السليك:

«وما نلتها حتى تصعلكت حقبـــة ... وكدت لأسباب المنية أعـــــرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى ... إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف»(٤).

وفى النقل الأمين الذى لا يتجاوز الواقع بل يسعى إلى نقله كما هو، حين يتحدث الشنفرى عن جواده فنراه هزيلا نحيلا فى كل وقت خلا وقت الهياج، فهو لايخلع عليه الصفات المثالية التى يخلعها عليه غيره من الشعراء وإنما يصوره لنا تماماً كما يراه:

«ولا عيب فى اليحموم غير هزاله ... على أنه يوم الهياج سميــــن

وكم من عظيم الخلق غير موثـــق ... حواه وفيه بعد ذاك جنون»(٥).

وفى دقة التعبير نحو قول عنترة:

«ولقد شربت من المدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلـم

بزجاجــــة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر فى الشمال مفدم

فإذا شربت فإننى مستهلــــــك ... مالى وعرضى وافر لم يكلــم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى»(٦).

---

(١) شرح ديوان عنترة ص١٤٥.

(٢) فى قصيدته اللامية ص٢٠٥: ٢٠٨ بالجزء الثالث من الأمالى للقالى.

(٣) الطرائف الأدبية ص٣٥، ٣٧.

(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) ج٢٠ ص٣٧٨.

(٥) الطرائف الأدبية ص٣٥، ٣٦.

(٦) شرح ديوان عنترة ص١٤٨، ١٤٩.

فهو يحدد الزمان الذى شرب فيه (بعدما ركد الهواجر) والثمن الذى شرب به (بالمشوف المعلم) ويصف الزجاجة وصفاً دقيقاً يتتبع فيه اللون والرسوم المنقوشة، ويبين كيف أن الشراب يستهلك ماله، المال فقط - وكأنه يستدرك - أما العرض فسليم لا يمس، ثم يقابل بين حاله فى السكر وحاله فى الصحو ليؤكد أن كرمه طبع أصيل فيه، لا يحركه إليه الشراب، وإنما يوجد فى صحوه كما يوجد فى سكره. ومن هذه الدقة قوله:

«يقدمه فتى من خير عبس أبوه، وأمه من آل حـــــام».(١)

وقوله على الشك:

«دعانى دعوة والخيل تجرى فما أدرى أبا سمى أم كنانى».(٢)

ومنه قول الشنفرى معللا لضياع أبيه على يد قومه:

«أضعتم أبى إذ مال شق وســـاده على جنف قد ضاع من لم يوسد(٣)

ووصفه لكنانة تأبط شراً وتحديده لما فيها من السهام تحديداً حسابياً:

«لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً إذا آنست أولى العدى اقشعـــرت».(٤)

وتوعده لبنى صعب وتحديده للأماكن التى سيلاقيهم فيها تحديداً دقيقاً إمعاناً منه فى التحدى وبث الرعب فى نفوسهم وليسيطر عليهم الفزع فى كل مكان:

«فإن لا تزرنى حتفتى أو تلاقنى أمش بدهو أو عداف بنـــورا

أمشى بأطراف الخماط وتـــارة ينفض رجلى بسبطاً فعصنصرا

أبغى بنى صعب بن مر بـــلادهم وسوف ألاقيهم إن الله أخـــرا

ويوماً بذات الرس أو بطن منجل هنالك نبغى القاصى المتغورا».(٥)

ومنه قول سحيم فى وصف الظعائن محدداً الطريق على الشك:

«أخذن على المقراة أو عن يمينها إذا قلت قد ورعن أنزلن حاديا».(٦)

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٨.
(٣) الطرائف الأدبية ص ٣٥.
(٤) المفضليات. ت. أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون ص ١٠٩.
(٥) الطرائف الأدبية ص ٣٥، ٣٦.
(٦) ديوان سحيم ص ٢٤.

وقوله فى تشبيه نساء من بنى صبير بالظباء:

«كأن الصبيريات يوم لقيننا　　ظباء حنت أعناقها فى المكانس».(١)

فهو لا يشبههن بها مطلقاً، وإنما يقيد التشبيه بالنسبة للمشبه بزمن معين (يوم لقيننا) وبالنسبة للمشبه به بوضع معين (حنت أعناقها) فى مكان معين (فى المكانس).

أما الغوانى اللائى يعدنه فقد تجمعن من كل مكان، ثلاث وأربع وواحدة فيصير المجموع ثمانى، فلانة وفلانة وفلانة:

«تجمعن من شتى ثلاث وأربع　　وواحدة حتى كملن ثمانيـــا

سليمى وسلمى والرباب وتربها　　وأروى وريا والمنى وقطاميا».(٢)

ومن الجنوح نحو الواقع فى شعر العبيد - وهو يدخل فى الفرع الثانى أيضاً - الحرص على التفاصيل والاهتمام بالجزئيات. نلمح ذلك فى قول سحيم:

«خليلى هذا البين قد جد جـــده　　فعوذا لنا من شر ما البين مقرف

وإن لم تبوحا خفت من باطن الجوى　　وإن بحته فالسيف عريان ينطف».(٣)

وفى مقطوعة ميمية قصيرة يصف سحيم رجلا دنيئاً وصفاً يدل على مدى اهتمامه بالجزئيات ومحاولة إبراز الصورة فى أجلى وأوضح حالاتها. وذلك فى معرض الحديث عن حبيبته، فهى ليست...:

«وليست من اللائى يروم وصالها　　دنىء ولا عند الفعال ذميـــم

ولا عضل جثل كأن بضيعـــه　　يرابيع فوق المنكبين جثـــوم

يرى بادناً والجلة الكوم شـــف　　عظيم القصيرى والشمام هشيم

أخو الذل لم يدفع عدواً ولم يخف　　له جدلا عند الإمام خصيـم».(٤)

ومن هذا الاهتمام بالجزئيات والميل إلى التفصيل قول عنترة فى تفضيل فرسه على زوجه:

«إن الرجال لهم إليك وسيلة　　إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

ويكون مركبك القعود ورحله　　وابن النعامة يوم ذلك مركبى».

---

(١) ديوان سحيم ص ١٥.
(٢) ديوان سحيم ص ٢٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٦.

ثم يضيف:

«وأنا امرؤ ان يأخذونى عنوة أقرن الى شر الركاب وأجنب».(١)

وقوله فى وصف حال المهزومين وكيف يفرون عن النساء:

«فخلوا لنا عوذ النساء وجببوا عبابيد منهم مستقيم وجامح(٢)

وقوله فى هجاء قوم غدروا بأسير لهم فقتلوه، وكان هذا الأسير من بنى عبس وكان صديقاً له:

«هديكم خيراً أباً من أبيكـــــم أعف وأوفى بالجوار وأحمـــد

وأطعن فى الهيجا إذا الخيل صدها غداة الصباح السمهرى المقصد».(٣)

فهو لا يكتفى بذكر الخيرية له، وأنه أفضل منهم، بل يبين سبب ذلك التفضيل فهو «أعف» و «أوفى» و «أطعن» إلى آخره. وقوله فى وصف إحدى الغارات:

«ومغيرة شعواء ذات أشلـــة فيها الفوارس حاسر ومقنع

فزجرتها عن نسوة من عامر أفخاذهن كأنهن الخـــروع».(٤)

فهو لايكتفى بذكر «المغيرة» ذكراً مجملا وإنما يصف الفوارس بأنهم بين «حاسر ومقنع»، وحين يفخر بذوده عن النسوة لا ينسى أن يحدد هويتهن فهن «من عامر» وأن يضيف تشبيهاً لأفخاذهن بالخروع ليبين مدى نعومتهن ورقتهن وضعفهن.

وحين يصف الرماح التى توعده بها بعض الناس يذكر أنها «سوداء» وأنهم التقطوها من مكان معين، ولا ينسى أيضاً تحديد هذا المكان، ويذكر أنها بالية، وأنهم لم يشتروها ولم يسلبوها لأنهم ليسوا بالأغنياء ولا بالأقوياء:

«قـــد أوعدونى بأرماح معلبــة سود لقطن من الحومان أخلاق

لم يسلبوها ولم يعطوا بها ثمناً أيدى النعام فلا أسقاهم الساقى».(٥)

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ٢٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٧.
(٤) المصدر نفسه ص ١٠٤.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٠.

وحين يصف عين امرأة لا يكتفى بتشبيه نظرتها بنظرة الشادن، بل يحدد أن هذا الشادن «رشأ من الغزلان»، ويضيف أنه لا توأم له:

«وكأنما نظرت بعينى شادن   رشأ من الغزلان ليس بتوأم».(١)

ويصف دموع عينيه وقد أثاره بكاء حمامة بالدر مرة، ثم بفضض الجمان مرة أخرى، ثم لا ينسى أن يضيف أن هذا الجمان قد تقطع سلكه وأنه لم يجد من يوصله:

«كالدر أو فضض الجمان تقطعت   منه عقائد سلكه لم يوصل».(٢)

ويصف نفسه فى القتال وصفاً دقيقاً، فهو يكر حين يلحقوا به، ويشدد حين يلتحمون، وينزل حين يشتد القتال:

«إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا   أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل».(٣)

ويقدم لنا صورة واقعية له بدون مواربة ولا استخذاء فهو «شعث المفارق»، «منهج سرباله»، «لم يدهن حولا» و «لم يترجل» و «لا يكتسى إلا الحديد» إذا اكتسى، وقد ترك صدأ الحديد بجلده أثراً ظاهراً من طول ملازمته له، وقد كان هذا كله مدعاة لأن تسخر عبلة منه وتضحك كلما رأته(٤).

أما الشنفرى فقد وصف يده وصفاً دقيقاً حين قطعها الأعداء مظهراً من خلال ذلك الوصف بعض التفاصيل التى دفعته إلى الاعتزاز بها، وكلها متصل بالصعلكة كالقتل وتنفير السوام الآمنة(٥).

وحين أعلن إعجابه بامرأة جاره وتغزل فيها بين سبب الإعجاب، فهى ذات حياء شديد يدفعها الى إحكام القناع فلا يسقط إذا مشت، ولا تتلفت فى الطريق:

«لقد أعجبتنى لا سقوطاً قناعها   إذا ما مشت ولا بذات تلفت».(٦)

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٤٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٨.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٩.
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠، ١٢١.
(٥) الطرائف الأدبية ص ٤٠.
(٦) المفضليات جـ١ ص ١٠٧.

وهكذا إذا تتبعنا شعر العبيد فسوف نقف عند نماذج عديدة تسرى فيها روح الواقع؛ فى المادة التى يتحدثون عنها وفى طريقة الحديث، فى الحياة التى يحيونها بخيرها وشرها وحلوها ومرها وبما فيها من أشياء عظيمة وأشياء تافهة، وفى صدق التعبير وأمانة النقل ودقة الأداء والاهتمام بالتفاصيل والجزئيات والوضوح التام، ذلك الوضوح الذى دفع سحيماً إلى تسجيل تجاربه الماجنة بلا تزييف ولا تحريف فجاءت صريحة إلى حد جارح. ولا يقدح فى هذا الاتجاه ما فى شعرهم من ذاتية أو جنوح فى بعض الأحيان نحو المثال.

أثر الإسلام والثقافات الأجنبية فى شعر العبيد

لن يتضح لنا تأثير الإسلام فى شعر العبيد إلا من خلال ثلاث شعراء فحسب؛ اثنان منهم من شعراء الصدر هما عامر بن فهيرة ومحرر مولى أبى هريرة، والثالث من المخضرمين وهوسحيم.

والمشكلة التى تواجهنا الآن تتمثل فى قلة شعر عامر ومحرر أو بالأحرى ما وصلنا منه، وتداخل شعر سحيم دونما فاصل بين ما قاله فى الجاهلية وما قاله فى الإسلام. فإذا استطعنا تذليل العقبة الثانية ربما أمكن التغلب على العقبة الأولى، خاصة أن ما قاله سحيم فى الإسلام كثير، بل ربما فاق ما قاله فى الجاهلية؛ لأنه كما رجحنا عاش فى الإسلام فترة أطول من تلك التى عاشها فى العصر الجاهلى، ولم ينقطع عن الشعر فى الإسلام، ولم يشغل عنه مثلما شغل غيره بالجهاد وأمور الدين.

وقد شاء الله عز وجل أن يضع أيدينا على بعض المفاتيح التى تساعدنا فى الوصول إلى ما نريد، فأمكن التمييز فى كثير من النصوص، وبقى بعضها محل شك، فاستبعدنا ما شككنا فيه واكتفينا بما تحققنا منه، وهو بحمد الله - كما توقعت - غير قليل.

أما كيف تحققت منه فقد أفدت بالملابسات التى قيلت فيها هذه النصوص، وما ذكره المؤرخون والرواة، وما قدم به الشارح لكثير منها، ثم ما حملت هى فى ذاتها من المؤشرات واللفتات التى لا غنى عنها فى مثل هذه الحال. فقصيدته اليائية على سبيل المثال تبدأ بهذا المطلع الذى يؤكد أنها لم تنظم فى الجاهلية وإنما نظمت فى الإسلام:

«عميرة ودع إن تجهزت غاديا   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا».

وهى أطول قصائده، بل أطول ما خلف العبيد على الإطلاق. يليها فى ترتيب الديوان قطعتان؛ الأولى فى بيتين والثانية فى ثمانية أبيات، هما أيضاً من شعره فى الإسلام، فقد قدم لهما أبو عبيدة معمرو بن المثنى بقوله: «لما قال سحيم عبد بنى الحسحاس هذه القصيدة» - يعنى اليائية المشار إليها - «اتهمه مولاه بابنته فجلس له فى موضع إذا رعى قال فيه (من القيلولة) فلما اضطجع تنفس الصعداء ثم قال...» - القطعة الأولى - «فقال له سيده وظهر

من المكان الذى كمن فيه: مالك يا سحيم؟ فلجلج فى منطقه، فلما رجع أجمع على قتله، وخرجت إليه صاحبته التى كان يهواها فحادثته وأخبرته بما يراد به فقام ينفض ثوبه ويعفى أثره ويقول...» القطعة الثانية.

وقطعة أخرى من ثلاثة أبيات ذكر ابن الأعرابى أنه قالها بعد أن رفض عثمان بن عفان شراءه(١). وكان ذلك فى الإسلام. وقطعة من أربعة أبيات يقول فى البيت الأخير منها:

«أخو الذل لم يدفع عدواً ولم يخف   له جدلا عند الإمام خصيـــــم».(٢)

رجحنا كونها قيلت فى الإسلام لذكره الإمام وجدل الخصوم بين يديه. وقصيدتان إحداهما فى اثنين وثلاثين بيتاً قال فى ثناياها:

«فإمـــا ترينى علانى المشيـ   ـب وانصرف اللهو عنى انصرافا».(٣)

مما يؤكد أنه قالها فى فترة متأخرة من حياته، وقد رجحنا أنه عاش فى الجاهلية فترة قصيرة، وأنه أسلم فى حياة النبى لتمثله صلى الله عليه وسلم ببعض شعره(٤)، وكان أبو عبيدة يقول: «...وقد أدرك الجاهلية...»(٥). مما يشعر بأن حياته الممتدة كانت فى الإسلام وأنه فقط «أدرك الجاهلية».

---

(١) ديوان سحيم ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥ والقصيدة من ص ٤٢:٤٨.

(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٢ ص ٣٠٣. يقول أبو الفرج:

"أخبرنى محمد بن خلف بن المرزبان قال حدثنا أحمد بن منصور قال حدثنا الحسن بن موسى قال حدثنا سلمة عن على بن زيد عن الحسن أن النبى صلى الله عليه وسلم تمثل "كفى بالإسلام والشيب ناهياً" فقال أبو بكر يا رسول الله كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً فجعل لا يطيقه، فقال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله (وما علمناه الشعر وما ينبغى له).

وفى شرح شواهد المغنى (المطبعة البهية بمصر - بدون تاريخ) ص ١١٢ يقول السيوطى: "أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره وابن سعد فى طبقاته والمرزبانى فى معجم الشعراء والأصبهانى فى الأغانى عن الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت.

(٥) ديوان سحيم ص ١٥.

أما القصيدة الثانية فقصيدة قصيرة فى ستة عشر بيتاً(١). وقف فيها مع الموت وقفة طويلة وذكر اللحد وكيف أن المنايا «لم يهبن محمداً»، ولا نعرف على وجه اليقين من المقصود بهذا الاسم، هل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم أحد غيره، لكنه فيما يبدو من الذين عاشوا فى صدر الإسلام لقلة شيوع هذا الاسم فى الجاهلية وكثرة من تسموا به فى الإسلام.

ثم هناك إلى جانب هذه النصوص مجموعة أخرى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمقتل سحيم، وقد كان ذلك فى حياة عثمان بن عفان أو بعده بقليل، وارتباطها بهذا الحدث ليس افتراضاً، وإنما هو تتبع لما جاء من الروايات، وما صرح به الشاعر نفسه فى بعض الأحيان. من ذلك ما سخر فيه من السجن والجلد(٢)، وما تحداهم به من المضى فى عبثه ولو عرضوه للنيران(٣)، وما فضحهم به من إتيان فتياتهم المصونات(٤)، وما رد به على أبى الجوزاء حين وعظه ونصحه بالرجوع إلى الجادة والعودة إلى الصواب(٥).

وقد تجمع لى من هذا الشعر ستة عشر نصاً فيما يقرب من مائة وتسعين بيتاً، منها قصيدتان طويلتان وقصيدة أخرى قصيرة، وسائره مقطوعات تتراوح بين البيتين والثمانية. فإذا أضفنا إليه ما جاء من شعر عامر ومحرر، صار القليل صالحاً للبحث عن أثر الإسلام فيه.

ولن نقف عندما قيل من ضعف الشعر فى صدر الإسلام، فتلك دعوى لم يقم عليها دليل، فضلا عن مخالفتها لطبيعة الأشياء ومجريات الأمور. وقد فصل القول فيها أكثر من باحث جليل(٦).

---

(١) ديوان سحيم ص ٣٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧، ٦٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٣، ٦٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٩، ٦٠.

(٥) المصدر نفسه ٦٥.

(٦) من هؤلاء الباحثين الذين درسوا قضية الشعر فى الإسلام وموقف الإسلام منه الأستاذ الدكتور سعيد منصور فى كتابيه: حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية وصدر الإسلام (دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٦هـ سنة ١٩٧٦م) الفصل الرابع والخامس والسادس. و رؤية جديدة فى دراسة الأدب العربى فى عصر صدر الإسلام (طبع بمؤسسة العهد - الدوحة - قطر سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م) ص ٩: ٢٧.
والأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة فى كتابه دراسات فى الشعر العربى - تحليل لظواهر أدبية وشعراء (دار المعرفة الجامعية-الإسكندرية سنة ١٩٨٣م) جـ ١ ص ٢١:٨٢ تحت عنوان: "الإسلام والشعر".
والدكتور سامى مكى العانى فى كتابه الإسلام والشعر (العدد ٦٦ من سلسلة عالم المعرفة - الكويت سنة ١٩٨٣م.

ويكفى أن نشير إلى أن قصيدة سحيم اليائية - وهى أروع ما قال - من ثمرات ذلك العصر، وقد لفتت انتباه القدماء وحازت إعجاب كثير منهم، وكان بعضهم يسميها الديباج الخسروانى، وقد اقترن ذكر سحيم بهذه القصيدة من دون شعره كله حتى صار لايعرف إلا بها. وشعر سحيم فى الإسلام أقوى فى تصورى مما قاله فى الجاهلية، وقد يكون للنضج الفنى والعامل الزمنى دور فى ذلك، بمعنى أنه كان لايزال فى أطوار النضج، لكن هذا أيضاً يؤكد ما نقوله؛ فقد ساعده الإسلام إذن على النضج وساعده على التطور والنبوغ، ولم يحل بينه وبين الوصول إلى ما وصل إليه. ولو كان الإسلام قد أضعف الشعر كما قيل لتوقف نضجه أو لعاد القهقرى ولما أتيح لنا أن نقف على هذا الشعر الرائع الذى خلفه فى الإسلام.

ويشيع فى شعر سحيم كما يشيع فى شعر سائر العبيد أسلوب القص الشعرى(١)، غير أن سحيماً كان أكثرهم نضجاً فيه، وربما كان مرجع هذا النضج تأثره بالقصص القرآنى، وهو أحسن القصص كما يقول عز وجل(٢). وقد رجح لدينا هذا الافتراض حين فصلنا بين شعره فى الجاهلية وشعره فى الإسلام؛ حيث خلا الأول أو كاد منه بينما امتلأ الثانى به.

ويصدر سحيم فى بعض شعره عن روح الإسلام وتعاليمه نحو قوله:

«عميرة ودع إن تجهزت غاديا   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا».

وقد تمثل به النبى صلى الله عليه وسلم فيما قيل(٣)، وكان عمر يستجيده منه ويقول لو قلت شعرك مثل هذا أعطيتك عليه(٤)، أو لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك(٥). وكأن عمر يفتح عينيه أو ينبهه إلى الطريق المثالية للشعر فى الإسلام، لكن هذا النوع من الشعر قليل جداً عنده، ولا يتعدى البيت أو البيتين ليشمل القصيدة كلها، وحتى قصيدته اليائية التى بدأها بهذا المطلع الرائع مليئة بالتجارب المكشوفة والغزل الحسى وذكر الخمر، ولعل هذا النوع - الذى يصدر فيه الشاعر عن حس إسلامى، أوضح عند عامر ومحرر؛ ولا عجب فقد كانا أعمق إسلاماً من سحيم، وكان عامر صحابياً جليلا، وربما كان

---

(١) خصصنا لذلك الأسلوب جزء فى الفصل الأخير.

(٢) يقول تعالى فى سورة يوسف الآية رقم ٣ "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين".

(٣) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ ٢٢ ص ٣٠٣ - شرح شواهد المغنى للسيوطى ص١١٢.

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام،ت.محمود محمد شاكر (مطبعة المدنى القاهرة، بدون تاريخ)السفرالأول ص١٨٧.

(٥) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٢ ص ٣٠٤، ٣٠٥.

محرر كذلك، وقد ابتعدا عما نهى الإسلام عنه من الهجاء القبيح والغزل الصريح والتشبيب بالنساء والتفاخر بالأنساب، وما وصلنا من شعرهما يدور حول بعض المواقف الذاتية والرثاء، ولا يكاد يتعدى ذلك إلى غيرهما من الموضوعات.

ونلمح أثر الأسلوب القرآنى وما جاء به من المعانى والأحكام فى قول عامر:

«إنى وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقــــه

كل امــــرىء مجاهد بطوقـــه ... كالثور يحمى جلده بروقه».(١)

فالموت يذاق، وكأنه ينظر إلى قول الله عز وجل: (كل نفس ذائقة الموت)(٢). والجهاد بقدر الطاقة والمستطاع إذ (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)(٣). والأجل محيط بصاحبه فلا ينفع الجبان الفرار كما لم ينفع أولئك الذين اعتذروا عن الجهاد خوفاً من الموت أو القتل (...يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم...)(٤).

ونلمح ذلك أيضاً فى قول محرر:

«لو رد ذو شفق حمام منية ... لرددت عن عبد العزيز حماما».(٥)

فما أعجز الإنسان حيال الموت، إنه إن جاء لا يرد، وهل يستطيع أحد أن يرد ما قدر الله ؟!: (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين)(٦).

وقد وقف سحيم مع الموت وقفة طويلة فى قصيدته الدالية(٧). ولم نعرف أحداً من الشعراء العبيد وقف مثل هذه الوقفة فى الجاهلية أو صدر الإسلام. وقد ذكرنا قبل أن الموت من الموضوعات التى دار حولها شعرهم، لكننا ذكرنا أيضاً أن هذا الموضوع لم يستقل بذاتـــه

---

(١) الإصابة جـ٢ ص ٢٤٧.
(٢) الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران. ومن الآية ٣٥ الأنبياء و٥٧ العنكبوت.
(٣) سورة البقرة من الآية الأخيرة.
(٤) سورة آل عمران من الآية ١٥٤.
(٥) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٥٦.
(٦) سورة الواقعة الآيات من ٨٧:٨٣.
(٧) ديوان سحيم ص ٤٠، الأبيات من ١٤:٥.

وأنه كان يأتى فى ثنايا الموضوعات الأخرى وفى أبيات قليلة مفردة. ولم يقف سحيم فى الجاهلية مثل هذه الوقفة التى وقفها فى الإسلام طولا وعمقاً أو (كماً وكيفاً) كما يقال، فالموت لايخشى أحداً مهما عظم، وليس لأحد خلود فى الدنيا:

«رأيت المنايا لم يهبن محمداً ولاأحداً ولم يدعن مخلـــداً
ألا لا أرى على المنون مخلدا ولاباقياً إلا له الموت مزصداً».

هكذا يترصد الموت الإنسان فى كل سبيل، ولابقاء لأحد فى الدنيا، حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال فيه عز من قال: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون)[1]؟ وقال: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيْه فلن يضر الله شيئاً[2]. وينظر سحيم إلى قول الله عز وجل: (ويقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا ....) فيقول:

«سليقاك قرن لاتريد قتاله كمى إذا ماهم بالقـرن أقصدا
بغاك وما تبغيه إلا وجدتـه كأنك قد أوعدته أمس موعدا».

وما دام الموت لايفرق بين كبير وصغير ولا بين عظيم أو حقير ولابين غنى أو فقير فعليك أن تتوقعه فى كل لحظة:

«فإلا تلاق الموت فى اليوم فاعلمن بأنك رهن أن تلاقية غداً».

وعندئذ تطرح فى لحد ضيق ينسيك كل ماشهدت فى الحياة من النعيم:

«فتصبح فى لحد من الأرض ثاوياً كأنك لم تشهد من اللهو مشهـدا
ولم تله بالبيض الكواعب كالدمـى زماناً ولم تقعد من الأرض مقعداً
ولم تزع الخيل المغيرة بالضحـى على هيكل نهد المراكب أجـردا»

ولانعلم أحداً من العبيد تطرق إلى مابعد الموت من ذكر القبر ومافيه من الأحوال التى تنسى صاحبها كل ما ذاق من اللذائذ فى الحياة غير سحيم فى هذه اللقطة السريعة، وكأنه كان يعبر بها عما جاء فى القرآن والحديث الشريف من عذاب القبر ونعيمه. إلا أنه لايكاد يرى فى هذه الأبيات سوى وجه واحد، وحتى هذا الوجه لايفصل فيه. ولايتطرق فى شعره عن الموت إلى مابعده من بعث وحساب وعقاب وجنة ونار، وكأن الموت فى ذاته قد شغله عما وراءه.

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ٣٤.
(٢) سورة آل عمران من الآية رقم ١٤٥.

ومن المعانى التى نظر فيها إلى القرآن وأسلوبه غير الموت، بقاء النافع وذهاب الضار: (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) (١). وكذلك القول والكلام، فما ينفع منه يبقى، وما لاينفع يذهب أدراج الرياح:

«فقلت له والقول يؤثر كله　　فيبقى ويفنى منه ماليس باقيا». (٢)

والحب يتغلغل فى القلب حتى يمس الشغاف:

«فلست وإن برحت ساليـــا　　وقد شك منى هواها الشغافــــا».(٣)

وكأنه ينظر إلى ما جاء فى قصة يوسف وقول النسوة عن امرأة العزيز: (قد شغفها حبا) (٤). ويشبه سحيم السياط - وقد جلد - بالشياطين على غير عادة العبيد فى التشبيه بالمحسوسات وكأنه ينظر إلى تلك الشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم: (طلعها كأنه رءوس الشياطين) (٥):

«أبا معبد بئس الفراضة للفتى　　ثمانون لم تترك لحلفكم عبـــــدا

كسونى غداة الدار سمرا كأنها　　شياطين لم تترك فؤاداً ولا عهداً».(٦)

والعبد فى الإسلام غير العبد فى الجاهلية، فهو أخ ومولى وحليف. يقول الله عز وجل: (فإخوانكم فى الدين ومواليكم) (٧). ويقول سحيم عن نفسه مخاطباً سادته من بنى الحسحاس:

«أخوكم ومولى خيركم وحليفكم　　ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا».(٨)

ويتردد فى شعره كثير من الألفاظ الخاصة بالإسلام أو التى أخذت فى الإسلام طابعاً خاصاً ككلمة: «جهنم» فى قوله:

«لعمرو أبى المذكين والمضرم الذى　　يشب ولا يألو على جهنما».(٩)

---

(١) سورة الرعد من الآية ١٧.
(٢) ديوان سحيم ص ٦٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٤.
(٤) سورة يوسف من الآية ٣٠.
(٥) سورة الصافات - الآية رقم ٦٥.
(٦) ديوان سحيم ص ٦٦. وفى البيت الأول يستخدم الشاعر كلمة "الفراضة" وهى من المصطلحات الإسلامية.
(٧) الأحزاب من الآية ٥.
(٨) ديوان سحيم ص ٥٦.
(٩) المصدر نفسه ص ٦٥.

و «الإمام» بمعنى الحاكم أو القاضي وما يحدث بين يديه من الجدال بين الخصوم:

«أخو الذل لم يدفع عدوا ولم يُخف   له جدلا عند الإمام خصيم».(١)

و «الغواية»: وهى كل ماشغل الإنسان عن طاعة الله وسار به فى طريق الضلال:

«فعزيت نفسى واجتنبت غوايتى   وقربت حرجوج العشية ناجياً(٢)

يقول ذلك بعد تجربة من تجاربه المكشوفة فى الغزل الصريح. و«الحرام» و«التحريم» و «المحرم»:

- «إن تقتلونى فقد أسخنت أعينكم   وقد أتيت حراماً ماتظنونـــــا».(٣)

- «وإلا فحـــو حيـــن تندى دماثه   على حرام حين أصبح غاديــــا».(٤)

- «وما تكتمين أن تكونى دنيئـــة   ولا أن تكونى يا ابنة الخير محرما».(٥)

وتردد لفظ الجلالة «الله» فى شعره كثيراً خاصة فى معرض القسم: «وقد أقسمت بالله» ص ٤٩، «أبا معبد والله ماحل حبها» ص ٦٦، وتكرر أربع مرات فى اليائية وحدها: «عمرك الله»، «سقاها بها الله»، «فأشهد عند الله»، «أعلى الله». وتكرر لفظ الرب مرتين: «وراهن ربى» و «ولكن ربى».

وحين فرض الله عز وجل على المسلمين الجهاد فانساحوا فى الأرض وخرجوا إلى بلاد الشام والعراق كان شعر الفتوحات ومافيه من وصف للبيئات الجديدة، وما فيها من المشاهد المختلفة، ولم يكن سحيم فيما نظن من الفاتحين، وعلى الرغم من هذا وجدنا فى بعض شعره لمحات تشير إلى تلك البيئات الجديدة وتوقفنا على بعض مافيها وخاصة جهة الشام؛ فهو يشبه النساء بدمى ميسان وأصنامها(٦)، وميسان موضع بالشام. ويقـرن بياض

---

(١) ديوان سحيم ص ٣٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٥٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٦٦.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٥.
(٦) المصدر نفسه ص ٤٣. وقد ذكرها "ميسنان" وعلق الأحول - وهو أحد رواة شعره - بقوله: أراد ميسان وميسان الاسم الصحيح لها.

المرأة بالبرد الذى يتساقط فى صرخد، وصرخد أيضاً بالشام(١). ويذكر النبط، ومدهم «العروش الطرافا» فى حديثه عن المطر(٢). كما يذكر سوق «عسقلان» وهو سوق كانت النصارى تحجه فى كل عام، ويشبه به الوحوش فى كثرتها وشدة ازدحامها فى مكان ما(٣). وذلك كله فى قصيدة واحدة لم يذكر شارح الديوان مناسبتها ولم يعلق على مثل هذه اللمحات.

فإذا فتشنا فى شعر سحيم عن الأحداث العظيمة التى مرت بالإسلام والمسلمين كالانتصارات الكبرى والأحداث السياسية وما أعقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من المحن كالردة والاستخلاف، ثم ماكان بعد ذلك من الفتوحات وغيرها فلن نعثر على شىء، على الرغم من أن سحيماً كان من بنى أسد، وبنو أسد كانوا من المرتدين، وقد ظهر فيهم أحد المتنبئين. ويبدو أن انشغاله بنفسه قد صرفه عن هذا كله، ويبدو أيضاً أن الإسلام لم يتعمق نفسه فظل على ماكان عليه فى الجاهلية من العبث والمجون، ولم ينصرف عنهما حتى قتل، ولو تعمق الإسلام نفسه لرأينا صورة أوضح من تأثير الإسلام فى شعر العبيد، خاصة أن من تعمق الإسلام نفسه كعامر لم يصلنا من شعره إلا النذر اليسير. وبقى التأثير الأجنبى أكثر وضوحاً، لأنه لم يختص بطائفة من العبيد دون أخرى، ولم يقتصر على فترة دون سواها.

وقبل أن نخوض فى هذا التأثير نسجل أن الجزيرة لم تكن فى الجاهلية بمعزل عن المؤثرات الأجنبية، وأن وسائل الاتصال بين العرب وغيرهم لم يقتصر - كما تصور بعض الباحثين - على التجارة والإمارات المجاورة لبلاد الفرس والروم كإمارة المناذرة وإمارة الغساسنة، والطوائف اليهودية والمسيحية فى الشمال والجنوب وفى يثرب، بل كان هناك ماهو أهم، الصراع، وخاصة فى الجنوب مع الأحباش(٤)، والعبيد المجلوبون والأسرى المسترقون، ولم يكونوا من القلة بحيث نتجاهل أو نتغاضى عن دورهم فى عملية الاتصال. وليس يعنينا الآن دور العبيد فى هذا الاتصال، وإنما يعنينا الأثر الذى تحقق فى شعرهم من جرائه. وأظن أنه أصبح من الواضح أننا نبحث عن الأثر الحبشى على وجه الخصوص، باعتبار أن سائر العبيد من الأحباش، وأن الحبشة كانت أكثر تأثيراً من غيرها لما كان بينها وبين العرب من الصلات ومن الاحتكاك والصراع.

---

(١) ديوان سحيم ص ٤٤. (٢) المصدر نفسه ص ٤٨. (٣) المصدر نفسه والصحيفة.

(٤) تتبع الدكتور عبدالمجيد عابدين الصراع العربى الحبشى قبل الإسلام وفصل الحديث فيه فى الأبواب الثلاثة الأولى من كتابه: "بين الحبشة والعرب".

وأول هذا التأثير الفحش والمجون فـ «من المعروف أن الاحباش لكونهم أمة تعيش على الفطرة لايتورعون فى التعبير عن انفعالهم وغرائزهم، والعرب أنفسهم يعرفون فيهم هذه الطباع؛ فقد حكم النبى صلى الله عليه وسلم على عبيد الحبشة بأنهم قوم «إن جاعوا سرقوا وأن شبعوا زنوا» ... وفى الأدب الحبشى بعض الأناشيد الدينية يسمونها (ملكىء) وهى عبارة عن شعر يصف القديس أو الشهيد وصفاً دقيقاً من رأسه حتى أظافر أصابع رجليه، وهو لايتحرج من ذكر القبيح» (١).

وقد رأينا كيف شاع هذا اللون من الشعر عند سحيم، وكيف اعتبره العقاد - بلا منازع - رائداً للشعر المكشوف فى الأدب العربى.

ولقائل أن يقول إن سحيماً قد تأثر فيه بامرىء القيس. ونحن لاننكر تأثير امرىء القيس فى سحيم، لكن هذا لاينفى وجود الأثر الأجنبى، بل إننا نفترض أن امرأ القيس نفسه قد تأثر فى غزله الحسى والمكشوف بالأحباش؛ فهو من قبيلة كندة، وكندة كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين «كانت متجه أنظار الغزاة من الأحباش منذ قديم الزمان، فغزاها أفيلاس فى القرن الثالث الميلادى، ثم أخضعها أبرهة وولى عليها يزيد بن كبشة فى القرن السادس الميلادى» (٢).

وهو أيضاً من أبناء الملوك الذين تعج قصورهم ودورهم بالعبيد والقيان، وأكثر العبيد كما قلنا من الحبشة. ولم يكثر امرؤ القيس من هذا اللون مثلما أكثر سحيم، ولم يبلغ فيه مبلغه. وقد كان سحيم فيما يبدو قريب عهد بالحبشة، لأنه كان يرتطن لكنه حبشية، ينشد الشعر فيقول أحسنك والله فيستبدل الكاف بالتاء، واستخدام الكاف للمتكلم والمخاطب من سمات اللغة الحبشية (٣).

---

(١) بين الحبشة والعرب - د. عبدالمجيد عابدين (دار الفكر العربى - القاهرة بدون تاريخ) ص ١٢٤، ١٢٥. وما قيل عن عبيد الحبشة من أنهم إن جاعوا. إلخ منسوب إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى قصة عرض سحيم عليه للشراء ورفضه له. وقد أوردها ابن سلام فى طبقاته (١٨٧) وابن قتيبة فى الشعر والشعراء جـ١ ص ٤٠٨ وأبو الفرج فى الأغانى جـ٢٢ ص ٣٠٥ وابن شاكر فى فوات الوفيات ت. إحسان عباس المجلد الثانى ص ٤٣ وعبدالقادر البغدادى فى الخزانة جـ٢ ص ١٠٤.

(٢) بين الحبشة والعرب ص١٢٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٦.

وقد وجدت في شعره كلمة «الورق» بمعنى المال في قوله:

«أشعار عبد بني الحسحاس قمن له   يوم الفخار مقام الأصل والورق».(١)

والورق هو الذهب في اللسان الحبشي(٢).

ومر بنا قوله:

«لعمرو أبي المذكين والمضرم الذي   يشب ولا يألو على جهنمـــــا».

وكلمة «جهنم» - وقد استخدمها القرآن الكريم - من الكلمات الحبشية، وإن كانت قد انتقلت إليها من لغات أخرى(٣).

ومن الأشياء الأخرى التي أثر فيها الأحباش على شعر العبيد المغالاة في الفروسية، فالأحباش كما يقول الدكتور أحمد محمد الحوفي «صبر على القتال خفاف الحركة»(٤). ومن الصفات الأصيلة فيهم كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين «الصبر في القتال وجراءة القلب وقوة البنية وخفة الحركة»(٥). وقد رأينا كيف كانت الفروسية من الاتجاهات المميزة في شعر العبيد، وقد مثل هذا الاتجاه أوضح تمثيل عنترة بن شداد، وأمه كما هو معروف أمة حبشية يقال لها زبيبة، وكان له أخوة منها عبيد(٦). وقد ظهرت الفروسية عند كثير من العرب، وتعددت في دوافعها وأشكالها(٧)، لكنها تميزت عند عنترة بشيء من الغلو. وهذا ما عنيناه من قولنا بالتأثير الحبشي فيها.

وقد رأينا كيف كان الشنفرى يقص في مغامراته بعض الأشياء التي لاتصدق كسبقه للطير(٨)، ودخوله في واد بعيد ترعى فيه الذئاب والأسود بين الأشجار الكثيفة الوارفة وتألفه الجن(٩). والميل إلى الخرافة سمة من سمات الأدب الحبشي(١٠). فهل هناك علاقـــة

---

(١) ديوان سحيم ص ٥٥.

(٢) بين الحبشة والعرب - هامش ١ ص ٣١.

(٣) بين الحبشة والعرب ص ١٠١.

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي - د. أحمد محمد الحوفي (مكتبة نهضة مصر بالفجالة - بدون تاريخ) جـ١ ص ٩٢ وقد أشار إلى الأثر الحبشي في فروسية عنترة.

(٥) بين الحبشة والعرب ص ١٢٩. وقد اعتبر الغلو في فروسية عنترة من التأثير الحبشي.

(٦) الأغاني (ط. بيروت) جـ٨ ص ٢٣٥.

(٧) الفروسية العربية في العصر الجاهلي د. سيد حنفي حسنين (دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠م) ص ٣٨:٩.

(٨) في حديثه عن القطا باللامية. أمالي القالي جـ٢ ص ٢٠٧.

(٩) الطرائف الأدبية ص ٣٨.

(١٠) بين الحبشة والعرب ص ١٣٢، ١٣٣.

بين هذه وتلك؟ ربما وإن كنا على يقين أن لكل أمة رصيداً من الخرافة يمتلىء به الأدب الشعبى، وقد يكون الشنفرى صادقاً فيما ذكر وإن أحاط الحقيقة بشىء من المبالغة، وقد برر أحد الباحثين المعاصرين قصة سبقه للطير(١)، وهى أشد شىء فى شعره يربطه بالخرافة والوهم.

وتلفتنا قصيدة أم السليك بوزنها الغريب الذى لم نعتده فى شعر العبيد، ولافى شعر غيرها من المعاصرين لها وهو «وزن نادر من أوزان الشعر. قال التبريزى: من مشطور المديد والقافية متدارك. وقال أبو العلاء: هذا الوزن لم يذكره الخليل ولاسعيد بن مسعدة. وذكره الزجاج وجعله تابعاً للرمل»(٢). وقد رجحنا - فى جزء تال - ما ذكره الزجاج واعتبرناه من مجزوء الرمل(٣). وقد تكون أم السليك وهى أمة سوداء من الحبشة قد تأثرت فيه بما لديها فى تراث الأحباش من الألحان السهلة الخفيفة الصالحة للإنشاد والرقص والغناء، فيكون هذا أثراً - يضاف إلى ما سبق - من الآثار الأجنبية فى شعر العبيد.

(١) الدكتور عبدالحليم حفنى فى كتابه "شعر الصعاليك منهجه وخصائصه" ص ٢٣٨، ٢٣٩.
(٢) هامش رقم ٣ ص ٩١٤ - القسم الثانى من شرح ديوان الحماسة للمرزوقى. ت. أحمد أمين وعبدالسلام هارون.
(٣) فى دراستنا للأوزان بالفصل الأخير.

الفصل الخامس

خصائص أسلوبية

١- أسلوب القص الشعرى

٢- التصوير والخيال

٣- اللغة

٤- الأوزان

١- أسلوب القص الشعرى

شاع فى شعر العبيد استخدام أسلوب القص الشعرى، خاصة عند سحيم والسليك والشنفرى، وهو أسلوب يعمد فيه الشعراء إلى عرض التجربة الشعرية أو جزء منها فى شكل يقرب من الشكل القصصى. حتى لقد رأى بعض الباحثين المحدثين فى مثل هذا الأسلوب مبادىء الفن القصصى(١)، واعتبره بعضهم قصصاً بالفعل.(٢)

وهو لايخرج فى تصورى عن إطار الشعر، ولايمكن إدراجه بحال فى إطار القصة بمعناها الفنى؛ فكل النماذج التى وردت منه فى الأدب القديم سواء عند امرىء القيس الذى يعتبرونه رائداً لهذا النوع من الشعر، أو عند الصعاليك أو حتى عند العبيد، لاترقى إلى المستوى القصصى بعناصره الفنية المعروفة. وليس هذا حكماً عليه؛ فللقصة طبيعتها وللشعر طبيعته، وقد أثرى هذا الأسلوب الشعر القديم كما أثراه فى العصر الحديث الإفادة بالفنون الأخرى كالسينما والمسرح والرسم والنحت، وإنما هى مجرد نقاط نضعها فوق الحروف فى بداية حديثنا عن هذه الظاهرة فى شعر العبيد.

ولعلنا لانعدو الصواب إذا قلنا إن العبيد كانوا أكثر استخداماً لهذا الأسلوب وأبرع توظيفاً له من غيرهم. ولعل هذا راجع من بعض الوجوه إلى حياة العبيد نفسها؛ فهم فى الطبقة الدنيا من المجتمع، والشعر لايقولونه إلا تعبيراً عن النفس، وهو فى بعض الأحيان مادة سمرهم فى الليالى الطويلة، وفى المراعى الممتدة، وفى العزلة المضروبة عليهم داخل القبيلة وخارجها. وخير مادة للسمر فى المجتمعات البدائية القصص والخرافات والحكايات الشعبية، فماذا يضير الشاعر العبد إن وظف جانباً من شعره لهذا اللون، وحرص فيه على مايجده فى تلك القصص من الإثارة والتشويق والسرد والحوار وإطالة الوصف؟

والمتتبع لأشعار العبيد يجد فيه نماذج كثيرة ومتعددة لهذا الأسلوب البدائى من أساليب القص؛ فى وصف عنترة للمعارك ومايدور فيها،(٣) وفى مشهد الثور وصراعه مع البـــرد

---

(١) د. عبدالحليم حفنى فى كتابه شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص٤١٠.
(٢) د. يوسف خليف فى كتابه الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص ٢٧٦:٢٨٠.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ٤٣:٤٥، ١٠٦:١٠٨، ١١٩:١٢٠، ١٥٠:١٥٣، ١٥٥:١٨٤.

والكلاب من أجل البقاء عند سحيم.(١) وفي أجزاء كثيرة من لامية الشنفرى.(٢) في تمثيلها لنفسية الصعلوك وعزلته وابتعاده عن الناس وشعوره المستمر بالمطاردة والصراع وما فيها من مشاهد للبيئة كجماعات النحل والقطا والذئاب. وفي بعض مغامرات السليك في الصعلكة، كتلك المغامرة التي يصف فيها خروجه ورفيقين له للسطو على أحد البيوت المنفردة، فهو يبدؤها من النهاية حيث نراه هو ورفيقيه وهم يطردون الإبل أمامهم بعد أن قتلوا صاحبها وغطوا جسده بالدماء، ثم يذكر ماكان في المكان من هدوء قبل الغارة وأمان، حتى إن الطير ليمر على أهله دون أن يتشاءموا منه، ويختم بالسبب الذي دفعه ودفع صاحبيه إلى هذا العمل الشنيع فيذكر الفقر والجوع الشديد، ولاينسى في أثناء ذلك أن يصور الذعر الذي اعترى الإبل، وحال أهل القتيل قبل الغارة وبعدها، والفرح الذي ملأ نفسه ونفس زميليه بالنجاح:

«وعاشية راحت بطاناً ذعرتهـــــا	بسوط قتيل ومطها يتسيــف
كأن عليه لون برد محبـــــــــر	إذا ما أتاه صارخ يتلهــــــف
فبات لها أهل خلاء فناؤهـــــــم	ومرت بهم طير فلم يتعيفــوا
وباتوا يظنون الظنون وصحبتـــــي	إذا ماعلوا نشزاً أهلوا وأوجفوا
وما نلتها حتى تصعلكت حقبـــــة	وكدت لأسباب المنية أعــــرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني	إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف».(٣)

وربما حاز مثل هذا اللون إعجاب المجتمع ونال بعض التقدير الفني، فما زالوا به يطورونه وينمونه، ويزيدون فيه، فظهرت أشكال أرقى، فيها إلى جانب مامضى اهتمام بالبدء والختام وتسلسل الأحداث وتحديد للزمان والمكان والشخوص وإبراز للصراع بعناصره المختلفة وخاصة العامل النفسي.

ونرى مثل هذه الأشكال عند كثير منهم وبخاصة سحيم، وهو من المخضرمين وقد عاش - كما قلنا - أكثر من تجربة، ووجد في هذه التجارب على كثرتها مادة خصبة للقـــص

---

(١) ديوان سحيم ص ٢٨، ٣٠.
(٢) أمالي القالي جـ٣ ص ٢٠٥:٢٠٨.
(٣) الأغاني (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٠ص ٣٧٨.

الشعرى، وفى قصيدته اليائية وحدها أكثر من قصة، منها تلك القصة الطريفة التى يذكرها بعد بيتين يبرزان إحساسه الحاد بالهوان مباشرة، وكأنها - بما فيها من فخر واعتزاز - رد فعل مباشر لهذا الإحساس.

وربما كانت هذه القصة مفتعلة، حيث نراه وهو العبد يجلس بين مجموعة من النساء وقد اختطفن مسواكه وأهدينه خاتماً مذهباً، ثم يحدد المكان فإذا هو رابية لينة دون الكثيب، يحيط بها الخصب من كل جانب، أما الزمان فليل يمتد حتى الفجر. وتبدأ الأحداث بحوار طريف بينه وبين مجموعة من النساء نحس من خلاله بمدى رغبتهن فى الانطلاق واللعب بعيداً عن أعين الأهل والرقباء. ويمتد اللعب، وتلقى الأردية عن الأعطاف، ويكتفى سحيم بهذه الإشارة لأن ماوراءها معروف، ويأتى الصباح فتعود النسوة من حيث أتين، ويلقين أنفسهن فى البيوت صرعى، وكأنهن قد شربن خمراً كثيراً من كثرة اللعب.

والتجربة على قلة أحداثها ثرية بالوصف، وصف المكان والشخوص، حتى الفجر - وهو مجرد زمان - يشبهه سحيم بفرس أشقر عليه ثياب بيضاء، وفيها كذلك وصف نفسى دقيق لهؤلاء النسوة وهن يخفضن الشخوص فى طريق العودة وكأنهن قد «قتلن قتيلا» أو «أصبن الدواهيا» وفيها تسلسل زمنى للأحداث ووصف لها من الخارج على الرغم من أن الراوى مشارك فيها، بل هو البطل الحقيقى للقصة. يقول سحيم:

«تعاورن مسواكي وأبقين مذهبـــا	من الصوغ فى صغرى بنان شمالياً
وقلن ألايا العبن مالم يردنــــــا	نعاس فإنا قد أطلنا التنائيــــــا
لعبن بدكداك خصيب جنابـــــــه	وألقين عن أعطافهن المراديــــا
وقلن لمثل الرئم أنت أحقنـــــــا	بنزع الرداء إن أردت تخاليــــا
فقامت وألقت بالخمار مدلـــــــة	تفادى القباح السود منها تفاديا
وما زمن حتى أرسل الحى داعيـــا	وحتى بدا الصبح الذى كان تاليا
تمارين حتى غاب نجم مكبـــــــد	وحتى بدا النجم الذى كان تاليا
وحتى استبان الفجر أشقر ساطعا	كأن على أعلاه سبأ يمانيــــــا
فأدبرن يخفضن الشخوص كأنمـــا	قتلن قتيلا أو أصبن الدواهيـــا

وأصبحن صرعى فى البيوت كأنما   شربن مداماً مايجبن المناديا ».(١)

وفى قصيدته الميمية التى مطلعها:

هما جارتاك اليوم شطت نواهما   وأصبح يبكى ذا الهوى طللاهما.(٢)

قصة أخرى تبدأ هذه المرة من النوى والهجر، حيث نرى الشاعر وحيداً بين الأطلال، وما أدراك ما الأطلال؟ كتاب طويل يحوى فى كل سطر ذكرى، وفى كل ذكرى حياة، تثير الجوانح وتفيض الدموع، ولكن هل يدنى الدمع نوى الحى؟!

«وفاضت دموع العين منى ولاأرى   نوى الحي يدنيها جميعاً بكاهما».

وتنفض الأطلال عن ذاكرته تراب السنين، فيمر بمخيلته شريط طويل، يبدأ يوم جاء غلاماهما يعرضان عليه ويتدلل، ويوم جاءا - هما هما - فوق جملين اثنين يدلان على تنعمهما، فهما فيما يبدو من نساء الطبقة (الأرستقراطية):

«وجاء غلاما أم عمرو وتربها   وطاوعتا ذانية وعصاهمـــــا

بـأحمر ذيال وآدم تتقـــى   عيونهما اليسرى جديلى براهما».

ويؤخذ الشاعر بجمال الناقتين أو الجملين فيستطرد قليلا فى وصفهما، فهما إذا ما أنيخا أرسلا صدريهما فوق أرض سهلة رخوة، وكأنه لايزال يسمع صوتهما الذى يشبه صياح نسرين منقضين:

«إذا ما أنيخا أرسلا كلكليهما   بمتنين من جرعاء رخو حصاهمـا

كأن صيـاح ملحمينَ تقلبـــا   بصيدين فانقضا صياح شباهمـــا».

وتمضى القصة فى وصف دقيق للناقتين والمرأتين، ثم يسرد الشاعر بعض الأحداث التى تلت مجيئهما؛ إذ أخذن يعرضن بما لديهن من ثراء وجمال، فى محاولة مستميتة لجذب قلبه:

«أخذن بألفى درهم كسوتيهما   فأحسن مكسوين إذ كسيا هما

---

(١) ديوان سحيم ص ٢٦:٢٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٠ وما بعدها.

دوائب حتى قلت لوجن مركب ... من الحسن جنا فاستطيرا كلاهما
فلمـا قضين الشد من كل عقدة ... وكانت نوى علوية من نواهمـا
وقمـن كما قام المها قابل المها ... وهدين بيضاوين عبل شواهمـا
تمايلن بالأعطاف من كل جانب ... كما سال منزوفان لدن مطاهمـا».

وفجأة تنتصب أمام الشاعر صورتهما حين رآهما على غرة يدقان مسكاً وقد انحسر البرقعان عن وجهيهما فيتحول إلى ذئب ويتحولان إلى فريسة:

«وجدتهما يوماً وللصيد غرة ... تدقان مسكاً مائلا برقعاهما».

وحين يتاح لهن ماكن يحلمن به، وحين يقع سحيم فى الشباك وهو يظن أنه الوحش وأنهن الفريسة يتحول المشهد إلى (مندبة) تثير الضحك، فلطالما أراد وتمنع، ولطالما أردن وسعين، وعندما حان اللقاء:

«بكت هذه وارفض مدمع هذه ... وأذريت دمعى فى خلال بكاهما
تمنيـت أن ألقاهما وتمنيا ... فلما التقينا استحييا من مناهما».

ويخلص من هذه القصة إلى أن المرأتين جديرتان بالتقدير والثناء عليهن حتى إنه لو - وتأمل مغزى «لو» فى هذا الموضع بالذات - كان مختاراً لنفسه ولصاحبه زوجين من الناس لاختارهما دون غيرهما.

«فلو كنت مختاراً لنفسى وصاحبى ... من الناس بيضاوين قلت هما هما».

ألا يبدو فى مثل هذه القصة بعض خصائص عمر بن أبى ربيعة وخاصة فى غزله القصصى؟ (التمنع، التعريض، التصريح، اللقاء، ثم التعفف فى كبرياء) بالإضافة إلى العناصر الشكلية كالاتكاء على (الحوار - السرد - الوصف - تحديد الزمان والمكان وتفصيل الأحداث - الإثارة والتشويق - الصراع - النمو من البداية حتى الانتهاء)؟!

لقد ترك سحيم بصمات واضحة فى كثير من الشعراء الذين جاءوا من بعده(١)لافى عمر

---

(١) أشار الدكتور عبده بدوى فى كتابه الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى ص ٨٠ إلى تأثر بعض الشعراء بسحيم، وخص منهم عمر فى غزله القصصى.

فحسب - بهذا اللون الذى أكثر منه وأجاده ولفت به الأذهان إليه. وليس سحيم وحده هو الذى برع فيه من العبيد، بل برع فيه أيضاً الشنفرى والسليك. يقول الدكتور يوسف خليف: «وهل بائية السليك إلا قصة بطلاها الشاعر وصاحبه ومسرحها تلك المهامة الرملية التى تصل بين ديارهما وديار أعدائهما فى الفصل الأول منها ثم ديار الأعداء فى الفصل الثانى، وزمانها تلك الليلة التى خرجا فيها وذلك الصباح الذى بدأ فيه الصراع بينهما وبين أعدائهما ثم تأتى الخاتمة أو الفصل الأخير من القصة بانتصار الصعلوكين واستيلائهما على الإبل ثم عودتهما بها؟ .... وهل تائية الشنفرى المفضلية - إذا أخرجنا منها مقدمتها الغزلية - إلا قصة غزوة من غزواته مع جماعة من رفاقه يقص فيها استعدادهم للغزوة، ثم خروجهم لها، ومضيهم فى طريقهم إليها، ثم تربصهم بأعدائهم وانتظارهم الفرصة المواتية وما كانوا يفعلونه فى هذه الفترة من الانتظار والتربص ثم تحقيق أهدافهم التى كانوا يسعون إليها ثم تعليق من الشاعر على هذه القصة؟» (١). إن هاتين التجربتين لسليك والشنفرى فيهما كثير من ملامح الفن القصصى، وهما ليستا قصتين بالمعنى الدقيق لكلمة قصة ولكنهما بلا شك من المعالم البارزة للتجارب الشعرية ذات الأسلوب القصصى.

ومن التجارب التى صاغها الشنفرى فى هذا اللون قصيدته التى سجل فيها غارته مع مجموعة من الصعاليك على العوص (٢). وقد بدأها بتمهيد سريع لم يستغرق سوى بيت واحد حدد فيه موقفه ممن تلومه وطلب منها أن تتركه وشأنه، ويبدو أنها كانت تخيفه الموت وتلومه على تعريض نفسه له، فقد ذكر أنه سوف يموت ويغيب عن الوجود:

«دعينى وقولى بعد ماشئت إننى   سيغدى بنعشى مرة فأغيب».

وقد يكون إحساسه الشديد بالموت وراء اندفاعه نحو انتهاز الفرص، لذلك فهو يمهد به للمغامرة، وكأنه يضع أيدينا على المفتاح الأول أو السبب الحقيقى وراء غاراته تلك، ثم يتحدث بعد هذه البداية السريعة، وبعد هذا الأمر الحاسم الذى أصدره فى كلمة واحدة «دعينى»

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د. يوسف خليف ص ٢٧٩، ٢٨٠. و القصيدتان المذكورتان إحداهما - وهى البائية بالأغانى (ط. أبوالفضل إبراهيم) جـ٢٠ ص ٣٨٠، ٣٨١، والثانية بالمفضليات جـ١ ص ١٠٦:١١٠.
(٢) الطرائف الأدبية ص ٣٢.

عن الغارة نفسها ويحدد عدد المغيرين فهم «ثمانية» ويصفهم وصفاً دقيقاً، ويذكر الطريق وكيف قطعوه والزمن الذى قطعوه فيه حتى وصلوا إلى الهدف وكان القتال، ويبين دوره ودور ثابت «تأبط شراً» والمسيب، ثم يحدد فى النهاية عدد القتلى، ويختم بالنجاح الذى حققوه. وهو يسرد المغامرة بضمير المتكلمين لأنه واحد من الذين شاركوا فيها. يقول الشنفرى:

«خـرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا ... ثمانية مابعدها مستعتـــب
ســراحين فتيان كأن وجوههـــم ... مصابيح أولون من الماء مذهـــب
نمر برهو الماء صفحا وقد طوت ... ثمائلنا والزاد ظن مغيـــب
ثلاثاً على الأقدام حتى سما بنـــا ... على العوص شعشاع من القوم محرب
فثـاروا إلينا فى السواد فهجهجوا ... وصوت فينا بالصباح المثـــوب
فشـن عليهـم هزة السيف ثابت ... وصمم فيهم بالحسام المسيـــب
وظلت بفتيـــان معى أتقيهـــم ... بهن قليلا ساعة ثم خيبـــوا
وقد خر منهم راجلان وفـــارس ... كمى صرعناه، وخوم مسلـــب
يشن إليه كل ريع وقلعـــة ... ثمانية والقوم رجل ومقنـــب
فلمـــا رآنا قومنا قيل أفلحوا ... فقلنا اسألوا عن قائل لايكـــذب».

على أن هذه التجربة - على مافيها من عناصر قصصية - لاترقى كما قلت إلى أن نعتبرها قصة. وهى أفضل ماوجدت للشنفرى فى هذا المجال. من هنا أعود فأكرر مابدأت به الحديث من أن هذا النوع من الشعر ليس إلا شكلا يعتمد فيه الشاعر على بعض عناصر القص من الإثارة والتشويق وتسلسل الأحداث والسرد والوصف والحوار، وقد يحدد بعضهم فيه الزمان والمكان، وقد يتتبع آخرون جوانب الصراع، ويلمس بعضهم أهم جانب فيه وهو الجانب النفسى، لكن الروح التى تسيطر على التجربة من البداية إلى النهاية تختلف عن روح القصة، ولايمكن أن ننقدها فى النهاية إلا على أنها أسلوب من أساليب الشعر.

٢- التصوير والخيال

يصف أبو الفرج الأصفهانى شعر سحيم بأنه شعر مطبوع.(١) والطبع فى عرف القدماء مصطلح يقابل ما أسموه بالصنعة، وإن كان الدكتور شوقى ضيف يرفض هذا التقسيم ويرى أن الشعر الجاهلى فى جملته شعر مصنوع تتفاوت فيه الصنعة.(٢) إلا أن ما ذكروه يتفق - فى تصورى - وطبيعة الشعر فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام؛ فالشعر المطبوع له سمات تميزه عن شعر الصنعة؛ فهو أقرب إلى الارتجال، خال من التكلف والتعب، قريب إلى الأفهام سريع إلى الوجدان، لاغموض فيه ولا التواء، بل يسيل - كما يقولون - كما يسيل الماء.

ويوضح ابن سلام معنى الطبع فى شعر سحيم فيقول: «وهو حلو الشعر، رقيق حواشى الكلام»،(٣) واصفاً إياه بالرقة والحلاوة. وهذا الذى يقوله ابن سلام وأبو الفرج عن شعر سحيم ينطبق على سائر شعر العبيد، فهو من هذه الناحية شعر مطبوع. ولايعنى وصفنا له بالطبع خلوه من الصنعة، وإنما يعني أن الصنعة فيه قليلة، وأنها تكاد تختفى خلف هيمنة الطبع، أو بالأحرى تصدر من خلاله بخلاف ما كان عليه أصحاب التجويد ممن سموا بعبيد الشعر كزهير وأوس والحطيئة.

ولعل بروز هذه الصفة فى شعر العبيد مرتبط إلى حد بعيد بطبيعة حياتهم؛ فحياتهم وقف على غيرهم، ولايكادون يجدون فيما سخروا فيه من الأعمال ومع تفرغهم لخدمة سادتهم مايكفى للصياغة السريعة فضلا عن التجويد والتحكيك وإعادة النظر. من هنا ارتبط شعرهم فى كثير من الأحيان بالمواقف، وشعر المواقف أقرب ما يكون إلى البديهة والارتجال. ومن هنا كان التشبيه هو أكثر أنواع الصور الخيالية دوراناً فى شعرهم، بينما قلت الاستعارة وبخاصة الاستعارة التصريحية؛ فالتشبية عملية بسيطة لأنه يقوم - كما يقال - على إدراك علاقة من نوع مابين شيئين يشتركان فى صفة أو أكثر فيربط بينهما فى عملية واحدة، أما الاستعارة فعمليتان تتركب إحداهما على الأخرى.

(١) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٢ ص ٣٠٣.
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٩، ٢١.
(٣) طبقات فحول الشعراء ت. محمود محمد شاكر - السفر الأول ص ١٨٧.

وقد وجدت فيما وقفت عليه من شعر العبيد أكثر من مائة وسبعين تشبيهاً بينما لم أجد من الاستعارة بنوعيها إلا مايقرب من السبعين. وفى شعر عنترة وحده ثمانون تشبيهاً وعشرون استعارة منها خمس عشرة استعارة مكنية وخمس تصريحية، ويليه فى الصور الخيالية القائمة على التشبيه والاستعارة سحيم فالشنفرى فباقى الشعراء. وهذا جدول تفصيلى يبين ذلك:

الشعراء	مجموع الصور	تشبيه	استعارة		
			مكنية	تصريحية	مجموع
عنترة	١٠٠	٨٠	١٥	٥	٢٠
سحيم	٧٨	٥٢	٢١	٥	٢٦
الشنفرى	٣٨	٣١	٦	١	٧
باقى الشعراء	١٥	٨	٧	-	٧
مجموع	٢٣١	١٧١	٤٩	١١	٦٠

ولعل فى هذا الجدول تأكيداً لما ذكرت من غلبة التشبية على الصور الخيالية وقلة الاستعارة بالقياس إليه، ولعل هذا راجع - بالإضافة إلى ماذكرت من الطبيعة الخاصة لحياة الشاعر العبد - إلى بساطة الخيال فى تلك الفترة؛ فأهم مايميز الخيال العربى القديم بساطته وبعده عن التركيب والتعقيد، وقد كانت الحياة نفسها بسيطة بصحرائها الممتدة وسمائها المكشوفة وشمسها الضاحية وليلها المقمر وأيامها الرتيبة، والإنسان العربى نفسه إنسان بسيط يعيش فى يومه أكثر مما يعيش فى غده، يقبل الطبيعة على ماهى عليه ولايكاد ينظر إلى ماوراءها، بل يحاول دائماً أن يتكيف معها وأن يعيش خلالها حياة وادعة آمنة، إنه لايطمح أن يعيد بناء الكون، ولايحلم بمدينة فاضلة، ولايرزح تحت وطأة الفكر العميق والثقافات المختلفة والحضارات الضاربة بجذور ممتدة فى أغوار بعيدة معقدة، إنه أقرب إلى طابع الإنسان العملى، أو هو إنسان واقعى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، واقعى فى تصوره، واقعى فى تعامله اليومى مع عناصر الطبيعة من حوله، واقعى فى شعره، واقعى حتى فى تصوره لعالم الغيب وما وراء الطبيعة.(١)

---

(١) النابغة الذبيانى د. عمر الدسوقى (ط٢ لجنة البيان العربى - القاهرة ١٩٥١) ص ٤٦:٤٨.

وإنسان هذه طبيعته، وخيال هذا مداه، لانتوقع أن يجيء شعره غاصاً بالصور مثقلا بالمحسنات، لأن الصنعة البسيطة والخيال البسيط لايولدان إلا شعراً بسيطا. والتصوير عملية معقدة، تقوم على تخيل العلاقات الدقيقة بين الأشياء، ثم تحاول الربط بينها، وتختلف حدة التعقيد من صورة إلى صورة فأشد الصور تعقيداً ما ارتبط منها بالرمز، وأقلها تعقيداً التشبيه، من هنا كثر التشبيه فى شعرهم على نحو مابينا فى الجدول السابق.

والتشبيه بما فيه من تقييد وتجسيد للمعنويات فى صور محسوسة ملموسة لاتستعصى على الإدراك ينسجم والاتجاه الحسى عند الإنسان العربى القديم، وخاصة عند العبيد، فقد كانوا يعيشون فى عزلة، والعزلة تولد الانطواء. ويقرر علماء الطباع أن أهم ما يميز عقلية المنطوى على نفسه الميل إلى التجسيم والاتجاه نحو كل ماهو حسى. (١)

على أن الملاحظ أنهم لم يقصدوا إلى هذه التشبيهات قصداً، ولم تكن غاية فى ذاتها، وإنما كانت وسيلة يؤدون بها مايعتمل فى نفوسهم من المشاعر والأحاسيس وما يدور فى عقولهم من المعانى والأفكار «فهم لظروفهم بعيدون عن البهرج والتصنع، ومن هنا كان التشبيه عندهم وسيلة وليس غاية فإذا أكثروا منه فهذا لطبيعة حياتهم ولحرصهم على التفرس وإنعام النظر واليقظة» (٢) وهم يستمدون هذه التشبيهات من البيئة التى يعيشون فيها بحيوانها ونباتها وظواهرها الطبيعية المختلفة، فقد شبه عنترة سير الرجال فى القتال بالجمال:

«وسارت رجال نحو أخرى عليهم الـ حديد كما تمشى الجمال الدوالح. (٣)

ومشيهم فى السابغات بالسيول:

«إذا مامشوا فى السابغات حسبتهم   سيولا وقد جاشت بهن الأباطح» (٤)

والسهم بالسيور، والشوق بالنار تقدح من الزناد. (٥)

أما سحيم فقد شبه الظليم فى ضخامته وطوله بالسهم الطويل ذى القدد الأربع المغالى به، وشبه عنقه بالسطاع وهو عمود مقدم البيت:

«هبل كمريخ المغالى مجنع   له عنق مثل السطاع قويم» (٦)

---

(١) الشعراء السود - د. عبده بدوى ص ٣٠٨.
(٢) المرجع نفسه والصحيفة.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ٤٣.
(٤) المصدر نفسه والصحيفة.
(٥) المصدر نفسه ص ٤١، ١٠٧.
(٦) ديوان سحيم ص ٣٨.

وشبه قومه فى شدة زحفهم واكتساحهم لعدوهم بالغيث المميل للنبات:

«وكنا لهم كالغيث مال نباته   حيا سنة أزجى إليه الضعائف»(١)

ورايتهم على رءوس الرماح فى القتال بطائر يطير:

«بجأواء جمهور كأن عقابها   إذا رفعت فى قلة الرمح طائر»(٢)

أما الفرس فكالذئب، ذئب القصيمة فى خفته وضموره:

«يفرج عنا كل ثغر نخافه   مسح كسرحان القصيمة ضامر»(٣)

وكالعقاب المنقضة على صيدها حين تبتل بالعرق فى القتال:

«وكل لجوج فى العنان كأنها   إذا انغمست فى الماء فتخاء كاسر»(٤)

وشبه الشنفرى وجوه أصحابه فى إشراقها بالمصابيح ولون الماء المذهب:

«سراحين فتيان كأن وجوههم   مصابيح أو لون من الماء مذهب»(٥)

وفوق السهم بعرقوب القطاة:

«عليه نسارى على خوط نبعة   وفوق كعرقوب القطاة مدحرج»(٦)

وشبه نفسه بالأسد الورد:

«هم عرفونى ناشئاً ذا مخيلة   أمشى خلال الدار كالأسد الورد».(٧)

وبالحية والذئب (٨).

وشبه السليك الدم فوق جسد القتيل ببرد محبر:

«كأن عليه لون برد محبر   إذا ما أتاه صارخ يتلهف»(٩)

ومجامع الأرداف بالنقا وقد درجت عليه الريح:

«كأن مجامع الأرداف منها   نقاً درجت عليه الريح هارا»(١٠)

وقوائم النحام بالمحار:

«كأن قوائم النحام لما   تحمل صحبتى أصلا محار»(١١)

---

(١) ديوان سحيم ص ٥١.
(٢) المصدر نفسه ص٣٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩.
(٤) المصدر نفسه والصحيفة.
(٥) الطرائف الأدبية ص ٣٢.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٤.
(٧) المصدر نفسه والصحيفة.
(٨) أمالى القالى جـ٣ ص ٢٠٦، ٢٠٧.
(٩) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٠ ص ٣٧٨.
(١٠) المصدر نفسه ص ٣٨٤.
(١١) الكامل للمبرد جـ٣ ص ٦٩.

وبياض غرتة بالخمار:

«على قرماء عالية شواه كأن بياض غرته خمار».(١)

وشبه عامر بن فهيرة الإنسان بالثور فى دفاعه عن نفسه بنفسه:

«كل امرىء مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه».(٢)

ومن تشبيهاتهم البليغة التى حذف منها الأداة فصار المشبه والمشبه به وكأنهما شىء واحد قول عنترة فى المنية:

«فأجبتها إن المنية منهل لابد أن أسقى بكأس المنهل».(٣)

وقوله فى أصحاب له:

«يمشون والماذى فوقهم يتوقدون توقد الفحم».(٤)

وقول سحيم فى تكدس الخيل بالدارعين:

«وخيل تكدس بالدارعين(م) مشى الوعول تؤم الكهافا».(٥)

وقوله فى امرأة اتبعها من الستر وكانت تمشى فى أناة:

«وماشية مشى القطاة اتبعتها من الستر نخشى أهلها أن تكلما».(٦)

وقوله فى بنى نصر:

«مساعير ماحرب وأيسار شتوة إذا اقور من دون الفتاة ضجيعها».(٧)

وقوله فى أشعاره:

«أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له يوم الفخار مقام الأصل والورق».(٨)

وقول الشنفرى وقد شبه نفسه بالذئب:

«أنا السمع الأزل فلا أبالى ولو صعبت شناخيب العقاب».(٩)

وتشبيهه جماعات النحل المنكوبة بالأرامل:

«وأغضى وأغضت واتسى واتست به أرامل عزاها وعزته أرمل».(١٠)

---

(١) الكامل للمبرد جـ٣ ص ٦٩.
(٢) الإصابة جـ٢ ص ٢٤٧.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ١٢٠.
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٥.
(٥) ديوان سحيم ص ٤٥.
(٦) ديوان سحيم ص ٣٥.
(٧) المصدر نفسه ص ٥٣.
(٨) المصدر نفسه ص ٥٥.
(٩) الطرائف الأدبية ص ٣٣.
(١٠) أمالى القالى جـ٣ ص ٢٠٧.

ومن تشبيهاتهم النفسية التى تعمقوا فيها الموصوف ولم يقفوا عند حدوده الظاهرة، وخلعوا عليها مشاعرهم وأحاسيسهم الداخلية وصف الشنفرى للقوس؛ فهى على حد تعبيره «مرزأة ثكلى» «وصوتها» رنين و عويل»:

«إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزأة ثكلى ترن وتعول».(١)

وهى فى موضع آخر تصيح وترجع صياحاً يشبه إلى حد بعيد أنين المريض:

«فصاحت بكفى صيحة ثم رجعت أنين المريض ذى الجراح المشجج».(٢)

وترن وتهتف كالشجى:

«وحمراء من نبع أبى ظهيرة ترن كإرنان الشجى وتهتف».(٣)

والفجر عند سحيم شيخ وقور مضىء الوجه:

«وحتى استبان الفجر أشقر ساطعاً كأن على أعلاه سبأ يمانيا».(٤)

وهو يذكر ذلك بعد تجربة من تجاربه المشكوفة، وكأن الفجر قد ارتبط فى أعماقه بالبراءة والطهر، كما ارتبط الليل فى «اللاشعور» بالدنس والعهر. ولانعدم مثل هذا البعد النفسى فى تشبيهات أخرى له؛ كصورة النسوة وهن يخرجن من تحت خيمته يخفضن الشخوص ويتضاءلن ويتلفتن ذات اليمين وذات الشمال فى ريبة وتوجس وخوف كأنهن قتلن قتيلا أو أتين أمراً عظيماً:

«فأدبرن يخفضن الشخوص كأنما قتلن قتيلا أو أصبن الدواهيا».(٥)

فقد ارتبط العهر أيضاً فى نفسه بالقتل، وهو أمر جلل. وحين يشبه تراكم اللحم فوق كتف رجل ضخم باليرابيع، نلمح فى وضوح حقيقة شعوره تجاه ذلك الرجل؛ فاليربوع حيوان كالفأر، ولكنه ههنا جاثم فوق أنفاسه يشعره على حقارته بالاختناق:

«ولاعضل جثل كأن بضيعه يرابيع فوق المنكبين جثوم».(٦)

---

(١) أمالى القالى جـ٣ ص ٢٠٧.
(٢) الطرائف الأدبية ص ٣٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٨.
(٤) ديوان سحيم ص ٢٧.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٨.
(٦) المصدر نفسه ص ٤٦.

إنه بلا شك يكره هذا الإنسان كما يكره اليربوع، فالجامع بينهما ليس فقط الجثوم والتراكم، وإنما هو أيضاً حقارة الاثنين - الرجل واليربوع - فى حسه الباطنى وكرهه لهما. ومن تشبيهاته النفسية البليغة تشبيه السحاب المثقل بالمياه فى زحفه البطىء بزحف إنسان كسير يمشى وكأنه يجر رجليه، وقد ورد هذا التشبيه فى إطار وصفه لنفسه وقد علاه المشيب:

«فأقبل يزحف زحف الكثير ... يجر من البحر مزناً كثافا».(١)

ومنها أيضاً تشبيهه للسياط - حين جلد بالشياطين:

«كسونى غداة الدار سمراً كأنها ... شياطين لم تترك فؤاداً ولاعهدا».(٢)

وهو هنا يشبه شيئاً حسياً بشىء غيبى، على غير عادته وعلى غير عادة العبيد؛ فهم فى الأغلب يشبهون المعنويات بالمحسوسات، أو المحسوسات بالمحسوسات.

ومن التشبيهات الطريفة التى لها دلالة خاصة فى شعر العبيد تشبيه عنترة للحديقة عند الخصب بالدرهم:

«جادت عليها كل عين ثرة ... وتركن كل حديقة كالدرهم».(٣)

وتشبيه سحيم لوجه الحبيبة يوم البين بالدينار:

«تريك غداة البين كفاً ومعصما ... ووجها كدينار الأعزة صافيا».(٤)

وهما يستمدان طرافتهما من افتقاد العبيد للمال وحاجتهم الشديدة إليه، فقد صار شيئاً نفيساً تشبه به الأشياء الغالية عزيزة المنال!!

وقد يمتد التشبيه عند بعضهم بشىء من التفصيل يدخلونه على المشبه به كقول الشنفرى:

«وأعدو على القوت الزهيد كما غدا ... أزل تهاداه التنائف أطحل
غدا طاويا يعارض الريح هافيا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمه ... دعا فأجابته نظائر نحل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها ... قداح بكفى ياسر تتقلقل».(٥)

(١) المصدر نفسه ص ٤٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٦.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ١٤٥.
(٤) ديوان سحيم ص ١٨.
(٥) الأمالى للقالى جـ٣ ص ٢٠٦.

وقول سحيم:

«كأن على أنيابها بعد هجعة ... من الليل نامتها سلافاً مبــــردا
سلافـة دن أو سلافة ذارع ... إذا صب منه فى الزجاجة أزبدا».(١)

وهذا الامتداد على الرغم من أنه يأتى فى كثير من الأحيان على سبيل الاستطراد، إلا أنه يعطى الأبيات شيئاً من التماسك، ويشعر بمدى الرغبة فى الانفلات من حدود البيت، وهو فى الوقت نفسه يعكس الدقة فى التصوير، وإحساس الشاعر بأنه لم ينقل كل مايريد، فالمشبه به قاصر ان لم يفصل ويوضح ويزيد. وهذه النقطة الأخيرة نلمحها حين يصرح الشاعر بأن المشبه أشد من المشبه به فيما بينهما من أوجه الشبه وان جاء ذلك فى بعض الأحيان على سبيل الشك. كقول الشنفرى:

«وإلف هموم ماتزال تعوده ... عياداً كحمى الربع أوهى أثقل».(٢)

وقول سحيم وقد فصل فى المشبه به تفصيلا شديداً:

«فما بيضة بات الظليم يحفها ... ويرفع عنها جؤجؤاً متجافيـــــــا
ويجعلهـــا بين الجناح ودفه ... ويفرشها وحفا من الزف وافيـــــا
فيرفع عنها وهى بيضاء طلة ... وقد واجهت قرنا من الشمس ضاحيـا
بأحسن منها يوم قالت أراحل ... مع الركب أم ثاو لدينا لياليـــــــا».(٣).

وقد يأتى التشبيه مركباً، كقول سحيم:

«يثير ويبدى عن عروق كأنها ... أعنة خراز جديداً وباليا».(٤)

فالعروق منها رطب ويابس، كالأعنة منها جديد ومنها بال. وهو يذكرنا بقول امرىء القيس:

«كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف البالى».

وهذا النوع من التشبيه نادر فى شعر العبيد.

---

(١) ديوان سحيم ص ٤٠.
(٢) أمالى القالى جـ٣ ص ٢٠٧.
(٣) ديوان سحيم ص ١٨.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٩.

ومن التشبيهات النادرة أيضاً التشبيه المقلوب، والتشبيه الإضافى. ومن المقلوب قول سحيم فى وصف ناقتين:

«إذا ما أنيخا أرسلا كلكليهما   بمتنين من جرعاء رخو حصاهما
كأن صياح ملحمين تقلبـــا   بصيدين فانقضا صياح شباهمـــا».(١)

فقد شبه صياح البازين المنقضين على فريستيهما بصوت الناقتين، وهو يريد العكس، وقد قلب التشبيه للمبالغة، وهو مثل قول مطران فى المساء:

«والبحر خفاق الجوانح ضائق   كمداً كصدرى ساعة الإمساء».

ومن الإضافى قول عنترة: «دارت على القوم رحى المنون».(٢)

حيث شبه المنون بالرحى، وحذف الأداة، ثم قدم المشبه به، وأضاف إليه المشبه. وهو شبيه بالاستعارة لولا أن طرفى التشبيه موجودان.

ومن التشبيهات التى استمدوها من واقعهم الخاص قول سحيم فى تشبيه المطر الثقيل:

«يكب العضاه لأذقاتها   ككب الفنيق اللقاح العجافا».(٣)

فهو يكب شجيرات الشوك على وجهها، كما يكب الفحل من الإبل النياق الهزيلة. ومنها قول الشنفرى فى واد مخوف:

«وإنك لو تدرين أن رب مشرب   مخوف كداء البطن أو هو أخوف
وردت بمأثور يمان وضالـــة   تخيرتها مما أريش وأرصـــف».(٤)

فهو يشبهه بداء البطن، وداء البطن أشد ما يخشاه الصعلوك؛ لأنه من الأمراض التى يصاب بها المتخمون وفى إصابته به اتهام صارخ بالتنكر لرسالته فى الصعلكة وخيانته لها.(٥)

ومن أروع تشبيهاتهم على الإطلاق قول عنترة فى الذباب:

«وخلا الذباب بها فليس ببارح   غرداً كفعل الشارب المترنـــم
هزجـا يحك ذراعه بذراعـــه   قدح المكب على الزناد الأجذم».

---

(١) ديوان سحيم ص ٦١.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ١٩٨ وصدره: "فيشتفى مما به الحزين".
(٣) ديوان سحيم ص ٤٨.
(٤) الطرائف الأدبية ص ٣٨.
(٥) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د. يوسف خليف ص ٣٠٥.

وهو من التشبيهات التى وقف عندها القدماء كثيراً، واعتبروه من التشبيهات العقم التى لم تقلد ولم يستطع أحد أن يعيد صياغتها على شكل آخر بحيث تنسب له(١).

وتأتى الاستعارة فى المكانة الثانية بعد التشبيه فى شعر العبيد على الرغم من قلتها، وهى - كما ذكرت تقوم على عمليتين؛ إحداهما الربط بين شيئين، والثانية حذف أحدهما، فإذا حذف المشبه به واستغنى بشىء من لوازمه عنه فهى الاستعاره المكنية، وإن حذف المشبه وصرح بالمشبه به فهى الاستعارة التصريحية، على أن العمليتين غير منفصلتين، وربما حدثتا فى وقت واحد، لكنهما على كل حال يحتاجان إلى خيال أعمق من الخيال الذى يحتاجه التشبيه، لذلك قلا فى شعر العبيد كما قلا فى شعر غيرهم من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام؛ حيث كان الخيال بسيطا.

ومن الاستعارة المكنية قول عنترة وقد جسد الليل وجعله شخصاً «يَقبض» وجعل الطرف «يُقبض»:

«وأقبل ليل يقبض الطرف سائح».(٢)

وقوله وقد جسم الشعر وجعله كالثياب والقلائد:

«قصائد من قيل امرىء يحتذيكم	بنى العشراء فارتدوا وتقلدوا».(٣)

وقوله في الحرب التى دارت بين عبس وذبيان:

«واسأل حذيفة حين أرش بيننـــا	حرباً ذوائبها بموت تخفـــق».(٤)

فقد جعل لها ذوائب وأحالها إلى شىء محسوس، كما شخصها فى قوله:

«أعاذل كم من يوم حرب شهدته	له منظر بادى النواجذ كالح».(٥)

وشخص الموت فى قوله:

«ولقد لقيت الموت يوم لقيته	متسربلا والسيف لم يتسربـــل
فرأيتنا مابيننا من حاجـــز	إلا المجن ونصل أبيض مفصل».(٦)

---

(١) خزانة الأدب - ت. عبدالسلام هارون جـ١ ص ١٢٧، ١٢٨.

(٢) شرح ديوان عنترة ص ٤٤ وصدره: "بهاجرة حتى تغيب نورها".

(٣) المصدر نفسه ص ٤٨.

(٤) المصدر نفسه ص ١١١.

(٥) المصدر نفسه ص ٤٢.

(٦) المصدر نفسه ص ١٢٢.

ومنها فى شعر سحيم:

«فقالت له ياويح غيرك إننى سمعت كلاماً بينهم يقطر الدما» (١)

فقد شبه على لسان معشوقته مادبر له فى الخفاء بحراب يقطر منها الدم، ومع ذلك ظل فيما هو فيه، حتى بعد أن هجرته فقد شك هواها شغاف قلبه وتغلغل فيه.

«فلست وإن برحت ساليا وقد شك منى هواها الشغافا» (٢)

إن الجمال فى هذه الاستعارة كامن فى كلمة «شك» فهى تشعر بمدى ماكان يعانيه فى هواه من الألم، فالهوى لايمس ولايلمس، وإنما يشك، إنه وخز مرير، والاستعارة عنده كما هى عند عنترة وكما هى عند سائر الشعراء العبيد ضرب من التجسيد والتجسيم، فالمشيب يعلوه ويمتطيه ويسير معه أينما سار، واللهو كالمرأة صنوان يأتى فى رغد العيش ويهجر ويتنكر عند المشيب:

«فإما ترينى علانى المشيب (م) وانصرف اللهو عنى انصرافـــــا».

فقد ... وقد ... وقد. لكن ماجدوى «قد» لرجل يرزح تحت أغلال المشيب بعد أن كان يختر فى ثوب الشباب:

«وبان الشباب لطياته وقد كنت رديت منه عطافا» (٣).

ومن هذا النوع قول الشنفرى:

«فإن لاتزرنى حتفتى أو تلاقنى أمش بدهو أوعداف بنـــورا» (٤)

وقوله: «أونس ريح الموت فى المكاسر» (٥)

وقوله:

«فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطل لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول» (٦)

وهو يعنى بـ «أم قسطل» الحرب.

---

(١) ديوان سحيم ص ٣٥.

(٢) ديوان سحيم ص ٤٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥.

(٤) الطرائف الأدبية ص ٣٥.

(٥) المصدر نفسه ص ٣٦.

(٦) أمالى القالى جـ٣ ص٢٠٧.

ومنه قول السليك وقد أتى باستعارتين في بيت واحد:

«فما ذر قرن الشمس حتى أريته ... قصار المنايا والغبار يثوب.(١)

وقول أمه في رثائه:

«كل شيء قاتل ... حين تلقى أجلك

والمنايا رصد ... للفتى حيث سلك»(٢).

وقول عامر بن فهيرة:

«إني وجدت الموت قبل ذوقه ... ان الجبان حتفه من فوقه»(٣)

أما الاستعارة التصريحية فهي أشد تجسيداً، حيث يتحول المشبه إلى مشبه به وينعدم فلا نرى أمامنا غير المشبه به مباشرة، وهي قليلة جداً في شعر العبيد، ومنها قول سحيم:

«تقدمتهن على مرجل ... يلوك اللجام إذا ما استهافا»(٤)

فهو لايشعر أنه يركب حصاناً وإنما يشعر أنه يطير فوق مرجل من نار. والسحاب المثقل بالماء - عنده في بيت آخر - ناقة، تحط على الأرض صدرها حطاً:

«وحط بذي بقر بركه ... كأن على عضديه كتافا»(٥)

فهل هناك أروع من تصوير المطر وهو يسقط دفعة واحدة بالناقة وهي تبرك؟ إن في كليهما معنى الثبات بعد الحركة، ومعنى الركود بعد النشاط، وهو يكره الركود ويكره الثبات كما يكره الموت، ويحب الحركة والنشاط كما يحب الحياة، لذلك لم يجد كلمة يجسد بها الصورة أروع من كلمة «حط».

والفرسان عند عنترة أسود تمتطي الخيول:

«وخيل قد دلفت لها بخيل ... عليها الأسد تهتصر اهتصارا»(٦)

والدم الذي يسيل من المطعون على الجانبين سم ثعبان عند الشنفرى

«فطعنة خلس منكم قد تركتها ... تمج على أقطارها سم أسود»(٧)

---

(١) الأغاني ط. أبو الفضل إبراهيم جـ٢٠ ص ٣٨١.
(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي القسم الثاني ٩١٦.
(٣) الإصابة جـ٢ ص ٢٤٧.
(٤) ديوان سحيم ص ٤٦.
(٥) المصدر نفسه ص ٤٨.
(٦) شرح ديوان عنترة ص ٧٧.
(٧) الطرائف الأدبية ص٣٥.

وقد يرشحون للاستعارة التصريحية كما رشح عنترة بذكر القرنين، حين شبه رئيس القوم بالكبش:

«وضربت قرنى كبشها فتجدلا وحملت مهرى وسطها فمضاها».(١)

لكنهم على أية حال لا يلتفتون كثيراً الى هذا اللون البلاغى. وفى شعرهم صور كثيرة لا تعتمد على الخيال بقدر اعتمادها على الوصف والتفصيل، ويكثر مثل هذا اللون فى تناولهم لعناصر الطبيعة وذكر ما فيها. وقد عرض الشنفرى فى لاميته وحدها ثلاث لوحات إحداها للذئاب والثانية للقطا والثالثة للنحل.

وقد وقف الدكتور محمد صبرى وقفة طويلة عند وصفه للذئاب، وقرن بينه وبين الفريد دى فينى فى قصيدته المشهورة «موت الذئب»(٢)، وقال فيما قاله: «على أن الشنفرى يمتاز على الشاعر الفرنسى فى تصويره هيئة الحيوان. وان تمثيل إجابة «النظائر النحل» لدعوة الذئب الجائع وحشودها وضجيجها بالبراح يدل على أن الشنفرى ينفذ فى وصفه الى نفسية الحيوان، لا من هيئته فحسب، بل من صياحه وعوائه، وقد أجاد شاعرنا تصوير الذئب فرداً فى البيتين الأولين..... وأجاد تصوير الذئب «جماعة» فى الأبيات السبعة الباقية». ثم ذكر كيف كان الشنفرى «مولعاً بتصوير جماعات الطير والحيوان كما كان شكسبير مولعاً بتصوير الجماعات البشرية والجماهير».

وقد وقفنا فى الجزء الخاص بشعر الطبيعة عند كثير من هذه اللوحات للشنفرى ولعنترة وسحيم.

وقد وجد فى شعر العبيد - كما وجد عند غيرهم من الشعراء المعاصرين لهم - شىء من الجناس والطباق، وهما أكثر ألوان البديع دوراناً فى شعرهم، لكنهم على كل حال لا يتكلفون الوصول إليهما، ولا يحتفلون بهما احتفال شعراء الصنعة اللهم إلا فى مواضع قليلة. ومن هذه المواضع قول سحيم فى مطلع إحدى قصائده:

«ألم خيال عشاء فطافا ولم يك إذ طاف إلا اختطافا».(٣)

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٨٥.

(٢) الشوامخ د. محمد صبرى (دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٤٤) جـ٢ ص ١٢٦:١٣١.

(٣) ديوان سحيم ص ٤٢.

وفيه ما فيه من التكلف، بتكرار كلمة «طاف» والتماس السجع والمجانسة بين «طافا» و «اختطافا» مع أن كلمة «ألم» في بداية البيت قد دلت على هذا كله. ومنها قول عنترة وقد حرص على أن يأتي بالفعل «علم» في صوره الثلاث وذلك في بيت واحد:

«إني عداني أن أزورك فاعلمي   ما قد علمت وبعض ما لم تعلمي»(١)

لكن مثل هذا اللون كما قلت - قليل، بل قليل جداً في شعرهم؛ لأنهم لم يكونوا يحرصون على الصنعة قدر حرصهم على التدفق والصدق، ومن هنا كان حرص القدماء على وصف بعضهم بالطبع، وهو وصف رأينا مدى صدقه وانطباقه على كثير مما قالوه من الشعر.

---

(١) شرح ديوان عنترة ص ١٥٤.

٣- اللغـــــة

اللغة هى الأداة التى يتواصل بها الإنسان مع المجتمع الذى يعيش فيه. وهى بالنسبة للشاعر المادة التى يصوغ من خلالها شعره. ولكل شاعر أسلوبه فى تشكيل هذه المادة، ولعل هذا هو الذى يفرق بين شاعر وآخر ويميز بين طائفة وأخرى.

وأول ما يميز شعر العبيد من هذه الناحية تلك السهولة التى تكاد تنتشر فى كل أعطافه، ولا يكاد يشذ عنها واحد منهم؛ فهم لا يميلون الى التعاظل اللغوى ولا إلى التراكيب الغامضة ولا إلى الكلمات التى تكد الأذهان فى الوصول إلى معرفة معناها والوقوف على المقصود منها، وإنما يسيل الشعر وينساب فى رقة ولطف.

ومع تسليمنا بأن مسألة السهولة والصعوبة مسألة نسبية؛ فما هو سهل عند قبيلة قد يكون صعباً عند قبيلة أخرى، وما نراه اليوم صعباً ربما لم يكن كذلك فى الزمن الذى قيل فيه، إلا أننا ننظر إلى تلك المسألة من خلال المقارنة بين ما وصلنا من شعرهم وما وصلنا من شعر غيرهم من المعاصرين لهم ومن خلال قرب هذا الشعر من لغة قريش وهى اللغة الشائعة فى ذلك العصر أو بعده عنها.

ولعل مرجع تلك السهولة فى شعرهم ما سبق أن قررناه من وجود عنصر الصدق الفنى والجنوح نحو الواقع وغلبة الطبع. ثم هناك قبل هذا كله ظهور الشخصية الفردية ودورانهم حولها: وقد قلنا إن شخصياتهم واضحة فى كل ما قالوه وأنها لم تطمس إلا فى أحايين قليلة، وحين راجعنا ما قالوه فى تلك الأحايين وجدنا ميلا نحو التصنع والتكلف، ووجدنا شيئاً من الصعوبة اللغوية، فتأكد لدينا صحة ما عللنا به اتجاههم العام نحو السهولة؛ فهى عندهم مقترنة الى حد بعيد بوضوح الشخصية، وما إن تبدأ الشخصية فى الاختفاء حتى تختفى معها السهولة ويبدأ الشاعر فى المعاظلة والتعقيد. ومن هذا القبيل - قول سحيم فى وصف ظليم:

«هبـــل كمريخ المغالى هجنع   له عنق مثل السطاع قويـــم».(١) .

وقوله فى وصف رجل ذميم:

«يرى بادناً والجلة الكوم شسف   عظيم القصيرى والشمام هشيم».(٢)

---

(١) ديوان سحيم ص ٣٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦.

وقد وضع محقق ديوان الشنفرى علامات استفهام وتعجب عند بعض الكلمات فى شعر الشنفرى،ولم يزد عن قوله: «كذا» فى الهامش(١)،أى هكذا صحت الرواية فيه. وقال فى تفسير كلمة النسارى: «النسارى: من ريش نسر ولكنى لم أجده فى المعاجم»(٢). وهى كلمات قليلة لم ترد إلا فى الوصف، والوصف حين يكون لشىء غير معهود أو غريب عنا يكون بالنسبة لنا صعباً غامضاً كوصف الناقة وغيرها، وربما لا تكون كذلك عند أهلها الذين يعرفون جزءاً جزءاً فيها وما يوصف به كل جزء.

وهناك ظاهرة أخرى نسجلها فى دراستنا لجانب اللغة عند العبيد، وهى ذلك الميل الشديد إلى استخدام المتناقضات كالأبيض والأسود والهجر والوصل والحياة والموت وغيرها.

ولعل هذا مرتبط بتقلب حياتهم وشعورهم بفقد الأمان وعدم الاستقرار؛ فهم معرضون كل لحظة للبيع والشراء والانتقال بالهبة والمقامرة والمبادلة وغيرها من ضروب الانتقال، فتنقلب حياة العبد رأساً على عقب وتنقطع علاقته بأناس ليبدأ حياة جديدة مع أناس آخرين.

وقد وجدت عند سحيم ميلا نحو استخدام الألفاظ المتضادة. وقد لاحظ هذا شارح ديوانه فأشار إلى بعضها، نحو «عفا» بمعنى كثر ودرس فى قوله:

«ليالى تصطاد القلوب بفاحم تراه أثيثاً ناعم النبت عافيا».(٣)

و «جثم» بمعنى قام ونام فى قوله:

«ولا عضل جثل كأن بضيعه يرابيع فوق المنكبين جثوم».(٤)

ومن هذا القبيل كلمة «جنب» بمعنى اقترب وابتعد فى قول عنترة:

«وأنا امرؤ إن يأخذونى عنوة أقرن إلى شر الركاب وأجنب».(٥)

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٣٧، ٣٨ وذلك فى قوله:
"وضنية جرد (؟) وأخلاق ريطة إذا أنهجت من جانب لا تكفف".
وقوله :"وحوش موى (؟) زاد الذئاب مضلة بواطنة للجن والأسد مألف".

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤ وهى من قول الشنفرى فى وصف سهم:
"عليه نسارى على خوط نبعة وفوق كعرقرب القطاة مدحرج".

(٣) ديوان سحيم ص ١٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦.

(٥) شرح ديوان عنترة ص ٢٠.

وعلى الرغم من أن هذه الكلمات ذات معنى محدد فيما استخدموه فيه إلا أن اختيارهم لها دون غيرها ربما يكون له دلالة؛ فهى تعبر عادة عن التردد أو اختلاط الأمر أو الرغبة فى الجمع بين المتناقضات، وما أكثر المتناقضات التى عاش فيها العبيد!!.

وفى شعر العبيد ألفاظ كثيرة تعكس ثقافة المجتمع الذى عاشوا فيه وتبرز لنا كثيراً من جوانب البيئة وما كان فيها من العادات والتقاليد والمعتقدات وأنماط السلوك؛ فحين نقرأ قول الشنفرى:

«ولا خالف دارية متغزل   يروح ويغدو داهناً يتكحل».(١)

وقول السليك:

ألا عتبت على فصارمتنى   وأعجبها ذوو اللمم الطوال».(٢)

وقول عنترة:

«شعث المفارق منهج سرباله   لم يدهن حولا ولم يترجل».(٣)

نقف على عادة من العادات الاجتماعية وهى ميل الرجال آنذاك إلى الاهتمام بالشعر وإطالته ودهنه وتصفيفه والاكتحال، وأن ذلك كان يبعث إعجاب بعض النساء، وأن من الرجال من كان ينصرف إلى ما هو أعظم، فيهمل الشعر والثياب وغيرهما من مظاهر الجمال الخارجى.

وحين نقرأ قول الشنفرى:

«طريد جنايات تياسرن لحمه   عقيرته لأيها حـــم أول

تبيت إذا ما نام يقظى عيونها   حثاثاً إلى مكروهه تتغلغل».(٤)

نلمس عادة اجتماعية لاتزال موجودة حتى اليوم، وهى عادة الثأر والرعب الذى يملأ قلب القاتل، وتتبعهم له فى كل مكان.

وحين نقرأ قول عنترة:

«تجللتنى إذ أهوى العصا قبلى   كأنها صنم يعتاد مكه ف».(٥)

---

(١) أمالى القالى جـ ص ٢٠٦.
(٢) الكامل للمـ
(٣) شرح ديوان عنترة ص ١٢٠.
(٤) أمالى القا
(٥) شرح ديوان عنترة ص ١١٠.

نقف على عادة معروفة من عادات الجاهلية وهى تقديس الأصنام والطواف حولها وقد شبه سحيم النساء بالدمى،(١) وخاصة دمى ميسان.(٢) وحين نقرأ قول سحيم:

«تعاورن مسواكى وأبتين مذهبا ... من الصوغ فى صغرى بنان شماليا».(٣)

نقف على عادة من عادات النساء أشار اليها أبو عبيدة بقوله: «كانوا إذا جلسوا للغزل أخذت هذه مسواك هذه، وهذه خاتم هذه عبثاً»(٤).

وربما يكون هذا من قبيل ما نراه اليوم من الاحتفاظ بأثر مادى يذكرنا بصاحب عزيز.

وحين نقرأ قوله:

«أشارت بمدراها وقالت لتربهـــا ... أعبد بنى الحسحاس يزجى القوافيا».(٥)

وقوله:

«وجيد كجيد الريم ليس بعاطل ... من الدر والياقوت والشذر حاليـــا».(٦)

وقوله:

«وأبـــدت معاصـــم ممكـــورة ... تزين أناملهـــــــن اللطافـــا».(٧)

وقول عنترة:

«رأنـــا نفود الخيل تحكـــى رءوسها ... رءوس نساء لا يجدن فواليـــا».(٨)

نعرف أن النساء كن يستخدمن المدراة لتمشيط الشعر، والفالية لتقليبه، وأنهن كن يزين أعناقهن بالدر والياقوت وخرز الفضة وأصابعهن بالخواتم ونحوها.

وصف من شعر سحيم(٩)، وعنترة(١٠)، والشنفرى(١١)، على مجموعة هائلة من الثياب التى كان يرتديها الرجال والنساء: فللنساء: الريطة والخميصة والبرد اليمانى والخمار والمرادى. وللرجال: العباءة والسب اليمانى والقميص والريطة والبرد المفوف.

وفى قول الشنفرى:

«أضعتم أبى إذ مال شق وساده ... على جنف قد ضاع من لم يوسد».(١٢)

---

(١) ديوان سحيم ص ٣٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٦ هامش رقم (٦٠).
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥.
(٦) المصدر نفسه ص ١٧.
(٧) المصدر نفس ص ٤٤.
(٨) شرح ديوان عنترة ص ١٩٣.
(٩) ديوان سحيم ص ١٦، ١٨، ٢٥، ٢٧، ٣٥، ٦٢.
(١٠) شرح ديوان عنترة ص ١٠٨.
(١١) الطرائف الأدبية ص ٣٤، ٣٧.
(١٢) المصدر نفسه ص ٣٥.

وقول سحيم:

«فتصبح فى لحد من الأرض ثاويا   كأنك لم تشهد من اللهو مشهدا».(١)

إشارة إلى دفن الموتى فى القبور، واللحد لهم فى التراب.

وفى قول عنترة:

«ما استمت أنثى نفسها فى موطن   حتى أوفى مهرها مولاها».(٢)

وقوله:

«تركت الطير عاكفة عليه   كما تردى إلى العرس البواتى».(٣)

إشارة إلى عادة اجتماعية وهى دفع المهور فى الزواج والاحتفال بالزفاف.

وفى قوله:

«فإن يبرأ فلم أنفث عليه   وإن يفقد فحق له الفقود».(٤)

وقوله:

«ظعن الذين فراقهم أتوقع   وجرى ببينهم الغراب الأبقع».(٥)

إشاراتان إحداهما إلى التشاؤم والتطير، والأخرى إلى اعتقاد كان شائعاً بينهم مؤداه أن المطعون إذا نفث عليه نجا وبرىء من طعنته.

ومما يصور الحياة الأخلاقية ويبين بعض أنماط السلوك قول سحيم:

«وهن بنات القوم إن يشعروا بنا   يكن فى بنات القوم إحدى الدهارس».(٦)

إشارة إلى صيانتهم للنساء وتشددهم فى المحافظة عليهن.

ومن شعر عنترة قوله:

«ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به كريم المأكل».(٧)

وقوله:

«وأغض طرفى ما بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها».(٨)

وهما يمثلان نمطاً أخلاقياً يتسامى على خبث المأكل وتتبع عورات النساء، ويحفظ للجار حقه ويصون حرمته.

---

(١) ديوان سحيم ص ٣٦.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ١٨٥.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٩.
(٥) المصدر نفسه ص ١٠٣.
(٦) ديوان سحيم ص ٧.
(٧) شرح ديوان عنترة ص ١١٩.
(٨) المصدر نفسه ص ١٨٥.

ويطول بنا الحديث ويمتد إذا نحن تتبعنا كل بيت يعكس من خلاله هؤلاء العبيد جوانب البيئة الاجتماعية والأخلاقية وثقافة العصر الذى عاشوا فيه، ويكفى أن نشير إلى أن شعر عنترة يعد من أبرز المصادر الشعرية لدراسة الجوانب الحربية للعصر الجاهلى بما صور من فنون القتال وطرقه والأوقات التى يستحب فيها، والأوقات التى يرغب فيها عنه، والأسلحة، ومثاليات القتال، وما تؤول إليه المعارك من أسرى وقتلى وفارين فى الشعاب، وبما سجل من الأيام الشهيرة لقبيلة من أشهر القبائل المحاربة وهى قبيلة عبس. كما أن شعر الشنفرى والسليك مرآة صادقة لحياة طائفة من الطوائف التى عاشت فى العصر الجاهلى وهى طائفة الصعاليك. وشعر العبيد فى جملته صورة دقيقة للطبقة الدنيا؛ طبقة الإماء والعبيد.

فإذا تركنا الألفاظ وما تحمل من الدلالات، واجهتنا ظاهرة لغوية هامة، وهى كثرة استخدامهم للشرط، فأسلوب الشرط شائع فى شعرهم، وقد وقفت فى شعر عنترة وحده على أكثر من خمسين جملة شرطية، وفى شعر سحيم على أكثر من أربعين، وكذلك الشنفرى. ولعل هذا يؤكد ما ذهبنا إليه من حرص هؤلاء الشعراء على الجزئيات وميلهم إلى التفصيل، ولعله من ناحية أخرى ينسجم وطبيعة حياتهم فى الرق؛ تلك الحياة التى كانوا يشعرون فيها شعوراً حاداً بالتبعية وفقد الإرادة وانعدام الوزن. فكل شىء مشروط، ولكى يتحقق شىء لابد من وجود شىء، فلا يكفى أن يريد العبد مادام هناك إرادة أخرى هى إرادة سيده، وهذا الأسلوب فى حد ذاته دائرة مغلقة تشبه تلك الدائرة التى يعيشون فيها ولا يجدون منها مخرجاً؛ دائرة الرق.

ويشدنا الحديث عن أسلوب الشرط إلى النظر فى الجمل وأنواعها، وأول ما يلفتنا فى هذا الجانب كثرة الجمل الفعلية، وقد أعطت هذه الكثرة لشعرهم شيئاً من الحيوية، خاصة عندما يستخدمون الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار؛ فهم يرسمون من خلاله صوراً حية متحركة، أما الفعل الماضى فيكثر مجيئه فى حالات التذكر ورواية ما حدث. ومن أمثلة ما جاء بصيغة الحال قول سحيم فى وصف ثور:

«يثير ويبدى عن عروق كأنها ... أعنة خراز جديداً وباليـــــا
ينحى تراباً عن مبيت ومكنس ... ركاماً كبيت الصيدنانى دانيا».(١)

---

(١) ديوان سحيم ص ٢٩.

فكأنه لايزال الآن بيننا، نراه وهو يحفر فى الشجرة ليكتن من قسوة البرد والمطر، ونراه وهو ينحى التراب ويعمق البيت حتى يصير كبيت الثعلب. ومما جاء تسجيلا لما مضى قوله فى إحدى تجاربه مع النساء:

«لعبن بدكداك خصيب جنابه   وألقين عن أعطافهن المراديـــا

وقلن لمثل الرئم أنت أحقنا   بنزع الرداء إن أردت تخاليـــا

فقامت وألقت بالخمار مدلة   تفادى القباح السود منها تفاديا».(١)

وقد يمتزج الزمنان معاً فى مشهد واحد كما فى قوله:

«وبتنا وسادانا إلى علجانة   وحقف تهاداه الرياح تهاديا».(٢)

فقد بدأ مسجلا بالزمن الماضى «بتنا» ثم جعلنا نقف فى هذا الماضى لحظات مع الرياح وهى تتهادى الكثيب وتحرك ما علاه من الرمال.

ويتنوع أسلوب العبيد تنوعاً شديداً، بين الخبر والإنشاء. ويدل هذا التنوع على الثراء اللغوى؛ ولا عجب فقد عاش أكثرهم فى البادية بين القح من الأعراب. ويشعرنا هذا التنوع بمدى تحكمهم فى اللغة وقدرتهم على الإفصاح والتعبير. وقد رأينا أن نقتطع شريحة أو أكثر لنرى من خلالها مدى هذا التنوع فوقع الاختيار على ثلاث قصائد هى من أروع ما خلفوه: معلقة عنترة ويائية سحيم، ولامية الشنفرى.

وهذا بيان إحصائى لما فى هذه الأعمال من الخبر والإنشاء؛ الخبر بما فيه من نفى وتوكيد وإثبات، والإنشاء وأبرز ما عن لى منه الأمر والنهى والاستفهام والشرط والتمنى والنداء والحض والدعاء:

الشريحة	جمل إنشائية									جمل خبرية			
	أمر	نهي	استفهام	شرط	تمنٍ	نداء	حض	دعاء	مجموع	نفي	توكيد	إثبات	مجموع
معلقة عنترة ٨٩ بيتا	٩	١	٤	١٣	١	٥	١	١	٣٥	١٩	٢٣	١٤٠	١٨٢
يائية سحيم ٩٣ بيتا	٩	—	١٠	١٦	٢	١٠	—	٦	٥٣	١٢	٢٣	١٨٢	٢١٧
لامية الشنفرى ٦٨ بيتا	١	—	٢	١٥	—	١	—	—	١٩	٢٣	١٥	١٦٦	٢٠٤

(١) ديوان سحيم ص ٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩.

ونلاحظ من هذا البيان كثرة الجمل الخبرية وبخاصة الجمل المثبتة، وهى جمل بسيطة تصل إلى العقل والوجدان مباشرة، ولعل هذا أحد أسباب سهولة اللغة عندهم، تلك السهولة التى أشرنا إليها فى مستهل حديثنا عن جانب اللغة.

وتأتى الجمل المؤكدة فى المرتبة الثانية بعد الجمل المثبتة عند سحيم وعنترة، وتتأخر عن الجمل المنفية عند الشنفرى. وهم يؤكدون غالباً بالقسم والقصر والمفعول المطلق وقد مع الفعل الماضى، وإن وأن فى الجمل الأسمية. ومن أمثلة ذلك عند عنترة:

(ولقد شربت من الزجاجة - ولقد ذكرتك والرماح نواهل - ولقد هممت بغارة - فلقد تركت أباهما - إن ظلمى باسل - إنى عدانى أن أزورك فاعلمى ما قد علمت - أننى أغشى الوغى - فإنما زمت ركابكم بليل مظلم - ما راعنى إلا حمولة أهلها).

وعند سحيم: (وقد واجهت قرنا من الشمس ضاحياً - بآية ما جاءت إلينا تهاديا - لا ثوب إلا بردها وردائيا - وأشهد عند الله أن قد رأيتها - ألا إنما بعض العوائد دائيا - قد ورينني - قد أطلنا التنائيا - قد بدا ليا - إن طبيب الإنس أعياه ما بيا).

وعند الشنفرى: (فإنى إلى أهل سواكم لأميل - فقد حمت الصاجات - قد نيطت عليها الحمائل - وإنما ينال الغنى ذو البعدة المتبذل - لقد هرت بليل كلابنا - فإنى لمولى الصبر - ...)

وتأتى الجمل المنفية عند عنترة بعد الجمل المثبتة والجمل المؤكدة، وتتراجع عن الجمل الشرطية عند سحيم، بينما تسبق الجمل [illegible]، ويكثر النفى بـ «لم» مع الفعل الماضى والمضارع، و «لا» و «ما» [illegible] الفعل المضارع و «ليس» فى الجمل الأسمية. ومن أمثلته فى معلقة عنترة:

(لم يتكلم - لم ينصرم - لم تدر - لم تعلمى - لم يكلم - لم يجرم - لم أخم منها - لا تشتكى - لا ممعن هربا - ولا مستسلم - ليس بتوأم - ليس بمعلم - فليس ببارح - ليس الكريم على القنا بمحرم - ....). وفى يائية سحيم: (فلم أر مثلى مستغيثاً بشربة - ولم تقض - ما يجبن - لاتملل - لايبقى على النأى وده - ليس بعامل - لسن بوارحاً - ماليس لاقيا - ....).

وفى اللامية لم يستخدم الشنفرى النفى بـ«لم» على كثرة ما نفى إلا أربع مرات منها: «لم أكن بأعجلهم» وقد جاء فى جواب شرط، وتصدرت «لا» و«لست» أكثر جمله المنفية ومن أمثلة ذلك: (لامستودع السر شائع - ولا الجانى بما جر يخذل - لافى قربه متعلل - ولاجبأ أكهى - ولا خرق هيق - ولاخالف دارية - ولا أتنعل - ولا مرح - ولا تزدهى الأجهال حلمى - ولا أرى سنولا - ولست بمهياف - ولست بعل - ولست بمحيار الظلام - ليس جازيا- ليس يعمل - .....).

وتتنوع الجمل الإنشائية تنوعاً شديداً ويكثر فيها الشرط ثم الأمر ثم النداء فالاستفهام عند عنترة، والشرط ثم الاستفهام والنداء فالأمر ثم الدعاء عند سحيم، والشرط وحده عند الشنفرى، بينما يقل النهى والحض والتمنى والدعاء عند عنترة وينعدمون عند الشنفرى. وينعدم النهى والحض عند سحيم ويقل التمنى ويكثر الدعاء.

وكثرة الشرط عند الثلاثة يؤكد ماسبق أن قررناه من شيوع أسلوب الشرط وانتشاره فى شعر العبيد، وقد جاء الجواب مؤكداً خمس مرات عند عنترة، ومرة واحدة عند سحيم، ومرتين عند الشنفرى، وجاء مثبتاً مرة واحدة عند كل من عنترة وسحيم وثلاث مرات عند الشنفرى، بينما جاء مثبتاً فى بقية الحالات. وجاء الشرط فى بيت والجواب فى بيت آخر فى أحايين قليلة، بينما ندر حذف الجواب. ومن أمثلة هذا الأسلوب عند عنترة:

- «إن كنت أزمعت الفراق فإنمـــا ... زمت ركابكم بليل مظلــــم».

- «وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمــى».

- «لما سمعت نداء مرة قد عــلا ... وابنى ربيعة فى الغبار الأقتــم

ومحلم يسعون تحت لوائهـــــم ... والموت تحت لواء آل محلــم

أيقنت أن سيكون عند لقائهـــم ... ضرب يطير عن الفراخ الجثم».

وعند سحيم:

- «فإن تثو لاتملل وإن تضح غاديا ... تزود وترجع عن عميرة راضياً».

- «ومن يك لايبقى على النأى وده ... فقد زودت زاداً عميرة باقيــا».

ومما حذف الجواب فيه قوله:

- «إذا اندفعت فى ريطة وخميصة   ولاثت بأعلى الردف برداً يمانيا».

وعند الشنفرى:

- «إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمـــى   تطاير منه قادح ومفلــــــل».
- «ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب   يعاش به إلا لدى ومأكـــــل».
- «فإن يك من جن لأبرح طارقـــا   وإن يك إنسا ما كها الإنس تفعل».
- «فإما ترينى كابنة الرمل ضاحيـا   على رقبة أحفى ولا أتنعـــــل.
فإنى لمولى الصبر أجتاب بـــزه   على مثل قلب السمع والحزم أفعل».

ويكثر فى هذه الشرائح الثلاث استخدام المشتقات وبخاصة اسم الفاعل واسم المفعول. وصيغ المبالغة وهذا بيان بما ورد فيها منها:

الشريحة	اسم الفاعل			اسم المفعول			صيغ المبالغة					
	من الثلاثي	من غير الثلاثي	مجموع	من الثلاثي	من غير الثلاثي	مجموع	فعال	فعول	فعيل	مفعال	فَعِل	مجموع
معلقة عنترة	٢٨	١٤	٤٢	١	٣٦	٣٧	٤	١	٩	–	٣	١٧
يائية سحيم	٥٢	١٢	٦٤	١	٢	٣	١	٣	٩	–	–	١٣
لامية الشنفرى	٢٠	١٢	٣٢	٤	٨	١٢	–	١	٢	٢	٣	٨

ونلاحظ من هذا البيان كثرة اسم الفاعل عن اسم المفعول. واسم المفعول عن صيغ المبالغة عند عنترة والشنفرى وكذلك سحيم وإن تقدمت صيغ المبالغة عنده على اسم المفعول.

ونلاحظ كذلك أن أكثر ما اشتقوا اسم الفاعل من الثلاثى، بخلاف اسم المفعول فأكثر ما اشتقوه من غير الثلاثى، ولم يشتقه عنترة من الثلاثى إلا مرة واحدة، وكذلك سحيم، أما الشنفرى فقد اشتقه منه أربع مرات.

وقد زاد اسم الفاعل عند سحيم زيادة ملحوظة، ولعل ذلك مرتبط بالقافية التى اختارها وفيها وحدها أكثر من خمس وثلاثين كلمة على هذا الوزن، بينما قل اسم المفعول عنده بصورة واضحة(١).

وتأتى صيغة (فعيل) فى مقدمة صيغ المبالغة عند عنترة وسحيم بينما تسبقها صيغة (فعل) عند الشنفرى، يليها عند عنترة (فعال) فـ (فعل) وعند سحيم (فعول) ثم (فعل). ويلى صيغة (فعل) عند الشنفرى صيغة (مفعال و(فعيل).

ولم يأت لعنترة ولسحيم كلمات للمبالغة على وزن (مفعال) ولم يأت لسحيم أيضاً كلمات على وزن (فعل)، أما الشنفرى فقد جاءت له كلمة واحدة على وزن (فعول) ولم يأت له شيئاً على وزن (فعال).

ومن أمثلة ماجاء من هذه المشتقات فى معلقة عنترة: (الزائرين - خافية - واضح - تاجر - الشارب - الفارس - نافذة - جاهلة - ساع - شاكر) لاسم الفاعل من الثلاثى، و: (المتلوم - المترنم - المكب - المستلئم - مستهلك - المنعم - مرتمى) لغير الثلاثى. و (محروم) فقط لاسم المفعول من الثلاثى، و: (مكرم - متثلم - مصلم - مقرمد - مهضم - مقدم - مكلم) لغير الثلاثى، و: (خطارة - موارة - زيافة - هناك - غصوب - غضيض - لذيذ - طويل - كريم - عسر - غرد - هزج) لصيغ المبالغة.

وفى يائية سحيم من اسم الفاعل للثلاثى: (غاديا - ناهيا - فاحم - ناعم - عاطل - ناد - ظاهر - ناصع).

ولغير الثلاثى: (مستسر - متجاف - مواصل - مواتى - مستغيث - مصرد-منجد - مدلة) واسم المفعول: (منكوب - مذهب - مكبد).

---

(١) استثنينا الجموع التى جاء مفردها على اسم الفاعل والمفعول، بينما أثبتنا ما جاء منها ومن المثنى على إحدى صيغ هذا الوزن.

وصيغ المبالغة: (خراز - صروم - مروح - شبوب - أثيث - خصيب - طويل).
وفى لامية الشنفرى من اسم الفاعل: (راغب - راهب - الجانى - شائع - باسل - خالف - سام - كالحات - بادرات - المتفضل - متغزل - متطول - متمهل - مجفل - متبذل).
واسم المفعول: (مبعوث - منحوض - مكروه - مسئول - مستودع - متعلل - مشيع - مرزأة - مهلهل).
وصيغ المبالغة: (محيار - مهياف - سئول - كريم - جزع - مرح - خرق).
وقد يعترى الجملة فى شعر العبيد شىء من التقديم والتأخير نحو قول سحيم:

«عميرة ودع إن تجهزت غاديا   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا». (١)

فقد قدم المفعول «عميرة» على فعله «ودع»، والجار والمجرور على المتعلق به، فيكون لهذا التقديم دلالته وتبقى الجملة متماسكة. قدم ذكر صاحبته لشدة ولعه بها، وفى تقديم الجار والمجرور شىء من القصر.
وقد يعترى بعض الكلمات شىء من الحذف كما فى قول عنترة:

«وقد كنت تخفى حب سمراء حقبة   فبح لان منها بالذى أنت بائح» (٢)

وقوله:

«إذ لا أزال على رحالة سابح   نهد تعاوره الكماة مكلم». (٣)

وقوله:

«يا دار عبلة بالجواء تكلمى   وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى» (٤)

وقوله:

«فرجعت محموداً برأس عظيمها   وتركتها جزراً لمن ناواها». (٥)

وقوله:

«وأجيبها إما دعت لعظيمة   وأغيثها وأعف عما ساها». (٦)

فقد خفف الهمزة فى «ناواها»، وخففها ثم حذفها فى «ساها» وحذف النون وهمزة الوصل فى «عمى» والتاء فى «تعاوره» وكلمة «لان» المقصود بها الآن. لكن هذا قليل، وقلما يوجد فى شعر غيره من العبيد.

(١) ديوان سحيم ص ١٦.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ٤٢.
(٣) شرح ديوان عنترة ص ١٤٩.
(٤) المصدر نفسه ص ١٤٢.
(٥) المصدر نفسه ص ١٨٥.
(٦) المصدر ص ١٨٦.

٤- الأوزان

الأوزان فى شعر العبيد قليلة وغير متنوعة وتكاد تنحصر فى بحور معينة.

والجدول الآتى يبين هذه البحور وعدد ماصيغ فيها من القصائد والمقطوعات ونصيب عنترة وسحيم والشنفرى وباقى الشعراء منها:

الشعراء	الطويل	الوافر	الكامل	الرجز	البسيط	المتقارب	الرمل	الخفيف
عنترة	٩	٨	١٠	٦	٣	١	–	–
سحيم	٢٢	–	١	٢	٣	١	–	١
الشنفرى	١٥	٢	١	٢	–	١	–	–
باقى الشعراء	٨	٦	١	١	٢	–	١	–
المجموع	٥٤	١٦	١٣	١١	٨	٣	١	١

فإذا استبعدنا ما كتب على الخفيف وهما بيتان اثنان فقط لسحيم ويرويان أيضاً لنصيب، ونسبتهما لنصيب فى رأيى أولى وأصح (١)، وإذا استثنينا ما قالوه على بحر الرمل وهى قصيدة واحدة قصيرة لأم السليك قالتها فى رثاء السليك وهى من مجزوء الرمل محذوف الضرب والعروض: (فاعلاتن فعلن - فاعلاتن فعلن) ومثل هذا الوزن نادر جداً، إذا استثنينا هذه واستبعدنا تلك فلن نجد فيما وصلنا من شعر العبيد غير ستة أوزان تتفاوت تفاوتاً بيناً قلة وكثرة.

---

(١) ديوان سحيم ص ٥٤، ٥٥، والبيتان هما:

"ليس يزرى السواد يوماً ... بذى اللب ولا بالفتى اللبيب الأديب

إن يكن للسواد فى نصيب ... فبياض الأخلاق منه نصيبى".

وقد رجحت نسبتها لنصيب لأننى لم أجد لسحيم ولا لغيره من العبيد شعراً على وزن الخفيف، بينما لنصيب فى هذا شعر كثير، وقيل إن (نصيب) سمى بهذا الاسم بسبب هذين البيتين.

ويحتل البحر الطويل المكانة الأولى فى المجموع(١). يليه الوافر فالكامل فالرجز فالبسيط ثم المتقارب. وهو كذلك عند سحيم والشنفرى وباقى الشعراء خلا عنترة، ويليه عند سحيم البسيط فالرجز فالكامل والمتقارب، وعند الشنفرى الوافر والرجز فالكامل فالمتقارب. وعند باقى الشعراء من غير أصحاب الدواوين الوافر فالبسيط فالكامل والرجز. أما عنترة فيتأخر عنده البحر الطويل عن الكامل، ويليه الوافر فالرجز ثم البسيط فالمتقارب.

وتقدم الكامل عند عنترة على هذا النحو يلائم فى تصورى طبيعة شعره وكثرة تجاربه فى الحماسة؛ فهو بحر سريع كثير الحركات، وشعر الحماسة يتميز - فى الغالب - بشدة الانفعال ويحتاج إلى التدفق، وقد صاغ عنترة على نغمات هذا البحر - إذا استثنينا قصيدة واحدة فى إحدى وعشرين بيتاً من الطويل(٢) - كل قصائده الطويلة وعلى رأسها رائعته الميمية المعلقة، ولاميته الشهيرة التى مطلعها:

«طال الثواء على رسوم المنزل　　　بين اللكيك وبين ذات الحرمل». (٣)

وهى اثنين وعشرين بيتاً ولامية أخرى فى ثلاثين بيتاً مطلعها:

«عجبت عبيلة من فتى متبذل　　　عارى الأشاجع شاحب كالمنصل». (٤)

ومن الغريب حقاً أن هذا البحر على كثرته فى شعر عنترة قليل، بل قليل جداً فى شعر غيره من العبيد، ولم ينظم فيه غير سحيم قطعة من بيتين(٥)، والشنفرى قطعة من بيتين أيضاً(٦)، ومحرر قطعة من ثلاثة أبيات(٧).

أما الطويل فقد استخدموه بكثرة ويكفى أن نشير إلى أن مجموعه وحده يساوى مجموع ما قالوه فى كل البحور الأخرى، بل يزيد، وأن شعر سحيم - باستثناء قطعة من الكامل فى بيتين(٨). وثلاث قطع من البسيط إحداها فى أربعة أبيات(١٠)، والثانية فى بيتين(١١)، والثالثة فى بيتين أيضاً(١٢)، وقطعتان واحدة من المتقارب فى اثنين وثلاثين بيتاً(١٣)، وبيتان من الخفيف رجحنا نسبتهما لنصيب(١٤) - كله من الطويل.

---

(١) مجموع ما ورد من القصائد والمقطوعات لا الأبيات.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ٤١:٤٥.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٨:١٢٠.
(٤) المصدر ص ١٢٠:١٢٣.
(٥) المصدر سحيم ص ٦٠ (قريب).
(٦) الطرائف الأدبية ص ٣٩ (مصرف).
(٧) معجم الشعراء ص ٤٥٦.
(٨) ديوان سحيم ص ٦٠. (قريب).
(٩) المصدر نمسه ص ٥٤ (تبع).
(١٠) المصدر نفسه ص ٥٥ (الورق)
(١١) المصدر نفسه ٥٩ (تظلنونا).
(١٢) المصدر نفسه ص ٣٤.
(١٣) المصدر نفسه ص ٥٨ (الحسان).
(١٤) المصدر نفسه ص ٤٢.

وقد صاغ فى هذا البحر أطول قصائده وأروعها على الإطلاق؛ قصيدته اليائية. وعلى نغمات هذا البحر أيضاً صاغ الشنفرى قصيدته اللامية وتائيته المفضلية.

ولعل اهتمامهم بهذا البحر يرجع إلى مقدرته على استيعاب التجارب المختلفة بنغماته الطويلة الممتدة، وبحركته البطيئة الهادئة التى تشبه حركة الناقة فى سيرها، وباتساع البيت الواحد فيه لأكثر من معنى.

وهم فى تفضيلهم لهذا البحر وإيثارهم له على غيره من البحور، لم يخرجوا عن النمط السائد لشعرنا العربى القديم؛ حيث كان فى مقدمة الأوزان التى صاغ عليها الجاهليون شعرهم، وما أكثر ما خلفوا لنا من الشعر فيه!!

وقد نوع العبيد فى استخدامهم له، فجاء الضرب صحيحاً ومحذوفاً ومقبوضاً بينما ظلت العروض مقبوضة فى كل الأحوال(١).

ومن الصورة الأولى (الضرب صحيح والعروض مقبوضة)(٢) قول سحيم:

«أبا معبد بنس الفرانسة للفتى ثمانون لم تترك لحلفكم عبدا».

وهى قطعة من ستة أبيات (٣) وقوله:

«أشوقاً ولما تمض بى غير ليلة فكيف إذا سار المطى بنا عشرا»؟!

وهى قطعة قصيرة من ثلاثة أبيات (٤). وقطعة له أخرى من بيتين اثنين فقط أولهما:

«فإن تحبسونى تحبسوا ذا وليدة وإن تطلقونى تطلقوا أسداً ورداً».(٥)

ومن هذه الصورة أيضاً دالية الشنفرى، وهى قطعة فى خمسة أبيات أولها:

«كأن قد فلا يُغررك منى تمكثى سلكت طريقاً بين يربغ فالسرد».(٦)

---

(١) باستثناء بيت واحد للسليك جاءت فيه العروض صحيحة وكذلك الضرب وهو قوله:
"ألم خيال من نشيبه بالركب وهن عجال عن نيال وعن نقب"!
(٢) فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
(٣) ديوان سحيم ص ٦٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٥٦.
(٥) المصدر نفسه ص ٥٧.
(٦) الطرائف الأدبية ص ٣٤.

ومن الصورة الثانية (الضرب محذوف والعروض مقبوضة)[١] قطعة ميمية لسحيم فى أربعة أبيات أولها:

«وليست من اللائى يروم وصالها   دنىء ولاعند الفعال ذميم»[٢].

وبيت مفرد[٣]. وقطعة لعنترة فى خمسة أبيات مطلعها:

«فلله عيناً من رأى مثل مالك   عقيرة قوم أن جرى فرسان»[٤].

وقطعتان للشنفرى كل منهما فى بيتين[٥].

أما الصورة الثالثة[٦]، فهى أكثر الصور شيوعاً فى شعر العبيد، وتحوى كل مالم نذكره فى الصورتين السابقتين مما جاء فى هذا البحر، ومنها يائية سحيم ولامية الشنفرى.

ونسجل قبل أن نترك الأوزان هذه الملحوظات:

١- لم يستخدم المجزوء من العبيد الا أم السليك فى قصيدتها التى رثت بها ابنها وهى من مجزوء الرمل، وعنترة فى مقطوعة من الرجز وهى من بيتين اثنين[٧]، وقد تكون من المنهوك فتصبح حينئذ فى أربعة أبيات.

٢- أكثر العبيد تنوعاً فى الاستخدام الموسيقى عنترة، لافى عدد البحور فحسب وإنما أيضاً فى الإيقاع، فهو يتلون تلوناً شديداً باختلاف المواقف والانفعال، من قصيدة لأخرى، وقد تكون القصيدتان من البحر نفسه، بل أحياناً فى القصيدة الواحدة، فقد بدأ المعلقة - على سبيل المثال - بإيقاع هادىء فى المطلع الطللى، ثم أخذ هذا الإيقاع يشتد شيئاً فشيئاً مع الحماسة ثم بلغ ذروته فى الختام وهو يصب غضبه على ابنى ضمضم ويتوجه إليهما بالهجاء. ويستحق هذا العنصر أن يدرس عنده دراسة مستقلة، فقد وفر له كل ما يستطيع توفيره من الملاءمة بين الألفاظ والمعانى والأصوات، وترك للانفعال تلوينه فاشتد عند الغضب، ولان عند الحزن والحنين، فاختلفت أنغامه فى الهجاء عن أنغامه فى الغزل والرثاء.

---

(١) فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن   فعولن مفاعيلن فعولن فعولن
(٢) ديوان سحيم ص ٣٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٠.
(٤) شرح ديوان عنترة ص ١٧٧.
(٥) الطرائف الأدبية ص ٣٤ (الدالية) وص ٤٠ (النونية).
(٦) الضرب والعروض مقبوضان:
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن
(٧) شرح ديوان عنتره ص٩٢.

ولاشك أن توفير الإيقاع كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل «أشق بكثير من توفير الوزن؛ لأن الإيقاع يختلف باختلاف اللغة والألفاظ المستعملة ذاتها فى حين لايتأثر الوزن بالألفاظ الموضوعة فيه». (١)

فإذا تركنا الأوزان وانتقلنا إلى القافية، والقافية تمثل جزءاً هاماً من موسيقى الشعر، وجدناها تأتى على ضربين تبعاً للروى؛ مطلقة عندما يكون حرف الروى متحركاً، ومقيدة عندما يكون ساكناً، والنوع الثانى قليل الشيوع عند العبيد وعند غيرهم من شعراء العصر الجاهلى، ومن هذا النوع الأخير قطعة واحدة لعنترة من بحر المتقارب أولها:

«وغادرن نضلة فى معرك يجر الأسنة كالمحتطب» (٢).

وهى فى أربعة أبيات. وقصيدة أم السليك و أولها:

«طاف يبغى نجوة من هلاك فهلك» (٣).

وقطعة واحدة للسليك مطلعها:

«من مبلغ جذمى بأنى مقتول» (٤).

وكل ما وصلنا من شعر العبيد باستثناء هذه القصيدة وهاتين القطعتين من النوع الأول.

وهذا بيان تفصيلى للحروف التى استخدموها فى الروى:

الشعراء	الهمزة	الباء	التاء	الجيم	الحاء	الدال	الراء	السين	العين	الفاء	القاف	الكاف	اللام	الميم	النون	الهاء	الواو	الياء	مجموع الحروف
عنترة	–	٢	–	–	١	٣	٦	١	٢	٢	٢	–	٢	٥	٣	٣	١	٣	١٤
سحيم	١	٢	–	١	–	٥	٤	١	٢	٣	١	–	–	٥	٢	–	–	٣	١٢
الشنفرى	–	٣	١	٢	–	٣	٣	–	٢	٢	–	–	١	١	٣	–	–	–	١٠
باقى الشعراء	–	٤	–	–	–	١	٦	–	–	١	–	١	٢	٣	–	١	–	–	٨
المجموع	١	١٢	١	٣	١	١٢	١٩	٢	٦	٨	٣	١	٥	١٤	٨	٤	١	٦	١٨

(١) الأسس الجمالية فى النقد العربى، د. عز الدين إسماعيل (القاهرة سنة ١٩٧٤) ص ٣٧٦.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ١٧، ١٨.
(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى - القسم الثانى ص ٩١٤:٩١٨.
(٤) الأغانى (ط. أبو الفضل إبراهيم) جـ٢٠ ص ٣٨٥، ٣٨٦.

وهذا بيان للحركات التى استخدموها فى الروى، ونوع القافية بالنسبة لعدد الحروف المتحركة بين الساكنين:

الشعراء	الضمة	الفتحة	الكسرة	المتواتر	المتدارك	المتراكب
عنترة	١٢	٨	١٥	١٧	٢٠	—
سحيم	١١	١٢	٧	١٢	١٦	٢
الشنفرى	٧	٤	١٠	٦	١٥	—
باقى الشعراء	٥	٣	٨	١١	٨	—
المجموع	٣٥	٢٧	٤٠	٤٦	٥٩	٢

ونلاحظ من هذين الجدولين أن العبيد قد استخدموا ثمانية عشر حرفاً من حروف الهجاء فى الروى، وأن أكثر هذه الحروف استخداماً الراء ثم الميم ثم الدال والباء، وأن بعض هذه الحروف جاء نادراً كالهمزة. حيث لم يستخدمها إلا سحيم فى بيت واحد(١)، والألف استخدمها عنترة فى ثلاثة أشطر من الرجز(٢)، والتاء والحاء والكاف وقد قالوا فى كل حرف منها قصيدة: تائية الشنفرى(٣)، وحائية عنترة(٤)، وكافية أم السليك(٥).

ونلاحظ أيضاً أن أكثرهم تنويعاً لحروف الروى عنترة فسحيم فالشنفرى فالسليك، ولعل هذا يتناسب مع ما وصلنا صحيحاً من الشعر؛ فشعر عنترة أكثر من شعر سحيم وشعر سحيم أكثير من شعر الشنفرى وهكذا. وقد استخدموا فى القوافى المطلقة كل الحركات؛ وهى بالترتيب الكسرة فالضمة ثم الفتحة. وهذا الترتيب صحيح عندهم جميعاً، ولم يشذ عنه إلا سحيم حيث جاءت الفتحة عنده فى المقام الأول فالضمة ثم الكسرة، أى أن الترتيب عنده مقلوب.

---

(١) ديوان سحيم ص ٦٠.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ١٩٩ وهى من زيادات البلطيوسى.
(٣) المفضليات جـ١ ص ١٠٦:١١٠.
(٤) شرح ديوان عنترة ص ٤١: ٤٥.
(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى - القسم الثانى ص ٩١٤:٩١٨.

وقد أشبعوا هذه الحركات بحروف المد الثلاثة الألف والواو والياء فى كل ما وصلنا من النصوص باستثناء ثلاث مقطوعات من الرجز إحداها للشنفرى فى خمسة أشطر (١)، والثانية لعنترة فى بيتين (٢)، والثالثة له أيضاً فى خمسة أشطر (٣)، حيث ألحقوا الروى بهاء ساكنة.

ونلاحظ أيضاً أنهم استخدموا ثلاثة أنواع من أنواع القافية: المتدارك وهى ما جاء فيها حرفان متحركان بين الساكنين (ـه ـ ـ ه) وقد وصلنا من هذا النوع تسع وخمسون نصاً، والمتواتر وهى ما توسط ساكنيها حرف واحد متحرك (ـه ـ ه) ووصلنا منها ست وأربعون نصاً، والمتراكب وهى ما كان فيها ثلاثة حروف متحركة بين الساكنين (ـ ه ـ ـ ـ ه) بيد ان هذا النوع نادر، ولم يستخدمه إلا سحيم فى مقطوعتين اثنتين فقط؛ الأولى فى أربعة أبيات (٤)، والثانية فى بيتين (٥).

ونسجل فى الختام تلك الظاهرة العروضية التى شاعت فى كثير من الأراجيز وخاصة عند عنترة، وهى التشطير؛ حيث تقسم المقطوعة إلى مجموعة من الأشطر، وتختم بروى واحد، ويصلح كل شطر لأن يكون بيتاً قائماً بذاته من المشطور، ومنها قول عنترة:

«لكل جار حين يجرى منتهى   ما كل يوم تسعف القوم المنى
حقاً ولاتخطنهم سبل الردى». (٦)

وقوله:

«يا عروة بن الورد خير عبس   أما ترانى قد بذلت نفسى
للموت والثارات دون عرسى». (٧)

وقول سحيم:

«أبصرتها تميل كالوسنان   من الظباء الخرد الحسان
تمشى بمثل القدح الجيشانى». (٨)

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٤٠.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ٩٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٠. وهى من زيادات البطليوسى.
(٤) ديوان سحيم ص ٥٤.
(٥) المصدر نفسه ص٥٥.
(٦) شرح ديوان عنترص١٩٩وهى من زيادات البطليوسى.
(٧) شرح ديوان عنترة ١٩٨. وهى من زيادات البلطيوسى.
(٨) ديوان سحيم ص ٥٨.

وقد تأتي بعض هذه المقطوعات فى خمسة أشطر نحو قول الشنفرى:

«لاتبعدى إما هلكت شامة — فرب واد نفرت حمامه
ورب قرن فصلت عظامه — ورب خرق قطعت قتامه
«ورب حى فرقت سوامه»[١]

وقول عنترة:

«اليوم تبلو كل أنثى بعلها — فاليوم يحميها ويحمى رحلها
وإنما تلقى النفوس سبلها — إن المنايا مدركات أهلها
«وخير آجال النفوس قتلها»[٢].

وقد تصل إلى سبعة أشطر نحو قول الشنفرى وقد أصابه الخرم:

«أونس ريح الموت فى المكاسر — ..... من أمم نهابر
هذا .... أسد بن جابر — بنبعة وأسهم طوائر
ومرهق ماضى الشباة باتر — أخطأت ما أملت يا ابن الغادر
لست بوارد ولا بصادر»[٣].

وقد تأتى فى بيتين نحو قول عامر بن فهيرة:

«إنى وجدت الموت قبل ذوقه — إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرىء مجاهد بطوقه — كالثور يحمى جلده بروقه»[٤].

وقد تمتد فى مجموعة من الأبيات نحو قول عنترة:

«إنى أنا عنترة الهجين — فج الأتان قد علا الأنين
يحصد فيه الكف والوتين — من وقع سيفى سقط الجنين
عندكم من ذلك اليقين — عبلة قومى ترك العيون
فيشتفى مما به الحزين — دارت على القوم رحى المنون»[٥]

ولسحيم مقطوعة من بيتين يتفق فيها الحرف الأخير من الشطر الأول والثانى والرابع، ويختلف الشطر الثالث[٦]، وهى تذكرنا بالرباعيات التى استخدمها الشعراء فى العصور التالية، لولا أننا لم نجد ما يكملها، ولا ما يعضدها فى بقية شعره. وربما وجد المجددون فى العصور التالية فى مثل هذه الأراجيز ما جرأهم على البحور الشعرية الأخرى فكانت المسمطات ونحوها.

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٤٠.
(٢) شرح ديوان عنترة ص ٢٠٠ وهى من زيادات البطليوسى.
(٣) الطرائف الأدبية ص ٣٦.
(٤) الإصابة جـ٢ ص ٢٤٧.
(٥) شرح ديوان عنترة ص ١٩٨ وهى من زيادات البطليوسى وفى البيت الأخير إقواء.
(٦) ديوان سحيم ص ٣٤.

الخاتمـــــــــة

شعر العبيد - فيما وصلنا منه - فى الجاهلية وصدر الإسلام قليل. لاقلة من نبغ من الشعراء العبيد، وإنما لقلة اهتمام القدامى بهم، ولطبيعة حياتهم فى الرق. ولم يصلنا من شعرهم مجموعاً إلا ثلاثة دواوين، لعنترة وسحيم والشنفرى، أما باقى العبيد فقد تبعثر شعرهم فى بطون الكتب القديمة ككتب الأدب واللغة والتاريخ. وهذا الشعر المبعثر قليل جداً بالقياس إلى الشعر المجموع، ومنه ماتكرر فى مصادر مختلفة، ومنه ما انفرد به مصدر أو مصدران، وبعضه مسند، وسائره مجهول الرواة، وهو فى جملته مقطوعات قصيرة قلما ترقى إلى حد القصائد، وقد سلم بعضه من التغيير، وأصاب التغيير بعضه وهو الأكثر، ويشمل التغيير الألفاظ والتراكيب والترتيب والزيادة والنقصان.

كان للرق فى العصر الجاهلى مصادر متعددة، أبرزها الحرب والجلب، وكان هناك نوعان من الرقيق، رقيق عربى من أسرى الحروب والغارات الذين لم يفدوا أنفسهم من الأسر ولم يسع أحد فى تخليصهم، ولم ينعم عليهم آسروهم بالعتق ولم ينتقموا منهم بالقتل، ورقيق أجنبى من البلاد المجاورة كالنوبة والحبشة وغيرهما. وكلا النوعين كان يباع فى الأسواق.

وقد انتشرت تجارة الرقيق فى الجزيرة قبل الإسلام، وكانت أسواق العرب المشهورة أفضل مكان يباع فيه الأسرى والسبايا والعبيد، فى مكة ويثرب والطائف والبحرين وغيرها من البلدان. وقد يباع العبيد فى أسواق خاصة غير الأسواق الموسمية الجامعة، ويسمى القائم ببيع الرقيق رقاقاً، ويتفاوت ثمن العبد أو الجارية تبعاً لجنسه وشكله وما يجيده من الأعمال.

ولشيوع الرق فى الجزيرة وتعدد مصادره كثر الرقيق كثرة بالغة، حتى أصبح يكون طبقة اجتماعية كبيرة لها معالمها المميزة وسماتها الواضحة، فهم فى الدرجة الثالثة داخل القبيلة بعد طبقة الأحرار وطبقة الموالى، يقومون بالأعمال التى يترفع عنها السادة، كالخدمة فى البيوت، والاحتطاب، والرعى ومايتصل به من برى وحلب وصر. وكان بعض الإماء يجدن العزف والغناء، وقد اشتهرت منهن غير واحدة وكان بعضهن يسخرن فى البغاء، وقد تورط بعضهن فى الأعمال الدنيئة كالقيادة. ووكل لبعضهن أعمال خطيرة كالتجسس.

وقد خول العرف الجاهلى للسيد أن يسخر عبده فيما يريد، وأن يتصرف فيه كما يشاء، فله أن يضربه ويعذبه ويقسو عليه، وله أن ينزل به أشد أنواع العقاب، وله أن يستبقيه فى الرق أو يعتقه، وله أن يبيعه أو يهبه لغيره، وله أن يرهنه ثم يفك رهنه أو يتركه، وله أن يدفع به فى الصداق والديات مع الإبل والشياه. وقد أرجع بعض الباحثين المعاصرين ظاهرة ازدراء العرب للعبيد إلى علة إجتماعية، كأن يكون العبد مجهول النسب. وأرجعها آخرون إلى علة عنصرية. وكلاهما مكمل للآخر فى تصورنا، لكنهما لايكفيان فى تفسير تلك الظاهرة، فقد كان بعض العبيد من العرب كالشنفرى، وكان بعضهم معلوم النسب، وعلى الرغم من هذا لم يكونوا فى وضع اجتماعى أفضل مما كان عليه سائر الرقيق وكان ينظر إليهم بالنظرة نفسها التى ينظر بها إلى الرقيق الأجنبى. وقد أرجعنا نحن ذلك بالإضافة إلى العلتين السابقتين إلى العصبية القبلية التى كانت بمثابة الدستور أو القانون الذى تقوم عليه القبيلة وتحافظ به على كيانها ونقائها.

وقد جاء الاسلام والرق يضارب أطنابه فى الجزيرة وما حولها، وللإسلام نظرته الشمولية فى معالجة قضاياه، وحين نظر إلى مشكلة الرق وجدها متولدة من عدة مشاكل، منها ماهو فكرى، ومنها ماهو اقتصادى، ومنها ماهو اجتماعى. فلم يعالجها على حدة وإنما عالجها من خلال معالجته لتلك المشاكل، ولم يجد بدأ من الاعتراف بالرقيق الموروث من الجاهلية أيا كان مصدره مراعاة لمصالح السادة والمجتمع والأرقاء أنفسهم، ثم عمد إلى تضييق مصادر الرق إلى أقصى حدود التضييق، وعمل فى الوقت نفسه على توسيع منافذ التحرير.

ولم يبح الإسلام من مصادر الرق إلا مصدراً واحداً هو الجهاد فى سبيل الله أو الحرب المشروعة بشروطها المعروفة، وهى أن تكون مع غير المسلمين، مسبوقة بإذن من الإمام، ويراعى فيها آداب الحرب وقوانينها من الإنذار والإشهار والبدء بعرض الإسلام ثم الجزية. على أن الإمام مخير فى معاملة الأسرى بين المن والفداء والقتل والاسترقاق، يقدم ما فيه المصلحة العامة للمسلمين، وقد نص القرآن على المن والفداء ودل فعل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده على جواز القتل والاسترقاق. وغالباً ماكانوا يقدمون المن والفداء وهما المذكوران صراحة فى آية القتال.

وقد حث الإسلام على حسن معاملة العبيد، وأوصى السادة بهم ووضع من المبادىء والقوانين مايكفل لهم حياة كريمة ويوفر لهم سبل الخلاص من الداخل فيشعر المسترق أنه هو وسيده سواء، لافرق بينهما إلا بتقوى الله. وحرم البغاء والمخادنة، ورغب فى التسرى بالإماء ليفسح مجال العتق أمامهن. ورغب فى تأديبهن وتعليمهن وعتقهن ثم الزواج بهن بعد العتق، وأعفى العبيد من أشياء كثيرة اوجبها على الأحرار واتجه إلى التخفيف عنهم فى كثير من العقوبات كعقوبة الزنا والقذف، وساوى بينهم وبين الأحرار فى كثير من الحقوق كإمامة المسلمين فى الصلاة والإجارة وقبول شهادة من كان عدلا منهم وكان لهذا كله أثره فى نفوسهم فلم تعد العبودية تملكاً للنفس وإنما صارت تملكاً للمنفعة وصار للعبد حقوق بعد أن لم يكن له حق فى شىء.

غير أن هذه المعاملة الحسنة التى أحاط بها الإسلام العبيد شذ عنها بعض السادة ممن لم يتعمق الإسلام نفوسهم وخاصة فى البادية فكانوا يعاملون العبيد بالطريقة نفسها التى كانوا يعاملونهم بها قبل الإسلام وكان هذا الشذوذ وراء انحراف بعض العبيد وقد تمثل الانحراف فى صور شتى: بعضها سلبي كالإباق والهروب، وبعضها عنيف كالاغتيال والقتل. بل كان منها ماإتصل بالدين كالارتداد عنه والكذب فى رواية الحديث النبوى الشريف والانضمام إلى الفرق الدينية المناوئة فى نهاية ذلك العصر.

وقد أثر الوضع الاجتماعى المتمثل فى الرق فى نفوس الشعراء العبيد وفى شعرهم، وانعكس هذا التأثير فى أكثر من اتجاه، منه الاتجاه نحو التسامى والاستعلاء عند عنترة، والاتجاه نحو العبث والمجون عند سحيم. والاتجاه نحو الصعلكة عند السليك والشنفرى. وهذا يعنى أن العبودية لم تترجم عن نفسها فى صورة واحدة عند كل الشعراء العبيد على السواء، وإنما اتخذت صوراً متعددة لاختلاف النفوس والطبائع ووجود مايسمى بالاستعداد الخاص فضلا عن وجود بعض العوامل المؤثرة عند كل شاعر على حدة.

كان عنترة وهو ابن سيد من سادات عبس يسعى بكل مايستطيع للحصول على الاعتراف به ابناً شرعياً من أبناء القبيلة. وكانت لديه قوة فى النفس وقوة فى الجسد فاتجه

نحو الاستعلاء، وقد شاءت له الأقدار أن يتعلق بعبلة وأن يقف كبرياء أبيها مالك وصلف أخيها عمرو فى وجهه ويحول بينه وبينها، وأن تسخر عبلة نفسها منه ومن عبوديته وسواده وتتطلعه إليها على الرغم مما هو فيه، فزاده هذا إصراراً على الاستعلاء؛ليثبت لها ولقومها - وربما لنفسه - أنه لايقل عن أى من هؤلاء السادة إن لم يكن هو الأفضل.

وقد تمثل لنا استعلاؤه فى أشياء كثيرة، فى تعففه عن شهوة البطن والجسد، وصيانته لحرمة جاره، وفى شدة اعتزازه بنفسه، ورفضه الذل والضيم، وفى حلمه وسهولة خلائقه وكرمه، وكانت فروسيته تقوم فى جانب كبير منها على هذا الاستعلاء، فهو يتعفف عن المغانم فلا يحارب من أجلها كما كان يحارب معظم أهل الجاهلية، ويربأ عن نكاح السبايا بدون مهر ورضا وقبول، ويحفظ حرمات القبيلة ويذود عن نسائها. ومن مظاهر الاستعلاء فى شعره الفخر الذاتى والترفع عن المدح والاعتذار، وعدم الإقذاع فى الهجاء.

أما سحيم فقد ارتبط اتجاهه نحو المجون بتجربته العاطفية وبما لاقى فيها من صدمات، فقد تعلق بامرأة من بنى يربوع كانت تنزل على سيده مكرهة، وحالت الفرقة بينه وبينها، وتعرض من أجلها للبيع والسجن والضرب بسببها، ثم انصرفت عنه هازئة به وبحبه لها. وقد وجد فى تغزله الفاحش بحرائر قومه نوعاً من التشفى والانتقام، وألهب خياله المريض إحساسه الحاد بالتفاهة والدونية والنقص، ويبدو أنه كان معجباً بامرئ القيس كثير التأثر به، وامرؤ القيس لايتورع فى غزله عن المعانى الحسية واللفتات الجسدية، فما زال بهذه المعانى وتلك اللفتات يطورهما ويتزيد فيهما حتى وصلا على يديه إلى نوع من التهتك والمجون.

واندفع السليك والشنفرى نحو الصعلكة، وإن اختلفا فى دوافعهما، وفى مقدار تصعلك كل منهما، فالسليك من الأغربة الذين سرى إليهم السواد من قبل أمهاتهم الإماء، وحال اللون واختلاط الدم وعار الولادة بينهم والاعتراف بهم. وكان فضلا عن ذلك فقيراً شديد الفقر، يرى خالاته مسخرات ولايستطيع أن يفعل شيئاً من أجلهن، ويغشاه الدوار من شدة الجوع فى الوقت الذى ينعم فيه غيره بكل شىء، فلماذا لايتصعلك وفى الصعلكة الخلاص من الفقر

والاعتراف به؟ ولديه من المؤهلات التى يحتاج إليها الصعلوك الشيء الكثير ؛ فهو عداء لاتعلق به الخيل، قوى الجسد والبنية، قوى النفس والإرادة، وفى بنى تميم قومه صعاليك كثيرون ولصوص وسادة مرتشون وزعامات غير متزنة. وقد كان فى صعلكته عنيفاً حتى اعتبرناه نموذجاً للصعلوك الشيطان الذى يغدر ولايعرف للوفاء طريقاً، ويبطش ويقتل ويسيل الدماء ولا يتورع عن الغنا والزنا.

أما الشنفرى فقد اضطربت الروايات فيه اضطراباً شديداً، واستخلصنا من هذه الروايات على اضطرابها أنه كان عبداً عربياً، وأنه نشأ فى غير أهله، ثم عاد إلى فرع بعيد من فروع قبليته فى عملية مفاداة أو تبادل أسرى بلغة العصر الحديث، ولكنه ظل فى هذا الفرع مستعبداً، لأن أمه كانت من السبايا، وقد قتل أبوه وهو لا يزال صغيراً ولم يجد من ينتقم له، قتلته قبيلته ولم يبؤ أحد منهم بدمه، فلما شب والتقى بتأبط شراً مارس معه الصعلكة ووجه كل همه نحو قبيلته وكأنه كان ينتقم من كل فرد فيها، حتى قيل إنه قتل منهم مائة نفس. إلا أنه كان نموذجاً للصعلوك (الشريف)، إن جاز التعبير، فهو لم يغدر ولم يكن يغير من أجل النهب، وانما كان جل همه من الصعلكة الانتقام.

وكما تأثرت شخصيات هؤلاء الشعراء بالعبودية تأثر شعرهم بها، فى موضوعاته، وظواهره الأدبية، وخصائصه الفنية. فقد دار شعرهم من ناحية الموضوعات فى دائرتين؛ دائرة خاصة، وأخرى عامة. وتناول شعرهم فى الدائرة الخاصة العبودية وما يتصل بها من شكوى الرق وضعة المكانة وهوان المنزلة وسخرية الآخرين بهم وقسوتهم فى معاملتهم لهم، تلك القسوة التى قد تصل إلى حد البيع والحبس، والشتم والضرب والجلد بالسياط، وقد قرن بعضهم بين العبودية والموت، وحرص بعضهم على وصف أنفسهم بالحرية، وهم يعنون حرية النفس فى مقابل عبودية الجسد، وثار بعضهم على العبودية بالسخرية منها ومن العبيد.

ومما يتصل بالعبودية ويدور فى دائرة الرق الفقر وآثاره، ولم يكن فقرهم كفقر عامة الناس، فهم فضلا عن أنهم لايملكون شيئاً مملوكون لغيرهم وإحساسهم بالفقر أشد من إحساس سائر الناس، لأنهم يلمسون الغنى عن قرب ويشاهدون سادتهم يتقلبون أمام أعينهم فى البذخ

والنعيم والثراء.

لذا كانت شكوى الفقر فى شعرهم صارخة، وكان تعبيرهم عنها حاداً صادقاً مؤثراً، وارتبطت الشكوى عندهم بالحديث عن الشحوب والنحول والهزال وتمزق الثياب وما يسببه الفقر من الإحساس بالعجز والحرمان. وقد واجه بعضهم الفقر بالتعفف والصبر فكان يماطل الجوع ويضرب الذكر عنه حتى يميته وينساه. بينما صب آخرون جام سخطهم على الأغنياء متخذين من بدانة أجساد هؤلاء الأغنياء فى مقابل أجسامهم النحيلة مادة للهزء بهم والسخرية. منهم ورأى بعضهم فى الصعلكة الخلاص فربطوا بينها وبين الفقر ربط النتائج بالأسباب.

وكان السواد اللون الغالب على العبيد، وللعرب نظرتها الخاصة إلى السود فتحدث الشعراء العبيد، وخاصة السود منهم، عما يسببه اللون لهم من مشكلات وحاولوا الدفاع عنه بالاعتذار حيناً، وبالإحالة على الجوهر حيناً آخر، وبلفت الأنظار إلى بعض الأشياء التى يكون السواد فيها مجال فخر لا ازدراء. غير أن دفاعهم كان يفيض فى كثير من الأحيان بالمرارة؛ لأنهم وجدوا فى مجتمع يقيم الناس على أساس الشكل والمظهر.

ووقفوا مع الموت وقفات كثيرة عبروا فيها عن عمق إحساسهم به وبقربه من الحياة التى يحيونها؛ حياة العزلة والقاع، ورأى بعضهم فيه المخلص من قسوة الحياة. ولأنه لايفرق بين غنى أو فقير ولابين أبيض أو أسود ولابين حر أو عبد فهو فى نظرهم أعدل من الحياة نفسها، وكانوا جميعاً يؤمنون بحتميته وبأنه إن جاء لايؤخر ولا يغنى فيه الحذر. فكان هذا دافعاً لهم على الإقدام والجرأة والاستهانة بالحياة، ولكنهم لم يتطرقوا فى حديثهم عنه إلى مابعده من بعث أو حساب أو جزاء.

وفى دائرة الموضوعات العامة تميز العبيد ببعض السمات الخاصة، واشتركوا مع غيرهم فى سمات أخرى عامة. وقد حرصت على تتبع هذه وتلك فى كل موضوع على حدة؛ فى شعر الطبيعة، والغزل، والحماسة، والهجاء، والحكمة، والرثاء. فقد أتيح للعبيد الاتصال بالطبيعة اتصالا وثيقاً، وأتاح لهم هذه الاتصال أن يعبروا عنها تعبيراً صادقاً عميقاً، ووقفوا عند الظواهر الطبيعية المختلفة كالبرق والمطر والرعد والبرد والحر والرياح ووصفوا

السهول والجبال والصحارى والوديان، وكثر فى شعرهم ذكر الأماكن والبلدان وكانت أكثر وقفاتهم مع الحيوان وخاصة الحيوانات الأليفة المستأنسة كالخيل والجمال، وإن كان بعضهم كالشنفرى قد وقف مع الذئب كما وقف سحيم مع الثور الوحشى وهو يصارع الكلاب.

ولم يأت وصفهم لعناصر الطبيعة منفصلا عنهم؛ فهم دائماً بارزون فى كل ما يعرضون من صور، حتى الوصف المجرد عند الشنفرى وسحيم كان يعكس فهماً فطرياً لما نسميه اليوم (المعادل الموضوعى).

وكان الغزل من الموضوعات المحببة لهم على الرغم من هوان منزلتهم الاجتماعية وما كانوا يلاقونه فى تجاربهم من التضييق والإخفاق والسخرية. وغزلهم كسائر الغزل؛ منه ماهو عفيف يدور حول الهجر والوصل وشكوى البعد والفراق ونفس المحب وما يعتمل فيها من الشوق والآلام، ومنه ماهو حسى يتناول الصفات الجسدية ليبرز ما فى المرأة المعشوقة من جمال فيتحدثون عن الفم والريق الذى يشبه الخمر والعين والشعر والجيد وغيرها من الأجزاء، وقد يختلط الغزل الحسى بالغزل العفيف، ويصل عند سحيم إلى نوع من التهتك والمجون. ولعل أبرز مايميزهم فى غزلهم امتزاجه الحاد بالألم وكثرة الجروح والإحساس بالمرارة والشقاء والحرمان، وكأنهم لم يروا من الحب إلا وجهه (التعس) الدميم، وكثيراً ماربطوا بين الحب والسقم، وعبروا عن أحزانهم والمخاوف التى تحيط بهم من جرائه، حتى لم نعد نشعر معهم بما فى الحب من بهجة وإنما هى أنات تعلو فى بعض الأحيان حتى تصل إلى درجة البكاء والعويل والصراخ.

وقد وجد العبيد فى شعر الحماسة مجالا للفخر وتأكيد الانتماء القبلى والخروج من عزلتهم، كما وجد فيه بعض فرسانهم وصعاليكهم مجالا لإظهار الشخصية الفردية ولفت الأنظار إليهم وإلى أعمالهم البطولية الخارقة التى يستوون فيها إن لم يتفوقوا مع غيرهم من الفرسان الخلص الأحرار.

ويكثر فى تناولهم لهذا الموضوع ذكر الأسلحة، سواء فى ذلك أسلحة الهجوم أو الدفاع، كما يكثر فيها وصف القتال وما تنجلى عنه المعارك من قتلى وأسرى وجرحى

وهزيمة وانتصار، والإشادة بالمجد الحربى للقبيلة والبطولات الفردية والمثاليات التى ينبغى أن يتصف بها المقاتل من الشجاعة والجرأة والإقدام والنجدة والثبات، والذود عن الحرمات. ويكاد ديوان عنترة يكون وقفاً على هذا النوع من الشعر، فمن خلاله يصدر فى سائر الموضوعات.

فإذا نظرنا إلى الحكمة وجدناها لاتخرج عن دائرة الحكمة العملية المستنبطة من واقعهم الخاص ومن تجاربهم المرة الأليمة باعتبارهم من الطبقة الدنيا التى تعيش فى قاع المجتمع. وكما كان عنترة هو المبرز من شعرائهم فى مجال الحماسة فإن سحيماً كان - بلا جدال - أبرز شعرائهم ولعاً بالحكمة وتصيداً لها فى شعره. والحكمة عنده وعندهم ليست مجرد حلية أو زخرف أو إطار، وليست كذلك وسيلة انتقال، وإنما هى لمحات موجزة تتناثر فى قصائدهم غير منفصلة عن التجربة أو الجو العام للقصيدة كلها.

ويقل الرثاء فى شعرهم قلة ملحوظة وإن كان الرثاء مجالا خصباً للتنفيس عن الأحزان، وما أكثر تلك الأحزان التى عاشوها وتراكمت فى نفوسهم. ولعل أطرف ما وجدناه فى رثائهم رثاء الشنفرى ليده حين قطعت وهو على حافة الموت. وكأنه من خلالها كان يرثى نفسه لأنه يشعر فى قرارة نفسه أن أحداً لن يلتفت إليه بعد أن يموت فضلا عن أن يرثيه. وكما انصرف الشنفرى عن رثاء الناس إلى رثاء يده انصرف السليك إلى رثاء فرسه النحام، فهو وحده الذى يستحق، فى تصوره، الرثاء. ولعل أطول وقفة لهم فى الرثاء وربما أعمقها قصيدة أم السليك فى رثاء ابنها، وهى كل ما وصلنا من شعرها وهى زفرة حارة وصرخة ألم صادقة وعويل وأنين. ومن الموضوعات الأخرى التى قلت فى شعرهم أيضاً الهجاء. ومرجع قلته هو إشفاقهم من تعيير الأخرين لهم بالرق، ولم يجرؤ على الهجاء منهم إلا عنترة والشنفرى، ويتأرجع هجاؤهما بين التصريح والتلميح وينأى عن الإقذاع والشتم القبيح ويفيض فى بعض الأحيان بالتهكم والسخرية. ولم نجد فى شعرهم مدحاً لأنهم لم يكونوا من رواد القصور، وقد حالت العبودية بينهم وبين الوصول إلى من يستحقون المديح أو يجزلون العطاء عليه، وربما شغلتهم أنفسهم عن مدح غيرهم وحال إحساسهم بالنقص بينهم وبين الثناء على الآخرين. فضلا عما كانوا يكنونه فى أنفسهم من الكراهية لكثير من السادة

والحقد الدفين لتلك الطبقة التى تتقلب فى النعيم والثراء.

ويشيع فى شعر العبيد عدة ظواهر أدبية تكاد تكون عامة تجمع بينهم جميعاً ولايشذ عنها واحد منهم. وأول هذه الظواهر تأرجح شعرهم بين القصائد والمقطوعات، وإن كان فى جملته أكثر ميلا إلى المقطوعات منه إلى القصائد؛ فعدد المقطوعات عند عنترة أكثر من ضعف عدد القصائد، وعند سحيم أربعة أضعاف القصائد، وشعر الشنفرى كله باستثناء قصيدتين طويلتين وأخرتين قصيرتين شعر مقطوعات، وليس لباقى العبيد سوى قصيدتين إحداهما للسليك والأخرى لأمه وباقى شعرهم مقطوعات وجملة المقطوعات فى شعر العبيد تقرب من أربعة أضعاف عدد القصائد. وقد عللنا ذلك بأحد احتمالين؛ أن تكون هذه المقطوعات أوعلى الأقل بعضها قصائد لم تصل إلينا كاملة والثانى أن تكون هذه طبيعة شعرهم؛ فحياتهم ليست ملكاً لهم، وليس لديهم من الوقت مايسمح لهم بالتفرغ للشعر وإطالته. ولكل من الاحتمالين مايؤيده وإن كان الاحتمال الثانى هو الأرجح عندنا لوجود قرائن تدل عليه وتؤكده.

ومن الظواهر الأدبية التى تلفت النظر فى شعر العبيد قلة التصريع والتخلص من المقدمات الطويلة. ولعل هذا مرتبط إلى حد بعيد بغلبة المقطوعات، فللمقطوعات طبيعة خاصة تختلف عن القصائد وخاصة القصائد الطويلة. وقد تأكدنا من ذلك حين فصلنا بين القصائد والمقطوعات فوجدنا عدد القصائد المصرعة يزيد على عدد القصائد غير المصرعة بينما يزيد مجموع المقطوعات غير المصرعة على ثلاثة أضعاف المصرعة. ويقترب عدد القصائد ذات المقدمات من عدد القصائد التى قيلت بدون مقدمات بينما يندر فى شعرهم وجود مقطوعة ذات مقدمة، وقد رجحنا كون هذه المقطوعات النادرة أجزاء من قصائد ضائعة.

ولعل أبرز مايميز شعر العبيد ويعد ظاهرة أدبية تجمع بينهم جميعاً وضوح الشخصية. وقد تنبه له العقاد فأشار إليه وربط بينه وبين مسألة الصدق الفنى والبعد عن التقليد. ووجدنا فيما ذكره مفتاحاً لنا فى فهم هذه الظاهرة؛ فهم يعيشون على حافة المجتمع ولايحتفل أحد بهم ولا بشعرهم ولا يحتفلون هم أيضاً بالآخرين ولا بالتقاليد الشائعة التى

يحرصون عليها فى شعرهم، ومن أبرز هذه التقاليد التعبير عن النفس من خلال الجماعة أو التحدث بلسان الآخرين وهو أبرز ما يميز الشعر القبلى، من هنا لم تكن شخصية الشاعر تتضح فى شعره مثل ذلك الوضوح الذى نراه فى شعر العبيد، وقد كان هذا الوضوح وراء تميزهم لا عن غيرهم فحسب، بل تميز كل واحد منهم عن غيره ممن يشتركون معه فى العبودية والرق.

ومما يلفت الانتباه فى شعر العبيد ذلك «التخصص الموضوعى»: فقد تخصص كل شاعر منهم أو كاد فى نوع من الشعر برز فيه، تخصص عنترة فى شعر الحماسة، واختص سحيم بالمجون، والسليك بمغامراته فى السطو والنهب والشنفرى بالثأر والوعيد، ومحرر بالرثاء وكذلك أم السليك. ويشد انتباهنا أيضافى شعرهم تلك «الوحدة الموضوعية» التى تهيمن على سائر المقطوعات وتظهر فى كثير من القصائد، ولعل هذا راجع إلى عنصر الصدق الفنى وقلة احتفالهم بالتقليد ومحاكاة النماذج الفنية الرفيعة، تلك النماذج التى كانت تتعدد فيها الموضوعات وتهتم اهتماماً شديداً ببراعة الانتقال وتعتبره من المقاييس الفنية الأصيلة.

وشعر العبيد فى جملته يجنح نحو الواقع جنوحاً شديداً، وقد تراءى لنا هذا فى أصلين كبيرين، الأول: اتخاذهم الحياة بخيرها وشرها وحلوها ومرها مادة للشعر، والثانى: التعبير عن هذه المادة تعبيراً واقعياً يتمثل فى الصدق وأمانة النقل والدقة، والتحديد، فقد تحدثوا عن مكانتهم الاجتماعية ومايسببه اللون لكثير منهم من المشكلات، كما تحدثوا عن فقرهم بدون مواربة، ووصفوا نحول أجسادهم، وصور عنترة معارك قومه وما كان يدور فيها وصفاً مفصلا وعرى سحيم والسليك والشنفرى الجوانب السيئة فى مجتمعهم من خلال مغامراتهم فى المجون والصعلكة، حتى اعتبرنا شعرهم أهم مصدر لدراسة الطبقات الدنيا فى المجتمع الجاهلى. ويدخل فى هذا الفرع أيضاً اهتمامهم بالأشياء التافهة والتفاتهم إليها وتعبيرهم عنها كالذباب عند عنترة والنحل والخشرم والنعلين الباليتين والثوب الرث الممزق عند الشنفرى وهم فى حديثهم عن هذه الأشياء يميلون إلى الدقة والتحديد وينأون عن المبالغة ويهتمون بالجزئيات والتفاصيل.

وقد تأثر الشعراء المخضرمون كسحيم، وشعراء صدر الإسلام كعامر ومحرر بالإسلام إلا أن هذا الأثر كان كما رأينا ضعيفاً لقلة ما وصلنا من شعر عامر ومحرر - من ناحية - ولأن الإسلام لم يتعمق نفس سحيم وهو أغزرهم إنتاجاً فيه من ناحية أخرى، ولم يتعد هذا التأثير وجود بعض المعانى الدينية، وصدورهم فى بعض شعرهم عن روح هذا الدين وقيمه وتعاليمه، وابتعاد محرر وعامر عن الموضوعات التى حرمها كالهجاء والتشبيب بالنساء والتفاخر بالأنساب والأحساب، وقد نظروا إلى الآيات القرآنية وتأثروا بها فى بعض المعانى والتعبيرات، وذكر سحيم اللحد وما فيه من العذاب وهو فى معرض حديثه عن الموت، وتردد فى شعره بعض الألفاظ الخاصة بالإسلام أو التى أخذت فى الإسلام طابعاً خاصاً كالغواية والحرام، وربما تأثر فى أسلوبه القصصى - وهو أبرع الشعراء العبيد استخداماً له - بالقصص القرآنى خاصة أنه لم ينتشر إلا فى شعره الإسلامى أوالذى قاله بعد الإسلام.

هذا عن أثر الإسلام فى شعر بعض العبيد وهو كما قلنا قليل، ويبقى التأثير الأجنبى - وخاصة الثقافة الحبشية - أكثر وضوحاً فيه، لأنه لم يختص بطائفة منهم دون أخرى، ولم يقتصر على فترة دون سواها. وأول هذا التأثير الفحش والمجون، وقد تأثر فيه سحيم بالأناشيد الحبشية الدينية التى تعكف على وصف القديسين والشهداء والموتى وصفاً دقيقاً من الرأس حتى أصابع القدمين دون أن تتحرج من ذكر القبيح. وقد كانت المغالاة فى الفروسية عند عنترة مظهراً ثانياً من مظاهر هذا التأثير عند مجموعة من الباحثين المعاصرين كالدكتور عبد المجيد عابدين والدكتور أحمد محمد الحوفى، وقد وجدت فى شعر العبيد بعض الكلمات الحبشية، فضلا عن ميل الشنفرى فى بعض مغامراته إلى المبالغة التى تصل إلى حد الوهم والشطط الذى يحول بينها وبين التصديق، والميل إلى الخرافة من سمات الأدب الحبشى. وربما يكون الوزن الغريب الذى صاغت عليه أم السليك قصيدتها والذى اختلف فيه التبريزى والزجاج وأبو العلاء من مظاهر التأثير الحبشى وما وجدته هذه الأمة فى ميراث أجدادها من الألحان السهلة الخفيفة الصالحة للتوقيع والغناء والرقص.

ويشيع فى شعر العبيد استخدام أسلوب القص الشعرى، خاصة عند سحيم والسليك والشنفرى، وهو أسلوب يعمد فيه الشعراء إلى عرض التجربة الشعرية أو جزء منها فى شكل

يقرب من الشكل القصصى وهذا الأسلوب وإن استخدمه شعراء آخرون كامرىء القيس والأعشى والصعاليك الا أن العبيد كانوا أكثر استخداماً له وأبرع فناً. ومن العناصر التى اهتموا بها وحرصوا على توفيرها فى هذا الشكل: الإثارة والتشويق وتسلسل الأحداث والاتكاء على السرد والوصف والحوار، وقد يحدد بعضهم فيه الزمان والمكان، وقد يتتبع آخرون جوانب الصراع، ويلمس بعضهم أهم جانب فيه وهو الجانب النفسى.

ومن الخصائص الفنية فى شعر العبيد هيمنة الطبع وقلة الاحتفال بالصنعة، ولعل هذا مرتبط إلى حد بعيد بطبيعة حياتهم؛ فهم لايكادون يجدون فيما سخروا فيه من الأعمال ومع تفرغهم لخدمة سادتهم مايكفى للصياغة السريعة فضلا عن التجويد وإعادة النظر، من هنا ارتبط شعرهم فى كثير من الأحيان بالمواقف، وشعر المواقف أقرب ما يكون إلى البديهة والارتجال، ومن هنا أيضاً كان التشبيه أكثر أنواع الصور الخيالية دورانا فى شعرهم، بينما قلت الاستعارة، وخاصة الاستعارة التصريحية. وقد استمدوا تشبيهاتهم من البيئة التى يعيشون فيها بحيوانها ونباتها وظواهرها الطبيعية المختلفة، ولهم تشبيهات نفسية عميقة، وأخرى مستمدة من واقعهم الخاص. ووجدت فى شعرهم شيئاً من الجناس والطباق وهما أكثر ألوان البديع دوراناً فيه، لكنهم لم يكونوا يتكلفون الوصول إليهما ولا يحتفلون بهما. من هنا كان حرص القدماء على وصف بعضهم بالطبع.

وأول ما يميز لغة العبيد تلك السهولة التى تكاد تنتشر فى كل أعطافه ولا يكاد يشذ عنها واحد منهم؛ فهم لا يميلون الى التعاظل اللغوى ولا الى التراكيب الغامضة ولا الى الكلمات التى تكد الأذهان فى الوصول الى معرفة معناها والوقوف على المقصود منها، وإنما يسيل الشعر وينساب فى رقة ولطف. وقد رأينا فى دراستنا لجانب اللغة - فضلا عن تلك السهولة - ميلا شديداً نحو استخدام المتناقضات كالأبيض والأسود والهجر والوصل والحياة والموت، ولعل هذا مرتبط بتقلب حياتهم وشعورهم بفقد الأمان وعدم الاستقرار. وفى شعرهم ألفاظ كثيرة تعكس ثقافة مجتمعهم وتبرز كثيراً من جوانب البيئة وما كان فيها من العادات والتقاليد

وأنماط السلوك والمعتقدات. ويتنوع أسلوبهم تنوعاً شديداً بين الخبر والإنشاء، ويدل هذا التنوع على الثراء اللغوى والقدرة على الإفصاح والتعبير. وقد يعترى الجملة فى شعرهم شىء من التقديم والتأخير، كما يعترى الكلمات شىء من الحذف والتخفيف.

وقد لاحظت أن الأوزان فى شعرهم قليلة وغير متنوعة، وتكاد تكون محصورة فى ستة بحور هى الطويل والوافر والكامل والرجز والمتقارب والبسيط. ويحتل البحر الطويل بصوره الثلاث المكانة الأولى فى شعرهم وأكثر صوره استخداماً عندهم وهو مقبوض الضرب والعروض. ويقل استخدامهم للمجزوء من البحور بشكل ملحوظ. وتأتى القافية تبعاً للروى - على ضربين؛ مطلقة ومقيدة، والنوع الأول أكثر شيوعاً، ولم نجد من النوع الثانى غير قطعة واحدة لعنترة فى أربع أبيات وأخرى للسليك وقصيدة واحدة لأمه. أما الروى فقد استخدموا فيه ثمانية عشر حرفاً أكثرها الراء ثم الميم ثم الدال والباء. وكان أكثرهم تنويعاً لحروف الروى عنترة فسحيم فالشنفرى فالسليك، ولعل هذا يتناسب مع ما وصلنا من شعرهم فشعر عنترة أكثر من شعر سحيم وشعر سحيم أكثر من شعر الشنفرى وهكذا.

وقد استخدموا فى القوافى المطلقة كل الحركات وهى بالترتيب الكسرة فالضمة ثم الفتحة، ولم يشذ عن هذا الترتيب إلا سحيم حيث انقلب عنده فجاءت الفتحة فى المقام الأول ثم الضمة. وأشبعوا هذه الحركات بحروف المد الثلاثة الألف والواو والياء فى كل ما وصلنا من نصوص باستثناء قليل منها. وقد لاحظت فى الختام استخدامهم لثلاثة أنواع من القافية المتدارك والمتواتر والمتراكب، غير أن النوع الأخير قليل جداً بل نادر ولم يستخدمه إلا سحيم فى مقطوعتين اثنتين فقط. ويشيع فى كثير من الأراجيز خاصة عند عنترة ظاهرة التشطير؛ حيث تقسم المقطوعة الى مجموعة من الأشطر تختم بروى واحد ويصلح كل شطر لأن يكون بيتاً قائماً بذاته.

هذا وبالله التوفيق.



مصادر البحث ومراجعه

• أولا: المصادر

١- إحياء علوم الدين لأبى حامد محمد بن محمد الغزالى (وبذيله كتاب المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار لأبى الفضل بن الحسين العراقى) ط١ - دار القلم بيروت . بدون تاريخ.

٢- الأزمنة والأمكنة، لأبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى - ط١ - حيدر أباد ١٣٣٢هـ.

٣- أسد الغابة فى معرفة الصحابة - لعز الدين بن الأثير أبى الحسن على بن محمد الجزرى - ت. محمد إبراهيم ومحمد أحمد عاشور - كتاب الشعب - القاهرة سنة ١٩٧٠م.

٤- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديين أبى بكر محمد وأبى عثمان سعيد ابنى هاشم - ت. السيد محمد يوسف - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة جـ١ سنة ١٩٥٨م، جـ٢ سنة ١٩٦٥م.

٥- الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (ومعه كتاب الاستيعاب فى معرفة الصحاب لابن عبد البر) ط١ - مطبعة السعادة - القاهرة سنة ١٣٢٨هـ.

٦- الأصمعيات - اختيار الأصمعى أبى سعيد عبد الملك بن قريب - ت. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - ط٤ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦م.

٧- أعجب العجب فى شرح لامية العرب - للزمخشرى - دار المعارف - القاهرة - بدون تاريخ.

٨- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى - حققه مجموعة من الباحثين تحت إشراف د. محمد أبو الفضل إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - سنوات مختلفة.

٩- الأمالى لأبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى - ط١ - دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد الدكن - الهند سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

١٠- الأمالى لأبى على القالى - دار الكتب المصرية - القاهرة سنة ١٩٢٦م.

١١- أمالى المرتضى - للشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى العلوى - ت.د. محمد أبو الفضل إبراهيم - ط١ - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

١٢- بداية المجتهد ونهاية المقتصد - لمحمد بن رشد القرطبى - ط٦ - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١٣- البداية والنهاية لأبى الفدا الحافظ ابن كثير الدمشقى - مكتبة المعارف (بيروت) ومكتبة النصر (الرياض) سنة ١٩٦٦م.

١٤- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى - شرحه وضبطه محمد بهجة الأثرى - ط٣ - دار الكتب الحديثة - القاهرة - بدون تاريخ.

١٥- البيان والتبيين للجاحظ - ت. عبد السلام محمد هارون - ط٤ - مكتبة الخانجى - القاهرة - بدون تاريخ.

١٦- تاريخ الخلفاء للسيوطى ط٤ - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٧- تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبرى - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم - ط٤ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩م.

١٨- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف لأبى محمد زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى - ت. محمد محيى الدين عبد الحميد - ط٣ - دار الفكر - القاهرة سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٩- التعليقات والنوادر لأبى على هارون بن زكريا الهجرى - ت.د. حمود عبد الأمير الحمادى - ط٢ - دار الشئون الثقافية العامة «آفاق عربية» - بغداد سنة ١٩٨٧م.

٢٠- ثلاث رسائل للجاحظ - نشر يوشع فنكل - المطبعة السلفية - القاهرة سنة ١٣٤٤هـ.

٢١- جمهرة أشعار العرب - لأبى زيد محمد بن أبى خطاب القرشى - المكتبة التجارية القاهرة سنة ١٩٢٦م.

٢٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى - مطبعة السعادة - القاهرة سنة ١٩٣٣م.

٢٣- الحماسة لابن الشجرى - طبع فى حيدر أباد الدكن سنة ١٣٤٥هـ.

٢٤- الحماسة للبحترى - ضبطه وعلق حواشيه كمال مصطفى - ط١ - المكتبة التجارية الكبرى القاهرة سنة ١٩٢٩م.

٢٥- الحماسة البصرية - لصدر الدين على بن أبى الفرج بن الحسن البصرى - ت. عادل جمال سليمان - (مخطوط) تحت رقم ٨٥٣ رسالة دكتوراه بالمكتبة العامة - جامعة القاهرة.

٢٦- الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - ت.د. عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجى - القاهرة سنة ١٩٦٨م.

٢٧- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب - عبد القادر بن عمر البغدادى - ت. عبد السلام محمد هارون - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٢٨- الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور - زينب بنت على بن حسين بن عبيد الله العاملى - ط١ - المطبعة الأميرية ببولاق - القاهرة سنة ١٣١٢هـ.

٢٩- ديوان امرىء القيس - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨م.

٣٠- ديوان سحيم - ت. عبد العزيز الميمنى - ط٢ - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

٣١- ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى - ت. د. صلاح الدين الهادى - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م.

٣٢- ديوان طرفة بن العبد - ت.د. على الجندى - مطبعة الرسالة - القاهرة سنة ١٩٥٨م.

٣٣- ديوان عنترة ومعه ديوان ذى الرمة وديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - لجامع مجهول (مخطوط) بمكتبة جامعة الإسكندرية تحت رقم ٧٦٥خ، وهو برواية البطليوسى.

٣٤- ديوان قيس بن الخطيم - ت.د. ناصر الدين الأسد - ط١ - مكتبة دار العروبة القاهرة سنة ١٣٧١هـ/١٩٦٢م.

٣٥- ديوان المعانى لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى - مكتبة القدسى - القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.

٣٦- ديوان النابغة الذبيانى - ت.د. محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م.

٣٧- ديوان الهذليين - القسم الأول - ت. أحمد الزين، والقسمان الثانى والثالث - ت. محمود أبو الوفا - الدار القومية للطباعةو والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٣٨- الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية للسهيلى (ومعه كتاب السيرة النبوية لابن هشام - ضبط طه عبد الرءوف سعد) مؤسسة مختار للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٣٩- سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب لأبى الفوز محمد أمين البغدادى الشهير بالسويدى - ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤٠- سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام لمحمد بن اسماعيل الكحلانى ثم الصنعانى - راجعه وعلق عليه د. محمد عبد العزيز الخولى - ط٤ - مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر سنة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

٤١- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشىء من فقهها وفوائدها - محمد ناصر الدين الألبانى - ط٤ - المكتب الإسلامى - بيروت سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٤٢- سمط اللآلى - لأبى عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكرى - ت. عبد العزيز الميمنى لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٣٦م.

٤٣- السيرة النبوية لابن كثير - مكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

٤٤- السيرة النبوية لابن هشام - ت. مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى - ط٢ - مكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة سنة ١٩٥٥م.

٤٥- شاعرات العرب - جمعه وحققه عبد البديع صقر - ط١ - المكتب الإسلامى - بيروت سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

٤٦- شرح ديوان الحماسة للتبريزى - ت. محمد محيى الدين عبد الحميد - الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

٤٧- شرح ديوان الحماسة للمرزوقى - نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون - لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥٣م.

٤٨- شرح ديوان عنترة - حقق الديوان وشرحه عبد المنعم عبد الرءوف شلبى - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - بدون تاريخ.

٤٩- شرح شواهد المغنى - جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى - المطبعة البهية - القاهرة سنة ١٣٢٢هـ.

٥٠- شرح القصائد التسع المشهورات لأبى جعفر أحمد بن محمد النحاس - ت. أحمد خطاب - بغداد سنة ١٩٧٣م.

٥١- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات - لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى ت. عبد السلام محمد هارون - ط٢ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م.

٥٢- شرح القصائد العشر - لأبى زكريا يحيى بن على التبريزى - المطبعة المنيرية - القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.

٥٣- شرح المعلقات السبع لأبى عبد الله بن أحمد بن الحسين الزوزنى - مطبعة الاستقامة - القاهرة سنة ١٩٦٧م.

٥٤- شعراء إسلاميون - جمعه وحققه د. نورى حمودى القيسى - ط٢ - مكتبة النهضة العربية - بيروت سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

٥٥- شعراء مقلون - جمعه وحققه د. حاتم صالح الضامن - ط١ - مكتبة النهضة العربية - بيروت سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥٦- شعراء النصرانية للأب لويس شيخو - مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت سنة ١٩٥٢م.

٥٧- الشعر والشعراء لابن قتيبة - ت. أحمد محمد شاكر - ط٣ - دار التراث العربى - القاهرة سنة ١٩٧٧م.

٥٨- صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى - المطبعة المصرية ومكتبتها - القاهرة سنة ١٣٤٩هـ.

٥٩- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى - ت. محمود محمد شاكر - مطبعة المدنى - القاهرة سنة ١٩٧٤م.

٦٠- الطرائف الأدبية - صححه وخرجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيله عبد العزيز الميمنى - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٣٧م.

٦١- العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين - عنى بتهذيبه وترتيبه وتذييله وتصحيحه وليم آلورد - طبع مدينة غريغزولد سنة ١٨٩٩م.

٦٢- العقد الفريد - لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.

٦٣- العمدة فى صناعة الشعر ونقده - لابن رشيق القيروانى - ت. محمد محيى الدين عبد الحميد - ط١ - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة سنة ١٩٥٧م.

٦٤- عيون الأخبار لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى - دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥م.

٦٥- فتوح البلدان لأبى الحسن البلاذرى - مراجعة رضوان محمد رضوان - دار الهلال ومكتبتها - بيروت سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٦٦- الفهرست لابن النديم - نشر فلوجل - ط. ليبزج سنة ١٨٧٢م.

٦٧- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى - المطبعة الحسينية القاهرة سنة ١٣٣٠هـ.

٦٨- القواعد النورانية الفقهية لابن تيمية - ت. محمد حامد الفقى - ط١ - مكتبة السنة المحمدية - القاهرة سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٦٩- الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة - دار نهضة مصر - للطبع والنشر - القاهرة - بدون تاريخ.

٧٠- الكامل فى التاريخ لعز الدين بن الأثير الجزرى - صحح أصوله الأستاذ عبد الوهاب النجار - إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة سنة ١٣٥٦هـ.

٧١- كنى الشعراء لأبى جعفر محمد بن حبيب (ضمن كتاب نوادر المخطوطات - المجموعة رقم ٧) - ت. عبد السلام محمد هارون لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٥٦م.

٧٢- لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصرى - ت. عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٩م.

٧٣- متن البخارى بحاشية السندى لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - بدون تاريخ.

٧٤- مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى المعروف بالميدانى - المطبعة البهية المصرية - القاهرة - بدون تاريخ.

٧٥- مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة - محمد حميد الدين الحيدر آبادى - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٤١م.

٧٦- المحاسن والمساوىء لإبراهيم بن محمد البيهقى - عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى - طبع بمطبعة السعادة - القاهرة سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٦م.

٧٧- المحبر لأبى جعفر محمد بن حبيب - ت.د. إيلزة ليختن شتيتر - طبع فى مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م.

٧٨- مختارات شعراء العرب لابن الشجرى - ت. على محمد البجاوى - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة سنة ١٩٧٥م.

٧٩- مختار الشعر الجاهلى - ت.د. مصطفى السقا - مطبعة البابى الحلبى - القاهرة سنة ١٩٦٩م.

٨٠- مصارع العشاق لأبى محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج - ضبطه ووشى حواشيه أحمد يوسف نجاتى وأحمد مرسى مشالى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

٨١- المعارف لابن قتيبة - ت. ثروت عكاشة - ط٢ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٦٩م.

٨٢- معجم البلدان - ياقوت الحموى - مطبعة السعادة - القاهرة سنة ١٩٠٦م.

٨٣- معجم الشعراء لأبى عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزبانى - ت. عبد الستار أحمد فراج - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

٨٤- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبى عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى - ت. مصطفى السقا لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

٨٥- المفضليات - للمفضل بن محمد بن يعلى الضبى - ت. أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون - ط٧ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م.

٨٦- المؤتلف والمختلف للآمدي - مكتبة القدسى - القاهرة سنة ١٣٥٤هـ.

٨٧- نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ.

٨٨- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار لمحمد بن على بن محمد الشوكانى - ت. طه عبد الرءوف سعد ومصطفى محمد الهوارى - ط١ - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٨٩- الوافى بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى - نشره ريتر - استنبول سنة ١٩٣١م.

٩٠- الوحشيات وهو الحماسة الصغرى لأبى تمام - ت. عبد العزيز الميمنى - وزاد فى حراشيه محمود محمد شاكر - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٦٣م.

ثانياً: المراجـــــــــع

١- أدب العرب - مارون عبود - دار الثقافة - بيروت سنة ١٩٦٠م.

٢- الأدب العربى فى الجاهلية والإسلام - عمر رضا كحالة - المطبعة التعاونية بدمشق - سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٣- الأدب فى عصر النبوة والراشدين - د. صلاح الدين الهادى - مكتبة الخانجى - القاهرة سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٤- الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة - د. مصطفى سويف - ط١ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٥١م.

٥- الإسلام يحارب التفرقة العنصرية - محمود سيد محمد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة سنة ١٩٦٢م.

٦- الأصوات اللغوية - د. إبراهيم أنيس - مكتبة نهضة مصر - القاهرة ١٩٤٧م.

٧- الأصول الفنية للشعر الجاهلى - د. سعد إسماعيل شلبى - مكتبة غريب - القاهرة سنة ١٩٧٧م.

٨- أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى - د. أحمد محمد الحوفى - مكتبة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.

٩- الإنسان وعلم النفس - د. عبد الستار إبراهيم (سلسلة عالم المعرفة) الكويت سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٠- أيام العرب فى الجاهلية - محمد أحمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م.

١١- بافلوف وفرويد - هارى ويلز - ترجمة شوقى جلال - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٧٨م.

١٢- بين الحبشة والعرب - د. عبد المجيد عابدين - دار الفكر العربى - القاهرة - بدون تاريخ.

١٣- بين الكتب والناس - عباس محمود العقاد - مطبعة مصر - القاهرة سنة ١٩٥٢م.

١٤- تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية - كارلونالينو - ط٢ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠م.

١٥- تاريخ آداب اللغة العربية - جرجى زيدان - دار الهلال - القاهرة سنة ١٩٥٧م.

١٦- تاريخ الأدب العربى - كارل بروكلمان - ترجمة عبد الحليم النجار - ط٤ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٧م.

١٧- تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى - السباعى بيومى - ط٢ - القاهرة سنة ١٩٣٥م.

١٨- حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام - د. سعيد حسين منصور - دار المعارف بمصر - سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

١٩- حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول - د. شكرى فيصل - دار العلم للملايين - بيروت - بدون تاريخ.

٢٠- الحرية فى الإسلام - د. على عبد الواحد وافى - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٠م.

٢١- حضارة العرب - غوستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر - ط٣ - دار إحياء التراث العربى - بيروت سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٢٢- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - عباس محمود العقاد - ط١ - مطبعة مصر - القاهرة سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

٢٣- الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام - د. محمد عبد المنعم خفاجى - ط١ - دار الكتاب اللبنانى - بيروت سنة ١٩٧٣م.

٢٤- الحياة الأدبية فى عصر الجاهلية وصدر الإسلام - د. محمد عبد المنعم خفاجى ود. صلاح الدين محمد عبد التواب - دار الطباعة المحمدية - القاهرة - بدون تاريخ.

٢٥- الحياة العربية من الشعر الجاهلى - د. أحمد محمد الحوفى - مكتبة نهضة مصر - القاهرة - بدون تاريخ.

٢٦- دراسات فى الشعر العربى - تحليل لظواهر أدبية وشعراء - د. محمد مصطفى هدارة - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية سنة ١٩٨٣م.

٢٧- دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث - د. بدوى طبانة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٥٤م.

٢٨- دلالة الألفاظ - د. إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

٢٩- الرق فى الإسلام - أحمد شفيق - تعريب أحمد زكى - ط٢ - مطبعة الاعتماد بمصر - بدون تاريخ.

٢٩- الرق فى نظر الإسلام - عبد الله المشد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة سنة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

٣٠- الرق ماضيه وحاضره - د. عبد السلام الترمانينى (سلسلة عالم المعرفة) ط٢ - الكويت سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣١- رؤية جديدة فى دراسة الأدب العربى فى عصر صدر الإسلام - د. سعيد حسين منصور - مؤسسة العهد - الدوحة - قطر سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٣٢- سحيم عبد بنى الحسحاس - د. أحمد عبد الواحد - نشر بمجلة بحوث اللغة العربية - العدد الثالث سنة ١٤٠٥/١٣٠٦هـ وهى مجلة سنوية تصدرها كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

٣٣- سحيم عبد بنى الحسحاس شاعر الغزل والصبوة - محمد خير الحلوانى - دار الشروق - بيروت سنة ١٩٧١م.

٣٤- السلوك وانحرافات الشخصية - يوسف ميخائيل أسعد - ط١ - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٧م.

٣٥- السود والحضارة العربية - د. عبده بدوى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

٣٦- شاعر الصعاليك الشنفرى ولامية العرب - د. عبد الحليم حفنى - المطبعة النموذجية - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

٣٧- شبهات حول الإسلام - محمد قطب - ط١٢ - دار الشروق - بيروت سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٣٨- الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى - د. عبده بدوى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م.

٣٩- الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى - د. يوسف خليف - ط٣ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٨م.

٤٠- الشعر الجاهلى - د. محمد عبد المنعم خفاجى - ط٢ - دار الكتاب اللبنانى - بيروت سنة ١٩٧٣م.

٤١- الشعر الجاهلى قضاياه الفنية والموضوعية - د. إبراهيم عبد الرحمن - القاهرة - سنة ١٩٧٩م.

٤٢- الشعر الجاهلى مراحله واتجاهاته الفنية - د. سيد حنفى حسنين - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة سنة ١٩٧١م.

٤٣- الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه - د. محمد النويهى - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٦٨م.

٤٤- شعر الحرب - جـ١ - فى العصر الجاهلى - د. على الجندى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٣م.

٤٥- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه - د. عبد الحليم حفنى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٧م.

٤٦- شعر الطبيعة فى الأدب العربى - د. سيد نوفل - ط٢ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٨م.

٤٧- الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى - النشأة والتطور - د. محمد مصطفى هدارة - ط١ - دار المعارف - القاهرة سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤٨- شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام - د. النعمان عبد المتعال القاضى - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٤٩- الشعر واللغة - د. لطفى عبد البديع - مكتبة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٦٩م.

٥٠- الشعر والنغم - د. رجاء عيد - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٧٥م.

٥١- الشوامخ٢ - الشعر الجاهلى خصائصه وأعلامه - د. محمد صبرى - دار الكتب المصرية - القاهرة سنة ١٩٤٤م.

٥٢- الصبغ البديعى فى اللغة العربية - د. أحمد إبراهيم موسى - دار الكتاب العربى - القاهرة سنة ١٩٦٩م.

٥٣- الصورة الأدبية - د. مصطفى ناصف - ط١ - مكتبة مصر - القاهرة سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٥٤- الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغة - د. جابر أحمد عصفور - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٠م.

٥٥- الصورة والبناء الشعرى - د. محمد حسن عبد الله - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨١م.

٥٦- العروض والقافية دراسة فى التأسيس والاستدراك - محمد العلمى - ط١ - دار الثقافة - الدار البيضاء سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٥٧- العزلة والمجتمع - نيقولاى برديانف - ترجمة فواد كامل عبد العزيز - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٢م.

٥٨- العصر الإسلامى - د. شوقى ضيف - ط٤ - دار المعارف - القاهرة - بدون تاريخ.

٥٩- العصر الجاهلى - د. شوقى ضيف - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠م.

٦٠- عناصر الإبداع الفنى فى شعر عنترة- ناهد أحمد السيد الشعراوى. (رسالة ماجستير محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم ٧٧٤م).

٦١- عضوية الموسيقى فى النص الشعرى - د. عبد الفتاح صالح نافع - ط٢ - مكتبة المنار - الأردن سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٦٢- فارس بنى عبس - حسن عبد الله القرشى - ط٢ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م.

٦٣- الفتوة عند العرب - د. عمر الدسوقى - مكتبة نهضة مصر - القاهرة - بدون تاريخ.

٦٤- فجر الإسلام - أحمد أمين - ط٢ - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٣٣م.

٦٥- الفروسية العربية فى العصر الجاهلى - د. سيد حنفى حسنين - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠م.

٦٦- فقه السنة - السيد سابق - مكتبة الآداب - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

٦٧- الفقه الميسر فى العبادات والمعاملات - أحمد عيسى عاشور - ط٤ - مكتبة الاعتصام - القاهرة سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٦٨- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - د. شوقى ضيف - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٨م.

٧٩- فى الأدب الجاهلى - د. طه حسين - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م.

٧٠- قضايا الشعر فى النقد العربى - د. إبراهيم عبد الرحمن - مكتبة الشباب - القاهرة سنة ١٩٧٧م.

٧١- قضية الحرية وقضايا أخرى فى الإسلام - د. عبد الغنى عبود - دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٧٩م.

٧٢- القيان والغناء فى العصر الجاهلى - د. ناصر الدين الأسد - ط٢ - دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م.

٧٣- لا رق فى القرآن - إبراهيم هاشم الفلالى - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ.

٧٤- لامية العرب للشنفرى - د. عبدالحليم حفنى - مكتبة الآداب - القاهرة سنة ١٩٨١م.

٧٥- ما يقال عن الإسلام - العقاد (المجموعة الكاملة - المجلد السادس) دار الكتاب اللبنانى - بيروت سنة ١٩٧٥م.

٧٦- مجتمع المدينة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - د. عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس - الناشر: عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود - الرياض سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٧٧- محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة - د. سيد عويس - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٦٨م.

٧٨- المرأة فى الشعر الجاهلى - د. أحمد محمد الحوفى - ط٣ - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٨٠م.

٧٩- المرأة فى القرآن - العقاد (المجموعة الكاملة - المجلد الثامن) دار الكتاب اللبنانى - بيروت سنة ١٩٧٥م.

٨٠- مصادر الشعر الجاهلى - د. ناصر الدين الأسد - دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦م.

٨١- مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى - د. حسين عطوان - دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠م.

٨٢- من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده - د. محمد خلف الله أحمد - القاهرة سنة ١٩٤٧م.

٨٣- موسيقى الشعر - د. إبراهيم أنيس - طه - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٨م.

٨٤- ميزان الذهب فى صناعة شعر العرب - السيد أحمد الهاشمى - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٨٥- نظام الرق فى الإسلام - د. عبد الله ناصح علوان - ط٢ - دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٨٦- نظريات الشخصية - كالفين سير نجرهول - جاردنر لندزى - ترجمة فرج أحمد فرج وقدرى محمود حنفى ولطفى محمد فطيم - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة سنة ١٩٧١م.

٨٧- نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى - د. عبد الحميد المسلوت - دار القلم - القاهرة - بدون تاريخ.

٨٨- نظرية المعنى فى النقد العربى - د. مصطفى ناصف - ط٢ - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

تنبيه

على الرغم مما بذلنا من جهد فى إخراج هذه الطبعة خالية من الأخطاء ، فقد ندت بعض الكلمات مما لزم التنويه عليها وتصحيحها ، وربما فاتنا منا شيء - والكمال لله وحده - فنكله إلى فطنة القارئ ، ونعتذر عنه أولاً وآخراً .

ص	س	الخطأ	تصويب
١٢	٢	أولاً :	تحذف النقطتان
١٣	٦	كل	أية
٣٦	١٥	المواقع	المواضع
٤٧	هـ٢	دية.	دية ».
٥٩	هـ٣	الأغانى جـ٢	الأغانى جـ٩
٨٠	١٨	فى	فىء
٨٧	٩	لكنهما	لكنها
٨٩	٧	وحكى	و « حكى
١٣٥	٦	شديداً الفقر	شديد الفقر
١٥٠	٣	فأنى	فإنى
١٦٣	١٢	يهما	بها
١٦٤	٧	استضافا » ؟	تحذف علامة الاستفهام
١٨٩	١٧	أكثرى	أكثرى -
٢٠٣	هـ١	المعروفة.	تحذف النقطة
	١٤	وقصائدة	وقصائده
٢٢٤	١	ثلاث	ثلاثة
٢٤٠	هـ١	٢٨ ، ٣٠	٢٨ : ٣٠
٢٥١	٣	« وصوتها » رنين وعويل»	وصوتها رنين وعويل
	٦	جلد	جلد -

ص	س	الخطأ	تصويب
٢٥٥	٤	ـ كما ذكرت	ـ كما ذكرت ـ
٢٥٩	٥	اللون	اللون ـ
٢٦٠	١٦	وأنها	وإنها
٢٧٠	٩	(مفعال)	(مفعال)
٢٧٢	١١	ما كتب	ما قيل
٢٩٥	٩	أربع	أربعة
٣٠٤	١٩	السقا	السقا ـ

* استدراكات :

ص١٣ س١٢ ، ١٣ : تغيير العبارة على هذا النحو بعد إضافة زيد ابن حارثة [وقد وصلنا شعر قليل جداً لثلاثة آخرين من العبيد هم : عامر بن فهيرة ، وزيد بن حارثة ، ومحرر بن جعفر مولى أبى هريرة].

ص٥٩ هـ١ : يضاف : [ويوم بدر قاتل العاص بن هشام ـ أخو أبى جهل ـ المسلمين نائباً عن سيده ؛ ففى خبره ـ وكان من حمقى قريش ـ أن أبا لهب « قامره فقمره ماله ثم داره ثم قليله وكثيره وأهله ونفسه فاتخذه عبداً وأسلمه قيناً ، فلما كان يوم بدر بعث به عن نفسه فقتل ببدر كافراً » . عيون الأخبار ـ م٢ ص٤١ .] .

ص٧٠ هـ١ : يضاف : [وهو شاعر أموى] .

ص٧٦ هـ٢ : يضاف: [الرق بيننا وبين أمريكا ـ على شحاتة ص١٤.].

ص٥٩ هـ٢ : يضاف : [الأصمعيات ص١٢٦ (ترجمة شمرو بن عمرو) .].

ص١٥٦ هـ٤ : يضاف : [وفى الروض الأنف للسهيلى جـ٣ ص١٥ « ... فيذكر أن قول عامر : (لقد وجدت الموت قبل ذوقه) أنه لعمرو بن مامة] .

ص٢٠٣ الجدول : فيما يتصل بالمقطوعات تعدل الأرقام على هذا النحو : باقى الشعراء (١٨) بدلاً من (١٧) ، والمجموع (٨٤) بدلاً من (٨٣) .

ص٢٠٥ الجدول : فيما يتصل بـ « ثلاثة أبيات » تعدل الأرقام على هذا النحو :

باقى الشعراء (٢) بدلاً من (١) ، والمجموع (١١) بدلاً من (١٠) .

وتغيير العبارة (بالسطور من ٢ : ٥) بعد تعديلها [وإحدى عشرة مقطوعة فى ثلاثة أبيات ؛ واحدة لمحرر(٧) ، وواحدة لزيد(٨) ، وواحدة للشنفرى(٩) ، واثنتان لسحيم(١٠) ، وبقية المقطوعات تتراوح بين أربعة أبيات وثمانية ، ومنها خمس للشنفرى(١١) ، وست لسليك(١٢) ، وإحدى عشرة لسحيم(١٣) ، وأربع عشرة لعنترة(١٤) .] .

مع مراعاة إضافة هامش تحت رقم (٨) وإشارته : [(٨) الاستيعاب (ط . مصطفى محمد ، جـ١ ص٥٢٧ .) وتغيير باقى الهوامش لمطابقة هذا التعديل فتصبح أرقام الهوامش (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣) هكذا : (٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤) .

ص٢٠٨ الجدول : فيما يتصل بالمقطوعات تعدل الأرقام على هذا النحو :

باقى الشعراء غ م (١٣) بدلاً من (١٢) ، ومجموع غ م (٦٧) بدلاً من (٦٦) .

ص٢١٠ الجدول : فيما يتصل بالمقطوعات تعدل الأرقام على هذا النحو :

باقى الشعراء بدون (١٧) بدلاً من (١٦) ، ومجموع بدون (٧٨) بدلاً من (٧٧) .

ص٢١٣ س١١ : يضاف : [وزيد بن حارثة بالحنين إلى الأهل] بعد عبارة « والشنفرى بالثأر والتهديد والوعيد » .

ص٢٢٤ س٣ : يوضع (١) فوق كلمة « سحيم » ثم يضاف بالصفحة

نفسها هذا الهامش : [(١) أما زيد بن حارثة فيتعلق ما وصلنا من شعره - وهو قليل جداً - بالجاهلية فحسب] .

ص٢٢٦ يضاف هامش جديد تحت رقم (٢) وإشارته فوق كلمة « الإسلام » بالسطر الخامس . وهذا نصه [(٢) يقول السهيلى فى كتابه « روض الأنف » جـ١ ص١٨٢ : « لا يعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة طمع آباؤهم - حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرب زمانه وأنه يبعث فى الحجاز - أن يكون ولداً لهم . ذكرهم ابن فورك فى كتاب الفصول .... » . عد منهم جد جد الفرزدق ، ثم ذكر قصتهم . وثلاثتهم متعاصرون] .

وتصحح بعد هذا أرقام الهوامش (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) لتصبح (٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) .

ص٢٧٢ الجدول : فيما يتصل بـ« الطويل » تعدل الأرقام على هذا النحو : باقى الشعراء (٩) بدلاً من (٨) ، والمجموع (٥٥) بدلاً من (٥٤) .

ص٢٧٦ الجدول : فيما يتصل بالراء تعدل الأرقام على هذا النحو : باقى الشعراء (٦) بدلاً من (٥) ، والمجموع (٢٠) بدلاً من (١٩) .

ص٢٧٧ الجدول : فيما يتصل بالكسرة تعدل الأرقام على هذا النحو : باقى الشعراء (٩) بدلاً من (٨) ، والمجموع (٤١) بدلاً من (٤٠) .

ص٢٧٨ س٦ : تصبح العبارة [وقد وصلنا من هذا النوع ستون .] بدلاً من [وقد وصلنا من هذا النوع تسع وخمسون .....] .

المحتوى

مقدمة	٩ ـ ١٧
١ ـ الشعراء العبيد	٩
٢ ـ حول الموضوع : دراسات أخرى	١٣
٣ ـ المنهج والخطوات	١٦
تمهيد : مصادر شعر العبيد	١٩ ـ ٤١
١ ـ ديوان عنترة	٢١
٢ ـ ديوان سحيم	٢٧
٣ ـ شعر الشنفري	٣٠
٤ ـ شعر باقي العبيد	٣٨
الفصل الأول : الرق والرقيق في الجاهلية وصدر الإسلام	٤٣ ـ ٩٠
١ ـ في العصر الجاهلي	٤٥ ـ ٧٢
ـ الحرب مصدراً للرق	٤٥
ـ رق البيع والشراء	٤٨
ـ المكانة الاجتماعية	٥٣
٢ ـ في صدر الإسلام	٧٣ ـ ٩٠
ـ مصادر الرق في الإسلام	٧٣
ـ المكانة الاجتماعية للرقيق	٨٢
الفصل الثاني : اتجاهات شعر العبيد	٩١ ـ ١٣٨
ـ الاتجاه الأول : الاتجاه نحو التسامي والاستعلاء عند عنترة	٩٤ ـ ١٠٨
١ ـ التعفف	٩٥
٢ ـ الفروسية	٩٩
٣ ـ الفخر الذاتي	١٠٦
٤ ـ الترفع عن المدح والاعتذار والإقذاع في الهجاء	١٠٨
ـ الاتجاه الثاني : الاتجاه نحو العبث والمجون عند سحيم	١٠٩ ـ ١٢٠
ـ الاتجاه الثالث : الاتجاه نحو التمرد والصعلكة عند السليك والشنفري	١٢١ ـ ١٣٨

١ ـ السليك بن السلكة ١٢١

٢ ـ الشنفرى ١٢٧

الفصل الثالث : موضوعات شعر العبيد ١٣٩ ـ ١٩٩

أولا : الموضوعات في دائرة الرق ١٤١ ـ ١٦١

١ ـ العبودية ١٤١

٢ ـ الفقر ١٤٥

٣ ـ الدمامة واللون ١٥٢

٤ ـ العزلة والموت ١٥٥

ثانيا : الموضوعات العامة ١٦٢ ـ ١٦٩

١ ـ الطبيعة ١٦٢

٢ ـ الغزل ١٦٩

٣ ـ الحماسة ١٧٦

٤ ـ الحكمة ١٨٧

٥ ـ الرثاء وموضوعات أخرى ١٩١

الفصل الرابع : ظواهر أدبية ٢٠١ ـ ٢٣٥

١ ـ بين القصائد والمقطوعات ٢٠٣

٢ ـ وضوح الشخصية ٢١١

٣ ـ الجنوح نحو الواقع ٢١٧

٤ ـ أثر الإسلام والثقافات الأجنبية في شعر العبيد ٢٢٤

الفصل الخامس : خصائص أسلوبية ٢٣٧ ـ ٢٧٩

١ ـ أسلوب القص الشعري ٢٣٩

٢ ـ التصوير والخيال ٢٤٦

٣ ـ اللغة ٢٦٠

٤ ـ الأوزان ٢٧٢

الخاتمة ٢٨١

مصادر ومراجع ٢٩٧